رواية

باتريسيا هايْسميث

غريبان في القطار



ترجمة: أسامة منزلجي

عندما قدَّمت الروائية باتريسيا هايسميث مسودة أول فصل من روايتها «غريبان في القطار» عام 1950 إلى الناشر، وافق على نشرها دون أن يستكمل القراءة. وعندما قرأ المخرج هيتشكوك الرواية سرعان ما حوّلها إلى فيلم، تم اقتباس موضوعه أكثر من مرة في السينما... هذه هي الرواية التي غيَّرت من مفاهيم الرواية البوليسية في القرن العشرين، إنها ليست رواية مطاردة، لكنها تعتمد على حبكة غامضة، ترقى إلى النص الأدبي الجميل، فالبطل جي دانيل يمكن أن يكون أي شخص منا يُفاجأ في مكان ما بشخص غريب يطلب منه أن يرتكب جريمة قتل.



كانت هايسميث مأخوذة بالدوافع المتشابكة للحب والكراهية، وقد كتبت في يومياتها ذات يوم من كانون الثاني 1948: القتل هو نوع من ممارسة الحب، نوع من التملك. وقد احتفلت باللاعقلانية والفوضى العاطفية، واعتبرت المجرم النموذج المثالي للبطل الوجودي للقرن العشرين.

باتريسيا هايسميث وُلدت عام 1921 - وتُوفيت في الرابع من شباط عام 1995، هي روائية أمريكية وكاتبة قصص قصيرة. اشتهرت في مجال الكتابة من خلال تخصصها في الرعب والإثارة النفسية. كتبت 22 رواية والعديد من القصص القصيرة طوال حياتها المهنية، كما عملت على كتابة سيناريو أكثر من عشرين فيلماً. أُطلق عليها لقب شاعرة القلق من قِبَل الروائي غراهام غرين.


9 789933 635329

باتريسيا هايْسميث

غريبان في القطار

ترجمة: أسامة منزلجي





روايــــة

Author: **Patricia Highsmith** | اسم المؤلف: باتريسيا هايسميث

Title: **Strangers on a Train** | عنوان الكتاب: غريبان في القطار

Translated by: **Osama Menzlchi** | ترجمة: أسامة منزلجي

P.C.: **Al–Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2023** | الطبعة الأولى: 2023



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 ☎ + 964 (0) 780 808 0800 ☎ + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

☎ + 961 175 2617 ☎ + 961 706 15017 ☎ + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

☎ + 963 11 232 2276 ☎ + 963 11 232 2275 ☎ + 963 11 232 2289

ص.ب: 8272

باتريسيا هايْسميث

وُلِدَتْ باتريسيا هايْسكيث في فورث وورث، ولاية تكساس، في عام 1921، وأمضَتْ معظم حياتها كبالغة في سويسرا وفي فرنسا. تلقّتْ تعليمها في مدرسة برنارد كوليدج، حيث درستْ اللغة الإنكليزيّة، واللاتينيّة، واليونانيّة. روايتها الأولى «*غريبان في القطار*»، التي نُشِرَتْ أول مرة في عام 1950، حقَّقتْ نجاحاً تجاريّاً كبيراً وتحولتْ إلى فيلم سينمائيّ أخرجه ألفريد هيتشكوك. وعلى الرغم من تلك الشهرة المُبكّرة، لم يتم الاعتراف بموهبتها في الولايات المتحدة طوال فترة حياتها المهنيّة.

بعد ذلك نشرتْ تحت اسم مُستعار هو كلير مورغان كتاب «*ثمن الملح*» في عام 1953، رفَضَ ناشرها الأميركيّ السابق أنْ ينشره بسبب خوضها الصريح في مواضيع تتعلّق بالمثليّة الجنسيّة. أشهر شخصيّة أدبيّة ابتكرتها كانت توم ريبلي، المُضطرب عقلياً الأنيق الذي ظهر للمرة الأولى في أدبها في عام 1955 في رواية «*الموهوب السيد ريبلي*». أتبعتها بأربع روايات أخرى عن ريبلي. تحوّلتْ هذه الرواية بعد وفاة المؤلِّفة إلى أفلام سينمائيّة كبرى. وقد ساعدت رواية «*الموهوب السيد ريبلي*» على إعادة تقدير موهبة أعمال هايْسميث في الولايات المتّحدة.

نالت هايْسميث التي ألّفَتْ أكثر من عشرين رواية جائزة أو. هنري التذكاريّة، وجائزة إدغار ألن بو، وجائزة لو غران بري دو ليتراتور بوليسييه، وجائزة رابطة كُتّاب روايات الجريمة في بريطانيا العُظمى. توفيتْ في الرابع من شهر شباط في سويسرا، عام 1995، وأرشيفها الأدبيّ محفوظ في مدينة بازل.

ممّا قيل في مدح
باتريسيا هايْسميث

«إنَّ روايات باتريسيا هايْسميث تُثير الاضطراب بصورة لا نظير لها... إنها كوابيس فظيعة تجعلنا نتقلَّب في فراشنا طوال الليل».

- صحيفة النيويوركر.

«إنها منطقة مُبهمة لكل ما هو مُروِّع، ومُثير للاضطراب، وليس بالضبط شيئاً عَرَضيّاً... إنَّ هايْسميث تسجّل تأثيراً مُبهَماً من دون اللجوء إلى آليّة غيبيّة».

- نيويورك تايمز، قسم مراجعة الكتب.

«على الرغم من إنكار هايسميث أيّة صِلة قرابة لها بجوناثان سويفت أو إيفلين وو، فإنَّ أفضل [أعمالها] ينتمي إلى التراث نفسه... إنَّ فكاهتها السوداويّة والمتوحشة أحياناً، والذكاء، هي التي تنمّ عن نثرها الدقيق والمُحدَّد ويُذكّر المرء بتينك المؤلّفين».

- نيوزداي.

«إنَّ القتل، بين يديّ باتريسيا هايْسميث، يبدو عَرَضيّاً كضرب رفراف سيارة أو فترة من تسميم طعام. وهذا الانتقاص من الناحيّة الدراميّة... تلقّى الكثير من المديح،

على غرار عاديّةِ التفاصيل التي ترسم بها الحياة اليوميّة والتطوّر العقليّ لشخصياتها المُضطربة عقليّاً. إنها تُساهم من دون أدنى شكّ في عرض الجريمة في أدبها، وبالتالي تورّط القارئ أكثر في الوهم الشحيح التي تعمل عليه».

– روبرت تاورز، *نيويورك ريفيو بوكس*.

«في مجال إبراز التهديد الكامن في الأماكن المألوفة، لا أحد يبزّ باتريسيا هايْسميث».

– *تايم*.

«إنّ الشعور بالتهديد الكامن خلف معظم روايات هايْسميث، والإحساس بأنَّ الأفكار والمواقف الغريبة على النظام اليومي العاقل للمجتمع يتمّ التلميح إليه، سبّبا الاضطراب للعديد من القرّاء. وأشدّ ما ينتاب المرء من كتبها الشعور بأنَّ العالم أشدّ خطراً مما تخيّل في حياته».

– جوليان، *نيويورك تايمز بوك ريفيو*.

«رواية ساحرة... لا يوصى بها لأصحاب العقول الضعيفة والحسّاسة».

– *واشنطن بوست بوك وورلد*.

«إنها كاتبة أبدعَتْ عالَماً خاصّاً بها – عالماً يبثّ رِهاب الأماكن المُغلقة وغير العقلانيّ نلجه في كل مرّة مع إحساس بالخطر الشخصيّ... إنَّ باتريسيا هايْسميث هي شاعرة بثّ الخوف».

– غراهام غرين.

الأول

انطلقَ القطار بإيقاعٍ غاضب، غير مُنتَظَم. كان عليه أنْ يتوقف في محطات أصغر حجماً ومتعدِّدة، حيث ينتظر برهة بنزق، ومن دون توقف يستأنف اقتحام الفيافي من جديد. لكنَّ التقدُّم كان ضئيلاً. كانت الفيافي متماوجة، كملاءة شاسعة، ورديّة اللون، تهتزّ بلا انتظام. وكلما ازدادتْ سرعة القطار ازداد التماوج.

أبعد غاي عينيه عن النافذة وعاد يستند بظهره على المقعد.

قال في نفسه: في أحسن الأحوال سوف ترجئ ميريام الطلاق. بل قد لا ترغب في الطلاق البتّة، بل سترغب في المال فقط. هل سيقع الطلاق أصلاً؟.

أدرك أنَّ الكراهية بدأت تشلّ تفكيره، وتشقّ دروباً مسدودة متفرّعة عن الطرقات التي دلّه عليها المنطق في نيويورك. بدأ يشعر بحضور ميريام أمامه، أصبحتْ قريبة الآن، ورديّة اللون ويكسوها النمش، وتشعّ بما يُشبه الحرارة غير الصحيّة، كالفيافي الممتدّة في الخارج. كئيبة وقاسية.

مدَّ يده بحركة آليّة ليتناول سيجارة، وتذكَّرَ للمرة العاشرة أنّ التدخين ممنوع في عربة البولمان، ومع ذلك تناول سيجارة. ضربها مرّتين على وجه ساعة يده، وتفقّد الوقت، إنها الخامسة واثنتا عشرة دقيقة، وكأنَّ لا أهميّة لكل هذا بالنسبة إليه، وثبَّتَ السيجارة على زاوية فمه قبل أنْ يرفع عود الثقاب الذي يحميه بتجويف يده. وحلَّتْ السيجارة مكان عود الثقاب داخل تجويف يده، وبدأ يُدخّن ببطء، وبانتظام. وأخذت عيناه البنّيتان تنظران من النافذة إلى أسفل نحو الأرض العنيدة، المذهلة. وبدأ طرف ياقة قميصه الناعم يرتفع. وفي انعكاس صورة الغسق الذي بدأ يظهر على زجاج النافذة، أوحتْ ذروة الياقة البيضاء التي تطوّق فكّيه بطراز القرن

السابق، على غرار شَعره الأسود الذي نما غزيراً ومسترسلاً على قمة رأسه ومضموماً في الخلف. وقد أضفى عليه ارتفاع شَعره وانحدار أنفه الطويل مظهر العزم والحزم والتقدُّم إلى الأمام، أما من المقّدمة، فأوحى حاجباه الكثّان، المُستقيمان، وفمه، بالسكون وبالتحفُّظ. كان يرتدي بنطلوناً من الفانيلا يحتاج إلى الكيّ وسترة داكنة اللون مترهلة على جسمه الضئيل وفي البقعة التي تعرّضَتْ منها للضوء ظهر لونٌ قرمزيّ باهت، وربطةُ عنق حمراء قانية من الصوف، رُبِطَتْ بإهمال.

اعتقدَ أنَّ ميريام لنْ تحبل إلّا إذا أرادتْ. سوف يعني ذلك أنَّ عشيقها ينوي أنْ يتزوجها. ولكن لماذا طلبَتْ حضوره؟ إنها ليست بحاجةٍ إليه لتحصل على الطلاق. ولماذا كان عليه أنْ يتعرَّض من جديد للشيء المُملّ الذي تعرَّض له قبل أربعة أيام عندما استلم رسالتها؟ لم تقُل ميريام في الأسطر الخمسة أو الستة بخط يدها ذي الأحرف المُستديرة أكثر من أنها حبلى وأنها تريد أنْ تقابله. قال في نفسه، كونها حبلى سوف يضمن الطلاق، فما سبب توتّره؟ إنَّ ما عذّبه فوق ذلك كلّه هو شكّه في أعماق نفسه السحيقة، في أنْ يكون غيوراً لأنها ستحمل طفلَ رجلٍ آخر وأنها كانت ذات مرّة قد أجهضَت نفسها من طفله هو. قال في نفسه، كلا، إنَّ ما يؤرّقه ليس إلّا إحساس بالخزيّ، الخزي من أنّه أحبَّ ذات يوم امرأة كميريام. وسحق سيجارته على غطاء جهاز التدفئة، فتدحرج عقب السيجارة عند قدمه ورفسه وأعاده إلى تحت جهاز التدفئة.

أصبح هناك الآن الكثير مما يصبو إليه. طلاقه، العمل في فلوريدا –بات من المؤكّد عمليّاً أنَّ الهيئة الإدارية سوف تستعرِض رسوماته، وسوف يعرف النتيجة في هذا الأسبوع– وهناك آنْ. في استطاعته هو وآن الآن أنْ يُخطّطا. إنّه ينتظر منذ أكثر من عام، قلقاً، حدوث شيءٍ –هذا الشيء بالذات– لكي يتحرَّر. وشعر في داخله بفورةٍ من السعادة تتفجّر، واسترخى في زاوية المقعد المُترَف. في الحقيقة، كان على مدى السنوات الثلاث الأخيرة ينتظر هذا الحدث. طبعاً كان في استطاعته أنْ يحصل على الطلاق بالمال، ولكن لم يكن في حوزته كل ذلك المبلغ من المال الفائض. لم يكن من السهل أنْ يبدأ مسيرته المهنيّة كمُهندس معماريّ، من دون أنْ يستفيد من العمل

في شركة، وما زال ليس سهلاً. ميريام لم تطلب منه أيَّ دخلٍ ثابت، لكنّها أزعجته بِطرُقٍ أخرى، بالتحدّثِ معه في ميتكالف كأنهما كانا لا يزالان على علاقة ممتازة، وكأنه ذهب إلى نيويورك فقط لكي يرسِّخ نفسه ومن ثم يستدعيها للحضور إليه في نهاية المطاف. وبين حين وآخر كانت تكتب له تطلب مالاً، مبالغ صغيرة لكنّها تُثير الغضب كان يُرسلها إليها لأنه كان سهلاً جداً عليها، وطبيعياً أيضاً، أنْ تشنّ حملة ضدّه في ميتكالف، وكانت والدته موجودة هناك.

وصل شابٌ أشقر طويل القامة يرتدي بزّة بنيّة بلون الصدأ وجلسَ مرتخياً على المقعد الخالي المواجه لغاي، مُبتسِماً بودٍّ مُبهَم، وانزلقَ نحو الركن. ألقى غاي نظرة سريعة إلى وجهه الشاحب، الصغير. كانت هناك بثرة ضخمة في مركز جبينه. وعاد غاي إلى النظر عبر النافذة.

بدا الشاب الجالس أمامه كأنه يتساءل هل يفتح معه حديثاً أم يأخذ غفوة؟. ظلَّ مِرفقه ينزلق على طول عتبة النافذة، وكلما تباعدت رموشه الكثّة تنظر عيناه الرماديتان الحمراوان إليه وتعود الابتسامة الناعمة. قد يكون ثملاً قليلاً.

فتحَ غاي كتاباً ولكن بعد أنْ قرأ نصف صفحة شرد. نظر عالياً عندما ومضَ صفٌّ من أضواء فلوريّة على طول سقف العربة، وترك عينيه تنتقلان إلى السيجار غير المُشتعل الذي كانت لا تزال يدٌ بارزة العِظام تلتف حوله كأنّها تُجري حديثاً معه من خلف ظهر أحد المقاعد، وإلى الكتابة المُزخرفة التي كانت ترتعش على سلسلة رفيعة من الذهب تُحيط بربطة عنق الشاب الجالس أمامه. كانت الكتابة هي الأحرف CAB، وربطة العنق كانت من الحرير الأخضر، رُسِمَتْ عليها باليد أشجارُ نخيلٍ برتقاليّة اللون بصورة مُهينة. عندئذٍ كان الجسم الطويل ذو لون الصدأ البُنّيّ مُتمدِّداً بارتخاء، والرأس مُستنداً إلى الخلف بحيث أصبحت البثرة أو الحبّة التي تتبوّأ جبينه تشكّل النقطة الأبرز. كان وجهاً مُثيراً للاهتمام، مع أنَّ غاي لم يفهم السبب. فهو لا يبدو شاباً ولا عجوزاً، لا ذكيّاً ولا غبيّاً تماماً. بين الجبين الضيِّق البارز والفكّين الهزيلَين، كان الوجه غائراً بصورة مَرَضيّة، عميقاً عند موقع الفم المرسوم بخط رفيع، وأشدّ عمقاً عند الأغوار الزرقاء التي تضمّ غطاءَيّ

الجفنين الصغيرين. كانت البشرة رقيقة كبشرة فتاة، وصافية ولامعة، وكأنَّ قذارتها كلها احتشدتْ لكي تُغذّي انبجاس البثرة.

عاد غاي إلى القراءة بضع لحظات. كانت الكلمات بالنسبة إليه تحمل مغزى وبدأتْ تزيل قلقه. لكنَّ صوتاً داخله تساءل، ولكن كيف سيفيدك أفلاطون فيما يخص قضيّة ميريام. كان قد طرح السؤال نفسه عليه في نيويورك، لكنّه أحضر الكتاب معه على أي حال، نصاً قديماً من مُقرَّر مدرسيّ في الفلسفة للمرحلة الثانوية، لكي ينغمس في قراءته ويعوّضه، ربما، عن اضطراره إلى القيام برحلة سفر إلى ميريام.

نظر عبر النافذة، وعندما رأى انعكاس صورته عدَّل من شأنْ ياقته. كانت آنْ دائماً تقوم بهذا بالنيابة عنه. فجأة شعر بالعجز من دونها. نقل موضعه، عندما لمس مُصادفة الساق الممدودة للشاب النائم، وراقبَ منبهراً الرموش ترتعش وتنفتح. ربما كانت العينان الحمراوان مُثبتتين عليه طوال الوقت من خلال جفنيه.

غمغم غاي: «آسف».

قال الآخر: «لا بأس». اعتدلَ في جلسته وهزَّ رأسه بحِدّة. «أين نحن؟».

«نقترب من تكساس».

أخرج الشاب الأشقر قارورة من الذهب من جيبه الداخليّ، وفتحها، وقدَّمها له بحركة وديّة.

قال غاي: «كلا. شكراً». لاحظَ غاي أنَّ السيدة الجالسة على الصف المقابل من المقاعد، والتي لم ترفع عينيها عن نسج الصوف منذ أنْ بلغوا سان لويس ألقتْ نظرة حالما رفع القارورة وأصدرتْ صوتاً معدنيّاً.

«إلى أين أنت ذاهب؟». كانت الابتسامة الآن قد أضحتْ هلاليّة الشكل رفيعة ورطبة.

قال غاي: «إلى ميتكالف».

«أوه، ميتكالف بلدة جميلة. من أجل العمل؟». طَرَفَ بعينيه اللتين يبدو عليهما التقرّح بأدب.

«نعم».

«أي نوع من العمل؟».

رفع غاي عينيه عن الكتاب كُرهاً. «الهندسة المعماريّة».

قال باهتمام كئيب: «أوه، تبني منازل وما شابه؟».

«نعم».

نهضَ نصف نهوض وقال: «لا أعتقد أنني عرَّفتُ عن نفسي. أنا برونو. تشارلز أنتوني برونو».

صافحه غاي باقتضاب: «وأنا غاي هينز».

«يُسعدني لقاؤك وتُقيم في نيويورك؟». بدا الصوت الجهير الأجشّ زائفاً، وكأنّه يتكلَّم لكي يوقِظ نفسه.

«نعم».

«أنا أُقيم في لونغ أيلند، وذاهب إلى سانتا فِه لقضاء فترة إجازة قصيرة. هل سبقَ لك أنْ زرتَ سانتا فِه؟».

هزَّ غاي رأسه نفياً.

«إنها بلدة رائعة تصلح للاسترخاء فيها». ابتسم، كاشفاً عن أسنان نخرة. «أعتقد أنكَ هناك لا ترى إلّا هندسة معماريّة على الطراز الهنديّ».

توقف قاطع التذاكر في الممر الفاصل بين المقاعد وأخذ يُحصي البطاقات. سأل برونو: «أهذا مقعدك؟».

اتّكأ برونو بوضعيّة تملّكيّة على ركنه. «غرفة الجلوس في العربة التالية».

«رقم ثلاثة؟».

«أعتقد ذلك. نعم».

تابع قاطع التذاكر طريقه.

غمغم برونو: «كم هم مُزعجون!». مال إلى الأمام وأخذ يُحدِّق من النافذة باستمتاع.

عاد غاي إلى كتابه، لكنَّ الملل المُتطفّل للشخص الآخر منعه من التركيز، مع إحساسٍ بأنّه سوف يقول شيئاً في اللحظة التالية. فكَّر غاي في الانتقال إلى المطعم، ولكنْ لسببٍ ما ظلَّ جالساً. ومن جديد أبطأ القطار تقدّمه. وعندما بدا أنَّ برونو يوشك أنْ يتكلَّم، نهضَ غاي واقفاً، وانتقلَ إلى

العربة التالية، وأخذ يهبط الدرج قفزاً إلى الأرض التي تُصدر جلبة طحن قبل أنْ يتوقف القطار تماماً.

ضربه الهواء الصحيّ المُشبَّع بهبوط الليل أكثر من ذي قبل، كوسادة خانقة. ثمة رائحة حصى مُغبرّ، دافئ بفعل أشعة الشمس، وزيت ومعدن ساخن. كان جائعاً وتوانى مع اقترابه من المطعم، مُبطئاً خطواته الواسعة ويداه في جيبه، مُستنشقاً الهواء بعمق، على الرغم من كراهيته له. همهمتْ كوكبةٌ من ألوان الأحمر والأخضر والأبيض في الجهة الجنوبيّة من السماء. قال في نفسه، كان يمكن لآنْ، بالأمس، أنْ تكون قد جاءتْ من هذا الدرب وهي في طريقها إلى المكسيك. كان يمكن أنْ يكون برفقتها. لقد أرادتْ منه أنْ يصحبها حتى ميتكالف. وكان يمكن أنْ يطلب منها أنْ تمكث يوماً وتقابل أمّه، لولا موعده مع ميريام. أو حتى بغضّ النظر عن ميريام، لو أنّه كان شخصاً آخر، لو أنّه كان ببساطة غير مهتمّ. لقد أخبر آنْ عن ميريام، عن كل شيء تقريباً، لكنّه لم يتحمّل فكرة لقائهما. أراد أنْ يسافر وحده على متن القطار لكي يفكّر. وبمَ فكَّر حتى الآن؟ ما فائدة التفكير أو المنطق فيما يتعلّق بميريام؟

هتف قاطع التذاكر مُحذّراً، لكنَّ غاي ظل يتمشّى حتى آخر لحظة ثم قفز إلى متن القطار إلى العربة التي تقع خلف المطعم.

كان النادل قد تلقّى منه الطلب عندما ظهر الشاب الأشقر عند باب العربة يتهادى، يبدو مُشاكساً قليلاً وسيجارة قصيرة في فمه. كان غاي قد نسي أمره تماماً وها هي الآن قامته الطويلة بلون الصدأ البنيّ تظهر كذكرى بغيضة مُبهمة. شاهدَه غاي يبتسم حالما لمحه.

قال برونو بمرح وهو يجرّ نحوه أحد الكراسي: «ظننتُ أنَّ القطار قد فاتك».

«بعد إذنك، سيد برونو، أريد أنْ أختلي بنفسي قليلاً. لديّ بعض الأمور أريد أنْ أُقلِّب التفكير فيها».

سحقَ برونو طرف السيجارة التي كانت مشتعلة بين أصابعه وألقى عليه نظرة خالية من التعبير. كان ثملاً أكثر من ذي قبل. وبدا وجهه مُلطّخاً ومُشوّشاً عند حوافه. «يمكننا أنْ نحظى ببعض الخصوصيّة في منزلي. يمكننا أنْ نتناول العشاء هناك. ما رأيك؟».

«شكراً لك أفضّل أنْ أبقى هنا».

«أوه، لكنني أُصرّ. أيها النادل!» وصفّقَ بيديه. «هلّا أرسلتَ طلب السيد إلى غرفة الجلوس رقم ثلاثة وأحضرتَ لي شريحة من اللحم معتدلة الحجم قليلة النضج مع مقليات فرنسية وفطيرة تفاح؟ وكأسين من الويسكي والصودا بأسرع ما يمكن» ونظر إلى غاي وابتسم، تلك الابتسامة الرقيقة والحزينة. «ما رأيك؟».

فكَّر غاي قليلاً، ثم نهضَ ورافقه. ماذا يهمّ على أي حال؟ ثم ألم يكن يشعر بالمللِ الشديد من نفسه؟.

لم يكن هناك من حاجة للويسكي إلّا من أجل جلب كأسين وثلج. كانت زجاجات الويسكي الأربع التي تصطفّ في خطٍ واحد على حقيبة اليد المصنوعة من جلد التمساح هي الشيء الأنيق الوحيد في الغرفة الصغيرة. كانت حقائب يد وصناديق للملابس تسدّ الطريق في كل مكان ما عدا بقعة صغيرة أشبه بالمتاهة في وسط الأرضيّة، وفوقها تناثرت ملابس ومُعدّات رياضيّة، مضارب تنس، وحقيبة لمضارب الغولف، وآلتا تصوير، وسلة مجدولة ممتلئة بالفاكهة والنبيذ على سرير من الورق الأرجوانيّ، وغطّتْ المقعد المجاور للنافذة مجموعة من المجلات الحديثة، والمجلات الهزليّة والروايات، وكان هناك صندوق من السكاكر يُحيطُ بغطائه شريط أحمر.

فجأة قال برونو بلهجة اعتذار: «أعتقد أنَّ الجوّ يبدو رياضيّاً».

ابتسم غاي ببطء. «لا بأس». سرّه جو الغرفة ومنحه إحساساً مَقبولاً بالعزلة. عندما ابتسمَ استرخى جبينه المتجهِّم، مُغيِّراً تعبير وجهه بالكامل. أصبحتْ عيناه الآن تنظران إلى الخارج. وأخذ يخطو برشاقة بين ممرات الحقائب متفحّصاً الأشياء بفضول قطّة.

«جديد تماماً. لم يلمس أي كرة» أخبره برونو بهذا وهو يمد يده له بمضرب التنس لكي يلمسه. «إنَّ أمي تُجبرني على أخذ كل هذه الأشياء معي، على أمل أنْ يُبعدني ذلك عن الحانات. على أي حال، يمكن رهنها إذا اضطرتني الحاجة. أنا أحبّ أنْ أشرب في أثناء السفر. إنّه يُعزِّز الأشياء، ألا

تظن؟». وصلت المشروبات، وجعلها برونو أقوى مفعولاً بإضافة شيء من إحدى زجاجاته. «اجلس اخلع معطفك».

لم يجلس أي منهما أو يخلع معطفه. مرّت بضع دقائق من الارتباك لم يكن لدى أي منهما شيء يقوله للآخر. تناول غاي رشفة من المشروب الذي بدا أنّه ويسكي صرف، وألقى نظرة على الأرضيّة التي تنتثر عليها الأشياء. لاحظَ غاي أنَّ لبرونو قدمين غريبتي الشكل، أو لعل السبب هو حذاؤه. حذاء من الجلد المدبوغ صغير وخفيف مع كساء طويل وبسيط لأصابع القدمين يشبه شكل فكّ برونو البارز. وبصورة ما كانت القدم تبدو قديمة الطراز. لم يكن برونو نحيلاً جداً كما اعتقد. وكانت ساقاه الطويلتان ثقيلتين وجسمه مُدوّراً.

قال برونو بحذر: «آمل ألّا تكون قد انزعجت عندما دخلتُ المطعم».

«أوه، كلا».

«شعرتُ بالوحشة كما تعلم».

قال غاي شيئاً عن شعور المرء بالوحشة في أثناء السفر عندما يجلس وحده في غرفة الجلوس، ثم كاد يتعثّر بشيءٍ ما: بشريط آلة تصوير روليفليكس. كان هناك خدش طويل وجديد على جانب حقيبة الجلد. وأدرك أنَّ برونو يُحدق إليه بخجل. سوف يشعر بالملل، طبعاً لماذا جاء؟ دَفعَه وخزُ الضمير إلى الرغبة في العودة إلى المطعم. ثم وصل النادل مع صينيّة عليها الكؤوس ورفع الطاولة. أنعشته رائحة اللحم المشوي على الفحم. وأصرَّ برونو بإلحاح على دفع قيمة الفاتورة ورضخ غاي. تناول برونو قطعة لحم كبيرة مُغطّاة بقطع الفِطر، وتناول غاي شطيرة هامبرغر.

«ما الذي تبنيه في ميتكالف؟».

قال غاي: «لا شيء أمي تُقيم هناك».

قال برونو باهتمام: «أوه، أتقوم بزيارتها؟ أأنتَ من هناك؟».

«نعم وُلِدتُ هناك».

«لا يبدو عليك أنكَ من أهالي تكساس»، ونثر صلصة البندورة على قطعة

اللحم كلها وعلى المقليات الفرنسيّة، ثم انتقى البقدونس بدقّة وظل يحملها بالملعقة. «منذ متى وأنت غائب عن الوطن؟».

«منذ حوالي عامين».

«والدك هناك، أيضاً؟».

«والدي متوفى».

«أوه، وصِلتك بأمك جيدة؟».

قال غاي إنها جيدة وعلى الرغم من أنَّ غاي لم يهتم بمذاق الويسكي، إلّا أنّه كان جيداً لأنّه ذكّره بآنْ. كانت تشرب الويسكي، عندما تشرب أيّ شيء. كان يُشبهها، كان ذهبيّاً، يتلألأ بالنور، صُنِعَ بعناية فائقة، «أين تُقيم في لونغ أيلند؟».

«في غريت نيكز».

كانت آنْ تُقيم في موقع بعيد جداً في لونغ أيلند.

تابع برونو قائلاً: «أُقيمُ في منزلٍ سمّيته منزل خشب القرانيا. أشجار القرانيا هناك مُنتشرة حوله وكل مَنْ يُقيم فيه يُصبح بصورة ما جزءاً من المنزل، حتى سائق السيارة». فجأة ضحك بسرور حقيقيّ، ثم انكبَّ على طعامه.

عندما نظر غاي إليه حينئذٍ لم يرَ منه أكثر من قمّة رأسه ذات الشعر الخفيف والبثرة البارزة. لم يكن قد وعى وجود البثرة منذ أنْ رآه نائماً، أما الآن وقد لاحظَ وجودها من جديد، بدتْ شيئاً شديد الضخامة، صادماً وشاهدها وحدها. سأله غاي «لماذا؟».

«بسبب والدي ابن الحرام إنَّ صِلتي بأمي أيضاً جيدة. سوف تأتي أمي إلى سانتا فِه بعد يومين».

«شيء جميل».

قال برونو كأنّه يُخالفه الرأي: «هو كذلك إننا نقضي وقتاً ممتعاً ونحن معاً – نجلس، أو نلعب الغولف، بل إننا نرتاد الحفلات معاً». ضحك، بشبه حياء، وشبه افتخار، وفجأة أصبح شاباً صغيراً، ومُتردِّداً. «أتظن أنَّ هذا مُضحك؟».

قال غاي: «كلا».

«إنني فقط أتمنى لو كان لديّ مالي الخاصّ. في الحقيقة، كان من المفترَض أنْ أتلقّى دخلي بدءاً من هذا العام، لكنَّ والدي منعه عني، وحوّله إلى خزينته الخاصّة. قد لا تصدّقني إذا قلت إنه ليس في حوزتي من النقود أكثر مما كان لديّ وأنا في المدرسة حين كان يُدفَع ثمن كل شيء. أما الآن فأضطرّ إلى طلب مائة دولار بين حينٍ وآخر من أمي» وابتسمَ بشجاعة.

«ليتك تركتني أُسدِّد قيمة الفاتورة».

اعترضَ برونو قائلاً: «أوه – كلا. كنتُ أقصد أنّه شيء فظيع أنْ يسرقك والدك، أليس كذلك. وهو ليس ماله، بل مال عائلة أمي»، وانتظر تعليق غاي.

«ألم يكن لأمك رأي في هذا؟».

هتفَ برونو بخشونة: «عندما كنتُ طفلاً كان والدي يدوّن اسمه عليه!».

تساءل غاي كم من الأشخاص قابل برونو، ودفع ثمن عشائهم، وأخبرهم القصّة نفسها عن والده. «أوه، ولماذا فعل ذلك؟».

رفعَ برونو يديه وهزَّ كتفيه عجزاً، ثم قام بإخفائهما سريعاً في جيبه. «لقد قلتُ إنّه ابن حرام، ألم أقُلْ؟ إنّه يسرق كل مَنْ يستطيع سرقته». والآن يقول: إنّه لن يُعطيني المال لأنني لا أعمل، لكنَّ هذا كذب. ويرى أننا أنا وأمي نقضي الكثير من الوقت الممتع. وهو دائماً يُخطط لإفساده.

تخيّله غاي مع أمّه، سيدة مجتمع لونغ أيلند الشابة التي تُغالي في تظليل عينيها وأحياناً تستمتع، على غرار ابنها، بمصاحبة أشخاص مُشاكسين. «وفي أي جامعة درستَ؟».

«جامعة هارفرد. وطُرِدتُ منها في العام الدراسي الثاني. بسبب شرب الخمر والمُقامرة»، وهزَّ كتفيه الضيّقَين استخفافاً. «أنا لستُ مثلك، أليس كذلك؟ حسن، أنا متسكّع، ماذا يهمّ؟»، وصبَّ المزيد من الويسكي لكليهما.

«مَنْ قال إنكَ كذلك؟».

«والدي قال هذا. كان ينبغي أنْ يحظى بابنٍ هادئ ومهذّب مثلك، حينئذٍ كان سيصبح الجميع سعداء».

«ما الذي يجعلك تعتقد أنني هادئ ومُهذّب؟».

«أعني أنكَ جادّ واخترتَ مهنة لك. كالهندسة المعماريّة. أما أنا، فلا أشعر برغبة في العمل. في الواقع أنا لستُ بحاجة إلى العمل. أنا لستُ كاتباً أو رسّاماً أو مؤلّف موسيقى. هل هناك أي سبب يدفع المرء إلى العمل إذا لم يكن مُضطراً إلى ذلك؟ سوف أُصاب بالقرحة بسهولة. والدي مُصاب بالقرحة. هاه! وما زال يأمل في أنْ أنخرط معه في مجال الخردة. فقلتُ له إنَّ مجال عمله، وكل مجال عمل هو بمثابة قتلٍ مشروع، كما أنَّ الزواج هو زنا مشروع. هل أنا مُصيب؟».

نظر غاي إليه باستياء ورشّ بعض الملح على البطاطا المقليّة الفرنسيّة التي كان يحملها بالشوكة. كان يأكل ببطء، مُستمتعاً بوجبته، ومُستمتعاً بحضور برونو بصورة مُبهمة، كما يستمتع بعَرضٍ مُسلٍّ على خشبة مسرح بعيدة. في الحقيقة، كان يفكّر في آنْ. أحياناً كان الحلم الباهت المتواصل الذي يراوده عنها يبدو حقيقيّاً أكثر من العالم الخارجيّ الذي لم يكن يتدخل إلّا على شكل شذرات حادّة، وصور متقطّعة، كالخدوش التي على علبة آلة التصوير، والسيجارة الطويلة التي كان برونو قد غمسها في قطعة الزبد، والزجاج المُهشَّم للصورة الفوتوغرافيّة لوالده التي كان برونو قد رماها إلى الردهة في القصّة التي كان يرويها حينئذٍ. وتبيَّنَ لغاي تواً أنّه ربما حان الوقت لكي يُقابل آنْ في المكسيك، في الفترة ما بين لقائه بميريام وذهابه إلى فلوريدا. وإذا حلَّ الأمر مع ميريام بسرعة، في استطاعته أنْ يطير إلى المكسيك ويطير إلى بالم بيتش. لم يكن قد خطر له هذا من قبل لأنه لم يستطع أنْ يتحمّل تكاليفه. ولكن إذا تمّ توقيع عقد بالم بيتش، فسوف يستطيع ذلك.

«أتتخيَّل شيئاً مُهيناً أكثر من هذا؟ إقفال المرآب الذي يضمّ سيارتي الخاصّة؟». كان صوت برونو قد أصبح أجش قد علِقَ عند نبرة الصراخ.

سألَ غاي «لِماذا؟».

«فقط لأنه علِمَ أنني بحاجة ماسّة إليها في تلك الليلة! وأخيراً أقلّني بعض الأصدقاء، فما الذي جناه من ذلك؟».

لم يدرِ غاي ماذا يقول. «أهو يحتفظ بالمفاتيح؟».

«لقد أخذ مفاتيحي *الخاصّة*! أخذها من غرفتي! لهذا كان خائفاً مني. في تلك الليلة غادر المنزل، كان شديد الخوف».

اضطربَ حال برونو وهو جالس على الكرسي، أصبح يتنفّس بصعوبة، ويقضم أظافر أصابعه. انتصبتْ كتلة من الشعر كالهوائيّ فوق جبينه، وقد أضحى لونها بُنيّاً بفعل العَرَق.

اضطرَّ غاي إلى قول «طبعاً». وافترَضَ أنَّ حديثهما برمّته كان يقود إلى هذه القصّة التي لم يسمع إلّا نصفها. كان هناك خلف العينين الحمراوين اللتين فُتِحَتا لتنظرا إليه في عربة البولمان، خلف الابتسامة الحزينة، قصّةٌ أخرى عن الكراهيّة والظلم. سأله غاي سؤالاً لا معنى له «إذن رميتَ صورته إلى الردهة؟».

قال برونو، مُشدّداً على الكلمات الثلاث الأخيرة: «ألقيتها من غرفة أمي، وكان والدي قد وضعها في غرفة أمي. إنها مثلي لا تحب الكابتن. الكابتن! – ولا أنعته بأي كلمة أخرى، يا أخي!».

«ولكن ما الذي يكنّه ضد؟».

«ضدي وضد أمي، أيضاً! إنّه يختلف عنا وعن أي كائن بشريّ». إنّه لا يحبّ أحداً. لا يحبّ إلّا المال. وهو على استعداد لأنْ يحزّ الكثير من الرقاب من أجل الكثير من المال، هذا كل ما في الأمر. هو ذكيّ طبعاً! أعترفُ! لكنَّ ضميره يؤنّبه الآن! لهذا يريد مني أنْ أعمل معه، لكي أحزّ الأعناق وأشعر بتأنيب الضمير كما يحدث معه وشدَّ برونو قبضة يده بقوة، وأغلقَ فمه، ثم أغمضَ عينيه.

شعر غاي بأنّه يوشك أنْ يبكي، وإذا بجفني عينيه المنتفختين يتباعدان وتزحف الابتسامة بتردُّد.

«شيء مُملّ، أليس كذلك؟ كنتُ أشرح تواً السبب الذي دفعني إلى مغادرة المدينة بهذه السرعة، قبل أمي. أنت لا تعلم كم أنا رجل مرِح حقاً! بشرفي!».

«ألا تستطيع أنْ تغادر المنزل متى تشاء؟».

بدا للوهلة الأولى أنَّ برونو لم يفهم السؤال، ثم أجاب بهدوء: «طبعاً، ولكنْ أحبّ أنْ أكون مع أمي».

اعتبرَ غاي أنَّ أمّه تبقى بسبب حاجتها إلى النقود. «أترغب في سيجارة؟».

تناول برونو واحدة، مُبتسماً. «أتعلم، ليلة مغادرته المنزل كانت تلك المرة الأولى خلال حوالي عشرة أعوام التي يُغادره فيها. بل إنني لا أعلم إلى أين ذهب. كنتُ من شدة الحنق في تلك الليلة بحيث كنتُ مُستعداً لقتله وكان يعلم ذلك. هل سبقَ لك أنْ شعرتَ برغبة في قتل أحد؟».

«كلا».

«أنا شعرت أنا واثق من أنَّ في استطاعتي أنْ أقتل والدي يوماً ما» ونظر نحو الأسفل إلى طبقِهِ مع ابتسامة سرور. «أتعلم ماذا كانت هواية والدي؟ خمِّنْ».

لم يرغب غاي في التخمين. فجأة شعر بالضجر ورغب في الانفراد بنفسه.

قال برونو فجأة مع ضحكة مكبوتة: «كان يجمع قوالب تشكيل الحلوى! قوالب الحلوى، بشرفي! لديه تشكيلة من كل الأنواع -بنسلفانيا الألمانيّة، والبافاريّة، الإنكليزيّة، الفرنسيّة، والكثير من الهنغاريّة، موزّعة في كل أرجاء المكان. وعلى طاولة مكتبه هناك قوالب على شكل حيوانات- أنت تعرفها، تلك الحلوى التي يأكلها الأطفال وتكون داخل علب؟ وقد راسل رئيس تلك الشركة فأرسلوا إليه مجموعة كاملة منها. إنّه عصر الآلة!»، وضحك برونو وأحنى رأسه بحركة سريعة.

حدّقَ غاي إليه. كان برونو مُضحكاً أكثر مما ادّعى. «وهل كان يستخدمها؟».

«هه؟».

«هل حدث مرّة أنْ صنع حلوى بها؟».

شهقَ برونو. وبحركة سريعة، خلع سترته ورماها على حقيبة السفر. بدا لبرهة الزمن أنّه من شدّة الحماس بحيث عجز عن قول أيّ شيء، ثم علّق بهدوءٍ مُفاجئ: «كانت أمي دائماً تأمره أنْ يعود إلى قوالبه». وكسَتْ وجهه الأملس طبقة رقيقة من العَرَق كأنها زيت. دفعَ بابتسامته متلهفاً عبر الطاولة: «هل تستمتع بعشائك؟».

قال غاي بكل صِدق: «كل الاستمتاع».

«ألم تسمع عن شركة برونو للتحويل في لونغ أيلند؟ إنها تصنع أدوات التيار الكهربائي الثابت والمتناوب؟».

«لا أعتقد».

«حسن، ولِمَ تسمع؟ مع أنها تدر الكثير من المال. ألا يهمّك أنْ تكسب نقوداً؟».

«ليس كثيراً».

«أتمانع أنْ أسألك عن عمرك؟».

«أنا في التاسعة والعشرين».

«أحقاً؟ اعتقدتُ أنك أكبر سناً. كم أبلغُ من العمر في اعتقادك؟».

دقّقَ غاي النظر فيه بتهذيب. قال: «في الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين»، وتعمّدَ أنْ يُخجِل تواضعه، لأنّه بدا أصغر سناً.

«نعم، أنا كذلك. في الخامسة والعشرين. أتعني أنني أبدو في الخامسة والعشرين مع وجود هذا – هذا الشيء الذي في مركز رأسي؟» عضَّ برونو على شَفَته السُّفلى. وظهر في عينيه ومضٌ من الضجر، وفجأة غطّى جبينه بتجويف راحة يده من شدَّة إحساسه بالخجل المرير. وقفز وتوجه نحو المرآة. «كنتُ أنوي أنْ أغطيها».

قال غاي شيئاً ليُطمئنه، لكنَّ برونو ظلَّ ينظر إلى نفسه من هذه الجهة ومن تلك في المرآة، وسط ألم تأنيب النفس. قال بصوتٍ خرج من أنفه: «إنها ليستْ بثرة. إنها حبّة. إنَّ كل ما أكره يظهر عليّ. إنها لعنة أيوب[1]!».

ضحك غاي «أوه، أنت تُغالي!».

«بدأتْ بالظهور في ليل يوم الإثنين بعد ذلك الشجار. وهي يزداد سوءاً. وأراهن على أنها سوف تترك نُدباً».

«كلا، لن تترك».

«بل نعم، ستترك. شيءٌ رائعٌ أذهبُ به إلى سانتا فِه!» كان عندئذٍ قد

1- في سفر أيوب من الكتاب المقدس: يُنزِل الشيطان الأمراض بأيوب لكي يدفعه إلى الخطيئة والإثم. – المترجم

جلس على الكرسي وشدَّ قبضتيّ يديه معاً ومدَّ ساقاً ثقيلة في وضعيّة التفكير الحزين المأساويّ.

انتقل غاي ليفتح أحد الكتب الموضوعة على المقعد المُجاور للنافذة. كانت رواية بوليسيّة. كلها كانت كتباً بوليسيّة. وعندما حاول أنْ يقرأ بضعة أسطر تلاشتْ الأحرف فأغلق الكتاب. قال في نفسه: لا بدّ أنّه أفرط في الشرب. لم يولِ الأمر الكثير من الاهتمام، هذه الليلة.

قال برونو: «وأنا في سانتا فِه، أريد كل ما يتوفَّر فيها، الخمر، والنساء، والغناء. هاه!».

«ماذا تريد؟.».

«شيئاً ما». اتّجه فم برونو نحو الأسفل ورسم تكشيراً قبيحاً يدل على عدم الاهتمام. «كل شيء. لديّ نظريّة تقول إنّه ينبغي على المرء أنْ يفعل كل ما يستطيع أنْ يفعل قبل أنْ يموت، وقد يموت وهو يُحاول أنْ يقوم بأمر مستحيل تماماً».

استجاب شيءٌ في غاي بقفزة، ثم تراجعَ بحذر. سأل برقّة «مثل ماذا؟».

«مثل رحلة إلى القمر على متن صاروخ. وتسجيل رقم قياسيّ في السرعة بالسيارة – وأنا معصوب العينين. لقد فعلتُ هذا مرَّة. لم أسجّل رقماً قياسيّاً، لكنّي سجلتُ مائة وستين.

«وأنتَ معصوب العينين؟».

حدَّقَ برونو إلى غاي بثبات. «وقمت بعمليّة سطو. عملية ناجحة، على شقّة سكنيّة».

ارتسمتْ على شفتيّ غاي ابتسامة عدم تصديق، على الرغم من أنّه في الحقيقة صدَّقَ برونو. يمكن لبرونو أنْ يكون عنيفاً ومجنوناً أيضاً. قال غاي في نفسه، هو يأس، وليس جنوناً. إنّه ضجر الأغنياء الشديد، الذي لطالما تحدث عنه مع آنْ. هو يُدمِّر ولا يُبدِع، وقد يؤدي إلى ارتكاب الجريمة بالسهولة نفسها التي يؤدي بها إلى الفاقة.

تابع برونو قائلاً: «لم أفعل ذلك لكي أحصل على أي شيء. لم أُرِد ما أخذتُ. لقد أخذتُ بالضبط ما لم أرده».

«وماذا أخذتَ؟».

هزَّ برونو كتفيه استخفافاً. «ولّاعة سجائر. ونموذجاً لطاولة. وتمثالاً أخذته عن رفّ المدفأة. وزجاجاً ملوّناً. وشيئاً آخر»، وهزّ كتفيه استخفافاً من جديد: «أنتَ الشخص الوحيد الذي يعلم بالأمر. أنا لا أتكلَّم كثيراً. أعتقد أنكَ تعتقد أنني ثرثار»، وابتسم.

سحب غاي الدخان من السيجارة: «كيف تفعل ذلك؟».

«أراقب شقّة مُستأجرة في أستوريا إلى أنْ أجد الوقت المناسب، ثم ألج من النافذة، وأهبط درج الحريق. الأمر سهل. إنه أحد الأشياء التي أُسقِطها من حسابي، وأشكر الله».

«ولِمَ تشكر الله؟.»

كشّر برونو بخجل: «لا أعلم لِمَ قلتُ هذا». وأعاد ملء كأسه، ثم ملء كأس غاي.

نظر غاي إلى اليدين المتيبّستين، المُرتعشتين اللتين قامتا بالسرقة، وإلى الأظافر التي قُرِضَتْ تحت العِراق[2]. عبَثَتْ اليدان بحركة خرقاء بغطاء علبة عيدان ثقاب ثم تركتاه، كيديّ طفل وليد، فوق قطعة اللحم المشوي المغطّاة بالرماد. قال غاي في نفسه: إنَّ الجريمة شيء مُملّ حقاً. وغالباً ما تكون بلا هدف. إنَّ رجلاً ما يرتكب جريمة. مَنْ يستطيع أنْ يتبيَّن من يديّ برونو، أو من غرفته، أو من وجهه الحزين القبيح أنّه قام بالسرقة؟ جلس غاي من جديد باسترخاء على كرسيه.

طلب برونو منه بأسلوب لبق: «حدّثني عن نفسك».

«ليس هناك ما يستحق الذكر»، وأخرجَ غاي غليوناً من جيب سترته، وضربه على عقب قدمه، ونظر إلى الرماد الذي انتشر على السجادة، ومن ثم نسيَ أمره. غاصَ وخزُ الكحول أعمق في لحمه. قال في نفسه: إذا أُنجِزَ عقد بالم بيتش، فسوف يمرّ بسرعة الأسبوعان السابقان للبدء في العمل. لن تأخذ إجراءات الطلاق وقتاً طويلاً. تراءى له أنَّ تشكيل الأبنية البيضاء المنخفضة

2- العِراق: ما أحاط بالظفر. – المترجم

على المرج الأخضر في رسمه المُكتمِل يسبح في مشهدٍ مألوف في مخيلته، وبالتفصيل، من دون أنْ يحاول استحضاره. وفجأة شعرَ بالإطراء المُرهَف، وبالأمان التامّ، وبالسعادة.

سأله برونو: «أي نوعٍ من الأبنية تنشئ؟.»

«أوه – ما يُسمّى بالبناء الحديث. أنشأتُ مخازن ومبنى صغيراً للمكاتب»، ابتسم غاي، شاعراً بأنّه تخلّى عن كل تحفُّظ، وعن القليل من الغيظ الذي ينتابه عادة عندما يسأله أحدهم عن عمله.

«متزوج؟».

«كلا في الواقع، أنا متزوج، نعم. منفصل».

«أوه، لماذا؟».

أجاب غاي: «لعدم التكافؤ».

«منذ متى وأنتما منفصلان؟».

«منذ ثلاث سنوات».

«ألا ترغب في الطلاق؟».

تردّدَ غاي، مُكفهرّاً.

«أهي في تكساس، أيضاً؟».

«نعم».

«أأنتَ ذاهبٌ للقائها؟».

«سوف أقابلها، سوف نعدُّ أمر الطلاق الآن». بدا عليه الغضب. لِمَ قال هذا؟

سخر برونو قائلاً: «أي نوع من الفتيات الصالحات للزواج عثرت عليه هناك؟».

أجابَ غاي: «إنهنَّ فاتنات الجمال. بعضهنّ».

«لكنهنَّ في الغالب غبيّات، هه؟».

«يمكنْ أنْ يكنّ كذلك»، وابتسم لنفسه. ربما كانت ميريام من نوع الجنوبيّات الذي قصده برونو.

«من أي نوع زوجتك؟».

قال غاي بحذر: «جميلة حمراء الشعر ممتلئة قليلاً».

«ما اسمها؟».

«ميريام، ميريام جويس».

«مممم. أهي غبيّة أم ذكيّة؟».

«ليست ذكيّة. لا أحبّ أنْ أتزوج من امرأة ذكيّة».

«وأنتَ تحبّها حبّاً جمّاً، هه؟».

لِمَ قال هذا؟ هل بدا عليه ذلك؟ كانت عينا برونو مُثبّتتين عليه، لا يفوتهما أي شيء، ولا ترفّان، وكأنَّ إرهاقهما قد تجاوز النقطة التي أصبح لا مناص بعدها من النوم. انتاب غاي إحساس بأنَّ تينك العينين كانتا تُدقّقان النظر فيه منذ ساعات طوال. «لِمَ تقول هذا؟».

«أنت رجل ودود، وتتعامل مع كل شيء بجديّة. وتقبل النساء بقسوة، أيضاً، أليس كذلك؟».

ردَّ قائلاً: «ماذا تقصد بقسوة؟»، لكنّه شعر بدفقٍ من التعاطُف مع برونو لأنَّ برونو باح بما يجول في خاطره عنه. كان غاي يعلم أنَّ معظم الناس لا يبوحون بما يجول في خواطرهم عنه.

قام برونو برسم حركات دائريّة في الهواء بيديه، وتنهّد.

كرّر غاي القول: «ماذا تعني بقسوة؟».

«أنْ تبوح بكل شيء، مع آمال عريضة، ثم تتلقّى ضربة موجِعة، أليس كذلك؟».

«ليس بالضبط»، لكنَّ دفقاً من رثاء الذات انتابه، فنهضَ واقفاً وأخذ معه مشروبه. لم تكن في الغرفة فُسحة للتحرّك. وكان ترنّح القطار يجعل من الصعب حتى الوقوف باستقامة.

ظلَّ برونو يُحدِّقُ إليه، وإحدى ساقيه عتيقة الطراز تتدلّى من طرف ركوبها على الأخرى، وينقر بإصبعه مراراً على السيجارة التي وضعها على طبقه. وكانت طبقةٌ من رذاذ الرماد قد بدأتْ ببطء تغطي قطعة اللحم الورديّة

والسوداء التي لم ينته من أكلها. ولاحظ غاي أنَّ برونو أصبح أقلّ وداً منذ أنْ أخبره بأنّه متزوج. وأصبح أكثر فضولاً.

«ماذا حدث مع زوجتك؟ أبدأتْ تعبث مع غيرك؟».

أغضبته دقّة تعبير برونو أيضاً. «كلا. على أي حال هذا كلّه انتهى».

«لكنكَ ما زلتَ متزوجاً منها. ألم تتمكن من الحصول على الطلاق من قبل؟».

ثم شعر بخجلٍ فوريّ. «إنني شديد الاهتمام بذلك، كصديق. كم كان عمرها؟».

«ثماني عشرة».

«وبدأتْ تخونك مباشرة؟».

أصبحت ردّة فعل غاي ذاتيّة، وكأنّه يُدافع عن إثم ميريام. «إنَّ هذا ليس الشيء الوحيد الذي تفعله النساء، كما تعلم».

«لكنها فعلته، أليس كذلك؟».

أشاح غاي ببصره، منزعجاً ومنبهراً في الوقت نفسه. «نعم». كم بدت هذه الكلمة الصغيرة بشعة، وهي تهسُّ في أُذنيه!.

قال برونو، وهو يعبث بفطيرة التفاح: «أنا أعرف ذلك النوع من الجنوبيات ذوات الشّعر الأحمر».

من جديد شعر غاي بإحساس حادّ ولا لزوم له على الإطلاق بالخزيّ. لا لزوم له لأنَّ لا شيء مما فعلته ميريام وقالته كان يمكن أنْ يُحرِج برونو أو يُفاجئه. لقد بدا برونو عاجزاً عن الاندهاش، كان قادراً فقط على إبداء القليل من الاهتمام.

نظر برونو نحو الأسفل إلى طبقه باستمتاع حييّ. اتّسعَتْ عيناه، وأصبحتا برّاقتين إلى أقصى مدى مع احمرار ودوائر زرقاء. تنهّدَ، «الزواج».

أيضاً تلكّأتْ كلمة «زواج» في أُذنيّ غاي. إنّها كلمة رصينة بالنسبة إليه. وتتّسِم بالرصانة البدائيّة التي تتصِف بها كلمات *قُدسيّ، وحب، وإثم*. كان فم ميريام المُستدير ذو لون الطين هو الذي يقول: «لِمَ يجدر بي أنْ أنزعج *من أجلك؟*» وكانت عينا آنْ هما اللتان ظهرتا عندما رفعتْ شعرها نحو الخلف

ونظرتْ إليه وهو على مرج منزلها حيث زرعتْ زغفران. كانت ميريام هي التي تستدير مبتعدة عن النافذة الطويلة والضيّقة في غرفة كائنة في شيكاغو، رافعة وجهها المكسو بالنمش والشبيه بالترس نحو وجهه مباشرة كما كانت تفعل دائماً قبل أنْ تكذب، ورأس ستيف الطويل القاتم، يبتسم بوقاحة. بدأتْ الذكريات تحتشد، وأراد أنْ يرفع يديه عالياً ويدفعها بعيداً عنه. في غرفة شيكاغو حيث حدثَ كل شيء... كان في وسعه أنْ يشمّ رائحة الغرفة، وعِطر ميريام، ويستشعر الحرارة المنبعثة من أنابيب التدفئة المدهونة. وقفَ بسلبيّة، للمرّة الأولى منذ سنين من دون أنْ يدفع عنه وجه ميريام نحو الضباب الزهريّ. ماذا سيحدث له إذا ترك كل تلك الذكريات تغمره من جديد، الآن؟ هل ستسلّحه في مواجهة زوجته أو تُدمّره؟.

قال صوت برونو من مسافة بعيدة: «أنا جادّ، ماذا حدث؟ لا أظنك تمانع في إخباري، أليس كذلك؟ أنا مُهتم بالأمر».

إنَّ ما حدث هو ستيف. رفعَ غاي كأسه. شاهد فترة بعد الظهيرة في شيكاغو من خلال إطار باب الغرفة، أصبحتْ الصورة الآن رماديّة وسوداء كما في صورة فوتوغرافيّة. بعد الظهيرة حين عثر عليهما في الشقّة، بعد ظهيرة لا تشبه غيرها، بلونها الخاص، ومذاقها، وصوتها، وعالمها الخاصّ، كعملٍ فنيّ صغير وشنيع. كموعد لقاء في تاريخ مُثبَّتٍ في الزمن. أم أنَّ العكس هو الذي حدث، أنّه كان يحمله معه دائماً أينما ذهب؟ لأنّه ها هو هنا الآن، جليّ كعهده دائماً. والأسوأ من ذلك كلّه أنّه كان يشعر بحافز لإخبار برونو كل شيء، هذا الشخص الغريب الذي قابله على متن قطار والمُستعدّ للإصغاء، والمواساة، والنسيان. وبدأتْ فكرة البوح لبرونو تُريحه. لم يكن برونو نوعاً عاديّاً من الغرباء بأي حال على متن القطار. كان قاسيّاً وفاسداً بحيث لا يمكن أنْ يستحسن قصّة كهذه تدور حول حبّه الأول. وكان ستيف مجرد نهاية مُفاجئة تضعُ كل شيء في مكانه. لم يكن ستيف الخيانة الأولى. كان بمثابة كبريائه ذات الستة وعشرين عاماً التي انفجرتْ في وجهه في ذلك اليوم. لقد حكى حكايته لنفسه ألف مرّة، قصةً تقليديّة، دراميّة على الرغم من حماقته. وحماقته لم تُضفِ عليها إلّا الفكاهة.

قال غاي بنبرة اعتياديّة: «لقد توقّعتُ الكثير منها، من دون أي وجه حق. وتصادفَ أنها كانت تحبّ أنْ تجذب الانتباه. ربما كانت ترغب في الغزل طوال حياتها، من أي شخصٍ ترافقه».

لوّحَ برونو بيده. «أعلم، إنّه نمط تلاميذ المدرسة الأبديّ. ولا تستطيع أنْ تتظاهر بأنها تخصّ أي رجل، أبداً».

نظر غاي إليه. لقد كانت ميريام تخصُّ أحدهم، ذات مرة.

سرعان ما تخلّى عن فكرته في البوح لبرونو، شاعراً بالخزي لأنه كاد يبدأ الكلام. في الحقيقة، كان برونو قد بدأ عندئذٍ يفقد اهتمامه، سواء أخبره بها أم لا. كان برونو قد جلس مسترخياً وأخذ يرسم بعود ثقاب شيئاً على الصلصة في طبقه. كان النصف المنخفض من مسقط وجهه الجانبيّ غارقاً بين الأنف والذقن كفم رجلٍ عجوز. وكأنَّ الفم يقول، مهما تكون القصة، فإنَّ امتعاضه أشدّ من رغبته في الإصغاء إليها.

غمغمَ برونو: «إنَّ هذا النوع من النساء يجذب انتباه الرجال، كما تجذب النفايات الذباب إليها».

الثاني

فَصَلَتْه صدمةُ كلمات برونو عن نفسه. علَّقَ قائلاً: «لا بدّ أنكَ مررتَ بتجربة مُزعجة جداً». ولكن كان من الصعب تخيّل برونو منزعجاً من النساء.

«أوه، لقد كان والدي متزوجاً من واحدة كهذه. حمراء الشعر، أيضاً. اسمها كارلوتا»، رفعَ بصره، فاخترقَ حقده على والده تشوّشه كسلكٍ شائك. «شيء عظيم، أليس كذلك؟ إنَّ رجالاً من أمثال والدي هم سبب وجودهنّ».

كارلوتا. شعرَ غاي بأنّه بات يفهم الآن سبب اشمئزاز برونو من ميريام. بدا أنّه المفتاح المؤدّي إلى شخصيّة برونو كلّها، إلى كراهيته لوالده وإلى التخلُّف الذي اتّسمتْ بها فترة مُراهقته المتخلّفة.

أعلنَ برونو بصوتٍ هادر: «هناك نوعان من الرجال!»، ثم سكت.

لمحَ غاي نفسه في المرآة الطويلة والضيقة المُثبّتة على الجدار. رأى أنَّ

الخوفَ يطلّ من عينيه، والتجهّم يرتسم على فمه، واسترخى عن عمد. وشعر بضربة من عصا الغولف تضرب ظهره. فمرَّر أطراف أصابعه على سطحه الصقيل البارد. وذكّره المعدن الذي يُطعِّم الخشب القاتم بإبرة البوصلة على قارب آن الشراعي الخاص.

تابع برونو قائلاً: «ونوع واحد أساسي من النساء!. يمارسون الخيانة. على أحد الطرفين خيانة وعلى الطرف المقابل هناك عاهرة! والخيار لك!».

«وماذا عن نساء من طراز أمّك؟».

أعلنَ برونو: «أنا لم أقابل أي امرأة أخرى تشبه أمي. لم أقابل امرأة مثلها تُغالي في الأخذ. وهي جميلة أيضاً، ولديها الكثير من الأصدقاء من الرجال، لكنّها لا تعبث معهم».

صمتْ.

ضرب غاي سيجارة أخرى على وجه ساعة يده فرأى أنَّ الساعة هي العاشرة والنصف يجب أنْ يرحل في الحال.

أمعنَ برونو النظر إليه: «كيف اكتشفتَ أمر زوجتك؟».

استغرقَ من غاي وقتاً طويلاً للتعامُل مع سيجارته.

«كم مرّة خانتك؟».

«مرات عِدَّة قبل أنْ أكشف الأمر». وبقدر ما أكّدَ لنفسه بأنَّ هذا لم يعُد له الآن أيّة أهميّة ويمكن الاعتراف به، بدأ إحساسٌ بوجودِ دوّامةٍ صغيرة داخله يُشوّشه. دوّامة صغيرة، لكنّها حقيقيّة أكثر بصورةٍ ما من الذكريات، لأنه باحَ بها. أهو الكبرياء؟ أم الكراهية؟ أم فقط ضيق صدره من نفسه، لأنَّ كل ما يشعر به الآن لا فائدة منه؟ وحوّلَ مسار الحديث عن نفسه. «أخبرني ماذا تريد أنْ تفعل أيضاً قبل أنْ تموت».

«أموت؟ مَنْ أتى على ذِكر أي شيء عن الموت؟ لديّ بضع وظائف جيدة. يمكن أنْ أباشر أحدها ذات يوم في شيكاغو أو في نيويورك أو قد أبيع أفكاري. ولديّ الكثير من الأفكار من أجل ارتكاب جرائم كاملة». رفع برونو عينيه من جديد مع تلك النظرة الثابتة التي بدا أنّها تدعو إلى التحدّي.

«أتمنّى ألّا يكون استجوابك لي هنا جزءاً من خططك» وجلس غاي.

«يا إلهي، أنت تعجبني، يا غاي! تعجبني حقاً!».

ناشدَ وجهُهُ الحزين غاي كي يقول إنّه هو أيضاً مُعجَب به. يا للوحشة التي تطلّ من تينك العينين الصغيرتين الحزينتين! أطرقَ غاي بصره حَرَجاً ونظر إلى يديه «هل أفكارك كلها تتعلق بالجريمة؟».

«حتماً لا! هي فقط من الأشياء أريد أنْ أقوم بها، على غرار – أنني أريد أنْ أعطي أحداً ألف دولار ذات يوم. متسوّلاً. عندما يُصبح لديّ مالي الخاص، هذا أحد الأشياء التي سأفعلها. ولكن ألم يحدث أبداً أنكَ شعرتَ برغبة في سرقة شيء؟ أو في أنْ تقتل أحداً؟ لا بدّ أنه حدث. الجميع يشعرون بهذه الأشياء. ألا تعتقد أنَّ بعض الناس يشعرون بالحماس من قتل الناس في الحروب؟.

قال غاي «كلا».

تردَّد برونو: «أوه، إنهم لا يعترفون بذلك أبداً، طبعاً، إنهم يخافون! ولكن كان هناك أناسٌ في حياتك كنتَ تودّ أنْ تزيحهم من حياتك، أليس كذلك؟».

«كلا» وتذكّر ستيف فجأة. لقد فكّر مرة في أنْ يغتاله.

نصبَ برونو رأسه. لا شك في أنكَ فكّرتَ في هذا. أكاد أرى ذلك. لِمَ لا تعترف به؟».

«لعلها كانت أفكاراً عابرة، لكنَّني لم أقُم بأي عمل بهذا الشأن. أنا لستُ من هذا النوع».

«هنا بالذات أنت مُخطئ! إنَّ أي نوع من الأشخاص يمكن أنْ يرتكب جريمة قتل. إنها مسألة تتعلَّق حصراً بالظروف وليس عملاً يتعلَّق بالمزاج! إنَّ الناس يصلون إلى هذا الحدّ – ولا يحتاج الأمر إلى أكثر من دفعة صغيرة جداً ليصلوا إلى الحافّة. أي شخص. حتى جدَّتك. أعلم!».

قال غاي بتهذيب: «إنني لا أتفقُ معك».

«لقد قلتُ لك إنني اقتربتُ من شفا قتل والدي ألف مرّة! مَنْ الذي ترغب في اغتياله؟ الذين ضاجعوا زوجتك؟».

غمغمَ غاي: «واحداً منهم».

«إلى أي مدى اقتربتَ من تنفيذه؟».

«لم أقترب البتّة، أنا فقط فكّرتُ في الأمر». وتذكّرَ ليالي الأرق، ليالٍ لا حصر لها، ويأس السكينة إلى أنْ ينتقم منهم بنفسه. هل كان هناك ما يمكن أنْ يدفعه إلى فعل ذلك حينئذٍ؟ وسمع صوت برونو يُغمغم: «لقد كنتَ أقرب بكثير مما تعتقد، هذا كل ما في وسعي أنْ أقول». حدَّق غاي إليه في حيرة. كان شكله يُشبه شكل مدير طاولة قمار ليليّ وسقيم، منحنياً ومتكئاً على ساعدَين بكمين قصيرَين فوق الطاولة، ورأسه النحيل متدلٍّ. قال غاي: «أنتَ تُفرِط في قراءة العديد من القصص البوليسيّة»، وبعد أنْ قال هذا، لم يدرِ من أين أتته تلك الكلمات.

«إنها جيّدة. وتكشِف عن أنَّ كل الناس مهما اختلفتْ أنواعهم يمكنهم أنْ يرتكبوا جرائم قتل».

«لطالما اعتقدتُ أنَّ هذا بالضبط هو السبب في كونهم أشراراً».

قال برونو ساخطاً: «أنت تُخطئ من جديد! أتعلم ما هي النسبة المئويّة لجرائم القتل التي تظهر في الصحف؟».

«لا أعلم ولا يهمّني».

«نسبة واحد إلى اثني عشر. واحد إلى اثني عشر! تخيَّل! ومَنْ في اعتقادك هم نسبة الـ 11/ 12؟ إنهم الكثير من الصغار الذين لا أهميّة لهم. إنهم كل الذين يعلمُ رجال الشرطة أنهم لا يُلفتون الانتباه». وبدأ يصبّ المزيد من الويسكي، وعندما وجد أنَّ الزجاجة فارغة، نهضَ واقفاً ببطء. لمعَتْ مطواة جيب ذهبيّة برزتْ من جيب بنطلونه مربوطة بسلسلة من الذهب رفيعة تشبه الخيط. أثارت المطواة إعجاب غاي من الناحية الجماليّة، بوصفها قطعة حلي جميلة. ووجد نفسه يفكّر، وهو يُراقب برونو يمزّق بالسكين أعلى زجاجة الويسكي، في أنَّ برونو قد يرتكب ذات يوم جريمة قتل بسكين جيب صغيرة، وفي أنّه ربما ينجو بجريمته، ببساطة لأنه لا يأبه كثيراً بما إذا أُلقيَ القبضُ عليه أم لا.

التفتَ برونو، راسماً ابتسامة عريضة، مع زجاجة ويسكي جديدة. «تعالَ معي إلى سانتا فِه، ما رأيك؟».

«شكراً لك، لا أستطيع».

«لدي الكثير من المال انزل عندي ضيفاً، ما رأيك؟» وأراقَ الويسكي على الطاولة.

قال غاي «شكراً لك». أدركَ برونو من ملابس غاي أنَّه ليس لديه الكثير من المال. كان بنطلونه الرماديّ هو أفضل ما لديه، ويمكن أنْ ينوي أنْ يرتدي في ميتكالف وفي بالم بيتش، أيضاً، لو لم يكن الجوّ شديد القيظ. ومال إلى الخلف، ووضعَ يديه في جيبه وشعر بوجود ثقب في قعر الجيب الأيمن.

ناوله برونو كأسه. «ولِمَ لا؟ أنا شديد الإعجاب بك، يا غاي».

«لِمَ؟».

قال بعفويّة: «لأنكَ رجل طيب، أقصد، راقٍ. لقد قابلتُ الكثير من الرجال -لا أقصد التلاعب بالألفاظ[3]- لكنني لم أقابل كثيرين يُشبهونك. أعترفُ بهذا»، ثم غمسَ شفته في كأسه.

قال غاي: «أنا أيضاً مُعجَبٌ بك».

«تعال معي، ما رأيك؟ ليس لديّ ما أفعله طوال يومين أو ثلاثة حتى عودة أمي. يمكننا أنْ نقضي وقتاً ممتعاً».

«انتقِ شخصاً آخر».

«بحقّ الله، غاي، ماذا تظنّ أنني أفعل، أدور بين الناس وأنتقي رِفاق سفر؟ أنا مُعجَبٌ بك، ولهذا أطلبُ منك أنْ تأتي معي. حتى ولو ليومٍ واحد. سوف أتوجّه مباشرة من ميتكالف ولن أمرّ حتى على إل باسّو. من المُفتَرَض أنْ أشاهد الكانيون».

«شكراً لك، لديّ عمل يجب أنْ أُنجزه سريعاً في ميتكالف».

«أوه». ومن جديد ارتسمت على وجهه تلك الابتسامة الحزينة، المُعجَبة. «أتبني شيئاً؟».

«نعم، نادٍ ريفيّ». ومع ذلك بدا قوله غريباً وغير متوقَّع منه، وآخر شيء كان يمكن أنْ يفكِّر في بنائه، قبل شهرين. «نادي بالميرا الجديد في بالم بيتش».

«أحقّاً؟».

3- يقصد أنَّ هناك تشابهاً بين اسم الرجل غاي Guy وبين كلمة رجال Guys. - المترجم

كان برونو قد سمِعَ عن نادي بالميرا، طبعاً. كان أكبر نادٍ في بالم بيتش. بل لقد سمعَ أنهم سوف يبنون نادياً جديداً، كان قد ذهب إلى النادي القديم بضع مرّات.

«أنت الذي صمّمه؟». نظر إلى غاي كصبيّ يعبُد بطلاً. «أتستطيع أنْ تضع لي رسماً له؟».

رسَمَ غاي رسماً تخطيطيّاً سريعاً للمباني على خلفيّة دفتر عناوين برونو ووقَّع باسمه، تلبيةً لرغبة برونو. وشرح له كيف سيتمّ هدم الجدار من أجل جعل الطابق السفليّ صالة رقص واحدة كبرى تمتد حتى المصطبة، وثمة نوافذ شبيهة بنوافذ متحف اللوفر أمل في أنْ يُسمَح له بفتحها وسوف تُلغي الهواء المُكيَّف. كان يزداد سعادة في أثناء الكلام، وتصاعدتْ دموع الإثارة إلى عينيه، على الرغم من أنّه أبقى صوته منخفضاً. وتساءلَ، كيف يمكنه أنْ يتكلَّم بحميميّة شديدة مع برونو، ويكشِف عن أفضل جانبٍ فيه؟ مَنْ يمكن أنْ يكون أقلّ فهماً من برونو؟.

قال برونو: «تبدو رائعة. تعني، إنكَ تُخبرهم ببساطة كيف سيبدو؟».

«كلا. على المرء أنْ يُرضي عدداً كبيراً من الناس». فجأةً أرجعَ غاي رأسه إلى الخلف وضحك.

«سوف تُصبح شخصاً مشهوراً، أليس كذلك؟ لعلك مشهور منذ الآن».

سوف يظهر العديد من الصور الفوتوغرافيّة في الصحف الإخباريّة، وربما سيُذكر نبأ في نشرات الأخبار. وقال لنفسه، وهم لم يُشاهدوا رسومه التخطيطيّة بعد، لكنّه كان شديد اليقين من أنهم سوف يفعلون. إنَّ مايرز، الذي كان يتقاسم معه غرفة مكتب واحدة في نيويورك، متيقّن من ذلك. وآنْ كانت متأكّدة. وكذلك الأمر بالنسبة للسيد بريلْهارت. إنها المهمّة الكبرى في حياته. «قد أُصبحُ مشهوراً بعد هذه. إنها من النوع الذي يُروّجون له».

باشر برونو بسرد قصّة طويلة عليه عن حياته في الكليّة، وكيف كان يمكن أنْ يُصبح مُصوّراً فوتوغرافيّاً لو لم تقع حادثة في وقتٍ معيَّن مع والده. لم يُصغِ غاي إليه. أخذ يرشف من مشروبه وهو شارد، ويُفكِّر في المهام التي ستوكل إليه بعد بالم بيتش. وربما قريباً، قد يضع تصميماً لمبنى للمكاتب في

نيويورك. إنَّ لديه فكرة عن مبنى للمكاتب في نيويورك، وتاقَ إلى أنْ يراها تخرج إلى النور. غاي دانييل هينز. اسمٌ **لامع**. لن تعود له سمعة مملّة، تجعله منفيّاً، لأنَّ ماله أقلّ من مال آنْ.

كرّر برونو سؤاله: «ألنْ يكون كذلك، يا غاي؟».

«ما هو؟».

أخذَ برونو نَفَساً عميقاً: «إذا قامتْ زوجتك بعملٍ قذر فيما يخصّ الطلاق. كأنْ تسعى، في أثناء وجودك في بالم بيتش، إلى دفعهم إلى طردك، ألنْ يكون ذلك دافعاً كافياً للقتل؟».

«قتل ميريام؟».

«طبعاً».

قال غاي: «كلا»، لكنَّ السؤال أزعجه. كان يخشى أنْ تكون ميريام قد سمعتْ عن عمله في بالم بيتش من خلال أمّه، بحيث تحاول أنْ تتدخّل لمجرد متعة إيذائه.

«عندما كانت تخونك، ألم تشعر برغبة في قتلها؟».

«كلا. ألا تستطيع أنْ تغيِّر الموضوع؟». شاهد غاي، لبرهة من الزمن، نصفيّ حياته، وزواجه، ومسيرته المهنيّة، جنباً إلى جنب كما لم يرها من قبل. ترنّح دماغه كالمريض مُحاولاً أنْ يفهم كيف كان أحمقَ وعاجزاً من ناحية وكان قادراً من ناحية أخرى. وألقى نظرة سريعة إلى برونو، الذي كان لا يزال يُحدِّق إليه، فشعر بقليل من الارتباك، ووضعَ كأسه على الطاولة ودفعه عنه بمقدار طول أصابعه.

قال برونو بإلحاح لطيف وثمل: «لا بدّ أنْ تكون قد رغبتَ في ذلك ذات مرّة».

«كلا». ودَّ غاي لو يخرج ويتمشّى، لكنَّ القطار استمرَّ في الاندفاع قُدُماً، كأنّه لا ينوي أنْ يتوقف أبداً. لنفرِض أنَّ ميريام تسبَّبتْ في خسارة عمله. كان ينوي أنْ يُقيم هناك على مدى بضعة أشهر، وكان من المتوقَّع أنْ يُحافِظ على التكافؤ الاجتماعي مع المُدراء. وكان برونو يفهم ذلك فهماً جيداً. ومرَّر يده عبر جبينه الرطِب. كانت الصعوبة تكمنُ، طبعاً، في أنّه لن يعرف ما الذي يدور في خَلَد ميريام إلى أنْ يُقابلها. كان مُتعباً، وعندما يكون مُتعباً، تستطيع

ميريام أنْ تُغيرَ عليه كأنها جيش كامل. لقد حدث ذلك كثيراً خلال السنتين اللتين استغرقَ منه خلالهما التخلُّص من حبّه لها. وها هو يحدث الآن، شعر بالضجر من برونو كان برونو يبتسم.

«هل أُخبرُكَ عن إحدى أفكاري لقتل والدي؟».

قال غاي: «كـلا»، ومدَّ يده من فوق الكأس التي كان برونو يهمّ بإعادة ملئها.

«أيّ الطرق تفضّل، مقبس النور المكسور في الحمّام أم المرآب الذي يعبق بغاز أول أكسيد الكربون؟».

«كفاك حديثاً عن هذا!».

«سوف أنفّذها، لا تظنّ أنني لن أفعل! أتعلم ماذا أريد أنْ أفعل أيضاً؟ أريد أنْ أنتحر إذا تصادفَ أنْ شعرتُ بميلٍ إلى ذلك، وأنْ أعدّ الأمر بحيث يبدو وكأنَّ أعدى أعدائي هو الذي قتلني».

نظر غاي إليه باشمئزاز، وبدا أنَّ برونو يُصبحُ شكلاً مُبهَماً عند الحواف وكأنه يذوب، كأنه أصبح الآن مجرد صوت وروح، روح شريرة. قال غاي في نفسه: إنَّ برونو يمثّل كل ما يشمئزّ منه. كان كل ما لا يريد أنْ يكون يمثّله برونو أو سيمثّله.

«أتريد مني أنْ أعدّ جريمة قتل كاملة لزوجتك بالنيابة عنك؟ قد تنفّذها ذات يوم». تلوّى برونو بحياء تحت تأثير نظرة غاي الثاقبة.

نهضَ غاي واقفاً: «أريد أنْ أتمشّى».

صفّقَ برونو بيديه «هيه! يا إلهي، فكرة جيدة! كلٌّ منا يرتكب جريمة بالنيابة عن الآخر، أترى؟ أنا أقتل زوجتك وأنتَ تقتل والدي! ونتقابل في القطار، ولا أحد يعلم أننا نعرف أحدنا الآخر! حجّة غياب مثاليّة! أفهمت؟».

نبضَ الجدار الماثل أمامه بحركة إيقاعيّة، وكأنّه يوشك أنْ ينفكّ عن مكانه. *جريمة قتل*. أثارتْ الكلمة اشمئزازه، وأثارتْ رعبه، أراد أنْ يبتعد عن برونو، أنْ يخرج من المكان، لكنَّ ثقل الكابوس منعه. حاول أنْ يتماسك بتثبيت الجدار، بأنْ يفهم ما كان برونو يقوله، لأنه شعر بأنّه ينطوي على منطق، كمسألة حسابيّة أو لغز يجب حلّه.

قفزتْ أصابع برونو المُلطّخة ببقع التبغ وارتجفت على رُكبتيه. زعقَ «حجّة غياب مُحكَمَة. إنها فكرة حياتي! ألا تفهم؟ يمكنني أنْ أنفّذ جريمتي في أثناء غيابك عن البلدة وتستطيع أنْ تنفّذ جريمتك في أثناء وجودي خارج البلدة».

فهم غاي. لا يمكن لأحد أنْ يكتشف الأمر.

«سوف يُفرِحني كثيراً أنْ أوقِف مسيرة ميريام المهنيّة وأنْ أدعم مسيرتك أنت». وضحك برونو. «ألا تتفق معي على وجوب منعها قبل أنْ تدمِّر العديد من الأشخاص الآخرين؟ اجلس، يا غاي!».

أراد غاي أنْ يُذكّره بأنّها لم تُدمّره، لكنَّ برونو لم يفسح له المجال ليفعل ذلك.

«أعني، لنفرض أنَّ هذه هي الخطّة، هل تستطيع أنْ تنفّذها؟ يمكنك أنْ تُخبرني عن مكان مسكنها، وأنا أخبرك عن مكان مسكنه، وكأنكَ تُقيم هناك. يمكننا أنْ نترك بصمات أصابع في كل مكان وندفع بالحمقى إلى حافة الجنون!» قال ذلك ساخراً، «وطبعاً سيفصل بين العمليتين بضعة أشهر، وحتماً بلا أي اتصال بيننا. يا إلهي، إنها خطّة مضمونة!»، ونهضَ واقفاً وكاد يسقط، وأخذ معه مشروبه. ثم قال في وجه غاي مباشرة، بثقة في النفس خانقة: «ألا تستطيع أنْ تفعل ذلك، يا غاي؟ أقسِمُ لك بأنه لن تكون هناك أيّة عوائق. سوف أُرتّبُ كل شيء، أُقسِم لك، يا غاي».

أبعَدَه غاي عنه، بأقوى مما كان يقصد. نهضَ برونو بحركة مرنة عن مقعد النافذة، وتلفّتَ غاي حوله بحثاً عن هواء، لكنَّ الجدران كانت سطحاً كتيماً. لقد أضحتْ الغرفة جحيماً مُصغّراً. ماذا يفعل هنا؟ كيف شربَ كل ذلك المقدار ومتى؟.

تجهَّمَ برونو. «أنا متيقّن من أنكَ *تستطيع*!».

ودَّ غاي أنْ يصرخ ردّاً عليه، اخرس وابتعد عني مع نظرياتك اللعينة، ولكنْ بدل ذلك خرج صوتُه كما الهمس: «لقد سئمتُ هذا».

حينئذٍ رأى وجه برونو الضيق يلتوي بصورة غريبة – بدهشةٍ مُتكلّفة، وبنظرةٍ شنيعة وعارفة كل شيء بشكلٍ مُخيف. هزَّ برونو كتفيه بدماثة.

«حسن ما زلتُ أصرّ على أنها فكرة جيّدة وأننا أعددنا أفضل خطّة هنا وهي الخطّة التي سأستخدمها مع شخصٍ آخر، طبعاً. إلى أين أنت ذاهب؟».

أخيراً فكَّر غاي في اللجوء إلى الباب. خرج من الباب وفتح باباً آخر يؤدي إلى منصّة أخرى حيثُ صَفَعَته منها دفقة قوية من الهواء البارد كأنّها تؤنّبه وارتفع ضجيج القطار حتى أضحى هديراً مُزعجاً. وأضاف عليه من عنده لعنات على الريح وعلى القطار، وتمنّى لو يمرض.

«غاي؟».

التفتَ، فرأى برونو يمرّ منزلقاً من الباب الثقيل.

«غاي، أنا آسف».

قال غاي على الفور: «لا بأس»، لأنَّ وجه برونو صعقه كان أشبه بوجه كلب بما يتّسم من إذلال للذات.

«شكراً لك، غاي»، وأحنى برونو رأسه، وفي تلك اللحظة بدأ ضربُ الدواليب المتواصِل يخفتْ، واضطرّ غاي إلى الحِفاظ على توازنه.

شعر بامتنان هائل، لقد كان القطار يتوقّف وصفعَ كتف برونو. «فلنترجّل ونحصل على هواء الوطن!».

ترجّلا وخرجا إلى عالم الصمت والظلام الدامس.

هتفَ برونو: «أهذا ما ينتظرنا؟ لا أضواء!».

رفعَ غاي عينيه حتى ضوء القمر كان غائباً، جعل الهواء البارد جسمه متيبّساً ويقظاً. سمعَ صوت صفع باب خشبيّ أليف في مكان ما. وأمامهما تنامت شرارة حتى أضحتْ مصباحاً، وركَضَ رجلٌ معه نحو خلفيّة القطار حيث فُتِحَ باب عربة الشحن وكشفَ عن مربّع من الضوء ومشى غاي ببطء نحو الضوء، وتبعه برونو.

من بعيد وعلى نجد أسود منبسط ناح قطار، نواحاً متواصِلاً، وتابع النواح من مسافة أبعد. كان صوتاً تذكّره من عهد الطفولة، جميلاً، نقيّاً، موحِشاً. كأنَّ حصاناً بريّاً يهزّ عرفه الأبيض. وبدفقٍ من الإحساس بالصحبة، شَبكَ غاي ذراعه بذراع برونو.

زعقَ برونو، وهو ينتزع نفسه مُبتعداً ومتوقّفاً: «لا أريد أنْ *أمشي!*». كان الهواء البارد يجعله ينكمش كسمكة.

بدأ القطار يستعد للانطلاق دفعَ غاي جسم برونو الضخم والرخو نحو متنه.

قال برونو بصوت واهن عند باب مقصورته، وقد بدا عليه التعب إلى درجة السقوط: «أترغب في شرب كأس قبل النوم؟».

«شكراً لك، لا أستطيع».

كتمَتْ الستائر الخضراء همسهما.

«لا تنس أنْ تناديني عند الصباح سوف أترك الباب غير مُقفَل إذا لم أُجِبْ، ادخل، أسمعت؟».

مال غاي متكّئاً على جدران الستائر الخضراء وهو يشقّ طريقه نحو مضجعه.

دفعته العادة إلى التفكير في كتابه وهو يضطجع. لقد تركه في غرفة برونو. كتابه عن أفلاطون. لم تعجبه فكرة أنْ يقضي الكتاب الليل في غرفة برونو، أو فكرة لمس برونو للكتاب وفتحه.

الثالث

كان قد اتصل بميريام هاتفيّاً في الحال، وحدَّد لها موعداً للقائه في المدرسة الثانويّة التي تقع بين منزليهما.

وقفَ في أحد أركان ملعب أرض الإسفلت، ينتظر. سوف تتأخّر، طبعاً. وتساءلَ، لِمَ اختارتْ المدرسة الثانويّة لأنها تعتبرها أرضها الخاصّة؟ كان يُحبّها عندما كان ينتظرها هنا.

كانت السماء فوقه زرقاء زُرقةً قويّة صافية وصبّتْ الشمس أشعّتها الحارقة، ليست صفراء بل خالية من اللون، كشيءٍ تحوّل إلى اللون الأبيض بسبب حرارته، وشاهد بعد الأشجار أعلى مبنى ضيِّق يميل لونه إلى الأحمر لم يكن يعلم بوجوده، كان قد ارتفعَ عمّا كان عليه منذ أنْ أتى إلى ميتكالف

قبل ذلك بعامَين. أشاح بنظره لا يوجد أي كائن بشريّ في الأفق، وكأنّ الحرارة دفعتْ الجميع إلى التخلّي عن مبنى المدرسة وحتى عن المنازل التي في الجوار. نظر إلى الدرجات العريضة الرماديّة التي امتدتْ من القنطرة المُعتِمة لبوابات المدرسة. ما زال يتذكّر رائحة الحبر، الممتزجة بالقليل من العَرَق على الحواف المجعّدة لكتاب الجبر الخاصّ بميريام. ما زال يتذكّر اسم **ميريام** كُتِبَ بالقلم الرصاص على حافة صفحاته، ورسم الفتاة ذات خصلة الشعر المتموجة بخط مائل على الورقة الأولى البيضاء عندما فتح الدفتر لكي يحلّ المسائل الحسابيّة بالنيابة عنها. لماذا اعتقد أنَّ ميريام تختلفُ في أي شيء عن كل الأخريات؟.

اجتاز البوابة الواسعة بين الأسلاك الشائكة المتصالبة ونظر من جديد على طول جادة الكوليج. ثم رآها، تحت الأشجار الخضراء المصفرَّة التي تنمو على طول الرصيف. بدأ قلبه يخفق بنبض أقوى، لكنّه طرفَ بعينيه بحركة عاديّة متعمّدة. كانت تمشي بخطوتها الكسول الاعتياديّة، المتمهّلة. ثم ظهر رأسها، تُخيِّمُ عليه قبعة عريضة، بلون خفيف، وتوزّعت بقع الضوء والظل على قامتها بشكلٍ عشوائيّ. ولوّحتْ له بيدها بحركة مسترخية، وأخرج غاي إحدى يديه من جيبه، ثم أعادها، وعاد أدراجه إلى باحة الملعب، وقد أضحى فجأة متوتراً وحيياً كصبيّ صغير. قال في نفسه: إنها تعلم بأمر وظيفة بالم بيتش، تلك الفتاة الغريبة التي تحت الأشجار. وكانت أمّه قد قالتْ له، قبل نصف ساعة، أنها ذكرتْ الأمر لميريام في آخر مُكالمة لها معها.

«مرحباً، غاي»، ابتسمتْ ميريام ومن ثم ضمَّتْ بسرعة شفتيها العريضتين البرتقاليتين – الزهريتين، بسبب المسافة التي تُباعِدُ ما بين أسنانها الأماميتين، كما تذكّر غاي.

«كيف حالك، ميريام؟». وألقى بصورة لا إراديّة إلى قامتها، الممتلئة ولكن ليس كأنها حُبلى، وخطر في باله أنها ربما كذبَتْ. كانت ترتدي تنورة عليها أزهار برّاقة وبلوزة بيضاء قصيرة، وكانت حقيبة يدها الكبيرة البيضاء من الجلد المدبوغ المنسوج.

جلستْ باحتشام على الكرسي الحجريّ الوحيد الذي في الظلّ، وسألته أسئلة لا معنى لها عن رحلته. كان وجهها قد أضحى أكثر امتلاءً حيث كان دائماً ممتلئاً، عند أسفل الوجنتين، بحيث إنَّ ذقنها بدتْ أكثر بروزاً. ولاحظَ غاي أنّه أصبحتْ هناك الآن تغضنات صغيرة تحت عينيها. لقد عاشتْ طويلاً، وهي في سن الثانية والعشرين.

أجابته بصوت خالٍ من التعبير: «في شهر كانون الثاني سيولَد الطفل».

إذن بقيَ شهران. «أعتقد أنكِ ترغبين في الزواج منه».

أدارتْ وجهها قليلاً ثم أطرقَتْ رأسها. على وجنتها القصيرة، أبرزتْ أشعة الشمس أكبر حبّاتْ النمش، وشاهد غاي التشكيل الذي تذكّره ولم يخطر في باله منذ أنْ تزوّجَ منها. كم كان واثقاً في وقتٍ من الأوقات من أنّه امتلكها، وامتلك أصغر فكرة من أفكارها! وفجأة بدا أنَّ الحبَّ كلّه كان البديل المُزعِج، الفظيع، للمعرفة. الآن لا يعرف أصغر جزء من العالم الجديد في عقل ميريام. أيُعقل أنْ يحدث الشيء نفسه مع آنْ؟.

حثّها قائلاً: «ألن تتزوجي منه، يا ميريام؟».

«ليس في الوقت *الحاليّ*. في الواقع، هناك بعض التعقيدات».

«مثل ماذا؟».

«في الواقع، قد لا نتمكّن من الزواج بسرعة كما نتأمّل».

«أوه». إذن أصبحا *نحنُ*. كان يعلم كيف يمكن أنْ يبدو، طويل القامة، وأسمر، وذا وجه طويل، كوجه ستيف. النوع الذي لطالما جذب ميريام. النوع الوحيد الذي يمكن أنْ تنجب طفلاً منه. وهو يُدركُ أنها تريد ذلك الطفل حقاً. ربما حدث أمر، لا صِلة له بالرجل، دفعها إلى أنْ ترغب في إنجاب ذلك الطفل. استشفّ ذلك من الطريقة المتكلّفة، المتزمتة التي جلستْ بها على المقعد، بتلك النشوة الذاتيّة التي لطالما رآها أو تخيّلها على وجوه النساء الحبالى. «ولكن أعتقد أنَّ هذا لا ينبغي أنْ يؤخّر الطلاق».

«حسن، لم أكنْ أعتقد ذلك – حتى قبل يومين من الآن. رأيتُ أنَّ أوين سوف يكون حرّاً لكي يتزوج هذا الشهر».

«أوه أهو متزوج الآن؟».

قالتْ مع تنهيدة قصيرة، وشبه ابتسامة: «نعم، هو متزوج».

أطرقَ غاي برأسه بارتباك مُبهم وخطا خطوة أو خطوتين بطيئتين على الإسفلت. كان يعلم أنَّ الرجل سيكون متزوجاً وتوقَّعَ ألّا تكون لديه النيّة للزواج منها إلّا إذا اضطرَّ إلى ذلك. «أينْ هو؟ أهو هنا؟».

أجابتْ: «إنه في هيوستن ألا تريد أنْ تجلس؟».

«كلا».

«إنكَ دائماً لا ترغب في الجلوس».

لزم الصمتْ.

«أما زلتَ تلبس الخاتم؟».

«نعم». كان خاتم المدرسة من شيكاغو، الذي كانت ميريام دائماً تُبدي إعجابها به لأنه يدل على أنّه طالب. كانت تُحدِّقُ إلى الخاتم مع ابتسامة خجولة وضعَ يديه في جيبه. «ما دمتُ هنا، أودّ أنْ أُنهي الأمر أيمكننا تحقيق ذلك هذا الأسبوع؟».

«أريد أنْ أرحل، يا غاي».

«من أجل إتمام الطلاق؟».

فتحتْ يديها القصيرتين والسميكتين بإيماء مُضطرب وغامض، وفجأة تذكّرَ يديّ برونو. كان قد نسيَ برونو تماماً، بعد أنْ ترجّلا من القطار في صباح ذلك اليوم ونسيَ كتابه.

قالتْ: «لقد سئمت المكوث هنا».

«يمكننا الحصول على الطلاق في دالاس إذا شئتِ». قال في نفسه، إنَّ أصدقاءها يعلمون أنَّ العلاقة بينهما قد انتهتْ.

«أريد أنْ أنتظر، يا غاي هل تمانع؟ فقط لبعض الوقت؟».

«أعتقد أنكِ أنتِ تمانعين هل ينوي أنْ يتزوجكِ أم لا؟».

«في وسعه أنْ يتزوجني في شهر أيلول. حينئذٍ سيكون قد أصبحَ حرّاً، ولكن–»

«ولكن ماذا؟». وسط فترة صمتها، وبينما لسانها يلحق كالأطفال شفتها العليا، أدرك الفخ الذي كانت واقعة فيه. كانت ترغبُ في ذلك الطفل

رغبة جامحة، وهي مستعدة للتضحية بنفسها في ميتكالف بالانتظار أربعة أشهر أخرى حتى ولادته لكي تتزوج من والده وشعر، رُغماً عنه، بقدرٍ من الشفقة عليها.

«أريد أنْ أرحل يا غاي معك».

ارتسم على وجهها جهدٌ حقيقيّ لإظهار الصدق، إلى درجة أنّه كاد ينسى ما كانت تطلب، وسببه «ماذا تريدين، يا ميريام؟ أتريدين مالاً لكي تذهبي إلى مكان ما؟».

كان التعبير الحالم في عينيها الخضراوين - الرماديتين يتلاشى. «قالتْ أمّك إنك ذاهب إلى بالم بيتش».

قد أذهب إلى هناك من أجل العمل فكّرَ في نادي بالميرا مع وخزٍ من الإحساس بالخطر، لقد بدأ يبتعد منذ الآن.

«هلّا أخذتني معك، يا غاي؟ هذا آخر طلب أطلبه منك إذا استطعتُ أنْ أمكث معك حتى شهر كانون الأول ومن ثم نتطلّق-».

«أوه»، قالها بهدوء، لكنَّ شيئاً خفقَ في صدره، كأنَّ قلبه انكسر. فجأة أصبحت تحتقره، هي وكل الذين تعرفهم وتجذبهم إليها. طفل رجل آخر. اذهبْ معها، كُنْ زوجها ريثما تلِد طفلَ رجلٍ آخر في بالم بيتش!.

«إذا لم تأخذني معك سوف أرحل».

«ميريام، في استطاعتي أنْ أحصل على الطلاق الآن ولستُ بحاجة إلى الانتظار حتى أرى الطفل ولا القانون ينتظر». اهتزّ صوته.

أجابتْ ميريام بذلك الخليط من التهديد والمُناشدة الذي عبث بغضبه وبحبّه عندما كان يُحبّها، وشوّشه: «لن تفعل هذا بي».

إنه يشعر الآن بأنها تشوّشه وهي على صواب لن يُطلّقها الآن، ولكن ليس لأنه ما زال يُحبّها، وليس لأنها ما زالتْ زوجته وبالتالي يتوجب عليه حمايتها، بل لأنه أشفقَ عليها ولأنه تذكَّرَ أنّه أحبّها ذات يوم. لقد أدركَ الآن أنّه أشفقَ عليها حتى وهما في نيويورك، حتى عندما كتبتْ له تطلبُ مالاً. قال بصوتٍ هادئ: «إذا ذهبتِ إلى هناك لن أقبل العمل لا فائدة من قبوله»، قال لنفسه: لكنّكَ فَقَدتُه الآن، فما الداعي لمناقشة الموضوع؟.

تحدّته: «لا أعتقد أنكَ ستستسلم لوظيفة كتلك».

أشاح ببصره عن ابتسامة الانتصار الملتوية قال في نفسه: هنا هي على خطأ، لكنّه لزم الصمتْ. مشى خطوتين على الإسفلتْ المُبرغل ثم عاد من جديد، مرفوع الرأس قال لنفسه: اهدأ ماذا يمكن للغضب أنْ يُحقّقه؟ كانت ميريام تكرهه عندما يُبدي ردَّة فعل كهذه، لأنها تحبّ المناقشات الصاخبة. قال لنفسه: وتحبّ أنْ تبدأ أحدها في هذا الصباح. كانت تكرهه عندما يُبدي مثل ردَّة الفعل هذه، إلى أنْ علِمَتْ على المدى الطويل أنَّ ردّة الفعل تلك تؤلمه أكثر. لقد علِمَ أنّه أصبحَ الآن دمية بين يديها، لكنّه شعر بأنَّ ليس في استطاعته أنْ يُبدي أيّ ردّة فعل أخرى.

«إنني حتى لم أحصل على ذلك العمل بعد، كما تعلمين، سوف أقوم ببساطة بإرسال برقيّة إليهم أخبرهم فيها أنني لا أريده». لاحظَ من جديد، من فوق ذُرى الأشجار، البناء الجديد ذا اللون المائل إلى اللونْ الأحمر والذي كان قد شاهده قبل أنْ تأتي ميريام.

«ثم ماذا؟».

«أشياء كثيرة لكنكِ لا تعرفينها».

قالتْ ساخرة: «الهروب؟ إنه أرخص أسلوب لحل المشاكل».

مشى من جديد، وعاد. وهناك آن، مع آن يستطيع أنْ يتحمّل هذا، أنْ يتحمّل كل شيء. وفي الواقع، شعر بصورة غريبة بأنّه مُستسلِم. ألأنه الآن مع ميريام، رمز فشل عهد شبابه؟ عضَّ على طرف لسانه. كان يسكنه، كعيبٍ في حجرٍ كريم، غير مرئيّ على السطح، خوفٌ وتوقّع فشل لم يتمكّن أبداً من رأبه. أحياناً، كان الفشل احتمالاً يفتنه، كما حدث أحياناً، في المدرسة الثانوية وفي الجامعة، عندما سمَح لنفسه بالرسوب في امتحاناتٍ كان يمكن أنْ يجتازها؛ قال في نفسه، كما حدث عندما تزوج من ميريام ضد رغبة عائلتيهما وأصدقائهما كلهم. أما كان يعلم أنّ الزواج سيفشل؟ والآن ها هو قد تخلّى عن أكبر عمل حصل عليه، من دون أنْ ينبس ببنت شفة. سوف يرحل إلى المكسيك ويقضي بضعة أيام مع آنْ. سوف يستهلك ذلك نقوده كلها، ولكن لِمَ لا؟ أكان سيتمكّن من العودة إلى نيويورك ليعمل من دون أنْ يُقابل آن أولاً؟

سألها: «أثمة أمرٌ آخر؟».

قالت له من بين أسنانها المتباعدة: «لقد قلتُ ما عندي».

الرابع

مشى إلى المنزل بخُطى بطيئة، مُقترباً من شارع أمبروز، حيث يُقيم، مُجتازاً شارع ترافيس، الذي تسوده الظلال والسكينة. أصبحَ هناك الآن محلّ صغير لبيع الفاكهة عند منعطف شارعيّ ترافيس وديلانسي، يقوم مباشرة أمام مرج منزل شخص ما الأماميّ يشبه محل بيع ألعاب الأطفال. وكانت فتيات ونساء يرتدين ملابس بيضاء يتدفّقن من مبنى لغسيل السيارات شوّه الطرف الغربي من شارع أمبروز، وهن يتسامرن، في طريقهن لتناول وجبة غداء مُبكِّرة. كان سعيداً لأنه لم يُقابل أي شخص في الشارع اضطرَّ إلى التحدّث معه. شعر بأنّه بطيء الحركة وهادئ ومُستسلِم، وحتى بأنه سعيد. غريبٌ كم تبدو ميريام بعيدة –وربما أجنبيّة– بعد مُضيّ خمس دقائق من الحديث معها، وكم يبدو كل شيء، حقاً، تافهاً. الآن شعر بالخزي من القلق الذي انتابه في القطار.

عندما وصل إلى المنزل قال مع ابتسامة: «لا بأس باللقاء، ماما».

كانت أمّه قد استقبلته برفع حاجبيها دلالة على القلق: «يُسعدني أنْ أسمع هذا». وأدارت الكرسي الهزّاز وجلستْ لكي تستمع، كانت امرأة ضئيلة الحجم ذات شَعر خفيف بنيّ، والمقطع الجانبيّ لأنفها الجميل ما زال مستقيماً، وتتصف بحيويّة جسديّة بدتْ الآن تتلألأ وتلمع في لون شعرها الفضيّ، وكانت دائماً تقريباً مرحة. وهذه الحقيقة في المقام الأول هي التي دفعَتْ غاي إلى الشعور بأنّه هو وهي على طرفَيّ نقيض، وجعلته يشعر بأنه غريب عنها نوعاً ما منذ أنْ بدأ يُعاني من ميريام. كان غاي يحبّ أنْ يُعالج آلامه، ويعرف كل شيء عنها، بينما كانت أمّه تستشيره لكي تنسى. «ماذا قالت؟ أنتما حتماً لم تتوصلا إلى الشيء الكثير. ظننتُ أنكَ ستتناول طعام الغداء معها».

«كلا، يا أمي» وتنهّدَ وغاص على الأريكة العريضة ذات القماش المُقصَّب. «كل شيء على ما يُرام، ولكن قد لا أتولى عمل نادي بالميرا».

«أوه، غاي. لِمَ لا؟ أهي -؟ أصحيح أنها حبلى؟».

قال غاي في نفسه: لقد خاب أمل أمّه، ولكن بدرجةٍ معتدلة، لأنَّ العمل كان هاماً. وفرِحَ لأنها لم تكن تعرف مدى أهمية ذلك العمل. فقال «صحيح»، وترك رأسه يتراجع إلى الخلف إلى أنْ شعر ببرودة إطار الأريكة الخشبيّ على خلفيّة عنقه. فكّرَ في الفجوة التي تفصل حياته عن حياة أمّه. إنه لم يُخبرها إلّا أقل القليل عن حياته مع ميريام. ماذا كان في وسع أمّه، التي نشأتْ تنشئة مريحة وسعيدة في مسيسيبي، وتُشغل نفسها الآن في شؤون منزلها الكبير وحديقتها وبأصدقائها المُخلصين، الممتعين، في ميتكالف - ماذا كان في وسعها أنْ تفهم من خبثٍ شامل كخبث ميريام؟ أو، على سبيل المثال، ماذا في وسعها أنْ تفهم من الحياة المتقلقلة التي كان يرغب في عيشها في نيويورك إكراماً لفكرة بسيطة أو اثنتين عن عمله؟.

ختاماً سألته: «ما دخل بالم بيتش بميريام؟».

«أرادتْ ميريام أنْ ترافقني إلى هناك لأحميها فترة من الزمن ولم أطِقْ ذلك». شدَّ غاي يده. تراءتْ له فجأة ميريام في بالم بيتش، ميريام تقابل كلارينس بريلارت، مدير نادي بالميرا. ومع ذلك لم تكن رؤية صدمة بريلارت الكامنة تحت كياسته الهادئة، الثابتة، التي يعرفها غاي، بل ببساطة اشمئزازه الشخصيّ هو الذي جعل الأمر مُستحيلاً. لأنّه لم يتحمّل وجود ميريام قريبة منه وهو يعمل على مشروع كهذا. كرّر القول: «لم أطقه».

كل ما قالت، «أوه»، لكنَّ صمتها أصبح الآن ينمّ عن فهم. وقال غاي في نفسه: فإذا أدلتْ بأي تعليق فسوف يُذكّره تعليقها بعدم موافقتها القديمة على زواجهما وهي لم تُذكّره بها هذه المرة. وأضافتْ: «لم تُطق الوضع ما دام قائماً».

«لم أطقه» ونهضَ واقفاً وضمَّ وجهها الرقيق بين يديه. قال، وهو يُقبّلها على جبينها: «أمي، لا يهمني البتّة، حقاً لا يهمني البتّة».

«لا أصدّق أنكَ تهتم، لِمَ لا تهتم؟».

قطع أرض الغرفة نحو مكان البيانو. «لأنني ذاهبٌ إلى المكسيك لكي أقابل آنْ».

ابتسمَتْ «أوه، حقاً؟»، وساد مرح صباح ذلك اليوم الذي تقضيه معه، «يا لك من متسكّع!».

ابتسم ملتفتاً إلى الخلف: «أترغبين في الذهاب إلى المكسيك؟». وبدأ يعزف مقطوعة ساراباند كان قد تعلَّمها وهو طفل.

قالت له أمّه برعبٍ ساخر: «المكسيك! لا يمكن لأي شيء أنْ يدفعني إلى الذهاب إلى المكسيك، ربما يمكنكَ أنْ تُحضِر آنْ لزيارتي في طريق عودتك».

«ربما».

اقتربتْ منه ووضعَتْ يديها بحياء على كتفيه: «أحياناً، يا غاي، أشعر بأنك سعيد من جديد في أشد الأوقات غرابة».

الخامس

ماذا حدث؟ اكتبْ ***في الحال*** أو الأفضل، اجرِ مكالمة مدفوعة الثمن. سوف نمكث هنا في الريتز أسبوعَين آخرَين. اشتقنا إليك كثيراً في الرحلة، من المؤسِف أنكِ لم تتمكن من مرافقتنا، لكنني أتفهَّم. وأتمنى لك الصحّة التامّة في كل لحظة من النهار، يا عزيزي. سوف ينتهي هذا الوضع قريباً وسوف ننهيه. ومهما يحدث، أخبرني وسوف نحلّ المشكلة. غالباً ما أشعر أنكَ ***لا تفعل*** أعني، لا تواجه المشاكل.

أنتَ شديد القُرب، ومن السخف ألّا تتمكن من المجيء لقضاء يوم أو يومين. آمل أنْ تكون في مزاجٍ حَسَن، وأتمنى أنْ يتوفّر لديك الوقت. أحبّ أنْ أستقبلك هنا، وأنت تعلمُ أنَّ العائلة ترغب في ذلك. عزيزي، تعجبني الرسومات وأنا شديدة الاعتزاز بك وأستطيع أن أتقبّل فكرة ابتعادك خلال الأشهر التالية لأنك ستعمل على تنفيذ الرسومات ببنائها. ووالدي أيضاً شديد الإعجاب بها. إننا نتحدث عنكَ طوال الوقت.

مع كل حبي، وكل ما يتعلّق به،

كن سعيداً، يا عزيزي،

أ.

كتبَ غاي برقيّة لكلارينس بريلارت، مدير نادي بالميرا يقول: «بالنظر إلى الظروف السائدة، من المستحيل عليّ أنْ أقبل المهمّة. مع أعمق أسفي وشكراً على تأييدك وعلى تشجيعك المتواصِل سأبعث إليك برسالة لاحقاً».

فجأة تذكّرَ الرسومات الأوّليّة التي سيستخدمانها في موقعه - تقليداً لأسلوب فرانك لويد رايت من شركة وليم هاركْنس. قال في نفسه وهو يُملي نصّ البرقيّة عبر الهاتف، والأسوأ هو أنَّ الهيئة الإداريّة قد تطلب من هاركنس أنْ تنسخ بعضاً من أفكاره وطبعاً سوف تفعل الشركة ذلك.

أرسل برقية إلى آنْ يُخبرها فيها أنه سوف يذهب بالطائرة في يوم الإثنين وأنّه سيكون حراً لبضعة أيام. وبسبب وجود آنْ، لم يزعج نفسه بالتساؤل عن عدد الأشهر، وعدد السنين، ربما، التي ستمرّ قبل أنْ يُصادف مشروعاً بضخامة نادي بالميرا.

السادس

في مساء ذلك اليوم، كان تشارلز أنتوني برونو مُستلقياً على ظهره في إحدى غرف فندق إل باسّو، يُحاول أنْ يوازن قلم حبر ذهبيّ على أنفه الرقيق، الأفطس. كان من شدّة القلق بحيث جافاه النوم، ولم يكن حيويّاً بالقدر الكافي لكي ينزل إلى إحدى الحانات التي في الجوار ويُقلِّب التفكير. كان يُقلِّب التفكير في الأمور طوال النهار، ولم يُفكِّر كثيراً فيها في إل باسّو. ولم يفكِّر كثيراً أيضاً وهو في غراند كانيون. بل قلّبَ التفكير أكثر في الفكرة التي خطرتْ على باله في الليلة ما قبل السابقة وهو على متن القطار. من المؤسِف أنَّ غاي لم يوقِظه في صباح ذلك اليوم. وهذا لا يعني أنَّ غاي يصلُح لأنْ يُخطِّط لارتكاب جريمة قتل معه، لكنّه أثار إعجابه، بشخصيته. كان غاي من النوع الذي يستحق التعرُّف عليه، ثم إنَّ غاي ترك كتابه، ويمكن أنْ يستعيده.

أصدرتْ مروحة السقف ضجيجاً معيّناً لأنَّ إحدى شفراتها كانت مفقودة. قال في نفسه: لو أنَّ الرابعة موجودة لكان الهواء أكثر برودة قليلاً. وكانت إحدى صنابير الماء في المرحاض تسرّب ماءً، وإحدى المُثبِّتات في مصباح القراءة فوق السرير مكسورة فأصبح رخواً، وكانت هناك بصمات

أصابع على كامل باب الخزانة. وقالوا له إنّه أفضل فندق في البلد! لماذا في كل غرفة في كل فندق نزل يوجد شيء مُعطَّل؟ ذات يوم سوف يعثر على غرفة في الفندق المثاليّ وينزل فيها، حتى وإنْ كانت في جنوب إفريقيا.

اعتدلَ في جلسته على حافة السرير ومدَّ يده نحو جهاز الهاتف. «أريد أنْ أُجري مُكالمة خارجيّة». ألقى نظرة مُجرَّدة إلى لطخة من القذارة الحمراء كان حذاءه قد تركها على اللحاف الأبيض. «غريت نيك 166J... غريت نيك، نعم». وانتظر. «لونغ أيلند... في *نيويورك*، لنك، ألم تسمع بها أبداً؟».

خلال أقلّ من دقيقة، اتصل بأمّه.

«نعم، أنا هنا. أما زلت ستغادر في يوم الأحد؟ هذا جيد... حسن، لقد قمتُ بتلك الرحلة على متن بغل. وكاد يُرهقني، أيضاً... نعم، شاهدتُ الكانيون... لكنَّ الألوان مُبتذلة... لا بأس، وكيف الأحوال معك؟».

بدأ يضحك، خلع حذاءه ورفسه وتدحرجَ على السرير مع جهاز الهاتف، وهو يضحك. كانت تحكي له كيف عادتْ إلى المنزل لتجد الكابتن يُسلّي اثنين من أصدقائها –رجلَين كانت قد قابلتهما في الليلة السابقة– جاءا، واعتقدا أنَّ الكابتن هو والدها، وأخذا يصرِّحان بأشياء شنيعة.

السابع

ارتكز غاي على مِرفقه على السرير، وأخذ يُحدّق إلى الرسالة الموجَّهة إليه ومكتوبة بقلم رصاص.

قالتْ أمّه: «أعتقد أنّه سوف تُتاح لي فرصة واحدة أخرى لأسهر عند سريرك فترة طويلة».

استلم غاي الرسالة من بالم بيتش «ربما ليس لفترة طويلة، يا أمي».

«متى ستُقلِع طائرتك غداً؟».

«في الواحدة وعشرين دقيقة».

مالتْ ودسّت أطراف غطاء أسفل سريره من غير ضرورة لذلك. «لا أعتقد أنّه سيُتاح لك وقت لتذهب وتزور إيثيل؟».

«أوه، حتماً سأزورها، يا أمي». كانت إيثيل بيترسون إحدى صديقات أمّه القديمات وكانت قد أعطته أول دروسه في العزف على البيانو.

الرسالة التي استلمها من بالم بيتش وصلته من السيد بريلارت. كان قد استلم المشروع وأقنع السيد بريلارت الهيئة الإداريّة بخصوص النوافذ الشبيهة بنوافذ متحف اللوفر.

قالتْ أمّه من العتبة: «لديّ هذا الصباح قهوة قويّة لذيذة، أتحبّ أنْ تتناول وجبة الإفطار في السرير؟».

ابتسم غاي لها: «أحبّ ذلك!».

أعاد قراءة رسالة السيد بيلارت بعناية، ثم أعادها إلى المُغلَّف، ومزّقها بحركة بطيئة ثم فتح الرسالة الأخرى، كانت مؤلَّفة من صفحة واحدة، خُطَّتْ بالقلم الرصاص. والتوقيع الشديد الزخرفة الذي في الأسفل دفعه إلى الابتسام من جديد: تشارلز أ. برونو.

عزيزي غاي:

أنا رفيقك في السفر على متن القطار، أتذكُر؟ لقد نسيتَ كتابك في غرفتي في تلك الليلة وعثرتُ على عنوانك في تكساس داخله وخمّنتُ أنّه ما زال فعّالاً. إنني أبعثُ الكتاب إليك لقد قرأتُ جزءاً منه، لم أكنْ أعلم أنَّ أفلاطون أجرى كل ذلك الكمّ من الأحاديث.

لقد استمتعتُ كثيراً بتناول وجبة العشاء معك في تلك الليلة وأتمنّى أنْ تسمح لي بضمّك إلى لائحة أصدقائي. وسوف يُسعدني أنْ أراك في سانتا فِه وإذا تصادفَ وغيَّرتَ رأيك، راسلني على العنوان التالي: فندق لا فوندا، سانتا فِه، نيو مكسيكو، خلال الأسبوعَين التاليين على الأقل.

إنني لا أني أفكّر في تلك الفكرة التي تبادلناها عن ارتكاب جريمتيّ قتل في الإمكان تنفيذها، أنا واثق. لا أستطيع أنْ أعبِّر لك عن مدى ثقتي في تنفيذ الفكرة! على الرغم من عِلمي أنَّ الموضوع لم يُثِر اهتمامك.

أريد أنْ أعرف مواصفات زوجتك الأشدّ إثارة للاهتمام؟ أرجوك

أسرع بمكاتبتي. خلاف فقدان محفظتي في إل باسّو (سُرِقَتْ خارج الحانة أمام عيني) لم يحدث أيّ شيء يستحقّ الذكر. لم تعجبني إل باسّو، مع اعتذاري إليك.

آمل أنْ أسمع أخبارك قريباً

صديقك،

تشارلز أ. برونو

ملاحظة: أنا شديد الأسف لأنني استغرقتُ في النوم ولم أرك ترحل في ذلك الصباح.

ت.أ.ب

سرّته الرسالة بصورةٍ ما. كان التفكير في حريّة برونو شيئاً ساراً.

قال بفرح لأمّه: «البرغل! في الشمال لا يأكلون البرغل مع البيض المقلي!».

لبسَ رداءً قديماً مُفضّلاً لديه كان حاراً بالنسبة إلى حالة الطقس، وجلس مستنداً إلى السرير مع صحيفة ***ميتكالف ستار*** وصينيّة مُزعزعة القوائم خاصّة بالسرير تحمل وجبة إفطاره.

بعد ذلك، أخذَ دشّاً وارتدى ملابسه كما لو أنَّ لديه عملاً يجب أنْ يؤديه في ذلك اليوم، ولكن لم يكن لديه أيّ شيء. بالأمس قام بزيارة آل كارتْرايت. ربما يقابل بيتر ريغز، صديقه من أيام الفتوّة، لكنَّ بيتر كان حينئذٍ يعمل في نيو أورلينز. وتساءلَ، ماذا تفعل ميريام. لعلّها تشذّب أظافر يديها في شرفة منزلها الخلفيّة، أو تلعب الداما مع فتاة الجيران الصغيرة التي تعشقها، وتريد أنْ تكون شبيهة بها. لم تكن ميريام من النوع الذي يكتئب إذا ما فشلت خطة ما. وأشعل غاي سيجارة.

وصلَه صوت *رنين* ناعم ومتقطّع من الطابق السفليّ، حيث كانت أمّه أو أورسلين الطبّاخة تنظّف الفضّيات وتُسقِطها قِطعة فقطعة فوق بعض.

لِمَ يُغادر إلى المكسيك في هذا اليوم؟ كان يعلم أنَّ الساعات الأربع

والعشرين التالية الخاملة سوف تكون بائسة. وهذه الليلة، قد يأتي خاله من جديد، وربما بعضٌ من أصدقاء والدته. كلهم يريدون أنْ يقابلوه. ومنذ زيارته الأخيرة، نشرتْ صحيفة *ميتكالف ستار* عموداً عنه وعن عمله، وأتتْ على ذِكر مِنَحِه، وجائزة روما التي لم يتمكّن من استخدامها بسبب نشوب الحرب، والمخزن الذي صمّمه في بيتسبرغ، ومُلحق الحالات الطارئة في مستشفى شيكاغو. وقراءة ذلك في الصحف شيء يُثير الإعجاب. بل كاد ذلك يُشعِره بأنّه شخصيّة هامّة، حسب ما يتذكَّر، في ذلك اليوم الموحِش في نيويورك عندما وصلت القُصاصة داخل رسالة أمي.

دفعَه حافز مُفاجئ ليكتب إلى برونو للجلوس على طاولة العمل. لكنّه أدرك، بعد أنْ أمسك قلم الحبر بيده، أنّه ليس لديه ما يقول. وتراءى له برونو ببزَّته البنيّة ذات لون الصدأ، وشريط آلة التصوير مُعلَّق من كتفه، يتهادى مرتقياً تلاً قاحلاً في سانتا فِه، مع تكشيرة تكشف أسنانه النخرة يبتسم لشيءٍ ما، رافعاً آلة التصوير بغير ثبات ويلتقط الصور. برونو في جيبه ألف دولار، جالس في حانة، في انتظار أمّه. ماذا لديه يُفضي به لبرونو؟ أعاد الغطاء إلى قلم الحبر ورماه على الطاولة.

هتف: «ماما؟» وهرعَ يهبط الدرَج. «ما رأيك في الذهاب إلى السينما بعد ظهيرة هذا اليوم؟».

قالتْ أمّه إنها ارتادتْ السينما مرّتين في ذلك الأسبوع. وبّخته قائلة: «أنتَ تعلم أنكَ لا تحب ارتياد السينما».

«ماما، إنني أرغبُ حقّاً في الذهاب!» وابتسم، وأصرَّ.

الثامن

رنَّ جرس الهاتف في تلك الليلة عند حوالي الساعة الحادية عشرة. رفعتْ أمّه السمّاعة، ثم دخلتْ عليه وهتفتْ له من غرفة الجلوس حيث جلس مع خاله وزوجة خاله واثنين من أنسبائه، ريتشي وتاي.

قالتْ أمّه: «مُكالمة خارجية».

أومأ غاي إيجاباً. إنّه بريلارت، طبعاً، يطلب المزيد من التفسيرات. كان غاي قد أجاب عن رسالته في ذلك اليوم.

قال الصوت: «مرحباً غاي أنا تشارلي».

«تشارلي مَنْ؟».

«تشارلي برونو».

«أوه – كيف حالك؟ شكراً على الكتاب».

قال برونو بنبرة المرح الثمل التي تذكّرها غاي من القطار: «أنا لم أرسله بعد لكنَّني سأفعل ألن تأتي إلى سانتا فِه؟».

«أخشى أنني لا أستطيع».

«وماذا عن بالم بيتش؟ هل أستطيع أنْ أزورك بعد حوالي أسبوعَين؟ أودّ أنْ أرى كيف تبدو».

«آسف، لقد انتهى ذلك كلّه».

«انتهى؟ لماذا؟».

«ظهرتْ تعقيدات لقد غيَّرتُ رأيي».

«بسبب زوجتك؟».

«كلّا – اااا». شعر غاي بغضب مُبهَم.

«أتريد منكَ أنْ تلازمها؟».

«نعم شيئاً من هذا القبيل».

«أتريد ميريام أنْ ترافقك إلى بالم بيتش؟».

دُهِشَ غاي لأنه تذكَّر اسمها.

«لم تحصل على الطلاق الذي تريده، أليس كذلك؟».

قال غاي باقتضاب: «سأحصل عليه».

هتفَ برونو لأحدهم: «*نعم، سوف أدفع ثمن هذه المكالمة!*»، ثم قال بامتعاض: «يا إلهي! اسمع يا غاي هل تركتَ ذلك العمل بسببها؟».

«ليس بالضبط لا يهمّ لقد انتهى الأمر».

«عليك أنْ تنتظر ريثما يولَد الطفل ثم تمنحك الطلاق؟».
لم يقُل غاي أي شيء.
«وذلك الرجل الآخر لن يتزوجها، أليس كذلك؟».
«أوه، نعم، هو-».
قاطعَه برونو متهكّماً: «ماذا؟».
«لا أستطيع أنْ أتكلَّم أكثر من ذلك لدينا ضيوف هنا هذه الليلة. أتمنى لك رحلة ممتعة، يا تشارلي».
«متى تستطيع أنْ تتكلَّم؟ غداً؟».
«لن أكون هنا في الغد».
«أوه» هنا بدا بورنو تائهاً، وهذا ما كان غاي يأمل في أنْ يحدث. ثم عاد صوته من جديد، بحميميّة كئيبة. «اسمع، يا غاي، إذا أردتَ أيّ شيء، كما تعلم، كل ما عليك أنْ تفعل هو أنْ ترسِل لي إشارة».
تجهّمَ غاي وصاغ سؤالاً في ذهنه، وعرِفَ في الحال الإجابة عنه وتذكَّر فكرة برونو عن ارتكاب جريمة قتل.
«ماذا تريد، يا غاي؟».
«لا شيء. أنا راضٍ تماماً أتفهم؟»، ثم قال في نفسه: لكنَّ هذا تبجّحٌ ثمل من جانب برونو لِمَ عليه أنْ يُبدي ردة فعل جديّة؟.
قال الصوت بسرعة، ثملاً أكثر من ذي قبل: «غاي، أنا جادّ».
قال غاي: «وداعاً تشارلي». وانتظر برونو كي يترك السمّاعة.
قال برونو مُهدِّداً: «لا يبدو أنَّ أمورك تسير سيراً حَسَناً».
«لا أرى أنَّ هذا من شأنك».
هتف بأنينٍ باكٍ: «غاي!».
أوشكَ غاي أنْ يتكلَّم، لكنَّ الخطَّ انقطع وسكتْ. كان لديه حافز إلى أنْ يطلب من عامل المقسم أنْ يقتفي أثر المُكالمة ثم فكَّرَ، تبجُّحٌ ثمل وضَجَرْ. انزعجَ لأنَّ برونو يحتفظ بعنوانه. مرَّرَ غاي يده عبر شَعره، وقفل عائداً إلى غرفة الجلوس.

التاسع

قال غاي في نفسه: إنّ كل ما أخبرها عن ميريام لا يهمّ بقدر أهميّة كونه وآنْ يسيران معاً على الدرب المفروش بالحصى. أمسكَ بيدها وهما يسيران، وأخذ يتأمّل المشهد المُحيط به حيث كل شيء أجنبيّ - جادّة عريضة مستوية تحفّ بها أشجارٌ عملاقة على غرار جادة الشانزليزيه، كتماثيل لجنود على قواعدها، وخلفها أبنية لا يعرفها. الباسيو ده لا ريفورما. مشتْ آنْ إلى جواره ورأسها ما زال مُنكّساً، وبخطوة بطيئة متناسقة مع خطوته. كتفاهما يتلامسان، وألقى نظرة سريعة إليها ليرى إنْ كانت تهمّ بالكلام، لتقول إنّه مُصيبٌ في قراره، لكنَّ شفتيها كانتا لا تزالان مستغرقتين في التفكير. وكان شعرها الأصفر الشاحب، المُثبَّتْ بسبيكة فضيّة خلف عنقها، يتحرّك بكسل في وجه الريح التي تهبّ من خلفها. كان ذاك فصل الصيف الثاني الذي يُقابلها فيه عندما تبدأ الشمس تترك سُمرتها على وجهها، ويتعادل صِباغ بشرتها مع لون شَعرها. وقريباً سوف يُصبح لون وجهها أشدّ قتامة من لون شَعرها، لكنَّ غاي كان يُحبّها كما هي الآن، كأنّها مصنوعة من ذهبٍ أبيض.

التفتتْ إليه مع ابتسامة حياء شديدة الرهافة ترتسم على شفتيها لأنّه كان يُحدِّقُ إليها: «أما كان يمكن أنْ تتحمَّل الوضع، يا غاي؟».

«كلا. ولا تسأليني عن السبب لم أستطع». لاحظَ أنَّ الابتسامة بقيَتْ، مع مسحة من الارتباك، وربما الانزعاج.

«إنَّ التخلّي عنه أمرٌ جلل».

الآن انتابه الغضب شعر بأنّه لم يعُد قادراً على الصبر. قال بهدوء: «إنني أمقتها بكل بساطة».

«ولكن لا ينبغي أنْ تمقتْ أيَّ شيءٍ».

قام بإيماء مُعبِّر عن توتّر الأعصاب: «إنني أمقتها لأنني أخبرتكِ بهذا كلّه ونحن نتمشّى هنا!».

«غاي، هذا كثير!».

تابعَ قائلاً وهو يُحدِّقُ أمامه: «إنّها تمثّل كل ما يستحق المقت. أحياناً

أعتقدُ أنني أكره كل شيء في العالم بلا لباقة، بلا ضمير. إنّها تمثّل كل ما يعنيه الناس عندما يقولون إنَّ أميركا لم تنضج أبداً، إنَّ أميركا تُكافئ الفاسد، إنّها من النوع الذي يُشاهد الأفلام الرديئة، ويمثّل فيها، ويقرأ مجلات القصص الغراميّة، ويُقيم في أكواخ البنغالو، وتضرب زوجها بالسوط وتدفعه إلى كسب المزيد من المال هذا العام لكي يتمكّنا من الشراء بالتقسيط في العام التالي، وتُساهم في تدمير زواج جيرانها-».

«كفى! غاي! إنكَ تتكلّم كطفل!» وأخذتْ تبتعد عنه.

أضافَ غاي: «وكوني أحببتُها في وقتٍ من الأوقات، أحببتُ كل ما يتّصل بها، يُثير اشمئزازي».

توقّفا وتبادلا النظرات، كان يجب أنْ يقول هذا، هنا والآن، أشدّ ما يمكن أنْ يقول قُبحاً. أراد أنْ يُعاني أيضاً من سخط آنْ، وربما من ابتعادها عنه وتركها له لكي يُتابع مشواره وحده. كانت قد تركته هكذا في مناسبةٍ أو اثنتين أُخريين، عندما لم يكن عقلانيّاً.

قالت آنْ، بنبرة شاردة، خالية من التعبير أرعبته، لأنه شعر بأنها ربما تتخلّى عنه ولا تعود أبداً: «أحياناً أكاد أُصدِّق أنكَ ما زلتَ تُحبّها».

ابتسم هو، وهي ازدادتْ رقّة. قال: «أنا آسف».

«أوه، غاي!»، ومن جديد مدّتْ يدها، كإيماء توسّل، فأمسك بها، «ليتكَ فقط تنضج!».

«لقد قرأتُ في مكانٍ ما أنَّ الناس لا ينضجون عاطفيّاً».

«لا يهمني ما قرأتَ إنهم ينضجون وسوف أثبتُ لك هذا حتى إنْ كان آخر عملٍ أقوم به».

فجأة شعر بالأمان وسأل سؤالاً أحمق، بصوتٍ أكثر انخفاضاً: «فيمَ أستطيع أنْ أفكّر الآن؟».

«في أنكَ لم تكن في أي وقتٍ آخر أشدّ اقتراباً من التحرُّر منها من الآن، يا غاي. فيمَ في اعتقادك ينبغي أنْ تفكّر؟».

رفع رأسه أعلى من ذي قبل كانت هناك لافتة كبيرة زهريّة اللون على قمة أحد الأبنية تقول: **توم 20**، وفجأة انتابه الفضول لمعرفة معنى ذلك ورغبَ

في سؤال آنْ. أراد أنْ يسألها لماذا يُصبح كل شيء أسهل وأشدّ بساطة وهو معها، لكنَّ الكبرياء منعته من طرح السؤال الآن، وعلى أيٍ حال كان السؤال سيبدو مُتكلِّفاً، من دون أنْ تُجيب عنه آن بالكلمات، لأنَّ الجواب هو بكل بساطة هو آنْ. وقد كان هذا هو الجواب منذ أنْ قابلها، في طابقٍ تحت أرضيّ حقير حيث مقرّ مؤسسة الفن في نيويورك، في اليوم الممطِر عندما خاض في الوحل ودخل لكي يُلقي خِطاباً في المخلوق الحيّ الوحيد الذي شاهده، الصينيّ صاحب المعطف الأحمر ذي القلنسوة. كان صاحب المعطف مع القلنسوة قد استدار وقال: «وصلتَ إلى 9A من الطابق الأرضيّ. لم تكن مُضطراً إلى قطع كل تلك المسافة إلى هنا»، ثم فاقَمَتْ ضحكتها السريعة، المسرورة، حنقه، بصورة مُبهمة، وفي الحال. لقد تعلَّم أنْ يبتسم بمقدار ربع بوصة، خوفاً منها، مع قليلٍ من الاحتقار لسيارتها الجديدة ذات اللون الأخضر القاتم والغطاء القابل للطيّ. قالت آنْ: «يُصبح للسيارة معنى أكثر عندما تُقيم في لونغ أيلند». في الأيام التي كان خلالها يمتعض من كل شيء ولم تكن الدورات التي تُقام في كل مكان أكثر من اختبارات لكي يتيقّن من أنّه يعرف كل ما سيقوله المدير، أو لكي يرى مدى السرعة التي يستطيع بها أنْ يتعلَّم ذلك ومن ثم يُغادر. «كيف في اعتقادك يستطيع أي شخص أنْ يدخل إلّا بعد إجراء قرعة؟ ما زال في استطاعتهم أنْ يرموا بك إلى الخارج إذا لم تُثِر إعجابهم». وأخيراً فهمَ الأمر من وجهة نظرها، الطريقة الصحيحة، والتحقَ بأكاديميّة ديمز للهندسة المعماريّة الاستثنائيّة في بروكلين مدة عام، بوساطة معرفة والدها لرجلٍ داخل الهيئة الإداريّة.

فجأة قالت آنْ في نهاية فترة صمت: «أنا أعلم أنكَ تحملها في داخلك، أعني المقدرة على أنْ تكون غاية في السعادة».

أومأ غاي بسرعة بحركة تدلّ على الموافقة، على الرغم من أنَّ آنْ لم تكن تنظر إليه. وشعر بقدرٍ من الخزيّ. إنَّ آنْ قادرة على أنْ تكون سعيدة وهي سعيدة الآن، وكانت سعيدة قبل أنْ تقابله، وهو فقط، ومشاكله، أحبطتْ سعادتها برهة من الزمن. هو أيضاً سوف يُصبح سعيداً عندما يعيش مع آنْ. هو أخبرها بذلك، لكنّه لا يتحمّل أنْ يُخبرها من جديد الآن.

سألها «ما هذا؟».

ظهر أمامهما منزل كبير مُستدير من الزجاج تحت أشجار متنزّه تشابولتبك.

قالتْ آنْ: «إنها الحدائق النباتيّة».

كان المبنى خالياً من الناس، خالياً حتى من شخص مسؤول. وكان الجو يعبق برائحة تربة دافئة، حديثة العهد. أخذا يدوران حوله، يقرآن الأسماء العسيرة على النُّطق لنباتاتٍ يمكن أنْ تكون قد جُلِبَتْ من كوكب آخر. وكان لدى آنْ نبتة مُفضّلة. قالتْ إنها راقبتها تنمو طوال ثلاثة أعوام، وكانت تقوم بزيارتها في كل صيف على التوالي مع والدها.

قالت: «إنني حتى لا أتذكّر تلك الأسماء».

«ولِمَ ينبغي أنْ تتذكريها؟».

تناولا طعام الغداء في مطعم سانبرن مع والدة آنْ، ثم تجوّلوا في المتجر إلى أنْ حان موعد قيلولة السيدة فوكنر. وكانت السيدة فوكنر امرأة نحيلة، تتصف بحيويّة عصبيّة، طويلة القامة على غرار آنْ، وجذّابة مثلها حسب سنّها. وكان غاي يُكرّس نفسه لها، لأنها هي كرّستْ نفسها له. في أول الأمر، وضعَ، في ذهنه، عوائق ضخمة أمام نفسه تتمثّل بوالديّ آنْ الثريين، ولكن لم تتجسّد أي منها على أرض الواقع، وشيئاً فشيئاً تخلّى عنها. وفي أمسية ذلك اليوم، ذهبوا هم الأربعة لحضور حفلٍ موسيقيّ في الباليه آرتس، ثم تناولوا وجبة عشاء متأخّرة في مطعم ليدي بالتيمور الكائن قِبالة فندق الريتز.

عبّرَ آل فوكنر عن أسفهم لعدم تمكّنه من قضاء فصل الصيف معهم في أكابولكو. وكان في نيّة والد آنْ المستورِد أنْ يُنشئ مستودعاً في حوض المرفأ هناك.

قالت السيدة فوكنر: «لا يمكننا أنْ نُثير اهتمامه بمستودع إذا كان يبني نادياً ريفيّاً كاملاً».

لم يقُل غاي شيئاً، لم يقوَ على النظر إلى آنْ. كان قد طلبَ منها ألّا تُخبر والديها عن مشروع بالم بيتش إلّا بعد أنْ يُغادر. إلى أين سيذهب في الأسبوع القادم؟ قد يذهب إلى شيكاغو ويدرس مدة شهرَين. لقد خزّنَ ممتلكاته في نيويورك، وكانت صاحبة المُلك في انتظار جوابه حول سؤالها هل تؤجّر

الشقّة أم لا؟ إذا ذهبَ إلى شيكاغو، فقد يُقابل العظيم سارينن[4] في إيفنستون وتيم أوفلارتي، مُهندس معماري شاب لم يُصبح معروفاً بعد، لكنَّ غاي آمن به. قد يُعرَض عليه عمل أو اثنين في شيكاغو. لكنَّ نيويورك كانت تمثّل مُستقبلاً موحِشاً من دون آنْ.

وَضَعَت السيدة فوكنر يدها على ساعده وضحكتْ: «لن يبتسم حتى وإنْ أعاد بناء نيويورك كلها، أليس كذلك يا غاي؟».

لم يكن يُصغي، كان يرغب في الخروج للتمشي مع آنْ لاحقاً، لكنّها أصرَّتْ على أنْ يأتي إلى جناحهم في فندق الريتز لمشاهدة الرداء الحرير الذي أحضرته من أجل نسيبها تيدي، قبل أنْ تشحته. ثم، طبعاً، إنَّ الوقت قد بات متأخّراً جداً على الخروج للتنزه.

كان ينزل في فندق مونت كارلو، القريب من فندق الريتز، وهو مبنى بائس وضخم يُشبه مسكناً سابقاً لقائد عسكريّ يدخله المرء من ممر عربات عريض، مُعبّد بحجارة قرميد سوداء وبيضاء تشبه أرضيّة غرفة استحمام، ويؤدي إلى بهو مُظلِم هائل، وأيضاً مُبلَّط بحجارة القرميد. كانت هناك حانة تشبه الكهف ومطعم خالياً دائماً. وكان الدرَج الرخامي المُبقَّع يدور حول الفناء، وعندما كان غاي يرتقيه بالأمس خلف خادم الفندق شاهد، من خلال الأبواب والنوافذ المفتوحة، زوجاً من اليابانيين يلعبان الورق، وامرأة تركع لتصلّي، وأناساً يكتبون رسائل على طاولات أو فقط يقفون في وضعية انبهار غريبة. كانت كآبةٌ ذكوريّة ووعدٌ غير واضح بقوةٍ غيبيّة تُخيِّمُ على المكان بأكمله، وأحبّه غاي على الفور، على الرغم من أنَّ آل فوكنر، بمَنْ فيهم آنْ، مازحوه بشأن خَياره.

كانت غرفته الصغيرة والرخيصة الكائنة في الركن الخلفيّ مزدحمة بقطع الأثاث المدهونة باللونين البنيّ والزهريّ، مع سريرٍ أشبه بكعكة منبعجة، وحمّام في آخر الرواق. وفي موقع ما من الفناء، كان الماء يقطر بدون انقطاع، والمرحاض يفيض على دفعات مع ضجيج مرتفع.

4- إيرو سارينن (1910-1961): مهندس معماري فنلندي من أهم إنشاءاته، مبنى السفارة الأميركيّة في لندن عام 1960. - المترجم

عندما عاد غاي من فندق الريتز، خلع ساعة يده، التي تلقاها هديّة من آنْ، ووضعها على الطاولة الزهريّة المُجاورة للسرير، ووضع محفظة نقوده ومفاتيحه على طاولة الزينة البنيّة المخدوشة، كما يفعل في منزله. وشعر برضى شديد عندما لجأ إلى السرير مع صحيفته المكسيكيّة وكتابٍ عن الهندسة المعماريّة الإنكليزيّة عثر عليه في محل ألميدا لبيع الكتب بعد ظهيرة ذلك اليوم. وبعد أنْ غاص في اللغة الإسبانيّة للمرّة الثانية، أسندَ رأسه إلى الخلف على الوسادة وأخذ يُحدِّقُ إلى الغرفة المُهينة، مُصغياً إلى الأصوات القليلة الشبيهة بحفيف الجرذان الصادرة عن النشاط الإنسانيّ من أرجاء المبنى كلّه. تساءلَ، ماذا يحبّ؟ هل يحب أنْ ينغمس في أسلوب حياة بشعة، حقيرة ومزعجة لكي يكتسِب طاقةً جديدةً يُكافح بها في أداء عمله؟ أم أنْ يختبئ من ميريام؟ سوف يكون العثور عليه أصعب وهو هنا مما لو كان في الريتز.

في صباح اليوم التالي اتّصلتْ آن به لتقول إنَّ برقيّة تخصّه وصلتْ. قالتْ: «لقد تصادف الآن أنْ سمعتهم يُنادون عليك، وكادوا يستسلمون».

«هلّا قرأتها على مسمعي، آنْ؟».

قرأتْ آنْ: «بالأمس عانت ميريام من حالة إجهاض إنها مُضطربة وتطلب مقابلتك هل تستطيع أنْ تعود إلى المنزل؟ أمّك أوه، غاي!».

شعر بالاشمئزاز من الأمر، من كل شيء. «تمتم: لقد تعمّدت أنْ تُجهِض نفسها».

«أنت لا تعلم، يا غاي».

«بل أعلم».

«ألا ترى أنَّ من الأفضل أنْ تقابلها؟».

شدَّ أصابعه على سمّاعة الهاتف. قال: «في كل الأحوال سوف أعود إلى مشروع بالميرا. متى أُرسِلَت البرقيّة؟».

«في التاسع من الشهر. يوم الثلاثاء، عند الساعة الرابعة بعد الظهيرة».

أرسل برقيّة إلى السيد بريلارت يسأله فيها إنْ كان في استطاعته أنْ

يستعيد العمل. وقال في نفسه، طبعاً سيستعيده، لكنّه جعل من نفسه حِماراً بسبب ميريام وكتب إلى ميريام يقول:

إنَّ هذا الحدث يُغيِّر خططنا معاً، طبعاً وبغضّ النظر عن خططك، أنوي أنْ أحصل على الطلاق الآن. خلال أيام قليلة سوف أكون في تكساس وآمل أنْ تكوني قد أصبحتِ بخير حينئذٍ، ولكن إذا لم تتحسّني، أستطيع أنْ أقوم بما هو ضروريّ وحدي.

من جديد تمنياتي لك بالشفاء العاجل.

غاي

سوف أتواجد في هذا العنوان حتى يوم الأحد.

بعثَ الرسالة بالبريد الجويّ لتُسلَّم باليد.

ثم اتّصلَ بآنْ أراد أنْ يأخذها في تلك الليلة إلى أفضل مطعم في المدينة، أراد أنْ يطلب أشد أنواع الكوكتيل غرابة يُقدمونه في بار الريتز لكي يكون البداية، لهم كلّهم.

سألته آنْ، وهي تضحك، وكأنّها تكاد لا تُصدّقه: «أأنتَ حقاً سعيد؟».

«سعيد مع – إحساس غريب. *Muy extranjero* (شديد الغرابة)».

«لماذا؟».

«لأنني لا أعتقد أنّه كان مُقدَّراً لي، لم أعتقد أنّه يُشكّل جزءاً من مصيري. أقصد مشروع نادي بالميرا».

«أنا اعتقدتُ أنّه كذلك».

«أوه، أحقاً!».

«لماذا في اعتقادكَ غضبتُ منكَ بالأمس؟».

لم يتوقّع حقاً أنْ يأتيه جواب من ميريام، ولكن في صباح يوم الجمعة

عندما كان هو وآنْ في مدينة كزوكيميلكو[5]، شعر بإلحاح للاتصال بالفندق ويرى إنْ كانت قد وصلته رسالة كانت في انتظاره برقيّة. وبعد أنْ قال إنه سوف يستلمها خلال بضع دقائق، لم يقوَ على الانتظار، وحالما عاد إلى مكسيكو سيتي، اتصل هاتفياً بالفندق من جديد من إحدى الصيدليات في سوكالو. قرأها موظفٌ في مونت كارلو على مسمعه: «يجب أنْ أتحدث معك أولاً تعال بسرعة أرجوك مع حبي. ميريام».

قال غاي بعد أنْ أعاد سرد النص على مسمع آنْ: «سوف تُثير بعض المشاكل أنا واثق من أنَّ الرجل الآخر لا يرغب في الزواج منها إنَّ لديه زوجة الآن».

«أوه».

بينما كانا يسيران ألقى عليها نظرة سريعة راغباً في أنْ يقول لها شيئاً عن صبرها عليه، وعلى ميريام. «فلننسَ الأمر» وابتسم وبدأ يُسرِع خُطاه.

«أتريد أنْ تعود الآن؟».

«طبعاً لا! ربما في يوم الإثنين أو الثلاثاء، أريد أنْ أقضي هذه الأيام القليلة معك. لن أعود إلى فلوريدا قبل مُضيّ أسبوع آخر هذا إذا التزموا بالجدول الأول».

«لن تلحق ميريام بك الآن، أليس كذلك؟».

قال غاي: «ستلحق بي في مثل هذا الوقت من الأسبوع القادم لن تُطالبني بأي شيء».

العاشر

على طاولة زينتها في فندق لا فوندا، في سانتا فِه، جلستْ إلسي برونو لتزيل آثار كريم البشرة الجاف لتلك الليلة عن وجهها بمنديل للتنظيف. وبين حينٍ وآخر، كانت تميل مُقتربة من المرآة، وتفتح عينيها الزرقاوين

5- كزوكيميلكو: مدينة في وسط المكسيك، مشهورة ببحيرتها وبحدائقها العائمة. – المترجم

الشاردتين واسعاً، لتتفحص شبكة التجاعيد القليلة تحت جفنيها والخطوط التي تتشكّل عند الضحك وتنحني بدءاً بأسفل أنفها. وعلى الرغم من أنَّ ذقنها متراجعة قليلاً، فإنَّ الجزء السفليّ من وجهها كان ناتئاً، مُبرِزاً شفتيها الممتلئتين بطريقة تختلفُ تماماً عن وجه برونو. قالتْ في نفسها: إنَّ سانتا فِه هي المكان الوحيد الذي ترى فيه انعكاس خطوطَ الضحك في المرآة عندما تجلس أمام طاولة زينتها.

قالت لابنها: «إنَّ الضوء الموضوع هنا - يمكن أنْ يكون أشعّة سينيّة».

ألقى برونو، بعد أنْ جلس بارتخاء على كرسي الجلد المدبوغ، نظرة من عينه المنتفخة إلى النافذة. كان من فرط الإرهاق بحيث لم يقو على الذهاب وإسدال الستارة. قال بصوتٍ كالنعيق: «تبدين في أحسن حال، ماما». وهبطَ بشفتيه المزمومتين إلى كوب الماء المستقر على صدره الأمرد، وتجهّمَ مستغرقاً في التفكير.

كانت فكرةٌ أكبر وأقرب من أي فكرة جالتْ في خاطره تدور في ذهنه منذ بضعة أيام، كثمرة جوزٍ ضخمة بين يديّ سنجاب ضعيفتين، متوترتين. عندما غادرت والدته البلدة، كان ينوي أنْ يكسر الجوزة ويُباشر التفكير برصانة. وكانت فكرته تقضي بأنْ يذهب ويُحضِر ميريام والوقت المُناسِب هو الآن. كان غاي يحتاج إلى أنْ يفعل ذلك الآن. بعد مرور بضعة أيام، أو حتى أسبوع، قد يكون الأوان قد فات على مشروعَ بالم بيتش، ولن يذهب.

قالتْ إلسي في نفسها: إنَّ وجهها قد ازداد بدانة خلال الأيام القليلة الماضية التي أمضتها في سانتا فِه أدركتْ ذلك من امتلاء وجنتيها بالمقارنة بأنفها الصغير المُثلَّث والأنيق. وعملتْ على إخفاء خطوط الضحك بالابتسام لنفسها، وأمالت رأسها ذا الشعر الأشقر المُجعّد جانباً، وطرفتْ عينيها.

سألتْ، بنبرة عَرَضيّة كما لو أنها تُكلِّم نفسها: «تشارلي، هل أضع هذا الحزام الفضيّ هذا الصباح؟». كان ثمن الحزام مائتين وخمسين ونيِّف، لكنَّ سام أرسل ألفاً أخرى إلى كاليفورنيا. كان حزاماً جميلاً، لا نظير له في نيويورك. بمَ تمتاز سانتا فِه إلّا بالفضّة؟.

تمتم برونو: «بمَ يبرع أيضاً؟».

أمسكت إلسي بقلنسوة الدش والتفتتْ إليه مع ابتسامتها العريضة والسريعة التي لا تتغيَّر، وقالتْ مُداعبة: «عزيزي».

«أوممم - م؟».

«لا تفعل أي شيء غير لائق في أثناء غيابي».

«لن أفعل، ماما».

وضعتْ قلنسوة الدش على قمّة رأسها، ونظرتْ إلى ظفر أحمر طويل وضيِّق، ثم مدّتْ يدها لتتناول المبرد. طبعاً، سوف يسعد فريد ويلي كثيراً بشراء حزام من الفضة لها -قد يظهر في المحطة مع شيءٍ شنيع بسعرٍ مُضاعَف- لكنها لا ترغب في أنْ يلاحقها فريد في كاليفورنيا. والأفضل أنْ يُقسِم على حبّه الأبديّ لها في المحطّة، ويبكي قليلاً، ومن ثم يعود في الحال إلى المنزل وينضم إلى زوجته.

تابعتْ إلسي قائلة: «ولكن يجب أنْ أعترف بأنَّ الليلة الفائتة كانت مُسلّية. كان فريد أول مَنْ شاهده»، وضحكتْ وبدأ المبرد يتحرّك بسرعة.

قال برونو بهدوء: «أنا لا صِلة لي بالأمر!».

«حسن، يا عزيزي، ليست لك علاقة بالأمر!».

التوى فم برونو. كانت أمّه قد أيقظته عند الساعة الرابعة صباحاً، وهي في حالة هستيريا، لكي تُخبره بأنَّ ثمة ثوراً ميِّتاً في الساحة العامة، ثوراً جالساً على مقعد يرتدي مِعطفاً ويعتمر قبّعة، يقرأ صحيفة. وهذا التصرُّف جدير بأنْ يكون إحدى مقالب ويلسون السمجة التي يُمارسها في الكليّة. كان برونو يعلم أنَّ ويلسون سوف يتحدث عن ذلك اليوم، ويُزخرف الحكاية إلى أنْ يجد شيئاً أشد سماجة. وكان في الليلة السابقة، في بار فندق لا بلاسيتا، قد خطَّط لارتكاب جريمة قتل - بينما ارتدى ويلسون زيّ ثور ميِّتْ. وحتى في حكايات ويلسون المستحيلة عمّا قدَّمه من خدمة في أثناء الحرب، لم يدَّعِ أبداً أنّه قتل أحداً، ولا حتى يابانيّاً. أغمضَ برونو عينيه، مُفكِّراً برضا في الليلة السابقة. وعند حوالي الساعة العاشرة، كان فريد ويلسون مع رهطٍ من الصُّلع الآخرين قد توافدوا إلى لا بلاسيتا شبه ثملين، كأنهم في عرضٍ مسرحيّ هزليّ موسيقيّ، لكي يصحبوا أمّه إلى إحدى الحفلات. وكان هو

مدعوّاً أيضاً، لكنّه أخبر أمّه بأنَّ لديه موعداً مع ويلسون، لأنه بحاجة إلى وقت للتفكير. وفي الليلة السابقة قرّر أنْ يوافق. في الحقيقة كان يفكِّر منذ يومِ السبتْ عندما تحدث مع غاي، وها قد حلَّ يوم السبت من جديد، وإمّا أنْ يُنفِّذ جريمة القتل غداً أو لا يُنفِّذها أبداً، في أثناء مغادرة أمّه إلى كاليفورنيا. لقد ملَّ السؤال حول ما إذا كان يستطيع أنْ يُنفّذها. منذ متى وهذا السؤال يجول في ذهنه؟ من مدَّة أطول من أنْ يستطيع تذكّرها. كان يشعر بأنَّ في استطاعته تنفيذها. ثمّة شيء لا يني يُخبره بأنَّه لن يتصادف وقت، وظروف، وسبب أفضل من هذه. سوف تكون جريمة قتل مثاليّة، من دون دوافع شخصيّة! ولم يعتبر إمكانيّة قتل غاي لوالده دافعاً شخصيّاً، لأنه لم يعتمد عليها. ربما من الممكن إقناع غاي، وربما لا. المهم هو أنَّ الوقت الحاضر هو المناسِب للتنفيذ، لأنَّ الخطّة مثاليّة. واتصل بمنزل غاي من جديد في الليلة السابقة ليتيقَّن من أنّه لم يعُد من المكسيك. وكان غاي موجوداً في المكسيك منذ يوم الأحد، حسب قول أمّه.

إحساسٌ يُشبه إبهاماً يضغط على أسفل نحر جعله يمزِّق ياقته، لكنَّ سترة بيجامته كانت مفتوحة حتى المقدّمة. وبدأ برونو يُثبِّتْ الأزرار بحركة حالمة.

سألته أمّه، وهي تنهض: «ألا تغيِّر رأيك وتأتي معي؟ إذا فعلت، سوف أذهب إلى رينو إنَّ هيلين موجودة هناك الآن وكذلك جورج كينيدي».

«هناك سبب واحد يجعلني أرغب في رؤيتك في رينو، يا أمي».

«تشارلي–» أمالتْ رأسها إلى أحد الجانبين ومن ثم أعادته إلى وضعه من جديد. «هلّا تجمّلتَ بالصبر؟ لولا سام، لما كنا هنا، أليس كذلك؟».

«طبعاً كنا سنأتي إلى هنا».

تنهّدتْ: «ألن تغيِّر رأيك؟».

قال مع تأوّه: «أنا أقضي وقتاً ممتعاً هنا».

نظرتْ إلى أظافرها من جديد: «كل ما سمعته هو أنك تشعر بملل شديد».

«هذا كان صحيحاً وأنا مع ويلسون ولن أراه بعد الآن».

«سوف تهرب من جديد إلى نيويورك؟».

«ماذا سأفعل في نيويورك؟».

«سوف يخيب أمل الجدَّة إذا سقطتَ من جديد في هذا العام».

«ومتى وقعتُ في حياتي؟» مزح برونو في محاولة ضعيفة، وفجأة شعر برغبة في التقيّؤ إلى درجة الموت، وإلى درجة منعته حتى من التقيّؤ. كان يعرف ذلك الشعور، إنه لا يدوم أكثر من دقيقة، وقال في نفسه: يا الله، لا تجعل هناك وقتاً لتناول طعام الإفطار قبل انطلاق القطار، لا تجعلها تنطق كلمة إفطار. تيبَّسَ، لم يُحرِّك عضلة في جسمه، وبالكاد تنفّس من بين شفتيه المنفرجتين. راقبها، وإحدى عينيه مُغمَضَة، تتقدَّم منه بدثارها المخمل ذي اللون الأزرق الفاتح، وإحدى يديها على وركها، تحاول أنْ تبدو قدر استطاعتها كامرأة سليطة لكنّها لم تبدُ كذلك أبداً، لأنَّ عينيها كانتا شديدتيّ الاستدارة، ثم إنها كانت تبتسم.

«ما الذي تُخفيانه أنت وويلسون؟».

«ذلك الأرعن؟».

جلسَتْ على ذراع كرسيه. قالت، وهي تهزّه قليلاً من كتفه: «فقط لأنه يُعاملك بتكبُّر. لا تتصرَّف بتهوّر، يا عزيزي، لأنّني لا أملك المال الآن لأنفقه على تصحيح أخطائك».

«اطلبي المزيد أحضري ألفاً، أيضاً».

«عزيزي»، وضعتْ ظاهر أصابعها على جبينه، «سأشتاق إليك».

«قد ألحق بك في يوم بعد غد».

«سنمرح كثيراً في كاليفورنيا».

«حتماً».

«لِمَ أنتَ جديّ كثيراً هذا الصباح؟».

«لستُ كذلك، يا أمي».

شدَّتْ خصلة الشعر الرقيقة المتدلية فوق جبينه، ثم ذهبتْ إلى الحمّام.

قفز برونو واقفاً وهتفَ بصوت هادر يعلو فوق ضجيج الماء الجاري في الحمّام: «أمي، لديّ نقود لأسدِّد بها فاتورة مكوثي هنا!».

«ماذا قلت، يا ملاكي؟».

اقترب أكثر وكرّر ما قال، ثم غاص من جديد في كرسيه، مُرهَقاً مما بذله من جهد. لم يرغب في أنْ تعرف أمّه بشأن مكالماته الهاتفيّة الخارجيّة مع ميتكالف. إذا لم تعرف، فإنَّ كل شيء يسير على ما يُرام. إنَّ أمّه لم تأبه كثيراً بعدم استمرار مكوثه، لم تأبه كثيراً. هل كانت تُقابل ذلك الأحمق فريد في القطار أو ما شابه؟ أرغمَ برونو نفسه على النهوض، شاعراً بحقدٍ بطيء يتنامى داخله على فريد وايلي. أراد أنْ يُخبر أمّه بأنه مُستمر في الإقامة في سانتا فِه لكي يمرّ بأكبر تجربة في حياته. لو كانت أمّه تعرِف القليل مما يعني لما كانت في الداخل تقفُ تحت الماء، ولا توليه أي انتباه. أراد أنْ يقول، أمي، قريباً سوف تُصبح الحياة أفضل كثيراً لكلينا، لأنّ هذه هي بداية التخلُّص من الكابتن. وسواء أدّى غاي دوره من الصفقة أم لا، وإذا نجح مع ميريام، فسوف يكون قد أحرز نقطة. جريمة القتل المثاليّة. وذات يوم سوف يظهر شخص آخر لا يعرفه ويعقد معه صفقة ما. أرخى برونو ذقنه نحو صدره في نوبة مُفاجئة من الألم. كيف يمكنه أنْ يُخبر أمّه؟ إنَّ جريمة القتل وأمّه لا يتماشيان معاً. سوف تقول: «شيء شنيع!». نظر إلى باب الحمّام وعلى وجهه تعبير تألُّم، وشرود. لقد تبيَّن له أنّه لن يستطيع أنْ يُخبر أحداً، أبداً ما عدا غاي. وعاد إلى الجلوس من جديد.

«أيّها النعسان!».

طرفَ بعينيه عندما صفَّقَتْ بيديها ثم ابتسم بكسل، مع إدراكٍ حزين بأنّه سوف تقع الكثير من الأحداث قبل أنْ يُقابلهما من جديد. راقبَ ساقيّ أمّه تنثنيان وهي تشدّ جوربيها. إنَّ الامتداد النحيل لساقيها دائماً يمنحه دفقاً من النشاط، وإحساساً بالافتخار. كانت أمّه تتمتَّع بأجمل ساقين شاهدهما على أي امرأة، مهما كان عمرها. وكان زيغفلد[6] قد انتقاها، أليس زيغفلد يعلم ماذا ينتقي؟ لكنّها تزوجتْ وعادت إلى نمط الحياة الذي هربت منه. كان ينوي أنْ يُحرِّرها في الحال، ولم تكن تعلم ذلك.

قالتْ أمّه: «لا تنسَ أنْ تُرسِل *ذلك الشيء* إلى البريد».

6- فلورنز زيغفلد (1869–1932): منتج عروض مسرحيّة راقصة. اشتُهِرَ باستعراضاته المُبهِرة التي كانت توصَف بـ «حماقات زيغفلد»، وبراقصاته الجميلات.، خلال فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية. المترجم

أجفلَ برونو عندما قفز رأسا الأفعى المُجلجلة في وجهه. كانا قد اشتريا حامل ربطات عنق من أجل الكابتن مصنوعة من قرون بقر متشابكة وتعلوها مخشخشتا أطفال محشوتان تُبرز كلٌّ منهما لسانها للأخرى فوق مرآة. وكان الكابتن يكره الحاملات، ويكره الأفاعي، والكلاب، والقطط والعصافير - بل ماذا لم يكن يكره؟ وسوف يكره حامل ربطات العنق المصنوع من القرون، ولهذا السبب أقنعَ أمّه بشرائها لأجله. وابتسم برونو بحبّ لرؤية حامل ربطات العنق. كان إقناع أمّه بشرائها أمراً صعباً.

الحادي عشر

تعثّر وهو يمشي على حجارة الرصف اللعينة، ثم نهضَ واقفاً بكبرياء وحاولَ أنْ يُعدّل من شأن قميصه ويحشره داخل بنطلونه. من حسن الحظ أنّه أُغميَ عليه وهو في زقاق وليس في شارع، وإلّا كانت الشرطة أقلّته وتأخّر عن ركوب القطار. توقف وأخذ يفتش عن محفظة نقوده، فتش بعنفٍ أكثر مما كان قد فعل قبل ذلك ليرى إنْ كانت المِحفظة موجودة. وارتجفَتْ يداه بحيث لم يتبيَّن رقم الساعة العاشرة وعشرين دقيقة صباحاً المُدوَّن على بطاقة السفر بالقطار. والساعة الآن الثامنة وعشر دقائق كما تشير عِدَّة ساعات عامة. إنْ كان هذا يوم أحد. طبعاً هو يوم أحد، كل الهنود يرتدون قمصاناً نظيفة. أخذ يبحث عن ويلسون، على الرغم من أنّه لم يره طوال نهار أمس ولم يتوقّع أنْ يكون قد خرج الآن. ولم يرغب في أنْ يعلم ويلسون أنّه يُغادر المدينة.

فجأة امتدَّتْ أمامه الساحة العامة، مملوءة بالدجاج والأطفال والرجال العجائز المعتادين الذين يأكلون الصنوبر كوجبة إفطار. ثبتَ في مكانه وأخذ يُحصي أعمدة قصر الحاكم ليرى إنْ كان في وسعه أنْ يُحصي سبعة عشر، واستطاع ذلك بحيث لم تعُد الأعمدة معياراً جيداً. وزيادة على آثار السُّكر السيئة، كان يُعاني الآن من النوم على حجارة الرصف اللعينة. وتساءلَ، لماذا أسرفَ في الشرب، وكاد يذرف الدمع. لكنّه كان وحده، ودائماً يُسرِفُ في الشرب عندما يكون وحده. أم أنَّ هذا غير صحيح؟ ومَنْ يهتم لذلك على أي

حال؟ وتذكّرَ فكرة لامعة وقويّة خطرتْ له في الليلة السابقة وهو يُشاهد لعبة رمي الأقراص على الطاولة منقولة على التلفزيون: ***إنَّ الطريقة المُثلى للنظر إلى العالم هي رؤيته وأنتَ ثمل.*** إنَّ كل شيء خُلِقَ لكي يُرى وهو ثمل. لا شك في أنَّ هذه ليست الطريقة المُثلى للنظر إلى العالم، بينما رأسه يتمزَّق كلما أدار عينيه. وفي الليلة السابقة أراد أنْ يحتفل بليلته الأخيرة في سانتا فِه. واليوم سوف يكون في ميتكالف، ويجب أنْ يظهر بأفضل صورة. ولكن هل سبقَ له أنْ عرِفَ آثار سُكر لم يُبدِّده شرب بضع كؤوس؟ قال في نفسه، وقد تكون آثار السُّكر مفيدة: كان متعوّداً على أداء الأعمال ببطءٍ وحذرٍ عندما يُعاني من آثار السُّكر ومع ذلك هو لم يُخطِّط لأي شيء، حتى الآن. سوف يضع خطّة على متن القطار.

سأل الموظَّف بشكلٍ روتينيّ: «أما من بريد؟». لا بريد.

استحمَّ برصانة ثم طلبَ كوباً من الشاي الساخن وبيضاً نيئاً لكي يصنع مشروباً يقضي على أثار السُّكر، ثم توجه إلى خزانة الملابس ووقفَ فترة طويلة، يتساءل بإبهام ماذا يرتدي من ملابس. واستقرَّ قراره على البزَّة البنيّة المائلة إلى الحُمرة على شرف غاي. وكان أثرها غامضاً، أيضاً، كما لاحظَ عندما ارتداها، وسرَّته إلى درجة أنّه كان يمكن أنْ ينتقيها بلا وعي لهذا السبب أيضاً. ابتلع المشروب المُضاد لآثار السُّكر وبقي مُستقرّاً، تمطّى بذراعيّه - ولكن فجأة بدتْ زخرفة الغرفة الهنديّة، ومصابيح القصدير الجنونيّة، والأشرطة المتدلّية على الجدران، لا تُطاق، وبدأ يرتعش من جديد جرّاء استعجاله في جمع أمتعته والمُغادرة. أيّة أمتعة؟ إنّه ليس بحاجة إلى أي شيء حقاً. يحتاج فقط إلى الورقة التي دوّنَ فيها كل ما كان يعرف عن ميريام. أخرجها من الجيب الخلفيّ في حقيبته وحشرها في الجيب الداخليّ لسترته. هذه الإيماءة جعلته يشعر كأنه رجل أعمال. ووضع منديلاً أبيض في جيب صدره، ثم غادر الغرفة وأقفل الباب. وتصوّرَ أنّه سوف يعود في مساء الغد، أو قبل ذلك إنْ استطاع أنْ يستقلّ عربة النوم في رحلة العودة في هذه الليلة.

هذه الليلة!

كاد لا يُصدِّق هذا وهو يمشي متوجهاً إلى محطة الحافلة، حيث تنطلق

الحافلة المتوجهة إلى لامي، من نقطة انطلاق القطار. لقد ظنَّ أنّه سوف يكون غاية في السعادة -أو ربما هادئاً ونكداً- ولم يحدث ذلك قط. فجأة تجهَّمَ، وبدا وجهه الشاحب، ذو العينين المُظلّلتين، أصغر سناً بكثير. هل ثمة شيء سوف ينتزع المرح منه؟ ما الذي سينتزعه؟ ولكن كان هناك دائماً شيء ينتزع المرح من كل ما اعتمد عليه. وهذه المرّة لن يدع هذا يحدث. وأجبر نفسه على الابتسام. ربما آثار السُّكر هي التي زرعتْ الشكّ فيه. ولجَ الحانة وابتاع مشروباً من صاحبها الذي يعرفه، ملأ قارورته، وطلبَ زجاجة فارغة سِعة باينت ليضع ما تبقّى فيها. وفتش صاحب الحانة لكنّه لم يعثر على واحدة.

في لامي، تابع برونو طريقه إلى المحطّة، لا يحمل إلّا نصف الزجاجة الفارغة تلك داخل كيس من الورق، ولا يحمل حتى سلاحاً. لم يكن قد وضع الخطّة بعد، واستمرَّ في إهانة نفسه، لكنَّ وضعَ الكثير من الخطط لا يعني دائماً أنَّ جريمة القتل سوف تكون ناجحة. لاحظ أنَّ –

«هيه، تشارلي! إلى أين أنت ذاهب؟».

كان ويلسون، مع بعض الجماعة. أجبرَ برونو نفسه على التوجّه نحوهم، وهو يهزّ رأسه تعبيراً عن الضجر. قال في نفسه: لا بدّ أنهم ترجّلوا من القطار تواً. بدوا مُتعبين وقذرين.

سألَ برونو ويلسون: «أين كنتَ طوال يومين؟».

«في لاس فيغاس. لم أعرف أنني هناك إلّا بعد أنْ وصلتُ إلى هناك، وإلّا كنتُ سألتك، أقدِّم لك جو هانوفر سبقَ أنْ كلَّمتكَ عنه».

«مرحباً، جو».

سأله ويلسون: «لِمَ أنتَ كئيب هكذا؟»، ودفعه بودّ.

زعقتْ إحدى الفتيات: «أوه، تشارلي يُعاني من السُّكر!»، كان صوتها في أذنه أشبه بجرس دراجة هوائية.

قال جو هانوفر ضاحكاً: «هذا تشارلي السكران، وأنا جو هانوفر[7]!».

أبعد برونو ذراعه برفق عن فتاة تحيط عنقها بعقدٍ من الزهور: «هاو هاو. اللعنة، يجب أنْ ألحق هذا القطار» كان قِطاره ينتظر.

7- يُداعبه باستخدام كلمتين مُتشابهتين في اللفظ، Hangover و Hanover. – المترجم

سأله ويلسون، مُتجهّماً بحيث التقى حاجباه الأسودان: «*وأنت* إلى أين ذاهب؟».

غمغم برونو: «يجب أنْ أقابل أحدهم في تلسا»، مُدرِكاً أنّه عبث بقواعد اللغة، ومُفكِّراً في أنّه ينبغي أنْ يهرب *في الحال*. كاد الإحساس بالإحباط يدفعه إلى البكاء، وإلى توجيه ضربة إلى قميص ويلسون الأحمر والقذر بقبضتيّ يديه.

قام ويلسون بحركة وكأنّه يريد أنْ يمسح برونو من أمامه كأنّه خط رُسِمَ بالطباشير على السبورة. «تلسا!».

وقام برونو بالإيماءة نفسها ببطء، وحاول أنْ يرسم تكشيراً، وأشاح بوجهه. تابع سيره، متوقّعاً منهم أنْ يلحقوا به، لكنّهم لم يفعلوا. وعلى متن القطار نظر خلفه فرأى المجموعة تتحرّك كشيءٍ يتدحرج منتقلاً من ضوء الشمس إلى الظلام تحت سقف المحطة، تجهَّمَ وهو ينظر إليهم، شاعراً في اقترابهم بشيءٍ يُشبه المؤامرة. هل شكّوا في شيء؟ هل كانوا يتهامسون بشأنه؟ ارتقى القطار بحركة عاديّة، وبدأ يتحرَّك قبل أنْ يعثر على مقعده.

عندما أفاق من قيلولته، بدا العالم مختلفاً تماماً. كان القطار ينطلقُ بسرعةٍ سلسة خلال المنطقة الجبليّة الباردة التي يميل لونها إلى الزُّرقة. كانت الوديان الخضراء القاتمة ممتلئة بالظلال، والسماء رماديّة. وكانت العربة مُكيَّفة الهواء والبرودة التي تبدو عليها الأشياء في الخارج مُنعشة كمنطقة من الجليد. شعر بالجوع وفي المطعم تناول وجبة غداء لذيذة تتألَّف من قطع لحم الضأن، والمقليات الفرنسيّة والسلطة، وفطيرة الخوخ الطازجة شرب بعدها كأسين من الويسكي والصودا، ومن ثم تمشّى عائداً إلى مقعده شاعراً بأنّه في أحسن حال.

حمله إحساسٌ بالهدف، غريبٌ ولذيذ بالنسبة إليه، واندفعَ به من دون مقاومة، ولم يشعر بتناسُق بين عقله وعينه إلّا بالتأمّل من النافذة وبدأ يُدرك ما ينوي أنْ يفعل. كان في سبيله إلى تنفيذ جريمة قتل لن تعمل فقط على تحقيقِ رغبةٍ عمرها سنون، بل وسوف تفيد أحد الأصدقاء. كان يُسعد برونو كثيراً أنْ يُقدّم خدمات لأصدقائه وضحيته تستحق مصيرها. فكّر في

كل الرجال الطيّبين الآخرين الذين سينقذهم من معرفتها! وذُهِلَ عقله من إدراكه أهمّيته، وشعر لبرهة طويلة بثمالة تامة ومنتشية. وانتشرت طاقاته التي كانت قد تبدَّدتْ كنهرٍ فاض على أرضٍ منبسطة وتثيرُ الضجر كأرض لانو إستاكادو التي كان يجتازها عندئذٍ، وتجمّعت كأنما في دوّامةٍ تكافح لبلوغ ميتكالف كاندفاعِ القطار الحثيث. جلس على حافة مقعده وتمنّى لو أنَّ غاي كان جالساً أمامه من جديد، لكنه كان يعلم أنَّ غاي سوف يمنعه؛ لن يتفهَّم غاي مدى رغبته في تنفيذها أو في مدى سهولة ذلك. ولكن حبّاً باللّه، يجب أنْ يفهم كم ذلك مُفيد! ضربَ برونو قبضة يده القوية والملساء كالمطاط على راحة اليد الأخرى، متمنّياً لو أنَّ القطار يُسرِعَ أكثر في انطلاقه وتوتّرتْ كل عَضَلَة في جسمه وارتعشتْ.

أخرج قطعة الورق التي كتب فيها معلومات عن ميريام، ومدّدها على المقعد الخالي المُقابل له، وأخذ يُدقِّق فيها النظر بجديّة. ***ميريام جويس هينز، في حوالي الثانية والعشرين من العمر***، هذا ما تقول الكتابة بخط اليد، بأحرف دقيقة، بقلم حبر، لأنها كانت النسخة الثالثة. ***تميل إلى الجمال حمراء الشعر ممتلئة قليلاً، وليست طويلة جداً. يمكن تمييز كونها حبلى منذ نحو الشهر من النوع الاجتماعيّ الصخّاب، وربما ترتدي ملابس زاهية، وربما ذات شعر قصير ومُتموِّج، وربما هو تموّج دائم***. هذا ليس بالكثير، لكنّه كل ما استطاع أنْ يخرج به. أمرٌ جيد أنْ تكون على الأقلّ ذات شَعر أحمر. وتساءل إنْ كان يستطيع أنْ يُنفّذ الجريمة هذه الليلة. الأمر يعتمد على سرعة عثوره عليها. قد يُضطرّ إلى استعراض لائحة أسماء مَنْ يحملون أسماء جويس وهينز. فكَّر في أنها ربما تُقيم مع عائلتها وحين يراها، كان متأكّداً من أنّه سوف يتعرَّف عليها. تلك العاهرة الحقيرة! إنّه يكرهها منذ الآن. فكَّر في لحظة رؤيته لها وتعرّفه عليها، وقامت قَدَمَه بحركة قفز متوقّعة عن الأرض. واستمر الناس في المرور جيئة وذهاباً على الممر الفاصل بين المقاعِد، لكنَّ برونو لم يرفع بصره عن الورقة.

قال صوت غاي: ***سوف تضع مولوداً***. تلك المومس الحقيرة! أثارت النسوة النائمات من حوله حنقه، واشمئزازه، كما فعلت خليلات والده اللواتي كان يعرفهن، وحوّلنَ كل عُطلِهِ المدرسية إلى كوابيس لأنه لم يكن

يعلم إنْ كانت أمه على عِلمٍ بذلك وأنها كانت فقط تتظاهر بالسعادة، أو أنها لم تكن أي شيء البتّة. واستعاد قدْرَ استطاعته كل كلمة من حديثه الذي أجراه مع غاي وهما في القطار. وقرَّب ذلك غاي منه أكثر. اعتبر أنَّ غاي هو أشدّ مَنْ قابل في حياته قيمة. لقد فاز بمشروع بالم بيتش، وهو يستحق أنْ يناله وتمنّى برونو أنْ يكون هو الذي يُخبر غاي بأنه ما زال يحتفظ بالوظيفة.

وعندما أعاد برونو الورقة إلى مكانها في جيبه واسترخى في مقعده واضعاً إحدى ساقيه بكل ارتياح فوق الأخرى، وضمَّ يديه معاً على رُكبتيه، كان يمكن لأي شخص يراه أنْ يعتبره شاباً صاحب مسؤوليّة وشخصيّة متميِّزة، وربما ينتظره مستقبل واعد. ومع أنّه لم يبدُ في أتمّ صحّة، لكنّ عدداً من تعبيرات وجهه عكَسَتْ اتزاناً وسعادة داخليّة، لم يظهرا على وجه برونو من قبل. كانت حياته حتى ذلك الحين دروباً مسدودة، وسعياً لا يعرف اتّجاهاً، ولم تكن النتائج تعني أيّ شيء. فقد ظهرتْ أزمات -كان يُحبّ الأزمات وكان أحياناً يفتعلها بين معارفه وبين والده ووالدته- لكنّه كان دائماً يخرج منها في الوقت المناسب لكي يتفادى التورّط فيها. ولأنه كان أحياناً يواجه صعوبة في إبداء التعاطُف حتى عندما تكون أمّه قد تعرَّضَتْ للأذى من والده، دفع ذلك أمّه إلى الاعتقاد أنَّ جزءاً منه كان قاسياً، بينما رأى والده والعديد من الأناس الآخرين أنّه بلا القلب. ومع ذلك استطاع هدوءٌ وهميّ نَسَبَه إلى شخص غريب، إلى صديقٍ اتَّصل هو به هاتفيّاً في ساعة غروبٍ موحِشةٍ غير قادر أو غير راغب في قضاء أمسية معه، استطاع أنْ يدفعه إلى الاستغراق في كآبة متأمّلة، متجهّمة. لكنَّ أمّه وحدها عرِفَتْ ذلك. لقد تخلَّص من الأزمات لأنه كان يستمتع بحرمان نفسه من الإثارة أيضاً. وطال أمد خيبة أمله في توقه إلى معرفة معنى حياته، وفي رغبته المُبهمة في القيام بعملٍ يُضفي عليها معنى، إلى درجة أنّه فَضَّلَ الشعور بالإحباط، كما يحدث في المعتاد لبعض العشّاق الذين لا يجدون استجابة لحبّهم، في عذوبة إنجاز أيّ شيء لطالما شعر بأنّه لن يعرفها أبداً، وفي سعي مع اتّجاه وأمل لطالما شعر، منذ البداية، بأنه من شدّة التخاذل بحيث لا يُجرّبه. ومع ذلك كان يتمتّع دائماً بالطاقة للاستمرار في العيش يوماً آخر، لكنَّ الموت لم

يكن ينطوي على أي رعب. كان الموت مجرد مُغامرة عاديّة لم يُجرّبها بعد. وكان الوضع أفضل عندما يتعلَّق الأمر بعمل محفوف بالمخاطر. وأقرب مثال على ذلك، كما رأى، كان عندما قاد سيارة سباق وهو معصوب العينين على طريق مستقيمة وضغطَ بقدمه بقوة على دواسة الوقود ولم يسمع الطلق الناري الذي أطلقه صديقه الذي يعني التوقّف، لأنه كان قد سقط في خندق وفقد وعيه وكسر وركه. وأحياناً كان يشعر بضجر شديد إلى درجة أنْ يفكِّر في أنْ يضع نهاية مأساوية لحياته بالانتحار، ولم يتبدَّ له أنَّ مواجهة الموت بلا خوف قد يدل على الشجاعة، وأنَّ موقفه مُستسلم كموقف الحكماء الهنود، وهو أنَّ الانتحار يتطلَّب نوعاً خاصّاً من الشجاعة القانطة. وكان برونو يتحلّى بمثل ذلك النوع من الشجاعة. في الواقع كان يشعر بقليل من الخزي لمجرّد تفكيره في الانتحار، لأنه شيء شديد الوضوح ومملّ.

الآن، وهو على متن القطار متوجه إلى ميتكالف، أصبحَ لديه هدف. لم يكن قد شعر من قبل بمثل تلك الحيويّة، بأنّه حقيقيّ ويُشبه الآخرين منذ أنْ ذهب إلى كندا وهو طفل مع أمّه وأبيه - وأيضاً على متن قطار، كما تذكّر. كان يظنّ أنَّ كيبيك ممتلئة بالقلاع وأنّه سوف يُسمَح له باستكشافها، ولكن لم يجد فيها قلعة واحدة، ولا توفّر لديه الوقت للبحث عن أحدها، لأنَّ جدَّته لأبيه كانت تحتضر، وهو السبب الوحيد لمجيئهم، ومنذ ذلك الحين لم يثِق في الهدف من أي رحلة. لكنّه وَثَقَ في هذه الرحلة.

في ميتكالف، توجّه في الحال لإحضار دليل هاتف وأخذ يفتش عن الذين يحملون اسم هينز. لم يتذكّر عنوان غاي وهو متجهّم في أثناء استعراضه اللائحة. لا وجود لاسم ميريام هينز، ولم يتوقّع أنْ يعثر عليه. عثر على سبعة أسماء من آل جويس. وشكَّلَ برونو لائحة منها على قطعة من الورق ثلاث منها لها العنوان نفسه، هو 1235 شارع مانيوليا، وأحدها كان للسيدة م.ج. جويس. تلوّى لسان برونو المُدبَّب على شفته العليا وهو يتأمّل. يبدو الرهان عليه جيداً. لعلَّ اسم أمّها أيضاً هو ميريام. يجب أنْ يحصل على الكثير من المعلومات من الجيران. لم يكن يعتقد أنّ ميريام تقيم في حيّ راقٍ. وأسرع نحو سيارة أجرة متوقفة عند حافة الطريق.

الثاني عشر

كانت الساعة قد اقتربتْ من التاسعة. وكانت فترة الغسق الطويلة تنزلق بجِدَّة نحو الليل، والأبنيّة السكنيّة المؤلَّفة من منازل خشبيّة صغيرة وتبدو متهالكة كانت في مُعظمها مُظلِمة، ما عدا وهج من الضوء هنا وهناك على الشرفات الخارجيّة حيث جلس الناس على أراجيح وعلى الدَّرَجات الأماميّة.

قال برونو للسائق: «أنزلني هنا، هذا مناسِب». هنا شارع مانيوليا وجادة كوليج، وهذا هو البناء رقم ألف وباشر السير.

كانت هناك فتاة صغيرة تقف على الرصيف، تُحدِّقُ إليه.

قال برونو، كأنّه يُصدر إليها أمراً بعصبيّة لكي تزيح عن الطريق: «مرحباً».

قالت الصغيرة: «مرحباً».

ألقى برونو نظرة سريعة على الأشخاص الجالسين على الشرفة الخارجية المُضاءة، على رجل ممتلئ يُهوّي نفسه، وامرأتين على الأرجوحة. إمّا أنّه كان متوتّراً أكثر مما يعتقد أو أنَّ الحظ سيقف إلى جانبه، ذلك أنّه كان لديه حتماً حدس بشأن ذلك الرقم 1235. فلم يكن ليتوقَّع حيّاً مناسباً أكثر لميريام لتعيش فيه. فإذا كان مُخطئاً، فسوف يُجرِّب البقيّة. واللائحة موجودة في جيبه. لقد ذكّرته المروحة التي في الشرفة الخارجيّة بأنَّ الجوّ حارٌ، بغضّ النظر عن درجة حرارته المحمومة التي كانت تزعجه منذ أواخر فترة بعد الظهيرة. توقّفَ وأشعل سيجارة، وسُرَّ لأنَّ يديه لم ترتعشا البتّة. لقد عمل مقدارُ نصف الزجاجة الذي شربه على الغداء قد شفاه من آثار السُّكر ووضعه في مزاجٍ رائق وهادئ. صرّت الجداجد في كل مكان من حوله. وظهر بعض الشبّان عند المنعطف، وقفز قلب برونو بين أضلعه، مُعتقداً أنَّ أحدهم يمكن أنْ يكون غاي، ولكن لم يكن بينهم.

قال أحدهم: «يا لك من جحش عجوز!».

«اللعنة، قلتُ لها إنني لا أعبثُ مع رجلٍ لا يمنح أخاه فرصة عادلة...».

نظر برونو إلى ظهورهم بغطرسة كأنهم يتكلّمون لغة غريبة إنهم لا يتكلمون كما يتكلّم غاي على الإطلاق.

لم يجد برونو أرقاماً على بعض المنازل. لنفرض أنّه لم يعثر على الرقم 1235؟ ولكن عندما وصل إليه، كان الرقم بارزاً بقطع من القصدير على الشرفة الأماميّة. أشاع منظر المنزل فيه إثارة بطيئة ممتعة. قال في نفسه: لا بدّ أنَّ برونو كثيراً ما قفز على تلك الدَّرَجات، وهذه الحقيقة وحدها هي التي ميَّزته عن باقي المنازل. كان منزلاً صغيراً ككل المنازل الأخرى في المبنى، لولا أنَّ ألواحها الخشبيّة التي استحال لونها إلى الصَّفَار كانت بحاجّة ماسّة إلى الدهان. كان ممرٌّ للسيارات يمتد على جانبه، وثمة مرج كثيف، وسيارة شيفروليه قديمة تتوقف عند حافة الطريق. وانبعثَ ضوء من نافذة الطابق السفليّ وانبعث ضوء آخر من نافذة في الركن الخلفي في الطابق العُلويّ ظنَّ برونو أنها ربما غرفة ميريام. ولكنْ لِمَ لَمْ يكن *يعلم*؟ ربما لم يمدّه غاي بالمعلومات الكافية!

اجتاز برونو الشارع بعصبيّة وتراجع قليلاً على الطريق التي جاء منها وتوقف واستدار وحدَّقَ إلى المنزل، وهو يعضّ على شفته. إنّه لا يرى أحداً، والشرفة الخارجيّة ليست مُضاءة إلّا بضوء عند الركن. لم يستطع أنْ يُقرِّر إنْ كان الصوت الخافت الصادر عن مذياع ينبعث من منزل ميريام أم من المنزل المُجاور له؟. المنزل المجاور كانت فيه نافذتان مُضاءتين في الطابق السُّفليّ. قد يتمكّن من السير على ممر السيارات وإلقاء نظرة على خلفية المنزل رقم 1235.

انتقلتْ عينا برونو بانتباه إلى الشرفة الأمامية للمنزل المجاور مع استمرار انبعاث الضوء. خرج رجل وامرأة، وجلستْ المرأة على الأرجوحة، وتابع الرجل سيره على الممشى. وتراجع برونو داخل فجوة مقدمة مرآب بارزة.

سمعَ برونو المرأة تهتف: «فليكن فُستقاً إذا لم يكن لديهم درّاق، يا دون».

تمتمَ برونو: «أنا سآخذ فانيلا»، وشرب بعضاً مما في قارورته.

حدَّقَ بشكلٍ هزليّ إلى المنزل المصفرّ، ووضع قَدَماً خلفه لكي يرتكز عليها، فشعر بشيءٍ قاسٍ على فخذه: إنها السكين التي كان قد اشتراها من المحطة في بيغ سبرينغز، وهي سكين صيد ذات شفرة بطول ستّ بوصات في غمد. لم يرغب في استخدام سكين إذا لم يكن ذلك ضروريّاً. السكاكين تُثير اشمئزازه بصورة مُضحكة. والمُسدس يُحدِثُ ضجيجاً. فكيف سينفّذها؟

سوف يوحي شكلها بطريقة ما. أم لن يفعل؟ لقد اعتقد أنَّ رؤية المنزل سوف توحي بشيء. هل هذا يعني أنَّه ليس المنزل المطلوب؟ لنفرض أنهم طاردوه بتهمة التطفّل قبل أنْ يكتشف ذلك. إنَّ غاي لم يمدّه بمعلومات كافية، حقاً لم يفعل! وأسرع بشرب جرعة أخرى. لا ينبغي أنْ يبدأ بالقلق، وإلّا سوف يُفسِد كل شيء! التوَتْ رُكبته. مسحَ بيديه الرطبتين فخذيه وبلَّل شفتيه بلسانٍ مرتعش. أخرج الورقة التي تضم عناوين أصحاب اسم جويس من جيب صدره وأمالها نحو ضوء الشارع. ما زال لا يستطيع الرؤيا ليقرأ. هل يُغادر ويُجرّب عنواناً آخر، ومن ثم يعود لاحقاً؟.

سوف ينتظر خمس عشرة دقيقة أخرى، أو ربما نصف ساعة.

منذ أنْ كان على متن القطار ثبتتْ في ذهنه فكرة تفضيله الهجوم عليها خارج المنزل، وهكذا فإنَّ أفكاره كلّها نشأتْ من التعامل الجسديّ البسيط معها. على سبيل المِثال، هذا الشارع مُظلِم بالقدر الكافيّ، وحالك الظلمة تحت الأشجار. وهو يُفضِّل استخدام يديه المُجردتين، أو ألّا يضرب على الرأس بأداة. لم يُدرك مقدار حماسته إلّا بعد أنْ شعر بجسمه ينتفض الآن بسبب أفكاره عن القفز إلى اليسار أو إلى اليمين، حسب الموقف، عندما يهجم عليها. وبين حين وآخر كان يخطر في باله مدى سعادة غاي بعد أنْ يتمّ الأمر. أصبحتْ ميريام مادة، صغيرة وقاسية.

سمع صوت رجل، وضحكة، وتيقّنَ من أنها صادرة عن الغرفة العليا المُضاءة في المنزل رقم 1235، ثم سمع صوتاً مرحاً لفتاة: «كفى؟ – أرجوك؟ أرجووووك؟». لعله صوت ميريام. صوت طفوليّ ورفيع، لكنه بصورة ما قويّ كخيطٍ قويّ، أيضاً.

ومَض الضوء وثبّتَ برونو عينيه على النافذة المُظلِمة، ثم أخذ ضوء الشرفة الأماميّة يومض وخرج رجلان وامرأة –إنها *ميريام*– فحبس برونو أنفاسه وثبَّتَ قدميه على الأرض. استطاع أنْ يرى حُمرة شعرها. كان الرجل الأضخم جثّة أحمر الشعر أيضاً – لعله أخوها. لمحتْ عينا برونو مائة تفصيل دفعة واحدة، صلابة قوامها المُكتنِز، والحذاء الممسوح، وأسلوبها اللدن في الاستدارة لكي تنظر إلى أحد الرجلَين.

سألتْ بصوتها الرفيع ذاك: «أتظن أننا يجب أنْ نتصل بها هاتفيّاً، يا ديك؟ لقد تأخّر الوقت».

ارتفعَ ركنٌ من الظلام في النافذة الأماميّة: «حبيبي؟ لا تُطِل غيابك؟».

«كلا، ماما».

كانوا ينوون أنْ يركبوا السيارة المتوقفة عند حافة الطريق.

اختفى برونو داخل الركن، وهو يبحث عن سيارة أجرة. إنها فرصة ذهبيّة في هذه المدينة الميّتة! وركضَ. لم يكن قد ركضَ منذ أشهر، وشعر بأنه لائق بدنيّاً كرياضيّ.

هتفَ: «تاكسي!» مع أنّه لم يرَ أيّة سيارة أجرة، ثم رآها واندفعَ نحوها.

جعل السائق يدور ويدخل شارع مانيوليا في الاتجاه الذي كانت سيارة الشيفروليه تسير فيه. كانت السيارة قد اختفَتْ وكان الظلام قد أضحى حالكاً، وعلى البُعد شاهد ومضاً لأضواء خلفيّة حمراء لسيارة تحت الأشجار.

«لا تتوقّف!».

عندما توقفتْ الأضواء الخلفيّة للسيارة استجابة لشارة المرور الحمراء اقتربتْ سيارة الأجرة قليلاً، وعرِفَ برونو أنّها سيارة الشيفروليه واسترخى بارتياح على مقعده.

سأله السائق: «إلى أين تريد أنْ تذهب؟».

«استمرّ في التقدُّم!»، ثم انحدرت الشيفروليه نحو جادة عريضة، «انعطِفْ يميناً» واعتدلَ في جلسته على حافة مقعده وألقى نظرة على حافة الطريق فوجد لافتة تقول «جادّة كروكيت» وابتسم. كان قد سمعَ عن جادّة كروكيت في ميتكالف، الشارع الأطول والأعرض.

سأله السائق: «ما اسم القوم الذين تريد التوجّه إليهم؟ ربما أعرفهم».

قال برونو، مُنتحلاً بلا وعي شخصيّة أخرى: «انتظر دقيقة، انتظر دقيقة»، متظاهراً أنّه يفتش بين الأوراق التي أخرجها من الجيب الداخليّ، من بينها الورقة التي تحتوي معلومات عن ميريام. وفجأة أخذ يضحك ساخراً، شاعراً بالسرور، وبالأمان. والآن هو يتظاهر بأنه الرجل البليد القادم من ضاحية المدينة، بل تظاهر بأنّه ضيَّعَ العنوان الذي يريد الذهاب إليه. أحنى

رأسه لكي لا يتمكن السائق من رؤيته وهو يضحك، ومدّ يده بحركة آليّة نحو قارورته.

«أتحتاج إلى ضوء؟».

«كلا، كلا، شكراً لك». تناول جرعة كبيرة ثم عادتْ سيارة الشيفروليه إلى الجادّة، وأمر برونو السائق بالاستمرار في السير.

«إلى أين؟».

صرخ برونو: «تابع السير واصمتْ!»، وصوته ذو النبرة العالية مشحون بالقلق.

هزَّ السائق رأسه استنكاراً وأصدر فرقعة بلسانه وازداد غضب برونو، لكنّهما شاهدا سيارة الشيفروليه. وحسبَ برونو أنهما لن يتوقفا عن الانطلاق بالسيارة وأنَّ جادة كروكيت سوف تعبر ولاية تكساس كلّها. وأضاع برونو سيارة الشيفروليه وعثر عليها من جديد مرّتين. وتجاوزا مواقع استراحة على الطريق وأماكن مشاهدة الأفلام السينمائيّة في العراء، ثم نشر الظلام جداراً على كلا الجانبَين وبدأ القلق يتسرَّب إلى برونو. لم يكن في استطاعته أنْ يتبعهم إلى خارج المدينة أو على طول طريقٍ ريفيّة. ثم امتدَّ قوسٌ كبير من الأضواء فوق الطريق، لافتة تقول: «**أهلاً بكم إلى مملكة بحيرة ميتكالف للملاهي**»، وإذا بسيارة الشيفروليه تمرّ من تحتها ومنها إلى أرض موقف السيارات. كانت أمامهم أنواع شتّى من الأضواء في الغابة ورنين موسيقى دوامة الخيل إنها مدينة ملاهي! وابتهج برونو.

قال السائق بفظاظة: «أربعة دولارات»، ودفع برونو نحوه خمسة دولارات من خلال النافذة.

تلكّأ في الخلف ريثما ولجت ميريام والرجلان مع الفتاة الجديدة التي أحضروها معهم من الباب الرئيس، ثم تبعهم. مدَّ بصره وفتح عينيه واسعاً لكي يُملي نظره من ميريام وهي تحت الأضواء. كانت ظريفة على مستوى طالبة مدرسة ممتلئة، لكنّها حتماً من الدرجة الثانية، هكذا كان حُكم برونو عليها. وأثار حنقه جوربها الأحمر والصندل الأحمر. كيف يمكن لغاي أنْ يتزوج من مثل هذا الشيء؟ ثم كشطَ قدمه على الأرض ووقفَ ساكناً: إنها

ليست حاملاً! ضاقَتْ عيناه في حالة من الارتباك الشديد. كيفَ لم يُلاحِظ هذا منذ البداية؟ ولكن ربما لم يبدُ عليها بعد عضَّ على شَفَته السُّفلى بقوة. وبالنظر إلى مدى امتلاء جسمها، بدا خصرها أوسع مما ينبغي لعلّها أخت ميريام أو أنّها أجرت عمليّة إجهاض أو ما شابه أو كان حملاً مُخفِقاً. الآنسة حَمْل[8]! كيف حالك؟ اهتزّي، يا أختي! كان وركاها الصغيران بدينين من تحت التنورة الضيّقة الرماديّة. وتقدَّم مع تقدّمهم، يتبعهم عن كثب، وكأنّه تحت تأثير قوة مغناطيس. هل كذبَ غاي بشأنْ كونها حاملاً؟ لكنَّ غاي لا يمكن أنْ يكذب. وعامَ عقلُ برونو في بحرٍ من التناقضات حدَّقَ إلى ميريام ورأسه مُشرئب، ثم أقام شيءٌ ما صِلةً في عقله قبل أنْ يفكّر في البحث عن تلك الصِلة: إنْ كان قد وقع شيء للطفل، فهذا سبب آخر لوجوب القضاء عليها، لأنَّ غاي لن يتمكّن من الحصول على الطلاق الذي يريده. وإذا كانت قد أجرت عمليّة إجهاض، على سبيل المثال، فإنَّ في وسعها الآن أنْ تذهب أينما تشاء.

وقفتْ أمام عرضٍ جانبيّ كانت فيه امرأة غجريّة تُسقِطُ أشياء في وعاد كبير لتربية السمك. وبدأتْ الفتاة الأخرى تضحك وتميل بكل ثقلها على الرجل ذي الشعر الأحمر.

«ميريام!»

انتفضَ برونو.

«أوووه، نعم!» ومشتْ ميريام نحو كشك بيع القستر المُثلَّج.

اشتروا كلهم قستر مُثلَّجاً وانتظر برونو ضجراً، ومبتسماً، وهو يتفرَّج على قوس أضواء دولاب الملاهي وإلى الأناس الضئيلين الذين يتأرجحون على المقاعد فوق في السماء السوداء. وبعيداً خلال الأشجار، شاهد أضواءً تتلألأ على صفحة ماء. كان متنزّهاً هادئاً جداً وأراد أنْ يركب دولاب الملاهي. كان يشعر بسعادة غامرة، كان يتقبّل الأمر بكل سهولة، بلا حماس. كانت دوّامة الخيل تبثّ أغنية «كيسي سوف يرقص الفالس مع الشقراء اللذيذة...». عاد

8- المؤلِّفة تتلاعب بلفظ كلمة حمل مُخفِق miscarriage وأعادت نطقها بقول Miss Carriage (الآنسة حمل) ساخرة. - المترجم

إلى شعر ميريام الأحمر، مُبتسماً، فتقابلت عيونهما، لكنَّ عينيها تابعت سيرها وكان متأكّداً من أنّها لم تلاحظ وجوده، ولكن لا ينبغي أنْ يفعل ذلك من جديد ودفعتْه موجةٌ من القلق إلى الضحك بسخرية. وقرَّر أنَّ ميريام لم تبدُ ذكيّة أبداً، وهذا أيضاً سرَّه. إنه يتفهَّم لماذا يحتقرها غاي وهو أيضاً احتقرها، من أعماقه! لعلها كانت تكذب على غاي بشأن حَبَلها. وكان غاي من الطيبة بحيث صدَّقها. تلك العاهرة!.

عندما تحرّكوا مع القستر المُثلَّج، أطلقَ سراح الطائر ذا الذيل المشقوق الذي كان يُشير إليه بإصبعه في صندوق بائع البالونات، ثم دار حوله واشترى بالوناً، لونه أصفر زاه. وشعر كأنّه عاد طفلاً صغيراً من جديد، يُحرِّك العصا حوله في الهواء، ويُصغي إلى الذيل وهو يُصدر صوت سكوي-وي-وي!

مدَّ صبيٌّ صغير يسير مع والديه يده نحو البالون، وشعر برونو برغبة في إعطائه له، لكنّه لم يفعل.

دخلت ميريام مع أصدقائها إلى القسم الكبير المُضاء حيث أسفل دولاب الملاهي وحيث الكثير من التنزيلات ومن العروض الجانبيّة. كانت السكّة الأفعوانيّة تُصدر صوت *تات-تات-تات-تات-تات* كمدفع رشّاش يُطلق الرصاص فوق رؤوسهم. وصَدَرَتْ قرقعة وهدير عندما أطلقَ أحدهم سهماً أحمر نحو الأعلى بمطرقة ثقيلة. قال في نفسه: إنه لا يُمانع في قتل ميريام بمطرقة ثقيلة وتفحَّصَ ميريام وكل فرد من الثلاثة ليرى إنْ كان أيٌّ منهم يُلاحظ وجوده، لكنّه تيقّن من أنهم لم يلاحظوا ذلك. إذا لم يُنفّذها في هذه الليلة، فلا ينبغي أنْ يدع أياً منهم يُلاحظ وجوده. ولكن بصورةٍ ما كان واثقاً من أنّه سوف يُنفّذها في تلك الليلة. سوف يحدث شيء يجعله قادراً على التنفيذ، هذه الليلة هي ليلته. غسله هواء الليل الأكثر برودة، كسائل رشّه بمرح. وأخذ يُلوِّح بالعصفور ضمن دوائر واسعة. لقد أحبَّ تكساس، ولاية غاي! الجميع يبدون سعداء ويضجّون بالحيويّة. ترك جماعة ميريام تندمج مع أحد الحشود بينما كان يتناول جرعة من القارورة ثم لحق بهم.

كانوا يتفرّجون على دولاب الملاهي، وتمنّى لو أنهم يُقرّرون ركوبه. قال برونو في نفسه، وهو ينظر عالياً نحو الدولاب بإعجاب: إنَّ الناس في

تكساس ينفّذون أعمالاً ضخمة. لم يكن قد شاهد دولاب ملاهي يُجاريه في ضخامته. كان في داخله نجمة بخمسة أطراف مُدبَّبة من الأضواء الزرقاء.

قالت ميريام بصوتها الرفيع، وهي تُقحِم ما تبقّى من القستر المُثلَّج في فمها ويدها على وجهها: «رالف، ما رأيك بهذا؟».

«كلا، هذا ليس مُسلياً. ما رأيك في ركوب دوّامة الخيل؟».

وذهبوا. كانت دوّامة الخيل أشبه بمدينة مُنارة وسط غابة مُظلِمة، غابة من الأعمدة المطليّة بالنيكل مزدحمة بالحمير الوحشيّة، وبالأحصنة، والزرافات، والثيران، والجِمال وكلهم يغوصون ويرتفعون، بعضهم بأعناق مقوَّسة على المنصّة، متجمدون في وضعيات القفز والوثب وكأنهم ينتظرون باشتياق مَنْ يمتطيهم. وقف برونو بثبات، غير قادر على إبعاد عينيه المذهولتين عن الدوّامة حتى لكي يُراقب ميريام، وهي تهتز على وقع الموسيقى التي تعِدُ بالحركة في أيّة لحظة. وشعر بأنّه يوشك أنْ يمرّ من جديد بتجربةٍ من مرحلة الطفولة الغابرة واللذيذة التي استحضرها الصوت الأجوف الكرية لآلة الصافرات البخاريّة، وأنغام الأرغن اليدويّ الممتدة المُصاحِبة، وضجيج قرع الطبل والصنج الذي أضحى شديد القُرب منه.

كان الناس يختارون ما يمتطون. وعادت ميريام مع أصدقائها إلى الأكل من جديد، وغاصتْ ميريام داخل كيس الفوشار الذي كان ديكْ يحمله بالنيابة عنها. يا لهم من خنازير! برونو أيضاً كان جائعاً واشترى نقانق فرانكفورت، وعندما نظر من جديد، كانوا يمتطون الدوامة، أخذ يفتش جيوبه عن قطع نقديّة ثم ركض. ونال الحصان الذي أراده، الحصان المَلَكيّ ذا الرأس المرفوع والفم المفتوح، ويشاء الحظ أنّ تظل ميريام وأصدقاؤها يتراجعون نحوه خلال القضبان، وامتطت ميريام مع ديك الزرافة والحصان اللذين أمامه مباشرة. كان الحظ إلى جانبه هذه الليلة! وفي هذه الليلة سوف يُقامِر!.

أشبه بتوتّر –تيه–تيه–دام–

لازمة آسرة –تيه–تيه–دام–

سوف تبدأ–*بووم!* سباقاً مضنياً–*بووم!*

أحبَّ برونو الأغنية وأمّه أيضاً كانت تحبّها، وجعلته الموسيقى يبتلع معدته وجعلت حصانه منتصباً، وأخذ يُحرّك قدميه بمرح على الركاب. ضربه شيء على خلفيّة رأسه، فالتفتَ وفي نيّته الشجار، لكنهم كانوا مجرد بعض الشبّان يتبادلون العبث.

انطلقوا ببطء وتعصّب على إيقاع «مارش واشنطن بوست». هو يرتفع، ويرتفع، ويرتفع، وميريام تنخفض، وتنخفض، وتنخفض على متن زرافتها. وتلاشى العالم الذي يقع خارج الدوامة في غشاوة يخترقها ومض من الضوء. وقبضَ برونو على اللجام بيد كما تعلَّم من خلال تلقّيه دروس رياضة البولو، وأكل نقانق فرانكفورت باليد الأخرى.

صرخ ذو الشعر الأحمر: «يييبي – هوووو!».

فردّ عليه برونو: «ييي – هوووو! أنا من تكساس!».

مالت ميريام إلى الأمام نحو عنق الزرافة، وضاقت حدود تنورتها الرماديّة وشدّت على جسمها: «كيتي؟ أترين ذلك الرجل هناك بالقميص ذي المُربّعات؟».

نظر برونو، فرأى الرجل ذا القميص بالمربّعات. قال برونو في نفسه: إنّه يُشبه قليلاً غاي، وفي أثناء تفكيره في هذا لم يسمع ما قالته ميريام عنه. وتحت الأضواء البرّاقة، وجدَ أنَّ النمش يُغطي ميريام. أصبحتْ مُثيرة للاشمئزاز أكثر من ذي قبل، وبدأ ينفر من فكرة لمس لحمها الدافئ اللزج بيديه. حسن، ما زالت لديه السكين. أداة نظيفة.

هتف برونو بمرح، لأنَّ لا أحد في الواقع كان يستطيع أنْ يسمعه، «أداة نظيفة!». كان يمتطي الحصان على الجهة الخارجيّة، وكان إلى جواره مقعد مزدوج واحد على شكل بجعة، خالٍ فبصقَ عليه ورمى ما تبقّى من شطيرة نقانق فرانكفورت ومسح المسترد عن أصابعه على عُرف الحصان.

«سوف يرقص كيسي مع الشقراء اللذيذة، بينما الفرقة الموسيقيّة -تعزف- أأأأون!» هكذا غنّى صديق ميريام بحماس.

وانضمّوا كلهم إليه ومعهم برونو. كل الموجودين في دوامة الخيل كانوا يُغنون. ليت كان في حوزتهم مشروبات! الجميع يجب أنْ يشربوا!.

غنّى برونو بأقصى طاقة رئتيه «كان عقله مُثقلاً، حتى كاد ينفجر، وسوف ترتعش الفتاة المسكينة من الررر – عب!».

غرّدتْ ميريام تخاطب ديك، فاتحة فمها لكي تتلقّف الفوشار الذي كان يُحاول أنْ يرميه فيه: «مرحباً، كيسي!».

هتفَ برونو: «ياك – ياك!».

بدتْ ميريام قبيحة المنظر وغبيّة بفمها المفتوح، وكأنها مشنوقة واستحال لونها إلى الزهريّ وأصبحت منتفخة. لم يتحمّل النظر إليها، فأشاح بعينيه بعيداً عنها، وما زال يُكشِّر. كانت دوامة الخيل تُبطئ سرعتها وتمنّى لو يستمرون في دور ركوبٍ آخر، لكنهم ترجّلوا، متشابكي الأذرع، وبدؤوا يمشون في اتجاه الأضواء المتلألئة على صفحة المياه.

توقفَ برونو تحت الأشجار ليتناول جرعة صغيرة من القارورة التي أصبحت شبه فارغة.

كانوا يستقلون قارب تجذيف. وكانت فكرة تجذيف قارب مُبهجة لبرونو. هو أيضاً استقلَّ قارباً. بدتْ البحيرة كبيرة وسوداء، لولا التلألؤ بلا أضواء، وممتلئة بقوارب تنساب حاملة أزواجاً على متنها. اقترب برونو على مسافة معقولة من قارب ميريام ليرى صاحب الشعر الأحمر ذاك وهو يُجذّف، ويشاهد ميريام وديك يتلامسان ويقهقهان، في المقعد الخلفيّ. انحنى برونو ليقوم بثلاث مرات من التجذيف القوي جعلته يتجاوز قاربهم، ثم ترك المجذافَين.

سأل ذو الشعر الأحمر: «أترغبون في الذهاب إلى الجزيرة أم التسكّع؟».

تمدَّدَ برونو بانزعاج مُسترخياً بزاوية جانبيّة على المقعد، منتظراً أنْ يتخذوا قرارهم. وفي مواقع منعزلة على طول الشاطئ سمعَ، كأنّما من داخل غرفٍ صغيرةٍ مُظلمة، غمغمات، وأصوات ناعمة من أجهزة مذياع، وضحكاً. أمال القارورة وأجهزَ على ما تبقّى من محتواها. ماذا سيحدث إذا هتفَ «غاي!»؟ ماذا سيعتقد غاي إذا رآه الآن؟ ربما كان غاي وميريام قد خرجا معاً في نزهات على هذه البحيرة، ربما على متن هذا القارب نفسه الذي يجلس عليه الآن. وشعر على يديه وعلى الجزء السفليّ من ساقيه بوخز

أليف بفعل المشروب. لو أنّه يُحضِر ميريام معه إلى القارب، لقام بالإمساك برأسها وإغراقه في المياه بكل سرور. هنا في الظلام. الظلام الدامس وغياب القمر. أصدرت المياه أصوات لعقٍ سريعة بارتطامها بالمجذافين. فجأة تلوّى برونو بصبر نافد. انبعثَ من قارب ميريام صوت امتصاص القُبَل، فردَّها برونو إليهم بأنين استمتاع، *شماك، شماك!* لا بدّ أنهم سمعوه، لأن نوبة من الضحك صدرتْ عنهم.

انتظر إلى أنْ جذّفوا مُبتعدين، ثم تبعهم على مهل. واقتربتْ كتلة سوداء، يخترقها هنا وهناك شرارة قدح عود ثقاب. إنها الجزيرة. بدتْ أشبه بجنّة للعشّاق. قال برونو لنفسه، وهو يُقهقه: ربما ستخوض ميريام مغامرة أخرى من جديد هذه الليلة.

عندما رسا قارب ميريام، جذّفَ مسافة قصيرة جانباً وترجّل إلى الشاطئ، وجرَّ قاربه إلى اليابسة وجعل طرفه المُدبَّب عالياً مرتكزاً على جذع صغير من الخشب بحيث يُصبح من السهل تمييزه عن القوارب الأخرى. من جديد ملأه إحساسٌ بالهدف، أقوى وأشدّ وضوحاً مما كان على متن القطار. لم يمضِ على وجوده أكثر من ساعتين في ميتكالف وها هو على أرض جزيرة معها! ضغط السكين على نفسه من خلال بنطلونه. ليته يستطيع أنْ ينفرد بها ويُطبِق على فمها بيديه – أم أنّها ستعضّه؟ وتلوّى من الإحساس بالاشمئزاز من فكرة لمس فمها الرطب بيده.

وببطء تبع خطواتهم البطيئة، إلى أنْ وصلوا إلى الموقع الذي تكتظ فيه الأشجار.

تأوّهت فتاة تُدعى كيتي: «لا يمكننا أنْ نجلس هنا، الأرض رطبة».

قال أحدهم: «اجلسي على معطفي إذا شئت».

قال برونو في نفسه: يا إلهي، يا لتلك اللكنات الجنوبيّة البلهاء!.

قال أحدهم، من داخل الدغل: «عندما أسير مع حبيبتي في زقاق العشّاق...».

غمغمات ليليّة. حشراتْ. جداجد. وبعوض يطنّ في الأذن. سدَّ برونو أُذنه فأخذتْ تطنّ بصورة تدفع إلى الجنون، وغطّى ذلك على الأصوات.

«... ابتعد عني».

قالت ميريام بعنف: «لِمَ لا نجد مكاناً مناسِباً؟».

«لا يوجد مكان ثم انتبهي إلى خطواتك!».

ضحك صاحب الشعر الأحمر وقال: «انتبهن إلى سراويلكن الداخلية[9] يا بنات!».

إلى أين يذهبون بحق الله؟ لقد نال منه الضجر! بدتْ موسيقى دوامة الخيل مُتعبة وبعيدة جداً، لم يعُد يُسمع إلّا *رنين*. ثم استداروا وأصبحوا في مواجهته، فاضطرّ إلى التنحّي جانباً وكأنّه ذاهب إلى مكانٍ ما. اشتبكَ داخل دغل من الشجيرات الشائكة وانهمك في التخلّص منه ريثما يتجاوزونه. ثم تبعهم، نحو الأسفل ظنَّ أنّه يشمّ رائحة عِطر ميريام، وربما هو عطر فتاة أخرى، رائحة حلوة كرائحة حمّام يعمّه البخار اشمأزت نفسه منها.

قال صوتٌ من مذياع: «... والآن، يتقدَّم بحذرٍ شديد... ليون... ***ليون*** يسدِّد لكمة من يُمنى قوية إلى وجه بيب ***واسمعوا الحشد***[10]***!*** » وضجَّ الهدير.

رأى برونو رجلاً وفتاةً يتضاجعان داخل الدغل كأنهما يتقاتلان أيضاً.

وقفتْ ميريام على بقعة أرض مرتفعة قليلاً، لا تبعد عنه الآن أكثر من ثلاث ياردات، وانزلقَ الآخرون إلى أسفل الضفّة نحو الماء. اقتربَ برونو ببطء. أظهرت الأضواء المنعكسة على صفحة المياه جانب رأسها وكتفيها كان قريباً جداً منها!.

همس برونو: «هيه!»، ورآها تلتفت «ألستِ أنت ميريام؟».

واجهته، لكنّه علِمَ أنها بالكاد تراه: «نعم. مَنْ أنت؟».

تقدَّم مقدار خطوة. سألها متهكّماً، وشمَّ من جديد رائحة العِطر، «ألم أقابلكِ في مكان ما من قبل؟». كانت مجرد بقعة سوداء دافئة وقبيحة. قفز مُسلَّحاً بهدفٍ مُحدَّد، وتلامس رسغا يديه الممدودتين.

«هيه، ماذا تفـ -؟».

9- مرة أخرى يتلاعب بالكلمات ومعانيها، بين step in (يخطو) و step–in (سروال نسائي داخلي). - المترجم

10- قالها كأنها كلمة واحدة. - المترجم

أطبقَتْ يداه على نحرها عند نطقها الكلمة الأخيرة، خانقاً الارتفاع المُجهَض لما تنطوي عليه من مُفاجأة. هزَّها. شعر بجسدها يتيبَّس كصخرة، وسمع صرير أسنانه. وانبعثَ من حنجرتها حفيف، لكنّه كان يشدّ بقوة ومنع أي صراخ وضعَ ساقاً خلفها، وخلعها نحو الخلف، وسقطا معاً إلى الأرض من دون أنْ يصدر أي صوت خلاف حفيف أوراق الشجر. غرز أصابعه أعمق، مُتحمّلاً الضغط الكريه لجسدها تحت جسده لكي لا يرفعهما تلوّيها. شعر بنحرها يزداد حرارة وانتفاخاً. كفى، كفى، كفى! لقد أراد ذلك! وتوقف الرأس عن الحركة. كان متيقّناً من أنّه أطبقَ عليها مدَّة كافية، لكنّه لم يُرخِ قبضته. ألقى نظرة سريعة خلفه، فلم يرَ أحداً قادماً. عندما أرخى أصابعه، شعرَ بأنّه ترك آثار انبعاج على نحرها كما لو أنّه كتلة من العجين. ثم أصدرتْ صوتاً أشبه بسعالٍ عاديّ بثَّ فيه الرعب كأنَّ ميتاً أفاق، وانقضَّ عليها من جديد، ولكي يفعل ذلك ارتكز على رُكبتيه، وضغطها بقوة حتى اعتقد أنّه سيكسر أصابعه. وتسرّبتْ قوّته كلها من خلال أصابعه. وسمع نفسه يتساءل، وماذا إذا لم يكن ذلك كافياً؟ الآن أصبحتْ ساكنة ولا تأتي بأيّة حركة.

هتف صوت الفتاة: «ميريام؟».

قفز برنو واقفاً وانطلق متعثّراً نحو قلب الجزيرة، ثم انعطفَ يساراً، لكي يقترب من قاربه. وجد نفسه يكشط شيئاً عن يديه بمنديل جيبه. إنه لعاب ميريام. ورمى المنديل إلى الأرض ومن ثم عاد فالتقطه من جديد، لأنه بمثابة دليل. كان يفكّر! شعر بانتعاش! لقد تمَّ الأمر!.

هتفت بنفاد صبر كسول: «مير -ياا- م!».

ولكن ماذا لو أنّه لم يُجهِز عليها بعد، لو أنها نهضتْ وهي تتكلَّم الآن؟ انطلقتْ الفكرة كالقذيفة وكاد يقع على الضفة. وعلى حافة الماء صَفَعَه نسيمٌ قاس. لم ير قاربه وبدأ يستقل أي قارب موجود، ثم غيَّر رأيه، فعلى بُعد مسافة قصيرة عثر عليه إلى اليسار، جاثماً على جذع الخشب الصغير.

«انظروا، إنها غائبة عن الوعي!».

احتجبَ برونو، بسرعة، ولكن من دون استعجال.

قالت الفتاة بين الشهيق والصراخ: «يا إلهي -سا- ***ساعدوني!***».

أثار الرعب الذي ساد صوتها رعبَ برونو. جذف عدة مرّات، ثم توقف فجأة وترك القارب ينساب فوق المياه المُظلمة. لِمَ هو خائف، بحقّ الله؟ لا أثر لأحدٍ يُلاحقه.

«هيه!».

«يا الله، إنها ميتة! اتصلوا بأحد!».

كان صراخ الفتاة أشبه بقوس طويل داخل الظلام، وبصورة ما أعلنَ الصراخ انتهاء الأمر. قال برونو في نفسه، بإعجابٍ هادئ، غريب الأطوار، صراخٌ جميل. اقترب من رصيف الرسوّ بسهولة، خلف قاربٍ آخر. بسهولة، بالسهولة نفسها التي يُنفِّذ بها أيّ شيء، ودفع الأجرة لحارس القوارب.

قال حارس آخر، بصوتٍ مصعوق، متلهِّف، من قاربٍ آخر: «هناك على الجزيرة! يقولون إنَّ هناك فتاة ميتة!».

«ميتة؟».

«اتصلوا بالشرطة!».

ركضَتْ أقدام على خشب منصّة الرسو خلفه.

سار برونو بهدوء باتجاه بوابّة المتنزّه. شكراً لله لأنه كان شديد السُّكر أو يُعاني من آثار السُّكر أو شيئاً يمكن أنْ يُحرّكه ببطءٍ شديد! لكنَّ رعباً خفّاقاً، لا يمكن التغلُّب عليه تنامى داخله في أثناء اجتيازه الباب الدوّار ثم انحسر بسرعة. لا أحد كان حتى ينظر إليه ولكي يُهدِّئ من روعه، ركَّز انتباهه على رغبته في مشروب. كان هناك مكان في آخر الشارع بأضواء حمراء يبدو أنّه حانة، فتوجّه مباشرة نحوه.

قال للساقي: «جرعة صغيرة».

«من أين أنت، يا بنيّ؟».

نظر برونو إليه. كان هناك رجلان إلى اليمين ينظران إليه أيضاً. «أريد ويسكي».

«لا نقدِّم مشروبات قوية هنا، يا رجل».

«ماذا تعني، أنحن في متنزّه؟» أصبح صوته أجش كأنه صراخ.

«في ولاية تكساس لا نقدِّم مشروبات قويّة».

«أعطني بعضاً من هذا!» وأشار إلى زجاجة الجودار التي كان الرجلان يشربان منها على البار.

صبَّ أحد الرجلين بعض الجودار في كأس ودفعه نحوه. «تفضّل. إنَّ الجميع يرغبون في المشروب رغبة ماسّة».

كان الوضع صعباً بسبب سوء الأحوال في تكساس، لكنه يتحسّن حالما تصل إلى هناك. حاول برونو أنْ يدفع ثمن المشروب لكنَّ الرجل رفضَ قبوله.

ضجّتْ صفّارات سيارات الشرطة، واقتربَتْ أكثر.

دخل رجلٌ من الباب.

سأله أحدهم: «ماذا حدث؟ أوقعَتْ حادثة؟».

قال الرجل بلا مبالاة: «لم أر شيئاً».

قال برونو في نفسه، وهو يستعرض الرجل: *يا إلهي!*، ولم يبدُ أنَّ من الصواب الاقتراب منه والتحدّث معه.

شعر بارتياح، ظلَّ الرجل يلحّ عليه ليتناول مشروباً آخر، وشرب برونو ثلاثة كؤوس سريعة. لاحظَ وجود خط على يده وهو يرفع الكأس، فأخرج منديله، وقام بهدوء بمسح ما بين إبهامه وسبّابته. كان أثراً من أحمر شِفاه ميريام برتقاليّ اللون. بالكاد رآه تحت ضوء الحانة. شكرَ الرجل الذي يشرب الجودار، وخرج بتؤدة منتقلاً إلى الظلام، سائراً على طول الجانب الأيمن من الطريق، باحثاً عن سيارة أجرة. لم تكن لديه رغبة في النظر خلفه إلى المتنزّه المُضاء. بل لم يكن حتى يفكّر فيه، كما قال لنفسه. مرّت حافلة، فهرع نحوها. استمتع بالجلوس داخلها البرّاق، وقرأ كل ما كُتِبَ على رقع الإعلانات. كان صبيّ صغير يتلوّى يجلس على الجانب المقابل من الممر بين صفيّ المقاعد، وبدأ برنو يتحدث معه. ظلّتْ فكرة الاتّصال بغاي ومقابلته تخطر في باله، لكنَّ غاي لم يكن موجوداً هنا طبعاً. أراد أنْ يُقيم نوعاً من الاحتفال. قد يتصل بوالدة غاي من جديد، من دون أي سبب، ولكن بعد برهة تفكير، لم يبدُ ذلك تصرّفاً حكيماً. والسبب هو الرسالة القصيرة القذرة في المساء، وكونه لم ير غاي، أو حتى أنْ يتحدث معه أو

يكتب له منذ فترة طويلة. سوف يأتي غاي طبعاً من أجل طرح بعض الأسئلة. لكنه كان حرّاً! لقد أُنجِزَ العمل، أُنجِزَ، أُنجِزَ! وفي فورةٍ من السعادة، عبثَ بشَعر الصبيّ الصغير.

بوغِتَ الصبيّ الصغير برهة، ثم ابتسم أيضاً كردَّة فعل على ابتسامة برونو الوديّة.

في محطة نهاية خط حديد أتكيسون، وتوبيكا وسانتا فِه، حظيَ بالسرير العلويّ في عربة النوم في القطار المُغادر عند الساعة الواحدة والنصف صباحاً، مما منحه ساعة ونصف لتنفيذ القتل. كل شيء كان مثاليّاً وشعر بسعادة قُصوى. وفي المتجر القريب من المحطة، اشترى مقدار إبريق من الويسكي لكي يُعيد ملء قارورته. وفكَّر في المرور بمنزل غاي ليرى كيف هو شكله، ويتفحّصه بعناية، وقرَّر أنّه يستطيع أنْ يفعل ذلك. أوشك أنْ يتوجّه إلى رجلٍ متوقّفٍ بجوار الباب، ليسأله عن الاتجاهات -كان يعلم أنّه لا ينبغي أنْ يذهب إلى هناك بسيارة أجرة- عندما أدركَ أنّه بحاجة إلى امرأة. احتاج إلى امرأة أكثر من أي وقتٍ من حياته، وهذا بثَّ فيه سروراً مُعجِزاً. لم يكن قد رغب في امرأة منذ أنْ ذهبَ إلى سانتا فِه، على الرغم من أنَّ ويلسون كان قد دفعه إلى ذلك مرّتين. وغيَّرَ اتجاهه مبتعداً عن وجه الرجل مباشرة، ورأى أنَّ الأفضل أنْ يسأل أحد سائقي سيارات الأجرة في الخارج. كان مُصاباً بالرعشة ويحتاج إلى امرأة حاجة ماسّة! يحتاج إلى نوع آخر يختلف عن الرعشة الناجمة عن شرب الخمر.

قال السائق صاحب الوجه المكسو بالنمش والخالي من التعبير، والمُتّكئ على رفراف الدولاب: «لا أعلم».

«ماذا تعني بأنكَ لا تعلم؟».

«لا أعلم، هذا كل شيء».

تركه برونو شاعراً بالاشمئزاز.

سائق آخر على الرصيف كان أكثر تعاوناً. دوَّنَ عنواناً واسمين على خلفيّة بطاقة إحدى الشركات، على الرغم من أنّه قريب جداً، ولم يحتج إلى أنْ يركب سيارة إلى هناك.

الثالث عشر

اتّكأ غاي على الجدار المُجاور لسريره في مونتيكارلو يُراقبُ آنْ وهي تُقلِّبُ صفحات ألبوم صور العائلة الذي كان قد أحضره من ميتكالف. كانا يومين رائعين، أمضاهما مع آنْ. غداً سوف يُغادر إلى ميتكالف، ومن ثم إلى فلوريدا. كانت قد وصلته برقيّة السيد بريلارت قبل ثلاثة أيام، يقول فيها إنَّ المهمّة ما زالتْ موكلة إليه. وفي انتظاره عملٌ يستمر ستة أشهر، وفي شهر كانون أول سوف يبدأ بناء منزلهما الخاص. بات في حوزته الآن المال اللازم لبنائه. ومال لتكاليف الطلاق.

قال بهدوء: «تعلمين، لو لم يتوفّر لي عمل بالم بيتش، ولو اضطررتُ إلى العودة إلى نيويورك في الغد والعمل هناك، لفعلت، وقبلتُ أي شيء». ولكن حالما قال هذا، أدركَ أنَّ العمل في بالم بيتش قد منحه الشجاعة، والزخم، والإرادة، أو مهما كان اسمه، بحيث إنّه لولا تلك الأيام التي أمضاها في بالم بيتش مع آنْ لما تركَ ذلك العمل في نفسه أكثر من إحساس بالذنب.

أخيراً قالتْ آنْ: «لكنكَ لستَ مُضطراً». ومالتْ أكثر فوق الألبوم.

ابتسمَ. كان يعلم أنّها لم تكن تُصغي إليه. وفي الحقيقة، إنَّ ما قاله لم يكن هامّاً، كما تعلم آنْ. ومال معها فوق الألبوم، يُعرِّف الأشخاص الذين تسأل عنهم، ويُراقبها بسرور وهي تتفحّص الصفحات التي عليها صوره التي جمعتها والدته منذ عهد الفتوة وحتى سن العشرين. كان يبتسم في كل واحدة منها، مع كثّةٍ من الشَّعر الأسود تعلو وجهاً أكثر قوة وخالٍ من الهمّ مما هو عليه الآن.

سألها: «هل أبدو سعيداً كثيراً فيها؟».

غمزت له: «وشديد الوسامة. أليس هناك صور لميريام؟». وتركت ما تبقّى من صفحات تتجاوز ظِفر إبهامها.

قال غاي: «كلا».

«أنا سعيدة جداً لأنكَ أحضرتَ هذا».

«سوف تقصف أمي عنقي إذا علِمت أنّه موجود في المكسيك»، وأعاد

الألبوم إلى الحقيبة لكي لا ينساه. «إنها الوسيلة الأكثر إنسانيّة لمقابلة أفراد العائلات».

«غاي، هل عرَّضتُكَ إلى الكثير من الضغوط؟».

ابتسم لنبرة صوتها الكئيبة: «كلا! أنا لا آبه البتّة!». جلسَ على السرير وجرّها معه إليه. كان قد قابل أقارب آنْ كلّهم، أفراداً، وجماعات، على موائد آل فوكنر في أيام الآحاد وفي الحفلات. وكانت تدور بينهم نكات حول العدد الكبير من آل فوكنر وويدل وموريسون، وكلهم يُقيمون في نيويورك أو في لونغ أيلند. وبصورة ما أحبّ فكرة تجمّع ذلك العدد الغفير من أقربائها. وعيد الميلاد في العام السابق الذي أمضاه في منزل آل فوكنر كان أسعد أيّام حياته. قبّلها على وجنتيها، ثم على فمّها. وعندما نظر إلى الأسفل شاهد رسومات آنْ على قرطاسيّة مونتيكارلو التي على اللحاف، وبدأ بهدوء يُرتّبها في نسق واحد. كانت أفكاراً لتصاميم خطرتْ لها بعد قيامهما بزيارة المتحف الوطني بعد ظهيرة ذلك اليوم. كانت خطوطها سوداء ومُحدَّدة، كرسوماته التخطيطيّة الأوّليّة. «إنني أفكّر في المنزل، يا آنْ».

«تريده كبيراً».

ابتسم: «نعم».

«فليكن كبيراً» واسترخت بين ذراعيه وتنهدا معاً، كشخصٍ واحد، وضحكتْ قليلاً وهو يضمّها إليه بقوة.

كانت المرَّة الأولى التي تتَّفق معه على حجم المنزل. سوف يكون المنزل على شكل حرف Y، والسؤال المطروح هو ما إذا كانا سيستغنيان عن الذراع الأماميّة للحرف. لكنَّ الفكرة غرَّدتْ في رأس غاي بذراعَين فقط. سوف يُكلِّفُ كثيراً، بل أكثر بكثير من عشرين ألفاً، لكنَّ بالم بيتش سوف تجلب سرباً من المشاريع الخاصّة، حسب توقّع غاي، وسوف تكون أعمالاً سريعة، ومُجزية. وقد قالت آنْ له أن لا شيء يُسعد والدها أكثر من أنْ يُقدِّم لهما الجناح الأماميّ هدية زواج، لكنَّ ذلك كان بالنسبة إلى غاي أمراً مستحيلاً كهدمه. وتراءى له المنزل أبيضَ مُشرقاً وأنيقاً أمام خلفيّة طاولة المكتب البنيّة في الطرف المقابل من الغرفة، بارزاً من صخرة بيضاء معيّنة كان قد

رآها بالقرب من بلدة اسمها ألتون في المنطقة السُّفلى من كنكتيكت. كان المنزل طويلاً، ومنخفضاً، وذا سطحٍ مستوٍ، وكأنَّ عِلم الكيمياء حفره من الصخرة نفسها، كحجر كريستال.

قال غاي: «يمكن أنْ نسمّيه حجر كريستال».

رفعت آنْ بصرها نحو السقف متأمّلة: «لستُ شديدة الولع بتسمية المنازل - بأسماء المنازل. ربما لا يُعجبني اسم كريستال».

شعرَ غاي بأنّه تأذى بشدَّة. «إنه أفضل بكثير من «ألتون». من بين الأسماء التفهة كلها! هذه هي نيو إنغلند بالنسبة إليك. تكساس على سبيل المِثال-».

«حسن، أنتَ اخترتَ تكساس وأنا اخترتُ نيو إنغلند». ابتسمتْ آنْ، مُعترضة مسار غاي، لأنها على أرض الواقع كانت تحبّ تكساس وكان غاي يحبّ نيو إنغلند.

نظر غاي إلى جهاز الهاتف، مع إحساسٍ داخليّ غريب بأنّه سوف يرنّ. شعر بدوارٍ في رأسه، كأنّه تناول عقاراً مُنشّطاً باعتدال. قالت آن، إنّه بسبب الارتفاع، الذي يجعل الناس في مكسيكو سيتي ينتابهم هذا الإحساس. قال غاي ببطء: «أشعر كأنَّ في استطاعتي أنْ أتّصل هاتفيّاً بميريام هذه الليلة وأتحدث معها وسوف يكون كل شيء على ما يرام، وكأنَّ في استطاعتي أنْ أقول ما ينبغي قوله».

قالت آنْ، بجديّة صارمة: «ها هو الهاتف».

مرّتْ ثانية، وسمع آنْ تتنهّد.

سألتْه، وهي تعتدل في جلستها: «كم الساعة؟ لقد وعدتُ أمي بأنني سأعود بحلول الساعة الثانية عشرة».

«إنها الحادية عشرة وسبع دقائق».

«ألا تشعر بالجوع؟».

أمرا بإحضار شيء من المطعم في الطابق السفليّ. كان طبق لحم الخنزير مع البيض شيئاً لا شكل له بلون قرمزيّ، لكنّهما قرّرا أنّه لذيذ جداً.

قالتْ آنْ: «يسعدني مجيئك إلى المكسيك، إنّه يُشبه شيئاً كنتُ أعرفه

جيداً وأنت لا تعرفه، شيئاً أردتُ أنْ أُعرِّفكَ عليه»، ثم استأنفت كلامها وهي تأكل ببطء: «غير أنَّ مكسيكو سيتي ليست كغيرها من المدن. إنها تترك حنيناً في النفس كباريس وفيينا وسوفَ ترغب في العودة إلى هنا مهما حدث لك».

تجهّمَ غاي. كان قد زار باريس وفيينا ذات صيف مع روبرت تريتشر، المهندس الكندي، ولم يكن في حوزة أيّ منهما مال. ولم تكونا باريس وفيينا اللتين عرِفتهما آنْ. نظر إلى اللفائف الحلوة بالزبد التي قدَّمتْها له. أحياناً يرغب بشغف في التعرُّف على طعم كل شيء جرَّبته آنْ. «ماذا تعنين بقولك مهما حدث لي هنا؟».

«أعني ما إذا كنت مريضاً أو تعرَّضتَ للسرقة» رفعتْ بصرها نحوه وابتسمتْ. لكنَّ ضوء المصباح أحدثَ وَهَجاً في عينيها اللتين بلون زرقة الدخان، وهجاً هلاليّ الشكل على حوافهما الأشد سواداً، أضفى حزناً غامضاً على وجهها. أعتقد أنَّ في تناقضات الأمر يكمن سرّ جاذبيته كالأشخاص الذين يعانون من تناقضات هائلة».

حدَّقَ غاي إليها، وإصبعه معقوف ليُمسِك بمقبض كوب القهوة وجعله مزاجها، أو ربما ما قالت، يشعر بالضآلة. «آسف لأنني لا أعاني من أيّة تناقضات هائلة».

ثم انفجرت تضحك: «أوه -هوه- هوه!»، ضحكتها المرحة المعتادة التي تُبهجه حتى عندما تضحك منه، حتى عندما لا تكون لديها نيّة في تبرير نفسها.

قفز واقفاً: «ما رأيكِ ببعض الكعك المُحلّى، سوف أُحضِرُ كعكة كما يفعل الجنّي. كعكة رائعة!» أخرَجَ علبة الكعك القصديريّة من زاوية الحقيبة. لم يتذكّر الكعك إلّا في تلك اللحظة، الكعك الذي أعدَّته أمّه بمربّى العلّيق وكان يُبدي إعجابه به على وجبات الإفطار.

اتّصلتْ آنْ هاتفياً بالحانة في الطابق السفليّ وأمرت بإحضار مشروبٍ خاصّ تعرفه. كان المشروب أرجوانياً قاتماً بلون الكعكة الأرجوانيّة، في كؤوسٍ ذات أعناق لا يتجاوز حجمها حجم إصبع. وما أنْ غادر النادل، وما أنْ رفعا الكوبَين، حتى رنَّ جرس الهاتف، رنيناً عصبيّاً، مُتكرّراً.

قالت آنْ: «لعلّها أمي».

رفعَ غاي السمّاعة سمعَ صوتاً يتكلّم من مسافة بعيدة مع عامل المقسَم. ثم أصبح الصوت أعلى، وقلقاً وحادّاً، إنّه صوت أمّه:

«ألو؟».

«ألو، ماما».

«غاي، لقد وقع أمر».

«ماذا حدث؟».

«إنها ميريام».

ضغط غاي سماعة الهاتف أكثر على أُذنه «ما بها؟». التفتَ نحو آنْ، فرأى تعبير وجهها قد تغيّرا عندما نظرتْ إليه.

«لقد قُتِلَتْ، يا غاي. ليلة أمس –» وسكتتْ فجأة.

«ماذا قلتِ، ماما؟».

«حدث هذا ليلة أمس». تكلَّمتْ بنبرة صوت حادّة، محسوبة، لم يسمعها غاي من قبل إلّا مرّتين في حياته. «غاي، لقد اغتيلَتْ».

«اغتيلَتْ!».

سألته آنْ، وقد نهضَت واقفة: «غاي، *ما الأمر*؟».

«ليلة أمس في البحيرة. إنهم لا يعلمون أي شيء».

«أنتِ–».

ألا تستطيع أنْ تعود إلى المنزل، يا غاي؟».

«نعم، يا أمي»، ثم سألها على عَجَل، وهو يعصر الهاتف كأنَّ في وسعِهِ أنْ يستخلِص منه معلومات من جزئيّة المُصمَّمين على الطراز العتيق: «– كيف؟ كيف؟».

«مخنوقة». قالت كلمة واحدة، ثم صمتتْ.

باشر بالقول: «هل أنتِ –؟ هل –؟».

تمسّكتْ آنْ بذراعه: «غاي، ما الأمر؟».

«سوف أعود إلى المنزل في أقرب وقت، ماما هذه الليلة لا تقلقي، سوف أراكِ قريباً جداً». أعاد السمّاعة إلى مكانها والتفتَ إلى آنْ. «إنها ميريام. ميريام قُتِلَتْ».

همستْ آنْ: «أقلتَ - قُتِلَتْ؟».

هزَّ رأسه إيجاباً، ولكن فجأة خطر له أنه ربما هناك خطأ. إنْ كان مجرد تقرير -

«متى؟».

لكنها وقعتْ ليلة أمس. «ليلة أمس، كما قالتْ».

«أيعرفون القاتل؟».

«كلا. يجب أنْ أرحل هذه الليلة».

«يا إلهي».

نظر إلى آنْ، وهي واقفة أمامه ساكنة كرَّر القول، مذهولاً: «يجب أنْ أرحل هذه الليلة». ثم التفتَ وعاد إلى جهاز الهاتف لكي يتّصل ويحجز مقعداً على متن الطائرة، لكنَّ آنْ هي التي فعلتْ ذلك بالنيابة عنه، وهي تتكلَّم بسرعة بالإسبانيّة.

باشر بحزم أمتعته. بدا أنَّ جمْع أغراضه القليلة ووضْعها في الحقيبة يستغرقُ ساعات. حدَّقَ إلى الخزانة البنيّة، متسائلاً إنْ كان قد فتش داخلها ليرى إنْ كان قد أخرج كل شيء من الأدراج. والآن، ظهر وجهٌ ضاحكٌ مكان رؤيا المنزل الأبيض، أولاً فمٌ على شكل هلال، ثم الوجه - وجه برونو. انحنى اللسان بخلاعة فوق الشَّفَة العليا، ثم عاد من جديد الضحك الصامت، المتشنِّج، وهزّ الشَّعر الشبيه بالأسلاك فوق الجبين. تجهَّمَ غاي في وجه آنْ.

«غاي، ماذا بك؟».

قال: «لا شيء». كيف *بدا* الآن؟.

الرابع عشر

ماذا لو أنَّ برونو نفَّذَ الجريمة؟ هذا مستحيل طبعاً، ولكن فقط لنفترِض أنّه فعلها؟ هل ألقوا القبض عليه؟ هل أخبرهم برونو بأنَّ جريمة القتل كانت خطّة وضعاها معاً؟ يمكن لغاي أنْ يتخيَّل بسهولة برونو الهستيريّ يقول أي شيء. لا يمكن تكهّن ماذا يمكن لطفلٍ عُصابيّ كبرونو أنْ يقول. أخذ غاي يفتّش في ذاكرته الكسول بين طيّات حديثهما الذي تبادلاه وهما على متن

القطار وحاول أنْ يتذكَّر إنْ كان قد قال شيئاً في نوبة مُزاح أو غضب أو سُكر يمكن اعتباره موافقةً على فكرة برونو المجنونة. فلم يجد شيئاً. وعلى الرغم من جوابه السلبيّ، راجعَ رسالة برونو التي كان يتذكّرها حرفيّاً: ***تلك الفكرة التي تداولناها عن ارتكاب جريمة قتلٍ مزدوجة أنا واثق من إمكانيّة تنفيذها ولا يمكنني أنْ أعبّر لك عن مدى ثقتي المُطلقة.***

نظر غاي من نافذة الطائرة إلى الظلام الدامس. لِمَ لا يبدو عليه قلقٌ أشدّ؟ وفي آخر جسم الطائرة الأسطوانيّ ومضَ عود ثقاب عند طرف سيجارة أحدهم. كان عبق التبغ المكسيكي خفيفاً، ولاذعاً ومثيراً للاشمئزاز. ونظر إلى ساعة يده: الساعة الرابعة وخمس وعشرون دقيقة.

قُرابة الفجر استغرقَ في النوم، مُستسلماً لهدير المُحرِّكات المُهتزّ الذي بدا كأنّه ينوي أنْ يمزّق الطائرة إرباً، وينثر الأشلاء في أرجاء السماء. استيقظَ على صباحٍ غائم مُعتِم ومع فكرةٍ جديدة: إنَّ عشيق ميريام هو الذي قتلها. الأمر شديد الوضوح، والاحتمال. لقد قتلها في أثناء شجار. غالباً ما يقرأ المرءُ عن مثل هذه الحالات في الصحف، وغالباً ما تكون الضحايا نساء على غرار ميريام. كان هناك تقرير في الصفحة الأولى عن جريمة قتل فتاة في صحيفة الفضائح *إل غرافيكو* التي اشتراها في المطار –لم يعثر على أي صحيفة أميركيّة، على الرغم من أنّه كاد أنْ يُفوِّت على نفسه رحلة الطائرة في أثناء بحثه عن واحدة– تحتوي صورة لعشيقها المكسيكيّ المُكشِّر حاملاً السكين التي قتلها بها، وباشر غاي القراءة، ونال الضجر منه في الفقرة الثانية.

طلبَ منه تحرٍّ يرتدي ملابس متواضعة قابله في مطار ميتكالف أنْ يتفضَل بالإجابة عن بضعة أسئلة وركبا سيارة أجرة معاً.

سأله غاي: «هل عثروا على القاتل؟».

«كلا».

بدا التعب على التحرّي، وكأنه ظلَّ يقِظاً طوال الليل، كباقي المُراسلين والكَتَبَة ورجال الشرطة في المحكمة القديمة في الحيّ الجنوبيّ. بدأ غاي يتلفّتْ حوله في الغرفة الكبيرة المُلبّسة بالخشب، بحثاً عن برونو قبل أنْ يعي أنّه يفعلُ ذلك. وعندما أشعلَ سيجارة، سأله الرجل الجالس إلى جواره عن

نوعها، وقبِلَ السيجارة التي قدَّمها غاي له كانت من سجائر آنْ البلمونت التي ضمّها إلى أغراضه عندما كان يحزمها.

«غاي دانييل هينز، 717 شارع أمبروز، ميتكالف... متى غادرتَ ميتكالف؟... ومتى وصلتَ إلى مكسيكو سيتي؟».

جُرَّت كراسٍ. وباشرت آلات كاتبة بلا ضجيج تَضرِب بعد بدء حديثهما.

بدأ تحرّ آخر يرتدي ملابس عاديّة ويضعُ شارة، وسترته مفتوحة وبطنه بارزة ومتدلّية يقترب منه: «لِمَ ذهبتَ إلى المكسيك؟».

«لزيارة بعض الأصدقاء».

«مَنْ هم؟».

«آل فوكنر، أليكس فوكنر من نيويورك».

«لِمَ لم تُخبِر أمّك عن المكان الذي كنتَ ذاهباً إليه؟».

«بلى أخبرتُها».

أخبره التحرّي بفتور، وهو يُشير إلى رسائله القصيرة: «لم تكن تعلم بالمكان الذي ستنزل فيه في مكسيكو سيتي، وبعثتَ إلى زوجتك رسالة في يوم الأحد تطلب فيها الطلاق منها، فبمَ أجابت؟».

«أرادتْ أنْ تتحدّث معي».

سأله بصوت أجش وواضح: «لكنكَ لم تعُد تأبه بالتحدث معها، أليس كذلك؟».

نظر غاي إلى ضابط الشرطة الشاب، ولم يقُل شيئاً.

«هل الطفل الذي كان سيولَد هو طفلك؟».

باشر بالإجابة، لكنّه قاطعه.

«لِمَ أتيتَ إلى تكساس في الأسبوع الفائتْ لترى زوجتك؟».

«ألم تكن ترغب في الطلاق رغبة جامحة، يا سيد هينز؟».

«هل أنتَ على علاقة حب مع آنْ فوكنر؟».

ضحك.

«أنتَ تعلم أنَّه كان لزوجتك عشيق، سيد هينز هل كنتَ غيوراً؟».

«كنتَ تعتمد على ذلك الطفل لتنال الطلاق، أليس كذلك؟».

قال أحدهم: «هذا كل شيء!».

أقحموا صورة فوتوغرافيّة أمامه، وامتزجت الصورة بغضبه قبل أنْ تتخذ شكل رأسٍ طويل قاتم، مع عينين بنّيتين وسيمتين وتنمّان عن غباء، وذقن تتسم بالرجولة وعليها شق-وجه جديد بنجم سينمائيّ، ولم يكن أحد بحاجة إلى أنْ يُخبره بأنّه عشيق ميريام، لأنّه كان وجهاً من النوع الذي كانت تحبّه قبل ثلاثة أعوام.

قال غاي: «كلا».

«ألم يدُر بينكما أنت وهو حديث؟».

«هذا كل شيء!».

ارتسمتْ ابتسامة لاذعة عند زاوية فمه، لكنّه شعر بأنه يمكن أيضاً أنْ يبكي كطفل. نادى على سيارة أجرة من أمام المحكمة. وفي الطريق إلى منزله في السيارة، قرأ العمود الصحفيّ المزدوج على الصفحة الأولى من صحيفة *ميتكالف ستار*.

البحث مُستمر عن قاتل الفتاة

12 حزيران – يستمرّ البحث عن قاتل السيدة ميريام جويس هينز من هذه المدينة، ضحيّة عمليّة خنق على يد قاتلٍ مجهول على جزيرة ميتكالف في ليل يوم الأحد.

وصل اليوم اثنان من خبراء بصمات الأصابع ليحاولا وضع تصنيف لبصمات الأصابع التي رُفِعَتْ عن عددٍ من مجاذيف القوارب ويخشى رجال التحرّي أنّ بصمات الأصابع التي استطاعوا جمعها كانت مُبهَمة. وبعد ظهيرة أمس عبَّرتْ السلطات عن رأيها بأنّ الجريمة من تنفيذ شخص مهووس. وخِلاف بصمات الأصابع المُلتبسة وآثار الأقدام الموزّعة حول مسرح الجريمة، لم يكتشف رجال الشرطة أي دليل حيويّ.

يُعتقَد أنّ الشهادة الأهمّ في التحقيق سوف تأتي من أوين ماركْمان، البالغ الثلاثين من العمر، والمسؤول عن القوارب من هيوستن، والصديق المُقرَّب للمغدورة.

سوف يجري دفن جثمان السيدة هينز اليوم في مقبرة ريمنغتون. وسوف

ينطلق موكب الجنازة من دار هويل لدفن الموتى في جادّة كوليج عند الساعة الثانية بعد ظهر هذا اليوم.

أشعلَ غاي سيجارة من عقب سيجارة أخرى. كانت يداه ما تزالان ترتعشان، لكنّه شعر بتحسّن بصورة مُبهمة. لم يفكّر في احتمال وجود شخص مهووس. إنَّ المهووس يختزل الجريمة إلى مستوى حادث مُريع.

جلستْ أمّه على كرسيها الهزّاز في غرفة الجلوس وهي تضغط منديلاً على صِدغها، في انتظاره، على الرغم من أنّها لم تنهض عندما وصل. عانقَها غاي وقبّل وجنتها، وارتاح لأنه وجد أنها لم تكن تبكي.

قالتْ: «أمضيتُ يوم أمس مع السيدة جويس، لكنني لا أقوى على مرافقة الجنازة».

«ليس هناك أي داعٍ لذلك، يا أمي»، وألقى نظرة على ساعة يده فرأى أنها تجاوزت الثانية. وشعر لبرهة من الزمن أنَّ ميريام يمكن أنْ تكون قد دُفِنَتْ حيّة، وأنها قد تفيق وتصرخ مُحتجّة. أدار وجهه، ومرَّر يده عبر جبينه.

قالت أمّه برقّة: «لقد سألتني السيدة جويس إنْ كنتَ ربما تعلم شيئاً».

واجهها غاي من جديد كان يعلم أنَّ السيدة جويس تبغضه وهو يكرهها الآن بسبب ما يمكن أنْ تكون قد قالت لأمّه. «لا تقابليهم بعد الآن، يا أمي لستِ مُضطرة، أليس كذلك؟».

«كلا».

«وشكراً لكَ لأنكَ أتيت».

في الطابق العلويّ، وجد على طاولة المكتب ثلاث رسائل وحزمة صغيرة مُربّعة الشكل عليها علامة مخزن سانتا فِه. كانت الحزمة تضم حزاماً ضيقاً من جلد السحالي المُزركش مع إبزيم من الفضّة على شكل رسالة مُغلقة تقول:

أضعتُ كتاب أفلاطون وأنا في الطريق إلى مكتب البريد آمل أن يُعوّضك هذا عنه.

تشارلي

رفع غاي الظرف المكتوب عليه بقلم الرصاص من فندق سانتا فِه، لم يكن يحتوي في داخله إلّا بطاقة صغيرة كُتِبَ على خلفيّتها:

بلدة ميتكالف الجميلة

أدار البطاقة، وقرأ برتابة:

نعمل 24 ساعة

خدمة تاكسي دونوفان

في كل الأحوال الجويّة

اتّصل بالرقم: 2-3333

خدمة آمنة سريعة وراقية

كان هناك شيء مطموس تحت الرسالة في الخلفيّة. قرَّبَ غاي الرسالة من الضوء وميَّزَ كلمة واحدة: الجنّي. كانت بطاقة تعلن عن شركة سيارات أجرة في ميتكالف، لكنها أُرسِلَتْ من سانتا فِه. قال في نفسه: إنها لا تعني أيّ شيء، ولا تُثبت أيّ شيء، لكنّه دمَّرَ البطاقة والمغلَّف والورقة التي ضمّتْ الحزمة ورماها في سلّة المهملات وأدركَ أنّه يبغض برونو. ثم فتح العلبة التي رماها في سلّة المهملات وضمَّ إليها الحزام أيضاً، كان حزاماً أنيقاً، ولكنْ تصادف أنْ كان يبغض جلد السحالي والأفاعي.

في ليلةِ ذلك اليوم اتّصلتْ آنْ به من مكسيكو سيتي أرادتْ أنْ تعرف كل شيء عمّا حدث، فأخبرها بما علِم.

سألته: «أليس لديهم أيّ اشتباه في أحد؟».

«لا يبدو ذلك».

«لا تبدو على ما يُرام، يا غاي ألم تأخذ قسطاً من الراحة؟».

«لم أفعل حتى الآن». لم يُخبرها بأمر برونو. وكانت أمّه قد قالتْ إنَّ رجلاً اتّصل به هاتفياً مرّتين، وأراد أنْ يتحدث معه، ولم يشكّ غاي في هوية ذلك الشخص،لكنّه كان يعلم أنّه لا يستطيع أنْ يُخبر آنْ عن برونو إلى أنْ يتأكّد لا يستطيع أنْ يبدأ.

«لقد أرسلنا تواً تلك الشهادات الخطيّة، يا عزيزي. كما تعلم، حول كونك هنا معنا؟».

كان قد أبرقَ إليها وطلبها منها بعد أنْ تحدّث مع أحد أفراد شرطة التحرّي. قال: «سيكون كل شيء على ما يُرام بعد انتهاء الاستجواب».

لكنَّ الاضطراب تولّاه طوال الليل لأنّه لم يُخبِر آنْ بشأن برونو. لم يكن الرعب هو ما رغبَ في تجنيبها إياه، بل شيء أشبه بالإحساس الشخصي بالذنب لم يتحمّله.

كان هناك تقرير ينتشر مفاده أنَّ أوين ماركْمان لم يرغب في الزواج من ميريام بعد أنْ فقد طفله، وأنها كانت قد بدأتْ إجراءات إقامة دعوى نكث الوعد ضدّه. قالتْ والدة غاي إنَّ ميريام فقدتْ حقاً الطفل مُصادفة. وكانت السيدة جويس قد أخبرتها بأنَّ ميريام تعثّرتْ بمبذل نوم أسود من الحرير كان مُفضّلاً لديها، وكان أوين هو الذي أهداه إليها، وسقطت على الدَّرَج في منزلها وقد صدَّقَ غاي القصّة بأكملها. والشفقة والندم اللذان لم يشعر بهما قبل ذلك حيال ميريام دخلا قلبه. والآن بدتْ مُثيرة للشفقة وسيئة الحظ وبريئة براءة تامة.

الخامس عشر

أجاب الشاب الجدّي، والواثق من نفسه الجالس على الكرسي: «ليس أكثر من سبع ياردات وليس أقلّ من خمس كلا، لم أرَ أحداً».

قالت الفتاة الواسعة العينين، كاثرين سميث، التي بدتْ مرعوبة وكأنَّ الجريمة وقعَتْ تواً: «أعتقد أنها حوالي خمسة عشر قَدَماً»، ثم أضافت بنعومة: «وربما أكثر قليلاً».

قال رالف جويس أخو ميريام: «حوالي ثلاثين قَدَماً. كنتُ أول مَنْ استقلَّ القارب». كان شَعره الأحمر يشبه شعر ميريام، ولديه نفس العينين الرماديتين – الخضراوين، لكنَّ فكيّه الكبيرين الثقيلين أنهيا التشابه. «لا أقول إنه كان لديها أعداء ليس إلى درجة ارتكاب مثل هذه الجريمة».

قالت كاثرين سميث برصانة وهي تهزّ رأسها: «أنا لم أسمع أيّ شيء».

قال رالف جويس إنه لم يسمع أي شيء، وأنهى تقرير ريتشارد شويلر الإيجابيّ الأمر:

«لم يصدر أي صوت».

فقدَتْ الحقائق التي تكرّرتْ وتكرّرتْ بالنسبة إلى غاي تأثيرها المُرعِب بل ومأساويتها. أصبحتْ أشبه بضربات مطرقة كليلة، تثبِّت القصّة في ذهنه إلى الأبد. كان اقتراب الثلاثة الآخرين شيئاً لا يُصدَّق. قال غاي في نفسه: وحده شخص مهووس كان يمكن أنْ يجرؤ على الاقتراب إلى هذا الحدّ، وهذا مؤكَّد.

«هل كنتَ والد الطفل الذي فَقَدَته السيدة هينز؟».

قال أوين ماركْمان الذي تراخى نحو الأمام متّكئاً على أصابعه المتشابكة: «نعم»، وأفسد السلوك الكئيب، البائس، الشكل الجميل المُبهِر الذي شاهده غاي في الصورة الفوتوغرافيّة. كان ينتعل حذاءً رماديّاً من جلد الغزال، وكأنّه عاد تواً من مركز عمله في هيوستن. قال غاي في نفسه: ما كان يمكن لميريام أنْ تشعر بالفخر به اليوم.

«هل تعرف أحداً يمكن أنْ يرغب في موت السيدة هينز؟».

أشار ماركْمان إلى غاي وقال: «نعم هو».

التفتَ الناس لينظروا إليه. جلسَ غاي متوتّراً، ومتجهّماً في وجه ماركْمان مباشرة، وللمرة الأولى شكَّ في ماركْمان.

«لِمَ؟».

تردَّد أوين ماركْمان مطولاً، وتمتمَ بشيء، ثم نطقَ كلمة واحدة «الغيرة».

لم يتمكَّنْ ماركْمان من إعطاء سببٍ واحد معقول للغيرة، ولكنْ بعد ذلك بدأ الاتّهام بالغيرة ينهال من كل الجهات حتى كاثرين سميث قالتْ: «أعتقد ذلك».

قهقه محامي غاي. كانت في حوزته الشهادات الخطيّة التي كتبها آل فوكنر وكره غاي تلك الضحكة الخافتة ولطالما كره الإجراءات القانونيّة كأنها لعبة شريرة ليس الهدف منها كشف الحقيقة بل تمكين محامٍ من وضع نصب عينه مُحامٍ آخر، وعزله على أساس تقنيّ.

باشر الطبيب الشرعي بالقول: «لقد تخلّيت عن تكليفك بعمل هام».

قال غاي: «أنا لم أتخلَّ عنه لقد كتبتُ لهم رسالة قبل أنْ أستلم المهمّة، قائلاً إنني لا أريدها».

«بل أرسلتَ برقيّة لأنكَ لم ترِد أنْ تلحق زوجتك بك إلى هناك، ولكن عندما علِمتَ في المكسيك أنَّ زوجتك فقدتْ طفلها، أرسلتَ برقية أخرى إلى بالم بيتش تقول فيها إنكَ تتمنّى أنْ تستعيد مهمّة العمل لماذا؟».

«لأنني عندئذٍ لم أُصدِّق أنها يمكن أنْ تلحق بي إلى هناك. اعتقدتُ أنها قد ترغب في تأخير إجراءات الطلاق إلى ما لا نهاية، لكنني صمّمتُ على مقابلتها - في هذا الأسبوع من أجل النقاش حول الطلاق». مسح غاي العرق الذي تصبَّبَ من جبينه، ورأى مُحاميه يزمّ شفتيه بحزن. لم يكن مُحاميه يريد منه أنْ يأتي على ذِكر صِلة مسألة الطلاق بتغيير رأيه بشأنْ مهمّة العمل. ولم يأبه غاي بذلك إنها الحقيقة، ويمكنهم أنْ يتعاملوا معها كما يشاؤون.

«في اعتقادكِ هل كان زوجها قادراً على ترتيب أمر اغتيالها، يا سيدة جويس؟».

قالت السيدة جويس: «نعم»، مع ارتعاشٍ خفيف في صوتها، ورأسها شامخ. كانت رموشها الحمراء القانية الداهية شبه مُقفلة، كما رآها غاي في الغالب، بحيث لا يعلم المرء إلى أين تنظر، «كان يرغب في الحصول على الطلاق».

كان هناك اعتراض على أنَّ السيدة جويس كانت قد قالتْ قبل ذلك بقليل إنَّ ابنتها رغبتْ في الطلاق وغاي هينز لم يرغب فيه لأنه كان لا يزال يُحبّها. «إنْ كان الاثنان يرغبان في الطلاق، وقد أثبتَ السيد هينز ذلك، فلِمَ لم يقع الطلاق؟».

أعجب السؤال هيئة المحكمة ولم يتوصّل خبراء بصمات الأصابع إلى الاتّفاق على تصنيفاتهم. وارتبك تاجر خردوات، كانت ميريام قد ارتادتْ مخزنه قبل حادث اغتيالها بيوم، بشأنْ تحديد إنْ كانت رفيقها ذكراً أم أنثى، وساد ضحك مكبوت حول قوله إنَّ أحداً نصحه بالقول إنه ذكر. وألقى مُحامي غاي خطبة طنّانة عن الحقيقة الجغرافيّة، وعن أوجه التنافُر في عائلة

جويس، وهو يمسك بالشهادات الخطيّة بيده، لكنَّ غاي كان متيقّناً من أنَّ صراحته التامّة وحدها أبعدتْ عنه أي شُبهة.

أشار الطبيب الشرعيّ في موجز ما توصّل إليه إلى أنَّه يبدو أنَّ جريمة القتل ارتكبها مهووس مجهول الهويّة بالنسبة إلى الضحيّة وللفرقاء الآخرين وصدر الحكم بأنّه «شخص أو أشخاص مجهولو الهويّات»، وحُوِّلَتْ القضيّة إلى رجال الشرطة.

في اليوم التالي وصلت برقيّة، في اللحظة التي كان غاي يُغادر منزل والدته، تقول:

كل تمنياتي الطيبة من الغرب الذهبيّ

من دون توقيع

قال لأمّه على عجل: «إنها من آل فوكنر».

ابتسمتْ «اطلبْ من آنْ أنْ تعتني بابني». وجرَّته إلى الأسفل برفق من أُذنه وقبّلتْ وجنته.

عندما وصل إلى المطار كانت برقيّة برونو ما تزال محشورة داخل يده مزّقها إلى قطعٍ صغيرة ورماها داخل سلة مهملات من الأسلاك عند حافة أرض المطار. فطارت المُزَق من خلال الأسلاك وانتشرتْ تتراقص على الإسفلت، مرحة كنثار قُصاصات الورق الملون في الاحتفالات.

السادس عشر

كافح غاي ليُصيغ جواباً مُحدّداً يردّ به على برقيّة برونو -أهو الذي أرسلها أم لا؟- ومن ثم تخلّى عن الفكرة هناك الكثير مما لا يُصدَّق في احتمال أنْ يكون برونو هو الفاعل. ما مدى أهميّة بطاقة شركة ميتكالف لسيارات الأجرة؟ وجدير ببرونو أنْ يعثر على مثل تلك البطاقة في سانتا فِه وأنْ يُرسلها بالبريد إليه. وإذا لم تكن الجريمة من تنفيذ مهووس، كما يعتقد الطبيب الشرعيّ وكل شخص، أليس من المُحتمل أكثر بكثير أنْ يكون أوين ماركْمان هو الذي أعدَّ لها؟.

حصر ذهنه بميتكالف، وبميريام، وأيضاً ببرونو، وركّزَ انتباهه على العمل في بالم بيتش الذي كما تبيَّنَ له منذ اليوم الأول، سوف يتطلَّب أنْ يحشد كل ما لديه من دبلوماسيّة، ومعرفة تقنيّة، وقوة جسديّة صِرف. وبعيداً عن آنْ، حصر تركيزه على ماضيه كلّه الذي بدا، على الرغم من كل أهدافه المثاليّة والكفاح من أجل تحقيقها، والنجاح الضئيل الذي عرِفه، بدا بائساً ووضيعاً بالمقارنة مع المبنى الرئيسيّ الهائل للنادي الريفيّ. وكلّما انغمس أكثر في الجهد الجديد، شعر أكثر بأنّه يتجدَّد أيضاً بشكلٍ مختلف وأقرب إلى الكمال.

أخذ مُصوّرو الصحف والمجلات الإخباريّة يلتقطون صور المبنى الرئيس، وبركة السباحة، والحمّامات، وإعداد المصاطب في مراحل بنائها المُبكّرة. والتُقِطَتْ صورٌ أيضاً لأعضاء في النادي وهم يتفقّدون الأفنية، وعلِمَ غاي أنّه تحت صورهم سوف تُذكَر كميات الأموال التي تبرَّع بها كلٌّ منهم لقضيّة التجديد السخيّة. وأحياناً كان يتساءل إنْ كان جزءٌ من حماسته يعود منشؤه إلى الوعي بالمال الكامن خلف المشروع، وإلى رحابة المساحة ووفرة المواد التي اضطرَّ إلى التعامل معها، وإلى مدح الأثرياء الذين يدعونه باستمرار إلى منازلهم ولم يكن غاي يقبل دعواتهم. كان يعلم أنّه ربما يفوِّتْ على نفسه الحصول على توكيلات عمل صغيرة يحتاجها في فصل الشتاء التالي، لكنّه كان يعلم أيضاً أنّه لا يمكن أنْ يُجبِر نفسه على أنْ ينخرط في المسؤوليات الاجتماعيّة التي يتنكّبها معظم المهندسين المعماريين بوصفها شيئاً لا غِنى عنه. وفي الأمسيات عندما لا يرغب في البقاء وحده، كان يستقل حافلة إلى منزل كلارينس بريلارت الذي يبعُد بضعة أميال، ويتناولان وجبة العشاء معاً، ويستمعان إلى تسجيلات الفونوغراف، ويتحدثان. كان كلارينس بريلارت، مدير نادي بالميرا، سمساراً متقاعداً، رجلاً عجوزاً طويل القامة، أبيض الشعر، غالباً ما كان غاي يودّ لو أنّه هو والده. وكان غاي مُعجباً فوق كل شيء بهيئته المُسترخية، الهادئ في موقع البناء الصاخب، والمحموم بقدر هدوئه في منزله. وتمنّى غاي لو يُصبح مثله عندما يبلغ سن الشيخوخة، لكنّه شعر بأنّه غالى في أحلامه، وبأنه دائماً يُغالي في أحلامه، وشعر بأنَّ في المغالاة في الأحلام نقصاً في الهيبة.

كان غاي يقضي معظم الأمسيات في القراءة، وفي كتابة رسائل طويلة إلى آنْ، أو يكتفي بالإيواء إلى السرير، لأنه كان دائماً يستيقظ في الخامسة صباحاً وغالباً يعمل طوال النهار بموقد اللحام أو بالملاط والمالج. كان يعرِف تقريباً كل العاملين بالاسم. وكان يحبّ أنْ يحكم على مزاج كل رجل، وأنْ يعرف كيف يُساهم ذلك أو لا يُساهم في روح منشآته. كتبَ لآن يقول: «إنَّ الأمر أشبه بقيادة أوركسترا سيمفونيّة». وعند أوقات الغسق، عندما يجلس ليدخّن الغليون في دغلٍ في مضمار الغولف، يُحدِّقُ إلى الأبنيّة البيضاء الأربعة، ويشعر بأنَّ مشروع بالميرا سوف يكون مثاليّاً. لقد تيقّنَ من ذلك عندما رأى الحدود الأفقيّة عبر امتداد أعمدة المبنى الرئيسيّ الرخاميّة. وكان متجر بيتسبرغ قد تعرَّضَ للتشويه في اللحظة الأخيرة عندما غيَّر الزبون رأيه بشأن منطقة النافذة. قال غاي في نفسه: لقد أُفسِدَ مُلحق المستشفى في شيكاغو بالطنف الذي كان مبنيّاً بحجارة أشدّ قتامة مما أراده. لكنَّ بريلارت لم يسمح بأي تدخّل، وكان مشروع بالميرا سيُنفَّذ بكمال التصوُّر الأصليّ، ولم يكن غاي قد أبدعَ أي شيء من قبل شعَرَ بأنه سيكون مثاليّاً.

في شهر آب، رحل إلى الشمال لكي يقابل آنْ. كانت تعمل على تصميم مبنى شركة نسيج في مانهاتن. وفي فصل الخريف، كانت تعزم على الدخول في شراكة في مخزن مع مُصممة أخرى تعرَّفَت عليها. لم يأتِ أيّ منهما على ذِكر ميريام حتى حلول اليوم الرابع والأخير من زيارة غاي. كانا واقفين بجوار غدير يقع خلف منزل آنْ، خلال الدقائق القليلة الأخيرة معاً قبل أنْ توصِله آنْ بالسيارة إلى المطار.

سألته آنْ فجأة: «أتعتقد أنَّ الفاعل هو ماركْمان، يا غاي؟»، وعندما أومأ غاي برأسه إيجاباً، قال: «أمرٌ مُريع لكنني أكاد أكون متيقّناً».

وذات أمسية إثر عودته من منزل آل بريلارت إلى الغرفة المفروشة التي يُقيم فيها، وجد في انتظاره رسالة من برونو مع رسالة من آنْ. كانت الرسالة قادمة من لوس أنجلوس، عبر أمّه المُقيمة في ميتكالف. وفيها يُهنّئه على عمله في مشروع بالم بيتش، ويتمنّى له النجاح، ويناشده أنْ يردّ عليه ولو بكلمة. وفي الملاحظة الإضافيّة قال:

آمل ألّا تكون قد انزعجتَ من هذه الرسالة، لقد بعثتُ العديد من الرسائل ولم أضعها في صندوق البريد واتّصلتُ هاتفيّاً بأمّك لأحصل على العنوان، لكنها رفضَتْ أنْ تعطيني إياه. غاي، بشرفي ليس هناك أي داعٍ للقلق وإلّا ما كنتُ كتبتُ لك. ألا تعلم أنني أول مَنْ يمكن أنْ يأخذ حذره؟ عجّل بالكتابة إليّ قد أرحل إلى هاييتي قريباً. من جديد أنا صديقك والمُعجب بك. ت.أ.ب.

انتشر في جسمه ألم بطيء وحتى قدميه. لم يطِق أنْ ينفرد بنفسه في الغرفة فخرج إلى الحانة، وسرعان ما شرب كأسين من الجودار ومن ثم كأساً ثالثة. وفي المرآة التي في خلفيّة الحانة، شاهد نفسه يُلقي نظرة على وجهه الذي لفحته أشعّة الشمس، وما صدمه كان الكذب والمكر في عينيه. ***لقد فعلها برونو***. هبط عليه هذا الاكتشاف ثقيلاً كالصاعقة ولم يدع له أي مجال للشكّ، كزلزال لا يمكن إلّا لمجنونٍ فاقدِ العقل أنْ يُرجئه كل تلك المدّة. أخذ يتلفّتُ حوله في الحانة الصغيرة وكأنّه يتوقّع أنْ تنهار الجدران على رأسه. ***لقد فعلها برونو***. لا مجال للخطأ في افتخار برونو الشخصي بحريّة غاي الآن. أو في الملاحظة الإضافيّة. أو ربما حتى في رحلته إلى هاييتي. ولكن ماذا ***يعني*** برونو؟ تجهّمَ غاي في وجهه المنعكس في المرآة وأطرقَ عينيه ونظر إلى يديه، وإلى مقدّمة سترته الجوخ، وإلى بنطلونه الفانيلا، وومضَ في ذهنه أنّه كان قد ارتدى هذه الملابس في صباح ذلك اليوم بوصفهِ شخصاً معيَّناً وأنّه سوف يخلعها في هذه الليلة بوصفه شخصاً آخر، الشخص الذي سيكونه من الآن فصاعداً. أصبح ***يعلم*** الآن. لم يستغرق ذلك أكثر من برهة – لم يستطع أنْ يتبيَّن ما الذي يحدث بالضبط، لكنّه شعر بأنَّ حياته بأكملها سوف تختلف، ويجب أنْ تختلف، من الآن فصاعداً.

إذا كان قد علِمَ أنَّ برونو نفّذ جريمة القتل، فلِمَ لم يُبلِّغ عنه؟ ما شعوره اتجاه برونو إلى جانب الكراهية والاشمئزاز؟ أكان خائفاً؟ لم يعلم غاي بوضوح.

قاومَ إلحاحاً بالاتصال هاتفيّاً لآنْ حتى وقتٍ متأخّر جداً، وأخيراً، عند

الساعة الثالثة صباحاً، لم يعُد في مقدوره المقاومة، تحدَّثَ معها بهدوءٍ شديد وهو مُستلقٍ على السرير حول مسائل عاديّة، بل إنّه عند نقطةٍ ما ضحك. وبعد أنْ أنهى المكالمة قال في نفسه: حتى آنْ لم تُلاحظ أيّ شيء غريب. شعر قليلاً بأنّه ضئيل، وخائف بصورة مُبهمة.

كتبتْ أمّه تقول له: إنَّ الرجل الذي كان قد اتصل في أثناء وجوده في المكسيك، وقال إنَّ اسمه فيل، اتصلَ من جديد لكي يسأل كيف يمكن أنْ يتصل به. كانت قلقة من أنْ يكون للأمر صِلة بما وقع لميريام، وتساءلتْ إنْ كان ينبغي إخبار الشرطة.

كتب غاي لها ردّاً على ذلك: «لقد عرِفتُ المُتّصل الذي يُزعجها عبر الهاتف إنّه فيل جونسون، تعرَّفتُ عليه في شيكاغو».

السابع عشر

«تشارلي، ما كل تلك القُصاصات؟».

هتف برونو من خلال باب الحمّام وزاد من تدفّق ماء الحنفيّة، ومال فوق الحوض، وركَّز انتباهه على مقبض الحنفيّة البرّاق المطلي بالنيكل. بعد قليل، مدَّ يده إلى زجاجة الويسكي التي احتفظَ بها تحتَ المنشفة داخل سلّة الغسيل. لم ترتعش يده كثيراً وهي تحمل كأس الويسكي مع الماء، وأخذ يتأمّل بضع لحظات الضفيرة الفضيّة على كُمّ سترة التدخين الجديدة. كان يحب السترة كثيراً، ولبسها كرداءٍ للحمّام أيضاً. في المرآة، كانت ثنية طيّة الصدر بيضاوية الشكل تُعطي صورة لشاب خال من الهمّ، متهوّر ومُغامِر غامض، شاب يتّصف بالفكاهة، وبالعمق، وذي نفوذ ورهافة (انظر إلى الكأس المحمولة برقّة بين الإبهام والسبّابة بهيئة شرب نخب فخم) – شاب يعيش حياتَين. وشربَ نخبَ نفسه.

«تشارلي؟».

«دقيقة، ماما!».

تلفَّتَ حوله في أرجاء الحمّام بعين ضارية لا توجد نافذة. مؤخراً حدث هذا مرّتين في الأسبوع. بعد مرور نصف ساعة أو نحوها من استيقاظه، شعر

كأنَّ هناك شخصاً يجثم على صدره ويُثبّته، أغمضَ عينيه واستنشق الهواء ثم زفره من رئتيه بأسرعِ ما في استطاعته ثم بدأ مفعول المشروب يظهر. أخمدَ أعصابه المتوثّبة كيدٍ تمرّ على رجاء جسمه انتصبَ في وقفته وفتح الباب.

قال: «أنا أحلق ذقني».

كانت أمّه ترتدي بنطلون لعب التنس القصير وسترة سائبة، وتميل فوق سرير غير مُرتَّب حيث تبعثرت قُصاصات الورق. «مَنْ هي؟».

«هي زوجة شخص قابلتُه على متن القطار القادم من نيويورك اسمه غاي هينز» ابتسم برونو كان يحبّ أنْ ينطق اسم غاي. «شيء مُثير للاهتمام، أليس كذلك؟ لم يقبضوا على القاتل بعد».

تنهّدتْ: «لعلّه مهووس».

أصبح وجه برونو جادّاً «أوه، أشكّ في هذا إنَّ الظروف غاية في التعقيد».

اعتدلتْ إلسي في وقفتها وزلقَتْ إبهامها داخل حزامها فاختفى الانتفاخ الذي كان تحت حزامها مباشرة، وبدتْ لبرهة من الوقت كما كان برونو قد رآها تبدو طوال حياتها وحتى العام الفائتْ، أنيقة كفتاة في العشرين وحتى أخمصها. «إنَّ لصاحبك غاي وجهاً لطيفاً».

«إنّه ألطف شخص قابلته في حياتي من المؤسِف أنْ يتورَّط في هذه القضيّة، لقد أخبرني ونحن على متن القطار بأنّه لم ير زوجته طوال سنتين. إنَّ غاي أبعد ما يكون عن ارتكاب الجريمة بُعدي أنا عنها!». ابتسم برونو على تلك النكتة غير المقصودة، ولكي يُغطّي عليها أضاف قائلاً: «على أي حال كانت زوجته عاهرة[11]».

أمسكت به من ياقة سترته المُزركشة الحواف: «عزيزي، ألا تنتبه إلى ألفاظك قليلاً في ظل هذا الظرف؟ أعلم أنَّ الجدَّة مُخيفة أحياناً».

قال برونو بصوتٍ أجشّ: «لن تفهم الجدَّة معنى كلمة «فلتانة»».

شمختْ إلسي برأسها وزعقتْ.

11– في الحقيقة، إنَّ العبارة المُستخدَمة في النص هي أقرب إلى اللفظ العاميّ: «فلتانة»، أو «ماشية على حلّ شعرها». – المترجم

«ماما، أنتِ تتعرَّضين مطوّلاً لأشعة الشمس لا أريد لكِ أنْ تُصبحي سمراء قاتمة».

«وأنا لا أريد أنْ تكون بشرتك شاحبة هكذا».

تجهَّم برونو أهانه منظر جبين أمّه الشبيه بالجلد المدبوغ حتى الإيلام وفجأة قبّلها على وجنتها.

«على أي حال عِدني بأنْ تتعرَّض لأشعة الشمس مدة نصف ساعة يوميّاً. إنَّ الناس يقطعون آلاف الأميال ليصلوا إلى كاليفورنيا، وأنتَ هنا تلازم المنزل!».

تجهّمَ برونو بامتعاض: «ماما، أنتِ لا تُبدين اهتماماً بصديقي!».

«أنا مهتمة بأمر صديقك أنتَ الذي لم يُخبرني الكثير عنه».

ابتسم برونو بحياء: كلا، لقد كان طيباً جداً وقد ترك القُصاصات منتشرة في أرجاء غرفته في هذا اليوم فقط وللمرة الأولى، لأنه تيقّن الآن من أنهما هو وغاي أصبحا في أمان وإذا تحدّثَ مدة ربع ساعة عن غاي الآن فقد تنسى أمّه أيضاً، حتى وإنْ كان ضروريّاً أنْ تنسى. ثم أومأ برأسه باتجاه السرير: «هل قرأتِ محتوى هذه كلها؟».

«كلا، ليس كلّها. كم كأساً شربتَ في هذا الصباح؟».

«واحدة».

«أشمّ رائحة اثنتين».

«حسن ماما شربتُ اثنتين».

«عزيزي، هلّا أخذتَ حَذَرك مما تشربه صباحاً؟ إنَّ شرب الخمر في الصباح يقضي عليك، لقد رأيتُ العديد من المُدمنين على الكحول».

«عبارة مُدمن الخمر شنيعة». استأنفَ برونو تجواله البطيء في أرجاء الغرفة. «منذ أنْ شربت قليلاً وأنا أشعر بتحسّن، يا أمي. أنتِ نفسك قلتِ إنني أكثر مرحاً وأنَّ شهيتي على الطعام تحسّنتْ، إنَّ الويسكي مشروب نقي جداً وهو يفيد بعض الناس».

«لقد أسرفتَ في الشرب ليلة أمس، والجدَّة تعلم هذا لا تظنّ أنها لا تلاحظ».

كشّر برونو ولوّح بيده: «لا تسأليني عن ليلة أمس».

«سوف يأتي سامي إلى هنا هذا الصباح لِمَ لا ترتدي ملابسك وتنزل وتسجل لنا النقاط ونحن نلعب الورق».

«إنَّ سامي يزعجني».

مشت نحو الباب بمرح وكأنها لم تسمعه. «على أي حال، عِدني بأنك سوف تحصل على بعض من أشعة الشمس هذا اليوم».

أومأ برأسه موافقاً وبلَّل شفتيه الجافتين لم يردّ على ابتسامتها بمثلها عندما أقفلتْ الباب، لأنه شعر كأنَّ غطاءً أسود أطبَقَ عليه فجأة، وكأنَّ عليه أنْ يهرب من شيءٍ ما قبل أنْ يفوت الأوان. كان عليه أنْ يقابل ***غاي*** قبل أنْ يفوت الأوان! كان عليه أنْ يتخلَّص من والده قبل أنْ يفوت الأوان! إنَّ لديه أعمالاً يجب أنْ يؤديها! لا يريد أنْ يكون هنا، في منزل جدَّته المفروش على غرار منزله بأثاث لوي كانز، الخالد لوي كانز! لكنّه لم يكن يعلم إلى أين يريد أنْ يذهب. لن يكون سعيداً إذا ابتعد طويلاً عن أمّه، أليس كذلك؟ وعضَّ على شَفَته السفلى وتجهّم، على الرغم من أنَّ عينيه الصغيرتين الرماديتين كانتا خاليتين من أي تعبير. لِمَ قالتْ إنّه ليس بحاجة إلى الخمر في أوقات الصباح؟ كان يحتاج إليه أكثر من أي مشروب خلال النهار. مطَّ كتفيه بحركة دورانيّة بطيئة. لِمَ ينبغي أنْ يشعر بالإحباط؟ لقد كانت القُصاصات المنتثرة على السرير تتحدث عنه. وأخذتْ الأسابيع تتوالى والشرطة البلهاء لا تحصل على أيّة معلومات عنه، ما عدا آثار الأقدام، وهو تخلَّصَ من حذائه منذ زمن بعيد! والحفلة التي أقامها في الأسبوع السابق مع ويلسون في فندق سان فرانسيسكو لا تُقارَن بما يأمل أنْ يُقيمه الآن إذا اجتمع مع غاي للاحتفال معه إنها جريمة القتل المثاليّة! كم شخصاً يمكن أنْ يرتكبوا جريمة قتل مثاليّة على جزيرة بوجود مائتيّ شخص حوله؟.

إنّه لا يُشبه الحمقى الذين تتحدث عنهم الصحف الذين يقتلون «لكي يختبروا شعورهم بذلك»، ولم يحصلوا على أي شيء لعين يبلّغون عنه ما عدا أحياناً عبارة تُثير التقزّز في النفس، «لم يكن الأمر جيداً كما توقّعت». لو أنّ حديثاً أُجريَ معه لقال: «كان عملاً رائعاً! ولا شيء في العالم كلّه

يُضاهيه!» («هل أنت مستعدّ لتكرار المُحاولة، يا سيد برونو؟») لقال: «في الواقع، ربما»، بلهجةِ تأمُّل، بحَذَر، كما يمكن لأحد مُستكشفي المناطق القطبيّة أنْ يُجيب بلا التزام بتوجيه إجابته لمُحاور صحفيّ عندما يُسأل إنْ كان مستعداً لقضاء الشتاء من جديد في الشمال في العام التالي. وعندما يُسأل:(«هل يمكنك أنْ تُخبرنا قليلاً عن أحاسيسك؟») فسوف يُقرِّب المايكروفون منه، ويرفع بصره، ويتأمّل، بينما العالم كلّه ينتظر خروج أول كلمة منه. بمّ أحسَّ؟ في الواقع، ليس هناك إلّا ذلك *الإحساس*، ولا يُضاهيه إحساسٌ آخر. على أيّة حال لقد كانت امرأة فاسقة، كما تعلم. كان الأمر أشبه بقتل جرذ صغير فاسق، والفرق هو أنها كانت فتاة ولهذا تُعتبَر جريمة قتل. كان دفئها بحدّ ذاته مُثيراً للاشمئزاز، وتذكّرَ أنّه فكَّر في أنّه قبل أنْ يُبعِد أصابعه عنها، كانت الحرارة قد كفّتْ عن الانبعاث منها، وأنّه حتى بعد أنْ تركها، ازدادت برودة وشناعة، كما كان حالها فعلاً. («تقول شناعة، سيد برونو؟») نعم، شناعة. («أتظن أنَّ الجثّة شنيعة؟») تجهّمَ برونو. كلا، لا يعتقد أنّه وجد الجثّة شنيعة. إذا كانت الضحيّة شريرة، على غرار ميريام، فعلى الناس أنْ يفرحوا لرؤية جثّتها، أليس كذلك؟ («أهي القوة، سيد برونو؟») آه، نعم لقد شعر بقوة هائلة! بالضبط. لقد انتزعَ حياةً. والآن، لا أحد يعلم كيف كانت تلك الحياة، الجميع يُدافعون عنها، إنّها الملكيّة التي لا تُقدَّر بثمن، لكنّه انتزعَ حياةً. في تلك الليلة كان هناك خطر، ألمٌ في يديه، والخوف مما لو أنها أصدرتْ صوتاً، ولكن في اللحظة التي شعر بأنَّ الحياة قد غادرتها، انهار كل شيء آخر، ولم تتبقَّ إلّا *الحقيقة* الغامضة للأمر اللغز ومعجزة إيقاف حياة. إنّ الناس يتحدثون عن لغز الولادة، وبداية حياة، ولكن كيف يمكن تفسير ذلك! فنتيجة اجتماع شخصين تعيش خلايا دقيقة! وماذا عن لغز نزع حياة؟ لِمَ ينبغي أنْ تتوقف حياةٌ لمجرّد أنْ أطبقَ يديه على نحر المرأة بشدّة؟ على أي حال ماذا كانت تلك الحياة؟ كيفَ شعرتْ ميريام بعد أنْ أبعدَ يديه عنها؟ أين كانت؟ كلا، إنّه لا يؤمن بوجود حياة بعد الموت. لقد انتُزِعَتْ منها الحياة، وهذه هي المعجزة. آه، كم يستطيع أنْ يقول في حديثه مع الصحافة: («بالنسبة إليك، ما مغزى أنْ تكون الضحيّة أنثى؟») من أين نشأ هذا السؤال؟ تردَّدَ برونو، ثم استعاد توازنه. حسن، إنَّ كونها أنثى منحه متعة عُظمى. كلا،

لم يستنتج على هذا الأساس أنَّ متعته تلك تنبع من متعته الجنسيّة. كلا، هو لا يكره النساء. في الغالب كلا! إنَّ الكراهيّة قرينة الحب، في الواقع. مَنْ قال هذا؟ إنّه لا يصدّقه البتّة. قال في نفسه: كلا إنَّ كل ما أراد أنْ يقول هو أنّه ما كان سيستمتع بالأمر كثيراً لو أنّه قتل رجلاً إلّا إذا كان والده.

الهاتف...

كان برونو يُحدّقُ إليه. إنَّ كل جهاز هاتف يذكّره بغاي. يمكنه أنْ يتصل بغاي الآن بمكالمتين بتوقيت مناسب، لكن يمكن للمكالمة أنْ تضايق غاي. ربما غاي ما زال متوتر الأعصاب. سوف ينتظر إلى أنْ يردّ غاي على رسائله. يجب أنْ تصله مكالمة في أي يوم الآن، إذ لا بدّ أنّ غاي استلم رسالته في نهاية الأسبوع الأخير. والشيء الوحيد الذي يحتاج برونو إلى القيام به ليُكمِل سعادته هو أنْ يسمع صوت غاي، أنْ تصِله كلمة منه يقول فيها إنه سعيد. لقد أصبحتْ الصّلة التي تربطه بغاي أقرب من الأخوّة. كم من الإخوة يُحبون إخوتهم بقدر ما أحبّ غاي؟

مدَّ برونو ساقه خارج النافذة ونهضَ واقفاً على الشرفة ذات الحديد المشغول. كانت أشعة شمس الصباح ممتعة، والمرج ممتداً وأملس كمضمار ملعب الغولف ويصل حتى المحيط. ثم شاهدَ سامي فرانكلين يرتدي ملابس لعبة التنس البيضاء ويتأبّط مضرب التنس، مُكشّراً يشقّ طريقه نحو أمّه. كان سامي ضخماً ومترهل الجسم، كمُلاكمٍ تراخت عضلاته. وذكَّرَ برونو بأحمق آخر من هوليوود كان يُلازم أمّه عندما كانا هنا قبل ثلاثة أعوام. اسمه ألكسندر فيبس. لماذا تذكّرَ اسميهما الزائفين؟ سمع سامي يُقهقه وهو يمدّ يده لأمّه، واستحضر برونو في ذهنه خصماً عجوزاً ومن جديد لزم السكون. *Merde* (اللعنة). أبعد عينيه بامتعاض عن ظهر سامي العريض المتدثر بالفلانيل، وتفحّصَ المشهد من اليسار إلى اليمين. حلَّق طائرا بجع بحركة ثقيلة فوق سياج ثم غاصا نحو العشب. وبعيداً داخل المياه الشاحبة شاهد قارباً شِراعيّاً. وقبل ثلاث سنوات ناشدَ جدَّته أنْ يحصل على قارب شراعيّ، والآن بعد أنْ أصبح لديه واحداً لا يشعر برغبة في استخدامه.

تطايرت كرات التنس في أرجاء الركن المكسو بالجصّ من المنزل.

تناهى الضجيج من الطابق السفليّ، وعاد برونو إلى غرفته، لكي لا يعرف الوقت. كان يحبّ أنْ يرى ساعة حائط بالمُصادفة في وقت متأخِّر قدر الإمكان من النهار، ووجد أنَّ الوقت متأخّر أكثر مما اعتقد. قال في نفسه: إذا لم تصل أي رسالة من غاي بحلول الظهيرة فقد يستقلّ قطاراً إلى سان فرانسيسكو. ومن ناحية أخرى، كان آخر ما يتذكّره عن سان فرانسيسكو ليس سارّاً. كان ويلسون قد أحضر شخصَين إيطاليين إلى الفندق، واشترى برونو وجبات العشاء كلها مع عددٍ من زجاجات مشروب الجودار. واتصلوا هاتفيّاً بشيكاغو. وسجّل الفندق مكالمتين إلى ميتكالف، ولم يتذكّر الثانية أبداً. وطوال اليوم الأخير، كان ينقصه مبلغ عشرين دولاراً ليُسدِّد الفاتورة. لم يكن لديه حِساب في البنك، لذلك قام الفندق، أفضل فندق في المدينة، بحجز حقيبته إلى أنْ أبرقَتْ أمّه وأرسلت النقود. كلا، لن يعود إلى سان فرانسيسكو.

هتفَ صوت جدَّته العذب العالي النبرة: «تشارلي؟».

رأى المقبض المنحني للباب يتحرّك، فقفز بحركة لا إراديّة نحو القصاصات على السرير، ثم استدار عائداً بدل ذلك إلى الحمّام. رشَّ مسحوق الأسنان داخل فمه، لأنَّ في استطاعة جدَّته أنْ تشمّ رائحة الخمر كأنها خميرة جافة في منطقة التنقيب عن الذهب.

سألته جدَّته: «هل أنت مُستعد لتناول وجبة إفطار معي؟».

خرج وهو يُمشِّط شعره. «يا سلام، أنتِ في كامل أناقتك!». أخذت تُدير قامتها الضئيلة غير المتناسقة حول نفسها لكي يراها كأنها موديل تعرض أزياءً، وابتسم برونو. كان يحبّ الثوب المُخرَّم الأسود الذي يكشِف عن الرداء الساتان الوردي من تحته. «تبدين أشبه بإحدى الشرفات التي في الخارج».

«شكراً لك، تشارلي. أنا ذاهبة إلى المدينة لقضاء القسم الأخير من الفترة الصباحيّة. وظننتُ أنكَ ربما ترغب في مُرافقتي».

قال بكل ودّ: «ربما. نعم. أحبّ ذلك، يا جدَّتي».

«إذن *أنتَ* الذي كان يقصّ من نسختي من *صحيفة التايمز*! حسِبتُ أنّه أحد الخدم لا بدّ أنكَ تستيقظ باكراً جداً في أوقات الصباح».

قال برونو موافقاً: «نعم».

«عندما كنتُ صبيّة، كنا نقتطع القصائد من الصحف لكي نُلصِقها على دفاتر المُسوّدة. كنا نصنع دفاتر مسوّدة من كل ما يخطر على البال. ماذا ستفعل بهذه القصاصات؟».

«أوه، سأكتفي بالاحتفاظ بها».

«ألا تصنع دفاتر مسوّدة؟».

«كلا». كانت تنظر إليه، وأراد برونو منها أنْ تنظر إلى القُصاصات.

قرصته من وجنته. «أوه، أنتَ لستَ أكبر من *طفل*! والزغب لم يكد يظهر على ذقنك بعد! لا أعلم لماذا تقلق أمّك عليك».

«إنها ليستْ قلقة».

«في حين أنكَ تحتاج فقط إلى بعض الوقت لتكبر تعال وانزل لتتناول طعام الإفطار معي. نعم، وأنت بالبيجاما وما إلى ذلك».

أعطاها برونو ذراعه ليهبطا الدّرَج.

قالتْ جدَّته بينما كان يصبّ لنفسه القهوة: «ليس أمامي أي شيء أتسوّقه، ولذلك فكرتُ في أنْ نقوم بعمل ممتع. ربما نشاهد فيلماً جيداً –يحتوي على جريمة قتل– أو ربما نرتاد متنزّه الملاهي. أنا لم أرتدْ متنزّه الملاهي من زمن **بعييييد**!».

فتح برونو عينيه واسعاً قدر استطاعته.

«أيّهما تفضّل؟ حسن، يمكننا أنْ نستعرض الأفلام الموجودة عندما نصل إلى هناك».

«أفضّل متنزه الملاهي، يا جدَّتي».

استمتع برونو بيومه، وهو يُساعدها في ركوب السيارة والترجّل منها، ويقودها في أرجاء متنزّه الملاهي، على الرغم من أنّه لم يتبقَّ الكثير يفعلانه بعد كل ما فعلتْ جدَّته وأكلت. لكنهما ركبا معاً دولاب الملاهي. وحكى برونو لجدَّته عن دولاب الملاهي الكبير في ميتكالف، لكنّها لم تسأله متى ذهبَ إلى هناك.

عندما عادا إلى المنزل كان سامي فرانكلين لا يزال هناك، ومكثَ ليتناول

طعام العشاء. تجهَّمَ برونو حالما رآه. كان يعلم أنَّ جدَّته تكره سامي بقدر كراهيته هو له، وفجأة شعر برونو بفيضٍ من الحنان نحوها، لأنها قبِلَتْ سامي من دون شكوى، وقبلَتْ أي هجين كانت أمّه تجلبه إلى المنزل. ماذا كان هو وأمّه يفعلان طوال النهار؟ قالا إنهما ذهبا لمشاهدة فيلم سينمائيّ، أحد أفلام سامي. وكانت هناك رسالة لأجله في غرفته في الطابق العِلويّ.

هرع برونو إلى الطابق العِلويّ. كانت الرسالة قادمة من فلوريدا. مزّقَ المغلَّف بيديه المرتعشتين كعشرة أشخاص يُعانون من السُّكر. لم يرغب في رسالة رغبةً جامحة في حياته بقدر رغبته في هذه، ولا حتى في معسكر، عندما كان ينتظر وصول رسائل من والدته.

6 أيلول

عزيزي تشارلز،

لم أفهم ما ورد في رسالتك إليّ، أو بالأحرى اهتمامك الكبير بي. إنني أكاد لا أعرفك، لكنني أعرفك بقدرٍ كافٍ لأطمئنك بأنّه ليس بيننا أي قاسم مُشترك تقوم على أساسه علاقة صداقة. هل لي أنْ أرجوك وأطلب منك أنْ تكفّ عن الاتصال هاتفياً بأمي مرة أخرى أو أنْ تتواصل معي؟.

شكراً لك على محاولتك إعادة الكتاب إليّ إنَّ ضياعه ليس بالأمر الهامّ.

غاي هينز

قرَّبها أكثر منه وقرأها من جديد، وعيناه تتلكّآن بعدم تصديق عند كلمة ما هنا وهناك. ومدَّ لسانه المُدبّب إلى شفته العليا، ثم اختفى فجأة شعر بالتمزّق كان شعوراً أشبه بالحزن، أو بالموت. بل أسوأ! تلفّتَ حوله في أرجاء الغرفة، كارهاً الأثاث، وكارهاً الممتلكات. ثم تركَّزَ الألم على صدره، ونتيجة لذلك طفق يبكي.

بعد العشاء، انخرط هو وسامي فرانكلين في نِقاشٍ عن أنواع خمر الفيرموث. قال سامي إنّه كلما كان الفيرموث صِرفاً، توجّبَ أكثر إضافته إلى المارتيني، على الرغم من أنّه اعترفَ بأنّه لا يشرب المارتيني. وقال برونو إنه هو أيضاً لا يشرب المارتيني، ولكن لديه معلومات عن الأمر.

واستمرّ النقاش حتى بعد أنْ ألقَت جدَّته تحيّة المساء وغادرتهم. كانوا جالسين على مصطبة الطابق العِلويّ في الظلام، كانت أمّه في المنزلق وكان هو وسامي واقفين بجوار المتراس. هرع برونو إلى الأسفل إلى البار ليُحضِر المكونات وليبرهن وِجهة نظره. وقام كلاهما بإعداد مارتيني وتذوّقاه، وعلى الرغم من أنّه كان جليّاً أنَ برونو على صواب، إلّا أنَّ سامي بقيَ متمسّكاً برأيه، وضحك كأنه لا يقصد بالضبط ما قال، ووجد برونو أنَّ ذلك شيء لا يُطاق.

هتفَ برونو: «اذهب إلى نيويورك وتعلّم شيئاً مفيداً!». كانت أمّه قد غادرت المصطبة تواً.

ردَّ سامي قائلاً: «من أين تعلَمت َما تقول؟». جعل ضوء القمر وجهه البدين المُكشِّر بلون أخضر مزرقّ وأصفر، كجبن الغورغونزولا[12]. «أنتَ ثمل طوال النهار. أنت».

قبضَ برونو على سامي من مقدّمة قميصه وأماله نحو الخلف عبر المتراس. ارتعشتْ قدما سامي على حجارة القرميد وتمزّقَ قميصه وعندما تلوّى جانباً طلباً للأمان، غادر اللون الأزرق وجهه وأصبحَ أبيضَ شاحباً بلا ظِلال.

عوى قائلاً: «ما مشكلتك؟ تريد أنْ تضايقني، أليس كذلك؟».

صرخ برونو بصوتٍ أعلى من صوت سامي: «كلا، لا أريد!». وفجأة لم يعُد يستطيع التنفُّس، كما يحدث معه عادة في أوقات الصباح. أرخى يديه المتيبّستين، المبلّلتين بالعرق عن وجهه. لقد سبقَ له أنْ ارتكبَ جريمة قتل، أليس كذلك؟ لِمَ عليه أنْ يرتكب أخرى؟ لكنّه رأى سامي يتلوّى على حافة السياج الحجريّ تحته، وأراد له أنْ يبقى هناك. وسمعَ سامي يقوم بحركة سريعة. وتعثّرَ برونو بعتبة باب الشرفة الفرنسيّ المؤدّي إلى المنزل.

هتفَ سامي خلفه: «*وابقَ بعيداً!*».

أرسلَ الحماسُ المرتعش في صوت سامي نبضاً من الخوف في كيانه.

12- جبن إيطالي أزرق اللون. - المترجم

لم يقُل برونو شيئاً لدى مروره من أمام أمّه في الصالة. وفي أثناء ارتقائه إلى الطابق العِلويّ، تمسّك بالدرابزين بكلتيّ يديه، وهو يلعن الرنين، والألم، والفوضى العارمة في رأسه، ويلعن المارتيني التي أعدَّه مع سامي. وترنّحَ وهو يلج غرفة الجلوس.

كانت أمّه قد لحقتْ به: «تشارلي، ماذا فعلتَ لسامي؟».

«أوه، ماذا فعلتُ لسامي!» وأشاح بيده نحو شكلها غير المتناسق وجلسَ على الأريكة بقوة.

«تشارلي عُدْ واعتذر»، واقترب الشكل الأبيض المبهم لثوب السهرة، ومدَّتْ نحوه ذراعاً سمراء.

«أتضاجعين ذلك الشخص؟ *أتضاجعين ذلك الشخص؟* » كان يعلم أنَّ عليه فقط أنْ يتمدَّد على ظهره على الأريكة وأنّه سوف يغيب عن الوعي كمصباح ينطفئ، فتمدَّد على ظهره، ولم يعُد يشعر بذراعها البتّة.

الثامن عشر

في الشهر الذي تلا عودة غاي إلى نيويورك، تركّز قلقه، وسخطه من نفسه، ومن عمله، ومن آنْ، بالتدريج، على برونو. إنَّ برونو هو الذي جعله يكره النظر إلى صور بالميرا الآن، برونو هو السبب الحقيقي لقلقه الذي عزا مصدره إلى نُدرة التوكيلات منذ عودته من بالم بيتش. برونو الذي دفعه إلى النقاش العقيم مع آنْ في تلك الأمسية حول عدم حصوله على مكتب أفضل، وعدم شراء أثاث جديد وسجّادة تتناسب معه. برونو هو الذي دفعه إلى إخبار آنْ بأنّه لا يعتبر نفسه شخصاً ناجحاً، وبأنَّ بالميرا لا يعني له أيّ شيء. برونو الذي جعل آنْ تبتعد عنه بهدوء في تلك الليلة وتخرج من الباب، والذي جعله ينتظر إلى أنْ سمعَ باب المصعد يُغلَق، قبل أنْ يُسرع ويهبط مطالع الدّرَج الثمانية ويتوسّل إليها أنْ تسامحه.

ومن يدري؟ ربما برونو هو الذي منعه من الحصول على عمل الآن. لقد كان إنشاء بناء كإبداع عملاً روحيّاً. وما دام يحتفظ بمعرفة إحساس برونو بالذنب، فإنّه يخرّب نفسه بمعنى ما. وشعر بأنَّ مثل ذلك الشيء يمكن تبيّنه

فيه. كان قد عزم عن وعي على أنْ يدع الشرطة تنصب فخاً لبرونو. لكنَّ الأسابيع توالتْ ولم يفعلوا، كان ممسوساً بإحساسه بأنَّ عليه أنْ يكون صادقاً مع نفسه. وما منعه من ذلك كان معاً بُغضُه اتّهامَ رجلٍ بارتكابِ جريمةِ قتلٍ وشكٌّ مُتردِّد في أنَّ برونو قد لا يكون مُذنباً. أحياناً كانت فكرة ارتكاب برونو للجريمة تبدو له شديدة الغرابة، ويمَّحي اعتقاده السابق في الحال. وأحياناً، كان يشعر بأنّه سوف ينتابه الشك حتى وإنْ أرسل برونو إليه اعترافاً مكتوباً. ومع ذلك، كان عليه أنْ يعترف لنفسه بأنّه متيقّن من أنَّ برونو قد ارتكبها. والأسابيع التي مرّتْ من دون أنْ تتوصّل الشرطة إلى اقتفاء أي أثر قويّ يؤكّد ارتكاب الجريمة. وكما كان برونو قد قال، كيف يمكن لهم أنْ يعثروا على أي شيء من دون وجود دافع؟ وقد أخرستْه رسالتُه التي أرسلها إلى برونو في شهر أيلول طوال فصل الخريف، ولكن قُبيل أنْ يطير إلى فلوريدا، وصلَته رسالة قصيرة من برونو يقول فيها إنّه سوف يعود إلى نيويورك في شهر كانون أول وإنه يأمل في أنْ يتمكّن من التحدّث معه. وصمَّم غاي على أنْ يقطع كل صِلة به.

ومع ذلك ظلّ غاضباً على كل شيء ولا شيء، ولكن بالدرجة الأولى على عمله. لقد طلب من آنْ أنْ تتجمّل بالصبر. وذكّرته آنْ بأنّه قد أثبتَ قُدُراته أصلاً في فلوريدا. وعاملته، أكثر مما كانت قد فعلت من قبل بكثير، برقّةٍ وطمأنينة كان في أمسّ الحاجة إليهما، ومع ذلك اكتشف في أشدّ لحظات إحساسه بالإحباط وبالعناد أنّه لا يستطيع دائماً أنْ يقبل ذلك.

وفي صباح أحد الأيام في منتصف شهر كانون أول، رنّ جرس الهاتف بينما غاي جالس باسترخاء يدرس تصاميمه لمنزل كونكتيكت.

«مرحباً غاي معك تشارلي».

تعرّفَ غاي على الصوتْ، وشعر بعضلاته تتوتّر تأهّباً للقتال.

لكنَّ مايرز كان على مرمى سماعه في الطرف المقابل من الغرفة.

سأله برونو بدفء ودود: «كيف حالك؟ عيد ميلاد سعيد».

أعاد غاي السمّاعة ببطء إلى مكانها.

ألقى نظرة سريعة على مايرز، المهندس المعماري الذي كان يتقاسم معه غرفة مكتب واحدة كبيرة. وكان مايرز لا يزال منكبّاً فوق طاولة الرسم. وتحت حافة مظلة النافذة الخضراء، كان الحمام المتحرِّك لا يزال ينقر حبات القمح التي كان هو ومايرز قد نثراها على العتبة قبل لحظات.

رنَّ جرس الهاتف من جديد.

قال برونو: «أريد أنْ أقابلك، يا غاي».

نهضَ غاي واقفاً: «آسف، لا يهمّني أنْ أراك».

أجبر برونو نفسه على إطلاق ضحكة قصيرة: «ما الأمر؟ أأنت متوتّر، يا غاي؟».

«أنا فقط لا أهتمّ بمقابلتك».

قال برونو، بصوتٍ أجشّ من التأذّي: «أوه، حسن».

انتظر غاي، مُصمّماً على ألّا يكون أول المتراجعين، وأخيراً قطع برونو الخط.

شعر غاي بجفاف في حنجرته، فتوجه نحو نافورة ماء الشرب في ركن الغرفة. وخلف النافورة، امتدت أشعة الشمس بخطٍ مائل عبر الصورة الفوتوغرافيّة الكبيرة المأخوذة من الجو وتبيِّن أبنية نادي بالميرا الأربعة شبه المُكتملة. أدار ظهره لها. كان قد طُلِبَ منه أنْ يُلقي خطاباً في مدرسته القديمة في شيكاغو، وذكّرته آنْ بذلك. كان عليه أنْ يكتب مقالة لصالح مجلة كبرى مختصّة بالهندسة المعماريّة. ولكن فيما يتعلّق بتوكيلات العمل، قد يكون نادي بالميرا بمثابة إعلان عام عن أنّه سوف يقاطَع. ولِمَ لا؟ ألا يُدين بمشرع بالميرا إلى برونو؟ أو إلى قاتل على أي حال؟.

بعد ذلك ببضعة أيام وذات أمسية هطلت فيها الثلوج، وبينما كان هو وآنْ يهبطان الدّرَج ذا الحجارة البنيّة لشقته الكائنة في الشارع الثالث والخمسين الغربيّ، شاهد غاي شخصاً طويل القامة مكشوف الرأس واقفاً على الرصيف يُحدِّقُ إليهما. سرَتْ في كتفيه رعشة رعب، وشدَّتْ يده بحركة لا إراديّة على ذراع آنْ.

قال برونو بصوتٍ خافت بفعل الكآبة: «مرحباً». وسط الغسق لم يكد وجهه يكون مرئيّاً.

ردَّ غاي: «مرحباً»، وكأنّه يُخاطب شخصاً غريباً، وتابع سيره.

«غاي!».

استدار غاي وآنْ في وقتٍ واحد. تقدَّم برونو منهما، ويداه في جيبيّ معطفه.

سأله غاي: «ما الأمر؟».

«فقط أردتُ أنْ أقول مرحباً. وأسأل عن حالك»، وحدَّقَ برونو إلى آنْ بما يُشبه الامتعاض المُبتسِم المرتبك.

قال غاي بهدوء: «أنا بخير». وأشاح بوجهه بعيداً، وهو يجرّ آنْ معه.

همستْ آنْ: «مَنْ هذا؟».

تلهّفَ غاي إلى النظر خلفه. كان يعلم أنَّ برونو سيكون واقفاً حيث تركاه، ويعلم أنّه سيكون لا يزال ينظر إليهما، وربما يبكي. «إنه شخص جاء في الأسبوع الفائت بحثاً عن عمل».

«ألا تستطيع أنْ تساعده؟».

«كلا. إنه مُدمن على الخمر».

بدأ غاي يتحدث عن بيتهما عن عمد، لأنه كان يعلم أنّه لم يعُد هناك أي موضوع آخر يتحدث فيه الآن ويبدو أنّه طبيعيّ. لقد اشترى الأرض، والأساسات وُضِعَتْ. وبعد حلول رأس العام الجديد، سوف يذهب إلى ألتون ويمكث هناك عدَّة أيام. وفي أثناء عرض الفيلم السينمائي، أخذ يفكِّر في الطريقة التي يمكن أنْ يتخلَّص بها من برونو، ويُخيفه بحيث يخشى أنْ يتصل به.

ماذا أراد برونو منه؟ جلسَ غاي وقبضتا يديه مشدودتان معاً في دار السينما. في المرّة *التالية*، سوف يُهدّد برونو بدفع الشرطة إلى التحقيق معه. وسوف يُنفّذ ذلك أيضاً. ما مدى الأذى الذي يُسبّبه التهديد بإجراء تحقيق مع رجل؟.

ولكن ماذا أراد برونو منه؟.

التاسع عشر

لم يكن برونو راغباً في الذهاب إلى هاييتي، لكنَّ ذلك وفّرَ له مهرباً. إما الذهاب إلى نيويورك أو فلوريدا أو إلى أي مكان في القارّة الأميركيّة فكان بمثابة تعذيب له ما دام غاي موجوداً هناك، أيضاً، ولا يستطيع أنْ يراه. ولكي يزيل ألمه، كان ينبغي أنْ يفرِط في شرب الخمر في منزله في غريت نيك، ولكي يشغل نفسه قام بقياس أبعاد المنزل وما حوله من أرض بعدد الخطوات، وقاس غرفة والده بمقياس الخيّاط، متنقّلاً بعناد، ينحني، يقيس ويقيس كآلة ذاتيّة الحركة لا تكلّ لا تميل إلّا قليلاً عن مسارها بين حين وآخر، كاشفة عن كونها سكرى وليست مُشوّشة. أمضى عشرة أيام على هذا الوضع بعد أنْ رأى غاي، مُنتظراً أمّه وصديقتها أليس ليفينغْويل ليستعدا للانطلاق إلى هاييتي.

أحياناً كان يشعر بأنَّ كيانه كلّه في مرحلة مُبهمة من التحوُّل. هناك الإنجاز الذي نفّذه، الذي كان يشعر في ساعات انفراده بنفسه في المنزل، في غرفته، كأنّه يُتوِّج رأسه، لكنّه تاج لا يراه أحد. كان يمكن أنْ ينفجر باكياً بكل سهولة. وكانت تمرّ عليه أوقات يرغب خلالها في تناول شطيرة من الكافيار على الغداء، لأنه يستحق الأفضل، الكافيار الأسود الكبير، وعندما لا يتوفّر منه إلّا الأحمر في المنزل، كان يطلب من هارولد أنْ يذهب ويشتري بعضاً من النوع الأسود. كان قد أكل ربع مقدار الشطيرة المُحمّصة، وكان يرشف الويسكي الممزوج بالماء، ثم كاد يستغرق في النوم وهو يُحدِّق إلى شكل قطعة الخبز المُحمَّص المُثلَّث التي بدأتْ أخيراً ترتفع من إحدى زواياها. ظلَّ يُحدّقُ إليها إلى أنْ لم يعُد شكلها يُشبه الشطيرة، والكأس بما تحتوي من مشروب لم تعد كأساً، والسائل الذهبي الذي في داخلها وحده كان جزءاً منه، وجرعه كلّه. كانت الكأس الفارغة والشطيرة المُحمّصة الملتوية مخلوقين حيَّين يسخران منه ويتحدّيان حقّه في استخدامهما. كانت شاحنة اللحّام قد غادرتْ تواً على الممر وشيّعها برونو بتجهّم، لأنَّ كل شيء بُثتْ فيه الحياة فجأة وفرَّ هارباً منه - الشاحنة، الشطيرة، الكأس، والأشجار التي لم تتمكّن من الفرار لكنها بدت مُشمئزّة، على غرار المنزل الذي جسَّده.

وضربَ قبضتيّ يديه على الجدار في وقتٍ واحد، ثم قبضَ على الشطيرة وقطع فُتحتها المُثلَّثة الوقحة وأحرقها، قطعةً فقطعة داخل الموقد الخالي، وحبّات الكافيار تفرقع كأشخاصٍ صِغار يموتون، وكل منها يمثّل حياة.

غادروا هو وأليس ليفينغْويل وأمّه، مع فريق من أربعة بمَنْ فيهم اثنان من بويرتو ريكو إلى هاييتي في منتصف شهر كانون ثاني على متن اليخت البخاريّ، *فيري برينس*، الذي كانت أليس قد أمضَتْ فصل الخريف كلّه وفصل الشتاء في انتزاعه من زوجها السابق. كانت الرحلة احتفاءً بمناسبة طلاقها الثالث، وكانت قد وجّهَتْ الدّعوة إلى برونو وأمّه قبل ذلك بأشهر. وألهَمَ برونو ابتهاجُه بالرحلة البحريّة بالتظاهُر باللامبالاة وبالضجر خلال الأيام القليلة الأولى. ولم يُلاحظ أحدٌ ذلك. كانت أليس وأمّه تقضيان أوقات بعد الظهيرة والمساء في الثرثرة في القُمرة، وكانتا تنامان في أوقات الصباح. ولكي يُبرِّر لنفسه سعادته في ذلك الوضع المُملّ وهو حبيس قارب لمدّة شهر مع سيدة عجوز كأليس، أقنع برونو نفسه بأنّه واقع تحت ضغط الحذر الشديد من مُلاحقة الشرطة له، وبأنّه بحاجة إلى استراحة لمعرفة التفاصيل حول السبيل إلى التخلُّص من والده. وفكَّر أيضاً في أنّه كلما مرَّ المزيد من الوقت، ازداد احتمال أنْ يُغيِّر غاي موقفه.

على متن السفينة، وضعَ تفاصيل خطَّتين أساسيتين أو ثلاث لاغتيال والده، بحيث تبدو أيّة خطط بديلة للقضية مجردّ تنويعات. كان شديد الفخر بخُططه - واحدة باستخدام مسدس داخل غرفة نوم والده، وواحدة باستخدام السكين مع خيارين للهرب، وواحدة باستخدام مُسدس أو خنجر أو باللجوء إلى الخنق في المرآب حيث يضع والده سيارته في مساء كل يوم عند الساعة السادسة والنصف. وعيب الخطّة الأخيرة كان غياب الظلام، ولكنها تنطوي على تعويضات في بساطتها النسبيّة. وكاد يسمع في أُذنه المسار المُنضبِط لخُططه. ومع ذلك كان كلما انتهى من وضع رسم دقيق، شعر بأنّه مُجبَر على تمزيقه طلباً للأمان. كان على الدوام يضع رسومات ثم يُمزّقها. كان البحر المُمتد من بار هاربور وحتى أقصى جنوب فيرجين أيلندز مفروشاً بالبذور المُمزّقة لأفكاره عندما انعطف يخت *فيري برينس* حول كيب ميسي متجهاً إلى بورت -أو- برانس.

هتفتْ أليس، تُهدهدُ رأسها بالحديث مع أمّه: «مرفأ فخم من أجل *أميري!*».

في موقعٍ قريب منهم، في الظل، أخذ برونو يعبث بالورقة التي كان يرسم عليها ورفع رأسه. كانت اليابسة في الربع الأيسر من الأفق مرئيّة على شكل خط رماديّ وضبابيّ. إنّها هاييتي. جعلها مرآها تبدو أبعد وأجنبيّة أكثر مما كانت قبل أنْ يراها. كان يبتعد أكثر فأكثر عن غاي. نهضَ عن كرسي ظهر السفينة واقترب من سياج المرفأ. سوف يقضون أياماً طويلة في هاييتي قبل أنْ ينتقلوا أكثر نحو الجنوب. وقفَ برونو بسكون تامّ، شاعراً بالإحباط ينهشه من الداخل كما كانت الشمس الاستوائيّة تفعل حينئذٍ من الخارج، على خلفيتيّ ساقيه الشاحبتين. وفي الحال مزَّقَ الخطّة قِطعاً صغيرة وأطلقها بفتحِ يده فوق الحافة. وحملتْ الريح القِطع معها بميلٍ منحرف.

بقدر ما كان إيجاد شخص يقوم بالمهمة أمراً هاماً كذلك كانت الخطط، طبعاً. وقال في نفسه، كان يمكن أنْ يقوم هو بالمهمة، لولا خشيته من أنْ يقبض عليه جيرارد، رجل البوليس السرّي الخاصّ بأبيه، مهما كانت خطّته مُحكَمَة. ثم إنّه أراد أنْ يختبر من جديد خطّته المُجرّدة من أي دافع. إنَّ مشكلة مات ليفاين أو كارلوس – هي أنّه يعرفهما. ومن الخطر أنْ يحاول التفاوض من دون أنْ يعرف إنْ كان الشخص سيوافق لقد شاهد برونو مات مرّاتٍ عِدَّة ولم يستطع أنْ يأتي على ذِكر الموضوع.

ثمة حادث وقع في بورت –أو– برانس لن ينساه، أبداً. فقد وقعَ عن لوح المعبر وهو عائد إلى متن السفينة بعد ظهيرة اليوم الثاني.

كانت الحرارة الشديدة قد شوّشته وكان مشروب الرّمْ قد زاد الطين بِلَّة، وجعل الإحساس بالحرّ يتفاقم. كان في طريقه من فندق لاسيتادل إلى السفينة لكي يُحضِر حذاء السهرة لأمه، فتوقّفَ في إحدى الحانات بالقرب من الواجهة المائيّة ليشرب كأساً من الويسكي مع الثلج. وكان أحد أفراد مجموعة بويرتو ريكو، الذي كرهه برونو منذ اللحظة الأولى التي وقع فيها نظره عليه، موجوداً في الحانة وكان غاية في السُّكر، يُزمجر في المكان وكأنّه يمتلك البلدة، ويخت *فيري برينس*، وكل سكان أميركا اللاتينيّة. ووصفَ

برونو بأنه «المُتسكِّع الأبيض» وبأوصاف أخرى كثيرة لم يفهمها برونو لكنها دفعتْ الجميع إلى الضحك. غادر برونو الحانة، وهو شديد الإرهاق ومُشمئز من إثارة شِجار، مع تصميم هادئ بتقديم تقرير عن ذلك إلى أليس لكي تطرد ذلك البويرتوريكي وتضعه على اللائحة السوداء. وعلى مقربة من السفينة، اشتبك البويرتوريكي معه ولم يكفّ عن الكلام. ثم، وفي أثناء عبوره المعبر الخشبيّ مال على حبل التمسّك وسقط في المياه القذرة. لم يستطع أنْ يدّعي بأنّ البويرتوريكي قد دفعه، لأنه لم يفعل ذلك. وأخرجه البويرتوريكي من الماء بمساعدة بحّار آخر، كان يضحك أيضاً، وجرّاه حتى وضعاه في سريره. فزحف برونو خارجاً من السرير وأحضر زجاجة مشروب الرَّمْ. شرب بعضاً منه من دون إضافات، ثم انهار على السرير وغرِقَ في النوم وهو بملابسه الداخليّة المُبلَّلة.

لاحقاً، جاءت أليس مع أمّه لكي توقظاه.

وراحتا تُكرّران، وهما تضحكان حتى كادتا تعجزان عن الكلام، «ماذا حدث؟ ماذا حدث، يا تشارلي؟».

كان شكلاهما مهزوزين لكنَّ ضحكهما كان حادّاً. وانكمشَ مبتعداً عن أصابع أليس التي وضعتها على كتفه. عجز عن الكلام، لكنّه كان يعلم ماذا يُريد أنْ يقول. ماذا تفعلان في غرفته إذا لم تصلهما رسالة من غاي؟.

سألته أمّه:» مَنْ؟ أي رجل[13]؟».

صرخ في وجهيهما: «اخرجا!».

قالت أمّه برثاء، وكأنّه مريض في مستشفى مُشرِف على الموت: «أوه، إنّه غائب عن الوعي، مسكين، مسكين».

هزَّ برونو رأسه بعنف إلى هذه الجهة وتلك لكي يتجنّب قماشة التنظيف الباردة. لقد كرههما معاً وكره غاي! لقد ارتكبَ جريمة قتل من أجله، واحتال على الشرطة من أجله، ولزم الصمت عندما طلب منه أنْ يصمتْ، وسقط في المياه القذرة من أجله، ولم يرغب غاي حتى في رؤيته! لقد أمضى

13- كلمة Guy هي اسم علَم وتعني أيضاً «رجل»، كما فهِمتْها هي. - المترجم

غاي وقته مع فتاة! غاي ليس خائفاً أو تعساً، هو فقط لا يرغب في رؤيته! لقد رآها ثلاث مرات حول منزل غاي في نيويورك! وإذا استطاع أنْ ينال منها هنا، فسوف يقتلها كما قتل ميريام!.

«تشارلي، تشارلي، اصمتْ!».

سوف يتزوج غاي من جديد ولن يتوفّر لديه وقت لمقابلته. فلنرَ أي عزاء سيتبقّى له عندما تعامله تلك الفتاة كأحمق! إنّه يُقابلها منذ أنْ رآها في المكسيك، وليس فقط يزور أصدقاءه. لا عَجَب في أنّه أراد أنْ يزيح ميريام من طريقه! وهو لم يأتِ حتى على ذِكر آنْ فرانكلين وهما على متن القطار! لقد استغلّه غاي. ربما سيقتل غاي والده شاء أم أبى. إنَّ أي إنسان يمكن أنْ يرتكب جريمة قتل. وتذكَّر برونو أنَّ غاي لم يُصدّق ذلك.

العشرون

قال برونو: «تعال وتناول مشروباً معي». كان قد ظهر فجأة، في وسط الرصيف.

«لا أريد أنْ أراك. أنا لا أطرح أسئلة. لا أريد أنْ أراك».

قال برونو مع ابتسامة واهنة: «لن أنزعج إذا طرحتَ أسئلة». كانت عيناه حذرتين. «تعال إلى الجانب المقابل من الشارع، عشر دقائق فقط».

تلفّتْ غاي حوله قال في نفسه: ها قد بدأنا. استدعِ الشرطة. ثِبْ عليه، اطرحه على أرض الرصيف. لكنَّ غاي اكتفى بالوقوف بجمود. لاحظَ أنَّ يديّ برونو محشورتان في جيبيه، كما لو أنّه يحتفظ بمسدس.

قال برونو، وهو يُغويه بابتسامة مترددة: «عشر دقائق فقط».

لم يكن غاي قد سمعَ شيئاً عن برونو منذ أسابيع عديدة. وحاول أنْ يستحضِر الغضب الذي اضطرمَ فيه في تلك الأمسية الأخيرة وسط الثلج، بسبب قراره بتسليم برونو إلى الشرطة. تلك كانت اللحظة الحاسمة. ورافقه غاي. سارا إلى حانة في الجادّة السادسة وجلسا في مقصورةٍ خلفيّة.

اتّسعت ابتسامة برونو: «ممَّ أنت خائف، يا غاي؟».

«أنا لا أخاف أيّ شيء».

«هل أنت سعيد؟».

جلسَ غاي بوضعيّة جامدة على حافة مقعده. قال في نفسه: أنا جالس قِبالة قاتل وهاتان اليدان سحقتا نحر ميريام.

«اسمع، يا غاي، لِمَ لمْ تُخبرني عن آنْ؟».

«أخبركَ ماذا عن آنْ؟».

«كنتُ أودّ أنْ أتعرَّف عليها، هذا كل شيء. أعني، ونحن على متن القطار».

«هذا لقاؤنا الأخير، يا برونو».

«لماذا؟ أنا فقط أريد أنْ نكون صديقَين، يا غاي».

«سوف أسلّمك لرجال الشرطة».

«لِمَ لمْ تفعل هذا وأنت في ميتكالف؟»، سألَ برونو هذا وفي عينيه ومضٌ ورديّ باهت، وكأنَّ لا أحد غيره يمكن أنْ يطرح هذا السؤال، بموضوعيّة، وبحزن، ولكن بنبرة انتصار. والغريب في الأمر هو أنَّ غاي شعر بأنَّ صوته الداخلي كان قد طرح عليه ذلك السؤال بالطريقة نفسها.

«لأنني لم أكن واثقاً بالقدر الكافي».

«ماذا ينبغي أنْ أفعل، أنْ أضع إقراراً مكتوباً؟».

«ما زال في استطاعتي أنْ أحيلك إلى التحقيق».

هزَّ برونو كتفيه استخفافاً: «كلا، لا تستطيع. إنّ لديهم أدّلة ضدَّك أكثر مما لديهم ضدّي».

«عمَّ تتحدّث؟».

«ماذا في اعتقادك لديهم ضدي؟ لا شيء».

«أستطيع أنْ أخبرهم!» فجأة انتابه الحنق.

تجهّم برونو باعتداد في النفس: «إذا قلتُ إنكَ دفعتَ لي نقوداً لأنفِّذ الجريمة فسوف يوضِّح ذلك كل شيء!».

«لا يهمني هذا الكلام».

«ربما لا يهمّك، لكنّه يُثير اهتمام القانون».

«يوضِّح ماذا؟».

قال برونو ببطء: «يوضِّح تلك الرسالة التي كتبتها لميريام، الغطاء الذي وفَّره إلغاء عقد ذلك العمل، والرحلة المناسِبة التي قمتَ بها إلى المكسيك».

«أنتَ مجنون!».

ارتفعت نبرة صوت برونو بصورة هستيريّة وغطّتْ على ضجيج صندوق الموسيقى المجاور لهما: «كنْ واقعيّاً، يا غاي! إنَّ كلامك ليس له أي معنى!». مدَّ يده مباشرة عبر الطاولة نحو غاي، ثم ضمَّ قبضتها. «أنا مُعجَبٌ بك، يا غاي، أُقسِمُ لك. لا ينبغي أنْ نتحدث هكذا».

لم يُبدِ غاي أي حركة. وضغطَتْ حافة المقعد على خلفيّة ساقيه. «لا أريد أنْ أُثير إعجابك».

«غاي، إذا قلتَ أيّ شيءٍ للشرطة، فسوف تودي بنا نحن الاثنين إلى السجن. ألا تُدرك هذا؟».

كان ذلك قد خطر على بال غاي، حتى قبل الآن. وإذا تمسّكَ برونو بأكاذيبه، فسوف تجري مُحاكمة طويلة الأمد، في قضيّةٍ لن تُحلّ إلّا إذا انهار برونو، وبرونو ليس من النوع الذي ينهار. استطاع غاي أنْ يرى المسألة من منظور الهيستريا الشديدة الأحاديّة الجانب التي كانت تتبدّى في تحديق برونو إليه في تلك اللحظة. قال غاي لنفسه: تجاهله ابقَ بعيداً دع الشرطة تلقي القبض عليه. إنّه من فرط الجنون بحيث يمكن أنْ يقتلك إذا أتيتَ بأيّة حركة.

«أنتَ لم تُسلّمني للشرطة في ميتكالف لأنكَ مُعجبٌ بي، يا غاي. أنتَ مُعجبٌ بي بصورة ما».

«أنا لستُ مُعجباً بك البتّة».

«لكنك لن تسلّمني للشرطة، أليس كذلك؟».

قال غاي رُغماً عنه: «كلا». لقد أذهله هدوء أعصاب برونو. لم يكن برونو يخشاه أبداً. «لا تطلب لأجلي مشروباً آخر أنا مُغادِر».

أخرجَ برونو نقوداً من محفظته وأعطاها للنادل: «انتظر دقيقة».

ظلَّ غاي جالساً، حثّه إلى ذلك إحساس بأنَّ الأمر لم ينته بعد.

«بزّة أنيقة»، وابتسم برونو، مومئاً برأسه نحو صدر غاي.

قال غاي في نفسه: إنها البزّة الفانيلا الرماديّة الجديدة المُخطّطة التي اشتراها من النقود التي حصل عليها من مشروع بالميرا، كما اشترى حذاءه الجديد وحقيبته الخاصة الجديدة المصنوعة من جلد التمساح التي يضعها إلى جواره على المقعد.

«إلى أين ستذهب؟».

«إلى المدينة». كان سيُقابل ممثلاً لزبونٍ مُحتَمَل في فندق الجادّة الخامسة في الساعة السابعة. أمعنَ غاي النظر إلى عينيّ برونو القاسيتين، الحزينتين، متيقّناً من أنَّ برونو اعتقد أنّه سيذهب الآن لمقابلة آنْ. «ماذا تُخطِّط، يا برونو؟».

قال برونو بهدوء: «أنتَ تعلم، أفكّر فيما تحدّثنا بشأنه في القطار في أمر تبادُل الضحيتين أنتَ سوف تقتل والدي».

أصدر غاي صوتاً ينمّ عن الاحتقار. كان يعلم أنَّ هذا هو الأمر حتى قبل أنْ يقول، وشكَّ فيه منذ مقتل ميريام. أمعنَ النظر في عينيّ برونو اللتين ما زالتا ثابتتين، وحزينتين، مفتوناً بجنونهما الهادئ. وتذكّر ذات مرة وهو طفل أنّه حدّقَ إلى شخص أبله مغولانيّ[14] في حافلة، كما فعل الآن، بفضول وقح صريح، بفضول وبخوف.

«لقد أخبرتك بأنَّ في استطاعتي أنْ أُعدّ أدقّ التفاصيل». ابتسمَ برونو من زاوية فمه ابتسامةَ اعتذارٍ ومرح. «سوف يكون الأمر غاية في البساطة».

قال غاي في نفسه فجأة: «إنّه يكرهني. وسوف يُسعده أنْ يقتلني أنا أيضاً».

«أنتَ تعلم ماذا سأفعل إذا لم تنفِّذ»، وقام برونو بإيماء بفرقعة أصابعه، لكنَّ يده على الطاولة كانت مترهلة. «سوف أُوجه انتباه الشرطة إليك».

قال غاي في نفسه: تجاهله، تجاهله!، «أنتَ لا تُخيفني أبداً. سوف يكون ذلك أسهل السُّبُل في العالم لإثبات جنونك».

«إنني لستُ أقلّ جنوناً منك!».

14- مغولاني: أو كما هو شائع: منغوليّ: أي يشبه أهالي دولة منغوليا. - المترجم

بعد لحظة أنهى برونو الحوار. قال إنَّ لديه موعداً عند الساعة السابعة مع أمّه.

في اللقاء التالي الذي كان أقصر بكثير، غاي أيضاً شعر بالضياع، ولكن في اللحظة التي اعتقد أنّه حقَّقَ فوزه، حاول برونو أنْ يُحاوره بعد ظهيرة يوم جمعة إبّان مغادرته مكتبه وكان في طريقه إلى لونغ أيلند لكي يُقابل آنْ. تجاوزه غاي بكل ببساطة واستقلّ سيارة أجرة. لكنَّ إحساسه بأنّه هرب منه جسديّاً جعله يشعر بالخزي، وبدأ يُدمِّر إحساساً مُعيَّناً بالكرامة كان حتى تلك اللحظة متيناً. وتمنّى لو أنّه قال شيئاً لبرونو تمنّى لو أنّه واجهه ولو للحظة.

الحادي والعشرون

في الأيام التالية، لم تكد تمرّ أمسية واحدة لا يقفُ فيها برونو على الرصيف المقابل لمبنى مكتبه. أو إذا لم يفعل، كان يقفُ على الطرف المقابل من الشارع الذي يُقيم فيه. وكأنَّ برونو كان يعرف الأمسيات التي يعود فيها إلى منزله مباشرة. الآن لم يعد يتبادل معه أي كلمة، أو تندّ عنه أيّة إشارة، بل يظهر فقط بقامته الطويلة ويديه في جيبيّ معطفه الطويل، الشبيه بالمعطف العسكريّ والمتطابق تماماً مع قامته، كأنبوب موقد. كان غاي يعلم أنَّ العينين فقط تلاحقانه، لكنّه لم يكن ينظر خلفه إلّا بعد أنْ يغيب عن ناظريه. استمرّ ذلك طوال أسبوعَين. ثم وصلته الرسالة الأولى.

كانت تتألّف من صفيحتين من الورق: الأولى خريطة لمنزل برونو والأرض المُحيطة به والدروب التي على غاي أنْ يسلكها، كلها مرسومة بدقّة مع نقاط وخطوط منتظمة، والثانية رسالة مضروبة على الآلة الكاتبة، مكتوبة بأسطر متقاربة تبيِّن بوضوح خطّة عمليّة اغتيال والد برونو. مزقها غاي، ثم ندِم على ذلك في الحال. كان ينبغي أنْ يحتفِظ بها كدليل ضد برونو. واحتفظ بالمُزَق.

ولكن لم يكن هناك من حاجة إلى الاحتفاظ بها، فقد كان يتلقّى رسالة مثلها كل يومين أو ثلاثة أيام. كان مصدرها كلّها غريت نيك، وكأنَّ برونو كان حينئذٍ يُقيم هناك –لم يكن قد رأى برونو منذ أنْ بدأتْ الرسائل تتوافد–

وربما يضرب على آلة والده الكاتبة الرسائل التي لا بدّ أنَّ إعدادها استغرق منه ساعتين أو ثلاث ساعات. كانت الرسائل تبدو أحياناً مُشوّشة. تجلّى ذلك في الأخطاء المطبعيّة وفي الدفقات العاطفيّة التي اتّسمت بها الفقرات الأخيرة. ولو كان متوازناً، لاتّسمتْ الفقرات الأخيرة بالحبّ وبالتطمين بأنَّ ارتكاب جريمة القتل سوف يكون أمراً سهلاً. وإذا كان مُشوّشاً، فإنَّ الفقرات هي إمّا نِتاج دفق من الحبّ الأخويّ أو تهديد بملاحقة غاي طوال حياته، وتدمير مستقبله المِهنيّ و «علاقته العاطفيّة»، وتذكيره بأنَّ لبرونو اليد الطولى في الأمر. وكل المعلومات الضروريّة كان يمكن استمدادها من أيٍّ من الرسائل، وكأنَّ برونو توقّع أنّ من المُمكن أنْ يقوم بتمزيق مُعظمها من دون أنْ يفتحها. ولكن على الرغم من تصميمه على تمزيق الرسالة التالية، كان غاي يفتحها فور وصولها، بدافع الفضول لمعرفة تنويعات الفقرة الأخيرة. ومن بين خِطط برونو الثلاث، كانت تلك التي تتضمَّن مُسدساً، واستخدام المدخل الخلفيّ للمنزل، يتكرَر وصولها، على الرغم من أنّ كل رسالة كانت تدعوه إلى الاختيار.

تركتْ الرسائل تأثيراً مُعاكِساً عليه. وبعد صدمة الرسالة الأولى، لم تكد الرسالة الثانية تزعجه. ثم مع وصول العاشرة، والحادية عشرة، والخامسة عشرة، إلى صندوق بريده، بدأ يشعر بأنها تضرب بقوة بوعي منه على أعصابه بطريقة لم يتمكّن من تحليلها. وعندما ينفرد بنفسه في غرفته كان يقضي بعض الأوقات في محاولة عزل جرحه وتطبيبه. كان يقول لنفسه: إنَّ قلقه بلا سبب، اللهم إلّا إذا كان اعتقد أنَّ برونو سوف ينقلب ضدّه ويُحاول أنْ يغتاله ولم يفعل ذلك حقاً. إنَّ برونو لم يُهدِّده أبداً بفعل ذلك. لكنَّ التفكير لم يُخفِّف القلق، أو يجعله أقلّ استنزافاً.

الرسالة الواحدة والعشرون أتتْ على ذِكر آنْ. «لا أظنّكَ ترغب في أنْ تعلم آنْ بأمر دورك في جريمة قتل ميريام، أليس كذلك؟ أيّ فتاة يمكن أنْ ترغب في الزواج من قاتل؟ حتماً آنْ لن ترغب. إنّ الوقت ينقضي. وموعدي النهائي هو أول أسبوعَين من شهر آذار. وحتى ذلك الحين سوف يكون الأمر سهلاً».

ثم وصل المُسدَّس سلَّمته له صاحبة المنزل، داخل حزمة كبيرة من

الورق الأسمر. أطلقَ غاي ضحكة قصيرة عندما خرج منه المُسدس الأسود. كان كبيراً أوتوماتيكيّاً من نوع لوغر، لامعاً، وجميلاً لولا وجود رُقاقة على المقبض ذي الخطوط المتقاطعة.

دفعَ حافزٌ ما غاي إلى إخراج مُسدّسه الصغير من خلفيّة درجه العِلويّ، وإلى رفع مسدّسه الخاصّ الجميل ذي المقبض بلون اللؤلؤ إلى سريره حيث كان مُسدس لوغر. ابتسم لفعله ذلك، ثم قرَّبَ مُسدس تكساس من عينيه وأخذ يتفحّصه. كان قد شاهده في واجهة محل رهن ممتلئ بالسِّلع يقع في الجزء الأسفل من شارع مين في ميتكالف عندما كان في الخامسة عشرة من العمر، واشتراه بنقودٍ جمعها من بيع الصحف، ليس لأنه كان مُسدساً بل لأنّه كان جميلاً. فرِح بمتانته، وبصِغر أسطوانته القصيرة. وكان كلما زادتْ معرفته بالتصميم الميكانيكي، سُرَّ أكثر لأنه حاز على ذلك المُسدَّس. وكان قد احتفظَ به في عددٍ من الأدراج العُليا طوال خمسة عشر عاماً. ثم فتح الخزّان وأخرجَ منه الطَّلَقَات الثلاث، وأدار الأسطوانة ست دورات عبر الزند، مُبدياً إعجابه بالصوت المُنتَظم العميق لآليّته المثاليّة. ثم أرجعَ الطلقات إلى مواقعها، ووضع المُسدس في كيس قماش الفانيلا الأرجوانيّ وأعاده إلى مكانه في درجه.

كيف يمكنه أنْ يتخلَّص من مسدّس اللوغر؟ أيُغرقه عند ضفّة النهر؟ أم يدفنه في وعاء الرماد؟ أم يرميه مع القمامة؟ بدا أنَّ كل ما فكَّر فيه إمّا مُثيراً للريب أو استعراضيّاً. وقرَّر أنْ يدسّه تحت جواربه وملابسه الداخليّة التي في قعر الدرج إلى أنْ يخرج بفكرة أفضل. وفجأة تذكّر صمويل برونو، للمرة الأولى كشخص. لقد استحضر وجود مسدس اللوغر الرجلَ وموته المُحتَمَل جنباً إلى جنب داخل رأسه. ها هنا في غرفته صورة كاملة للجريمة التي سيرتكبها –وجد رسالة تنتظر داخل صندوق بريده في صباح ذلك اليوم أيضاً، وهي تستقرّ الآن على سريره من دون أنْ يفتحها– التي من المُفتَرَض به أنْ يقتله بوساطتها. أخرجَ غاي إحدى رسائل برونو التي وصلته حديثاً من بين عددٍ منها تستقرّ في قعر الدرج:

إنَّ صمويل برونو [كان نادراً ما يُشير إليه بـ «والدي»] يُعتبَر أفضل مِثال عن أسوأ ما تنجبه أميركا. وهو ينحدر من أدنى مستويات القرويين في هنغاريا، الذين لا يختلفون عن الحيوانات إلّا قليلاً. انتقى زوجة له من عائلة كريمة، وهو الجشع، حالما استطاع أنْ يدفع مهرها. وكانت أمي طوال ذلك الوقت تتحمّل بهدوء خيانته، بما تحمله من مفهوم عن قُدسيّة رِباط الزواج. والآن وقد بلغ سن الشيخوخة يُحاول أنْ يتصرَّف بورع قبل أنْ يفوت الأوان، لكنَّ الأوان فات. أتمنّى لو أقتله بيديّ لكنّني شرحتُ لك أنه بسبب جيرارد، رجل البوليس السرّي الذي عيَّنه، كان الأمر مستحيلاً. وإذا كان لديك أيّة مشكلة معه، فسوف يُصبح عدوّك الشخصي، أيضاً. إنّه من النوع الذي يعتقد أنَّ كل أفكارك عن اعتبار الهندسة المعماريّة شيء جماليّ وأنَّ توفير منازل تكفي الجميع أفكار غبيّة ولا يهمّه أي مصنع لديه ما دام السقف لا يرشح ويُفسِد الآليّات. وقد يهمك أنْ تعلم أنَّ مُستخدميه مُضربون الآن. انظر إلى ما ورد في صحيفة ***نيويورك تايمز*** في عدد يوم الثلاثاء الفائتْ، في يسار أسفل الصفحة 31. إنهم يُضربون من أجل الحصول على أجرٍ كافٍ. إنَّ صمويل برونو لا يتورَّع عن سرقه ابنه من صُلبه...

مَنْ يمكن أنْ يُصدِّق هذه القصّة إذا رواها؟ مَنْ يمكن أنْ يقبل هذا الخيال؟ الرسالة، والخريطة، والمُسدّس - إنها أشبه بأدوات مسرحيّة، أغراض مُعدَّة لإضفاء احتمالات تصديق قصّة ليست حقيقيّة ولا يمكن أنْ تكون حقيقيّة. أحرقَ غاي الرسالة، أحرقَ الرسائل التي في حوزته كلّها، ثم هرعَ ليستعد للذهاب إلى لونغ أيلند.

كان هو وآنْ ينويان أنْ يُمضيا النهار في التجول بالسيارة، والسير في الغابة، وفي اليوم التالي يتوجّهان إلى ألتون. ومع حلول نهاية شهر آذار سوف يكون المنزل قد فُرِشَ، وهذا سيمنحهما فترة شهرين من الفراغ قبل أنْ يُقام فيه حفل الزفاف. ابتسمَ غاي وهو يرنو من نافذة القطار. إنَّ آنْ لم تقُل أبداً إنها تريد أنْ يُقام الزفاف في شهر حزيران، لقد سار الأمر ببساطة على هذا النحو. هي لم تطلب أبداً أنْ يُقام زفاف رسميّ، بل اكتفَتْ بالقول: «دعنا لا نتسرَّع». ثم عندما أخبرها بأنه لا يُمانع في إقامة زفاف رسميّ إذا كانت هي لا تُمانع،

أطلقَتْ تنهّداً طويلاً «آه - هـ!» وشدَّته إليها وقبّلته. كلا، لا يُريد زفافاً آخر مُتسرِّعاً ولا الاستعانة بشخصٍ غريب ليكون شاهداً. وبدأ يخطّ رسماً أوّليّاً على خلفيّة أحد المُغلّفات لمبنى المكاتب المؤلَّف من عشرين طابقاً الذي كان قد علِمَ قبل ذلك بأسبوع أنَّ أمامه فرصة طيبة للفوز بتفويض إنجازه، واحتفظ بذلك ليكون مُفاجأة لآنْ. وشعر بأنَّ المستقبل قد أضحى فجأة في الحاضِر. كان لديه كل ما أراد. وبينما كان يهبط درج الرصيف، شاهدَ معطف آن من جلد الفهد وسط الحشد الصغير المتجمِّع عند بوابة المحطّة. قال في نفسه: إنّه لن ينسى أبداً الأوقات التي انتظرتْه خلالها هنا، ورقصة نفاد الصبر التي كانت تقوم بها عندما تلمحه، وابتسامتها ونصف استدارتها حول نفسها، وكأنها ترفض أنْ تنتظر نصف دقيقة أخرى.

أحاطها بذراعه وقبّلها على وجنتها: «آنْ!».

«أنتَ لا تضع قبّعة».

ابتسم لأنَّ هذا بالضبط ما توقَّع منها أنْ تقول. «حسن، ولا أنتِ تضعين قبّعة».

«أنا جالسة في السيارة إنها تُثلِج»، وأمسكتْه من يده وهرعا يجتازان زقاق الرماد الهشّ باتّجاه السيارات «لديّ مفاجأة لكَ».

«وأنا لدي واحدة لكِ. ما هي مفاجأتك؟».

«بالأمس بعتُ خمسة تصاميم وحدي».

هزَّ غاي رأسه «لا أستطيع أنْ أتفوّق عليكِ، أنا لم أحصل إلّا على توكيل واحد لتنفيذ مبنى للمكاتب. ربما».

ابتسمَتْ ورفعتْ حاجبيها: «ربما؟ بل نعم!».

قال: «نعم، نعم، نعم!»، وقبّلته من جديد.

في أمسية ذلك اليوم، وفي أثناء وقوفهما على الجسر الخشبيّ القصير المُطل على جدولٍ يجري خلف منزل آنْ، باشر غاي بالقول: «هل تعلمين ماذا أرسل برونو إليّ؟ مُسدساً»، ثم صُعِقَ بإدراكه الرهيب، ليس لأنه أقدمَ على قول هذا، بل بسبب بُعد برونو وصِلته به عن صِلته هو بحياته وحياة آنْ.

لم يرغب في منع أيّة أسرار عن آنْ، وها هو سرٌّ أكبر من كل الأسرار التي باح بها لها. إنَّ اسم برونو، الذي كان يسكنه، لا يعني أي شيء لآنْ.

«ما الأمر غاي؟».

قال في نفسه: إنها تعلم أنَّ ثمة خطباً إنها دائماً تعلم. «لا شيء».

تبعها عندما انعطفَتْ ومشتْ باتجاه المنزل، كان الليل قد كسا الأرض بالسواد، وجعل المسافة المكسوّة بالثلوج تكاد لا تتميَّز عن الغابة والسماء. وانتاب غاي ذلك الشعور من جديد - ذلك الحسّ بالعِدائيّة داخل كتلة الغابة الموجودة إلى الشرق من المنزل. وأمامه عكسَ باب المطبخ ضوءاً أصفر دافئاً على مسافةٍ تصل حتى المرج. ومن جديد التفتَ غاي، وترك عيناه تستقرّان على السواد الذي تبدأ عنده الغابة. والشعور الذي انتابه عندما حدّقَ إلى هناك كان الاضطراب والارتياح في وقتٍ واحد، وكأنّه يضغط على سنٍ تؤلمه.

قال: «سوف أتمشّى من جديد».

انتقلَتْ آنْ إلى الداخل، فاستدار. أراد أنْ يرى إنْ كان الإحساس يُصبحَ أقوى أم أضعف بعد ابتعاد آنْ عنه. حاولَ أنْ يشعر لا أنْ ينظر بقيَ الإحساس نفسه، ضعيفاً ومُراوغاً، في حين اشتدّ السواد عند الخط السفليّ للغابة لم يحدث شيء طبعاً. أيّ مزيج عارِض من الظل والصوت وأفكاره الخاصّة أحدث ذلك الإحساس؟.

أدخل يديه في جيبيّ معطفه واقتربَ بعناد.

وجّه صوتُ تقصُّفِ خافت لغصنٍ انتباهه نحو الأرض، وركَّزه نحو نقطةٍ معيَّنة. وهرع نحوها، الآن سمعَ حفيف دغل، وشاهد شكلاً أسود يتحرّك في الظلام. حشدَ غاي عضلاته كلّها ليقوم بوثبة طويلة، وأمسك به، وتعرَّفَ على الشهيق الأجشّ لأنفاس برونو. دفعَ برونو كلتا ذراعيه إلى الأمام كأنهما سَمكة ضخمة وقويّة تحت المياه، وتلوّى ووجّه لكمةً موجِعة إلى عَظمة وجنته وتشابكا وسقطا معاً يتصارعان لفكّ الأذرع، يتصارعان وكأنَّ كلّاً منهما يُصارِع الموت. خدشَت أصابع برونو بحركة مسعورة نحرَه، على الرغم من أنَّ غاي أبقى ذراعيه ممدودتين. وأخذتْ أنفاس برونو تهسّ شهيقاً

وزفيراً من بين شفتيه المتراجعتين. أخذ غاي يوجّه ضرباته إلى الفم من جديد بقبضة يده اليُمنى حتى شعر بأنها كُسِرَتْ، ولم يعُد في استطاعته يشدّها.

صرخَ برونو ساخطاً: «غاي!».

قبضَ غاي عليه من مقدّمة ياقته، وفجأة توقف الاثنان عن القتال. قال برونو بغضب عارم: «كنتَ تعلم أنّه أنا! يا بن الحرام القذر!».

رفعه غاي ليقف على قدميه: «ماذا تفعل هنا؟».

اتّسعتْ رقعة الفم الدامي أكثر، وكأنّه يوشك أنْ يبكي: «اتركني!».

دفعه غاي بعيداً، فسقطَ على ظهره على الأرض وأخذ يتعثّر وهو ينهض من جديد.

تأوّه برونو قائلاً: «حسنٌ، اقتلني إذا شئت! يمكنكَ أنْ تدَّعي أنّكَ فعلتَ ذلك دفاعاً عن النفس!».

ألقى غاي نظرة نحو المنزل، كانا قد تعاركا فترة طويلة داخل الغابة. «لا أريد أنْ أقتلك سوف أقتلك في المرة التالية التي أراكَ فيها هنا».

ضحكَ برونو، كان ذلك بمثابة تصفيق الانتصار الوحيد.

تقدَّم غاي منه مُهدِّداً، لم يرغب في لمس برونو من جديد، ولكن قبل لحظة واحدة، كان يُكافح إلحاحَ «اقتله، اقتله!» داخل عقله. وعلِمَ غاي أنّه ليس في وسعه منع برونو من الابتسام، ولا حتى بقتله. «ارحل».

«هل أنتَ مُستعد للقيام بالمهمّة في غضون أسبوعَين؟».

«أنا مُستعد لتسليمك للشرطة».

قال برونو ساخراً بصوت حاد: «هل أنت مستعد لتسليم نفسك للشرطة؟ هل أنتَ مستعد لإخبار آنْ عن الأمر، هه؟ هل أنتَ مستعدّ لقضاء العشرين عاماً التالية في السجن؟ طبعاً، مستعدّ!»، وضمَّ كفَّيه معاً برقّة. وبدت عيناه كأنهما تتوهّجان بضوءٍ أحمر. كانت قامته المترنّحة أشبه بقامة روحٍ شريرة كان يمكن أنْ تبرز من شجرة سوداء ملتوية خلفه.

تمتمَ غاي: «ابحث عن شخصٍ آخر لينفِّذ مهمتك القذرة».

«انظروا مَنْ يتكلَّم! أنا أردتُكَ أنت وحصلتُ عليك! حسن!»، وضحك.

«سوف أبدأ، سوف أخبر صديقتك الحكاية كلّها، سوف أكتبُ لها رسالة هذه الليلة». وتمايل مبتعداً، بخُطى ثقيلة، واستمر في الترنّح، كشيءٍ رخوٍ ولا شكل له. ثم التفتَ وهتفَ: «إلا إذا وصلني جوابك *أنت* في غضون يوم أو نحوه».

أخبر غاي آنْ بأنّه تقاتل مع مُتسلِّل في الغابة ولم يُصَب إلّا باحمرار نتيجة القتال، لكنّه لم يجد سبيلاً إلى المكوث في المنزل، وعدم الذهاب إلى ألتون في الغد، إلّا بادّعاء الإصابة بجرح. قال إنّه تلقّى ضرباً على معدته، ولا يشعر بأنّه بخير. وأُصيبَ السيد والسيدة فوكنر بالذعر، وأصرّا على استدعاء رجل الشرطة الذي حضر لكي يفتش الأرض المُحيطة بالمنزل وقرّرا أنْ يُعيِّنا رجل شرطة من أجل القيام بالحراسة خلال الليالي القليلة القادمة. لكنَّ حارساً واحداً لم يكن كافياً. لقد أراد غاي أنْ يحضر بنفسه عندما يعود برونو. واقترحتْ عليه آنْ أنْ يلزم المنزل في يوم الإثنين، لكي يكون هناك مَنْ يعتني به في حال مرِضَ. ومكث غاي.

قال في نفسه إنّه لم يشعر بالخزي كما شعر خلال يوميّ نزوله عند آل فوكنر. شعر بالخزي لأنه اضطرَّ إلى المكوث، ولأنه دخل في صباح يوم الإثنين غرفة آنْ ونظر إلى طاولة الكتابة حيث وضَعَتْ الخادم بريدها ليرى إنْ كان برونو قد كتبَ لها. لم يفعل. كانت آنْ تغادر في صباح كل يوم إلى محلّها في نيويورك قبل وصول البريد. وفي صباح يوم الإثنين استعرضَ غاي الرسائل الأربع أو الخمس الموجودة على طاولة كتابتها، ثم أسرع بالخروج كلصّ، خشية أنْ تراه الخادم. وذكَّر نفسه بأنّه غالباً ما يلج غرفتها في أثناء غيابها. وأحياناً عندما يكون المنزل ممتلئاً بالناس، هرباً منهم إلى غرفة آنْ لقضاء بضع لحظات. وكانت تحب أنْ تجده هناك. وعند العتبة، أمال رأسه إلى الخلف وأسنده إلى عضادة الباب مستعرضاً فوضى الغرفة – السرير المُشوَّش، وكتب الفن الضخمة التي ليس لها مكان على الرفوف، وآخر تصميماتها مُثبَّتة بمسامير إلى شريط من الفلّين الأخضر على أحد الجدران، وكأس من الماء يميل لونه إلى الأزرق في زاوية الطاولة أهملتْ إفراغه، ووشاح من الحرير بلونيّ البنيّ والأصفر على ظهر الكرسيّ، كان جليّاً أنّها غيَّرتْ رأيها بشأنه. كان عبق ماء الكولونيا برائحة الغاردينيا الذي

لمستْ به عنقها في الدقيقة الأخيرة ما زال منتشراً في الهواء واشتاقَ إلى مزج حياته بحياتها.

مكثَ غاي حتى صباح يوم الثلاثاء ولم تصِله أيضاً رسالة من برونو، ومن ثم ذهبَ إلى مانهاتن. كان العمل مُتراكماً وكان في انتظاره العديد من المُنغّصات. فلم يكن قد بُتَّ في أمر العقد مع شركة شو ريالتي من أجل إنشاء مبنى المكاتب الجديد بعد. شعر بأنَّ حياته مُضطربة، بلا هُدى، وبأنّها أشدّ عماءً مما كانت عندما سمع بمقتل ميريام. في ذلك الأسبوع لم تصله رسالة من برونو ما عدا واحدة كانت في انتظاره، كانت قد وصلتْ في يوم الإثنين. كانت رسالة قصيرة تقول شكراً للّه لأنَّ أمّه أصبحتْ أحسن حالاً اليوم وبات في استطاعته أنْ يُغادر المنزل. قال إنَّ أمّه كانت مريضة إلى درجة خطيرة على مدى ثلاثة أسابيع بذات الرئة، وقد لازمها.

في مساء يوم الخميس وإبّان عودة غاي من اجتماع في نادي الهندسة المعماريّة، أخبرته صاحبة المُلك السيدة ماكوسلند أنّه وردت إليه ثلاث مكالمات. وفي أثناء وقوفهما في الرواق رنَّ جرس الهاتف. كان برونو، غاضباً وسكران. سأل إنْ كان غاي مُستعداً للتحدث بعقلانيّة.

قال برونو: «لا أعتقد ذلك لقد كتبتُ رسالة إلى آنْ» وأنهى المكالمة.

ارتقى غاي إلى الطابق العِلويّ وتناول بدوره مشروباً. لم يُصدِّق أنَّ برونو كتب رسالة أو كان في نيّته أنْ يكتب. حاول على مدى ساعة أنْ يقرأ شيئاً، واتّصلَ بآنْ ليسألها عن حالها، ثم خرج مُضطرباً ليحضر فيلماً سينمائيّاً.

بعد ظهيرة يوم سبت، كان من المُفتَرَض أنْ يُقابل آنْ في همستيد، لونغ أيلند، لمشاهدة عرضٍ للكلاب هناك. ورأى غاي أنّه لو كان برونو قد بعثَ الرسالة، لاستلمتها آنْ بحلول صباح يوم السبتْ. ولكن من الواضح أنّها لم تستلمها. أدرَكَ ذلك من السيارة التي كانت جالسة تنتظره فيها. سألها إنْ كانت قد استمتعت بحفل الليلة الفائتة في منزل تيدي، نسيبها تيدي الذي احتفل بعيد مولده.

«حفلة رائعة ولكن لا أحد رغبَ في العودة إلى منزله. وتأخّر الوقت كثيراً

فأمضيتُ الليلة هناك. حتى أنني لم أبدّل ملابسي بعد». وانطلقتْ بالسيارة خلال البوابة الضيقة إلى الطريق العامة.

صرَّ غاي على أسنانه. إذن ربما الرسالة في انتظارها في المنزل. وفي الحال، تيقّنَ من أنَّ الرسالة في انتظارها فعلاً، وجعلته استحالة منع وصولها إليها يشعر بالوهن وبانعقاد لسانه.

حاول يائساً أنْ يفكِّر في شيءٍ يقوله وهما يسيران بين صفَّين من الكلاب.

سألته آنْ: «ألم تصلكَ أخبار من شركة شو؟».

«كلا»، وحدَّق إلى كلب ألمانيّ عصبيّ وحاول أنْ يُصغي لآنْ وهي تقول شيئاً عن كلبٍ ألمانيّ كان يمتلكه أحد أفراد عائلتها.

قال غاي في نفسه: إنها لم تعلم بعد، ولكن إذا لم تكن قد علِمَتْ بحلول هذا اليوم، فإنَّ الأمر هو مسألة وقت، ربما مسألة بضعة أيام أُخَر، وبعد ذلك ستعلم. وبدأ يتساءل، تعلمُ ماذا، وأخذ يُكرّر التساؤل، ليُطمئن نفسه أو ليُعذّبها، لم يدرِ أيّهما: تعلمُ أنّه قابلَ الرجلَ الذي قتل زوجته على متن القطار في الصيف الفائت، وأنّه وافقَ على قتل زوجته. هذا ما سيُخبرها به برونو، مع إيراد تفاصيل معيَّنة ليجعل القصة مُقنِعة. وإذا قام برونو، في قاعة المحكمة، بتشويه الحوار الذي دار بينهما في القطار، ولو قليلاً، ألنْ يكون ذلك بمثابة اتّفاق بين قاتلَين؟ وفجأة تذكَّر بوضوح الساعات المُعلَّقة في شقّة برونو، ذلك الجحيم الصغير. إنَّ الكراهية هي التي ألهمته بالبوح بالكثير، والكراهية الحقيرة نفسها هي التي أثارتْ حنقه على ميريام في متنزّه تشابولتيبك في شهر حزيران الأخير. حينئذٍ كانت آنْ غاضبة، ليس بسبب ما قاله بل بسبب كراهيته. إنَّ الكراهية، أيضاً، إثم. لقد حذَّرَ المسيح في موعظته من الكراهية كما من الزنا ومن القتل. إنَّ الكراهية هي لبّ الشرّ. وفي قاعة محكمة العدل المسيحيّة، ألنْ يكون على الأقلّ جزئيّاً مُذنباً بمقتل ميريام؟ ألنْ تقول آنْ ذلك؟.

قاطعها، «آنْ». رأى أنَّ عليه أنْ يُمهِّد لها ويجب أنْ *يعلم*. «إذا اتّهمني أحدهم في اشتراكي في قتل ميريام، ماذا ســ...؟ ماذا ســ...؟».

توقفتْ عن الكلام ونظرتْ إليه. وبدا كأنَّ العالم بأكمله توقف عن الحركة، وكأنَّه مع آنْ يقفان في مركزه الساكن.

«اشتراكك؟ ماذا تعني، يا غاي؟».

نخعه أحدهم كانا يسيران. «أعني فقط هذا إذا اتّهمني، لا أكثر».

بدا كأنها تبحث عن الكلمات.

تابع غاي القول: «فقط اتّهمني أريد فقط أنْ أعلم لو اتّهمني من دون أي سبب. هل سيكون لذلك أيّة أهمية؟»، أراد أنْ يسألها إنْ كانت ستبقى راغبة في الزواج منه، لكنّه كان سؤالاً حقيراً، ينطوي على الاستجداء، ولم يقوَ على طرحه.

«غاي، لِمَ تقول هذا؟».

«فقط أريد أنْ أعلم، لا أكثر!».

دفعته نحو الخلف لكي يبتعدا عن حركة المرور في الطريق. «غاي، هل وجّه أحدهم إليك اتّهاماً؟».

قال مُحتجّاً: «كلا!». شعر بأنّه أخرق ومُرتبك. «ولكنْ إنْ فعل ذلك أحدهم، إذا حاول شخصٌ ما أنْ يورّطني في قضيّة ما».

نظرتْ إليه بذلك الومض من خيبة الأمل، من الدهشة ومن انعدام الثقة التي سبقَ أنْ رآه من قبل عندما كان يقول أو يفعل شيئاً بدافع الغضب، أو الاحتقار، لا توافق عليه آنْ، ولا تفهمه. سألته: «هل تتوقّع من أحد أنْ يفعل ذلك؟».

«هذا ما أريد معرفته!». كان في عجلة من أمره وبدا ذلك غاية في البساطة!.

قالتْ بهدوء: «في مثل هذه الأوقات، تجعلني أشعر بأننا غريبان تماماً عن بعض».

تمتم: «أنا آسف». شعر كأنّه قطعَ رابطاً يربطُ بينهما.

«لا أعتقد أنكَ تشعر بالأسف، وإلّا لما استمررتَ في فعل هذا!» ونظرتْ مباشرة إليه، وأبقتْ نبرة صوتها منخفضة على الرغم من أنَّ عينيها كانتا ممتلئتين بالدموع. «هذا الموقف يُشبه ما حدث في مكسيكو عندما انهمكتَ في ذلك التقريع المُطوَّل لميريام. لا يهمّني هذا - ولا أحبّه، لستُ من ذلك النوع! إنكَ تدفعني إلى الإحساس بأنني لا أعرفك البتّة!».

قال غاي في نفسه: ولا أحبّكَ. وكأنّها تخلَتْ عنه حينئذٍ، تخلّتْ عن محاولة معرفته أو حبّه. كان غاي واقفاً هناك، يائساً، واهناً، عاجزاً عن الإتيان بأيّة حركة أو نطق أيّة كلمة.

قالتْ آنْ: «نعم، ما دمتَ قد سألت. أعتقد أنّه إذا وجّه أحدهم إليك اتّهاماً فإنَّ ذلك سيُحدِثُ فرقاً. وأودّ أنْ أسألك لماذا تتوقّع هذا لماذا؟».

«لم أتوقّعه!».

أشاحتْ بوجهها عنه، ومشتْ حتى النهاية المسدودة للزقاق، ووقفتْ محنيّة الرأس.

لحق غاي بها: «آنْ أنتِ تعرفينني حقاً. تعرفينني أفضل من أي شخص أعرفه في العالم. لا أريد أنْ أمنع أيّة أسرار عنك لقد خطر السؤال في بالي وطرحته عليك!». شعر كأنّه يُدلي باعتراف، ومع الارتياح الذي تلاه، شعر فجأة بالثقة -ثقة تعادلُ ثقته في نفسه قبل أنْ يكتب ذلك المدعو برونو الرسالة- في أنَّ ذلك المدعو برونو لم يكتبها ولن يكتبها.

مسحتْ بسرعة دمعةً عن زاوية عينها، بلا مبالاة. «بقيَ هناك شيء واحد، يا غاي. هلّا توقفتَ عن توقّع الأسوأ - في كل شيء؟».

قال: «نعم وحقّ الله سأفعل».

«فلنعُد إلى السيارة».

أمضى النهار مع آنْ، وتناولا طعام العشاء في تلك الأمسية في منزلها. لم تكن هناك أيّة رسالة من برونو. وطرحَ غاي احتمال حدوث ذلك من تفكيره وكأنّه تجاوز أزمة.

في مساء يوم الإثنين وعند حوالي الساعة الثامنة، هتفَتْ السيدة ماكوسلند له لكي يتلقّى مُكالمة هاتفيّة. كانت آنْ.

«حبيبي - أعتقد أنني مُضطربة قليلاً».

«ما الأمر؟». كان يعلم فحوى الأمر.

«وصلتني رسالة ضمن بريد هذا الصباح تدور حول ما كنتَ تتكلَّم عنه في يوم السبت».

«ما هو آنْ؟».

«حول ميريام - مطبوعة على الآلة الكاتبة ولا تحمل توقيعاً».

«ماذا تقول؟ اقرئيها على مسمعي».

بدأتْ آن تقرأ بصوتٍ مرتعش، ولكن بطريقتها الواضحة، «عزيزتي الآنسة فوكنر. قد يُثير اهتمامك أنْ تعرفي أنَّ غاي هينز له صِلة أكبر بمقتل زوجته مما يعتقد القانون في الوقت الحاضر لكنَّ الحقيقة سوف تظهر. وأعتقد أنه ينبغي أنْ تعلمي هذا في حال كانت لديك أيّة خطط للزواج من صاحب الهويّة المزدوجة ذاك. وبمنأى عن هذا، إنَّ كاتب هذه الأسطر يعرف أنَّ غاي هينز لن يبقى رجلاً حرّاً فترة طويلة بعد الآن» التوقيع، «صديق».

أغمضَ غاي عينيه «يا الله!».

«غاي، أتعلم مَنْ يكون؟ - غاي؟ ألو؟».

قال «نعم».

«مَنْ؟».

تبيَّنَ من صوتها أنها فقط خائفة، وأنّها تؤمن به، وأنَّ خوفها هو فقط عليه.

«لا أعلم، يا آنْ».

سألته بقلق: «أصحيح ما قال يا غاي؟ يجب أنْ تعلم يجب أنْ تتصرَّف».

كرَّر غاي القول، متجهّماً: «لا أعلم». كأنَّ ذهنه عقدة لا يمكن حلّها.

«يجب أنْ تعلم. فكِّر، يا غاي، في شخصٍ يمكن أنْ يكون عدوّاً لك».

«ما هو ختم البريد؟».

«غراند سنتر على ورق عادي تماماً لا يمكن استشفاف أي شيء من هذا».

«احتفظي بها لأجلي».

«طبعاً، غاي ولن أُخبِر أحداً من العائلة، أعني». برهة صمت. «يجب أنْ يكون هناك شخص، يا غاي. لقد أبديتَ شكّك في شخص ما في يوم السبت - أليس كذلك؟».

«لم أفعل» واختنق صوته. «مثل هذه الأمور تحدث أحياناً، كما تعلمين، بعد انتهاء مُحاكمة ما». وانتابته رغبة في التغطية على برونو بحرص وكأنَّ برونو هو نفسه، وهو مُذنب. «متى أستطيع أنْ أقابلك، آنْ؟ هل أستطيع أنْ آتي هذه الليلة؟».

«في الواقع، أنا - قد أذهب مع أمي وأبي لحضور مناسبة خيريّة. يمكنني أنْ أبعث إليك الرسالة بالبريد. وتُسلَّم لك باليد، وسوف تصلك صباح يوم غد».

ووصلتْ في صباح اليوم التالي، مُرفقة بواحدة من خطط برونو الأخرى، مع فقرة أخيرة مُفعمة بالحب ولكنها مُحذِّرة ذكرَ فيها رسالته إلى آنْ ووعد بإرسال المزيد.

الثاني والعشرون

جلس غاي على حافة سريره، وغطّى وجهه بيديه، ثم أنزل يديه بتأنٍ. لقد شعر بأنَّ الليل هو الذي جمع أفكاره وحرَّفها، الليل والظلام والأرق. لكنَّ الليل له حقيقته الخاصّة أيضاً. في الليل، يقترب المرء من الحقيقة فقط بزاوية معيَّنة، لكنَّ الحقيقة كلها هي نفسها. إذا أخبر آنْ بالقصة، ألنْ تعتبر أنّه مُذنبٌ جزئيّاً؟ هل ستقبل الزواج منه؟ كيف يمكن ذلك؟ أي مخلوقٍ شنيع هو حتى يجلس في غرفةٍ تضمّ درجاً سُفلياً يحتوي خُططاً لارتكاب جريمة قتل ومسدّساً لارتكابها به؟.

في الضوء الباهت السابق لطلوع الفجر، أمعن النظر في الوجه المنعكس في المرآة. الفم يميل نحو الأسفل واليسار، ولا يشبه وجهه. والشّفَة السُّفلى المُمتلئة كانت أكثر رقّة بفعل التوتّر. حاولَ أنْ يُبقي عينيه في وضعيّة الثبات التامّ. بادلتاه التحديق من فوق نصفيّ دائرتين شاحبين، كأنهما جزء منه أصبح أكثر قسوة بالاتّهام، وكأنهما تُحدّقان إلى مُعذّبهما.

هل يرتدي ملابسه ويخرج ليتمشّى أم يُحاول أنْ ينام؟ كانت خطوته على السجادة خفيفة، تتفادى بلا وعي البقعة المُجاورة للأريكة حيث الأرضيّة تُصدر صريراً. قالت رسالة برونو: ***يجب أنْ تلغي تلك الخطوات التي تُصدر الصرير طلباً للأمان. إنَّ باب غرفة والدي يقع إلى اليمين كما تعلم. لقد راجعتُ كلّ شيء ولا مجال لأي خطأ في أي مكان. وترى على الخريطة موقع غرفة الساقي (غرفة هربرت). إنها أقرب نقطة تقترب فيها من أي شخص. إنَّ أرضيّة الرواق تُصدر صريراً حيث وضعتُ إشارة X***... وارتمى

على السرير. ***لا ينبغي أنْ تحاول التخلُّص من المُسدس مهما يحدث في المسافة بين المنزل ومحطة القطار.*** كان يحفظ كل شيء صمّاً، حفظ ضجيج باب المطبخ ولون سجادة الصالون.

لو أنَّ برونو يجد شخصاً آخر يقتل والده، لتوفّر بين يديه دليل في هذه الرسائل يُدين برونو. سوف يتمكّن من الانتقام لنفسه جرّاء ما فعله برونو به. لكنَّ برونو سوف يكتفي بالرد بأكاذيبه التي ستدينه بالتخطيط لاغتيال ميريام. كلا، سوف يجد برونو شخصاً آخر، والمسألة هي فقط مسألة وقت. لو يستطيع أنْ يتحمّل تهديدات برونو فقط فترة أطول، فسوف ينتهي الأمر كلّه وسوف يتمكّن من النوم. قال في نفسه: إذا نفَّذَ جريمة القتل فلن يستعمل المسدس الكبير، بل سيستخدم المُسدس الصغير.

نهضَ غاي عن السرير، متوجّعاً، وخائفاً من الكلمات التي عبرتْ الآن ذهنه. قال لنفسه: «مبنى شو»، وكأنّه يُعلن عن مشهد جديد، وكأنّ في وسعه أنْ يخرج عن مسارات الليل وينتقل إلى مسارات النهار. ***مبنى شو. الأرض مكسوّة بالعشب وحتى الدَرج الخلفيّ، ما عدا البقعة المُغطّاة بالحصى التي لن تُضطر إلى لمسها... الغِ أربعاً، الغِ ثلاثاً، وانتقل بخطوة واسعة إلى قمة الدَرج. تستطيع أنْ تتذكره، إنّ له إيقاعاً موجزاً.***

«*سيد هينز!*».

أجفلَ غاي، وتسبَّبَ في جرح نفسه. ترك موسى الحلاقة وتوجّه نحو الباب.

سأل الصوت عبر الهاتف: «ألو، غاي ألم تستعدّ بعد؟»، صوت فاسق في الصباح الباكر، قبيح مُلوَّث بتعقيدات الليل، «أتريد المزيد من الوقت؟».

«أنتَ لا تزعجني».

ضحك برونو.

أنهى غاي المكالمة وهو يرتجف.

ظلّت أصداء الصدمة تتردّد في كيانه طوال النهار، متوترة ومؤلمة. في مساء ذلك اليوم اشتاق بقوة إلى رؤية آنْ، اشتاق بشدّة إلى تلك اللحظة التي يلمحها فيها من موقعٍ كان قد وعدَ بانتظارها فيه. لكنّه أراد أيضاً أنْ يحرم

نفسه منها. ومشى مسافة طويلة على طريق ريفرسايد درايف لكي يُرهِق نفسه، ومع ذلك جافاه النوم، وراودته سلسلة من الكوابيس. قال غاي في نفسه: سوف يختلف الوضع بعد توقيع عقد شو، وحالما يباشِر عمله.

في صباح اليوم التالي اتصل به دوغلاس فرير من شركة شو ريالتي كما كان قد وعد. قال صوته الأجشّ البطيء: «سيد هينز، لقد وصلتنا رسالة غاية في الغرابة بشأنك».

«ماذا؟ أي نوع من الرسائل؟».

«بخصوص زوجتك. لم أكن أعلم – هل أقرؤها على مسمعك؟».

«من فضلك».

««إلى مَنْ يهمّه الأمر: لا شك في أنّه يهمّك أنْ تعلم أنَّ غاي دانييل هينز، الذي كانت زوجته قد قُتِلَتْ في شهر حزيران الفائت، له دور في عملية القتل أكبر مما تعرفه المحكمة. هذا الكلام يأتيكم من شخص يعرف، وقريباً سوف تفضح إعادة المُحاكمة دوره الحقيقيّ في الجريمة» – أعتقِد أنها رسالة من شخص مهووس، يا سيد هينز. لقد رأيتُ أنّ عليك أنْ تعلم بأمرها».

«طبعاً». وفي الركن، كان مايرز منكبّاً فوق لوح الرسم بهدوء كعادته في صباح كل يوم من الأسبوع.

«أعتقد أنني سمعت عن –أوه– المأساة في العام الفائت. ليس هناك شك في إعادة المُحاكمة، أليس كذلك؟».

«هذا مستحيل أعني، أنني لم أسمع أي شيء عن هذا». لعنَ غاي اضطرابه. إنَّ السيد فرير حاول فقط أنْ يعرف إنْ كان سيكون بعيداً عن السجن ويتفرّغ للعمل.

«أنا آسف لأننا لم نتّخذ قرارنا بعد بشأن ذلك العقد، سيد هينز».

انتظرتْ شركة شو ريالتي حتى صباح اليوم التالي لتُخبره بأنها لا تجد تصاميمه مُرضية بالقدر الكافي. في الحقيقة، هي مهتمّة بعمل مُهندس معماريّ آخر.

تساءلَ غاي، تُرى كيف عرِفَ برونو بأمر المبنى. ولكن هناك العديد من الأساليب. لعلّه قرأ عنه في الصحف –إنَّ برونو يطّلع دائماً على أخبار

الإنشاءات- أو ربما اتصل برونو به عندما علِمَ أنّه خسر عمله، وحصل على المعلومة مُصادفة من مايرز. ومن جديد نظر غاي إلى مايرز، وتساءلَ إنْ كان قد تحدّثَ مرّة عبر الهاتف مع برونو وبدا الاحتمال مُستبعداً.

والآن بعد أنْ خسر مشروع إنشاء المبنى، بدأ ينظر إليه من منظور ما لا يعنيه. فهو لن يحصل على المبلغ الإضافيّ الذي اتّكلَ عليه في الصيف، ولا على المكانة الاجتماعيّة، مكانته بين عائلة فوكنر. ولم يخطر في باله البتّة -بدافعٍ من ألمه أو لأي سبب آخر- أنّه عانى الإحباط وهو يُشاهدُ إبداعه ينتهي إلى الفشل.

قريباً سوف يُخبر برونو زبونَه التالي، ومن ثم الذي يليه. هذا هو تهديده الذي سوف يُدمِّر مسيرته المهنيّة. وماذا عن حياته مع آنْ؟ فكَّرَ غاي فيها مع ومضٍ من الألم. لقد بدا له أنّه كان ينسى لفترات طويلة أنّه يُحبّها. ثمة أمرٌ يجري بينهما، لا يعرفُ ما هو. شعر بأنَّ برونو يُدمِّر شجاعته على الحب. كان أقلّ الأشياء يُعمِّق إحساسه بالقلق، بدءاً بحقيقة فقدانه أفضل زوج من أحذيته بنسيانه محل الإسكافيّ الذي أخذه إليه ليُصلحه، وحتى منزل ألتون، الذي بدا منذ الآن أنّه كان أكبر من أحلامهما، وأبدى شكَّه في قدرتهما على شغله.

في المكتب، كان مايرز يقوم بعمله الاعتياديّ، يُعدّ وظائف الوكالة، وجهاز هاتف غاي لا يرنّ أبداً. وذات مرَّة قال غاي في نفسه: حتى برونو لم يعُد يتّصل لأنه يريد للوضع أنْ يتفاقم ويتفاقم، بحيث يُصبح صوته مُرحَّباً به عندما يتكلَّم. وشعر غاي بالاشمئزاز من نفسه، فنزل في منتصف النهار لكي يشرب المارتيني في حانة جادّة ماديسون. وكان من المُفترَض أنْ يتناول طعام الغداء مع آنْ، لكنّها اتّصلتْ وألغتْ الموعد، ولم يتذكَّر السبب. لم تبدُ هادئة كثيراً، لكنّها حسبما يتذكّر لم تُعطِ أيّ سببٍ حقيقيّ لامتناعها عن تناول الغداء معه. هي حتماً لم تقُل إنها سوف تشتري شيئاً للمنزل، وإلّا لتذكّر ذلك. أم هل كان سيتذكّر حقاً؟ هل كانت تنتقم لأنه نكثَ بوعده في الحضور على العشاء مع عائلتها في يوم الأحد السابق؟ لقد كان مُرهَقاً ومبتئساً إلى درجة أنّه لم يرغب في رؤية أحد في يوم الأحد السابق. كأنَّ شِجاراً هادئاً، وغير مُعلَن، ينشب بينه وبين آنْ. ومؤخّراً، شعر ببؤسٍ شديد بحيث لم يرغب في فرض نفسه عليها، وهي تظاهرتْ بأنها شديدة الانشغال بحيث لم تتمكّن

من مقابلته عندما طلبَ منها ذلك. كانت منهمكة في التخطيط للمنزل، وفي التشاجر معه. لم يكن لذلك أي معنى. لا شيء في العالم كلّه كان له معنى ما عدا الهروب من برونو. وما سيحدث في قاعة محكمة لن يكون له أي معنى.

أشعلَ سيجارة، ثم لاحظَ أنّه ما زال يُدخّن واحدة. احدودبَ فوق الطاولة السوداء اللامعة، وقام بتدخين الاثنتين معاً. وبدا كأنَّ لذراعيه ويديه اللتين تحملان السيجارتين انعكاساً في مرآة. ماذا يفعل هنا عند الساعة الواحدة والربع بعد الظهر، يزدادُ ثمالة بعد شرب ثالث كأس من المارتيني، ويجعل من نفسه عاجزاً عن أداء عمله، على افتراض أنَّ لديه عملاً؟ غاي هينز الذي يعشق آنْ، الذي أنشأ نادي بالميرا؟ إنّه لا يتمتّع حتى بالشجاعة الكافية ليرمي كأس المارتيني إلى الركن. إنها رمال متحرّكة. ماذا لو غرق بالكامل. ماذا لو أنّه يرتكب جريمة القتل التي طلبها برونو. سوف يكون الأمر غاية في السهولة، حسب قول برونو، عندما يخلو المنزل إلّا من الوالد والساقي، غاي يعرف المنزل بدقّة تفوق معرفته لمنزله الذي في ميتكالف. وفي وسعه أنْ يترك أدلّة ضد برونو، أيضاً، ويترك مسدس اللوغر في الغرفة. أصبحتْ هذه الفكرة نقطة واحدة صلبة. وشدَّ قبضتيّ يديه كأنّه يُطبقهما على عنق برونو، ثم شعر بالخزي من عقم شدّ قبضتيّ يديه أمامه على الطاولة. لا ينبغي أنْ يدع عقله يذهب في ذلك الاتّجاه من جديد. هذا بالضبط ما أراد برونو لعقله أنْ يفعل.

بلّل منديله في كأسٍ من الماء ومسح به وجهه. بدأ جرحٌ ناتج عن حلاقة ذقنه يخزه. نظر إليه في المرآة التي إلى جواره. كان قد بدأ يُدمي، وبدأتْ تظهر علامة حمراء على أحد جانبيّ جرح في ذقنه. ودَّ لو يوجّه لكمة بقبضة يده إلى الذقن البادية في المرآة لكنه استعاد وعيه وذهب لكي يُسدِّد فاتورته.

ولكن لمّا كان قد ذهب إلى هناك من قبل، وجد من السهل على عقله أنْ ينتقل إلى هناك من جديد. في الليالي التي كان النوم يُجافيه، كان يُعيد تمثيل جريمة القتل، وكان ذلك يُهدِّئ أعصابه كأنه جرعة مُخدِّر. لم تكن جريمة قتل بل فصلاً تمثيلياً يؤدّيه لكي يتخلَّص من برونو، ضربة من شفرة السكين سوف تبتر الورم الخبيث. وفي الليل، لا يكون والد برونو شخصاً بل شيئاً، كما كان هو نفسه ليس شخصاً بل قوّة. وممارستها، وترك المسدس الكبير في الغرفة، واتّباع برونو نحو الإدانة والموت، كان تنفيساً.

أرسل برونو إليه مِحفظة نقود من جلد التمساح بزوايا من الذهب تحمل في داخلها الأحرف الأولى من اسمه غ.د.هـ. كانت الملاحظة التي في داخلها تقول: «رأيتُ أنَّ هذا يُشبهك، يا غاي. أرجوك لا تُصعِّب الأمور إنني شديد الإعجاب بك. كعهدي دائماً، برونو». تحرّكتْ ذراع غاي لكي ترمي بها إلى سلّة المهملات في الشارع، ثم دسّها داخل جيبه. كره أنْ يرمي شيئاً جميلاً سوف يفكّر في استخدامٍ آخر لها.

في صباح ذلك النهار نفسه، رفضَ غاي دعوةً لإلقاء خطبةٍ في مناقشةٍ عامة في الإذاعة. لم يكن في حالةٍ تؤهّله للعمل وكان يعلم ذلك. لِمَ يواظب على المجيء إلى المكتب؟ كان سيسعده أنْ يبقى ثملاً طوال النهار، وخاصة طوال الليل. راقبَ يده وهي تُدير البوصلة المطويّة التي على سطح طاولة مكتبه. كان قد أخبره أحدهم ذات مرَّة بأنَّ لديه يدين تُشبهان يديّ راهبٍ كبّوتشي. اسمه تيم أوفلارتي من شيكاغو. وذات مرّة جلسا يأكلان السباغيتي في شقّة تيم تحت الأرضيّة، يتحدثان عن لو كوربوزييه وعن الفصاحة اللفظيّة التي بدا أنّها متأصّلة في المهندسين المِعماريين، وأنها صِفة فِطريّة مُصاحِبة للمهنة، وكيف أنّ هذا لحُسن الحظ، لأنه في العموم على المرء أنْ يتكلَّم بطريقته الخاصّة. لكنَّ هذا كله كان ممكناً حينئذٍ، حتى عندما كانت ميريام تستنزفه، كان ذلك مجرد شجارٍ مُنشِّط صِرف، وشرعيّ مع كل مُصاعبه. أخذ يُدير البوصلة مرة بعد أخرى، ويزلق أصابعه تحتها ويُديرها، إلى أنْ اعتقد أنَّ ضجيجها ربما يُزعج مايرز فتوقّف.

قال مايرز بودّ: «اخرج من الأمر، غاي».

«إنّه ليس شيئاً يمكن الخروج منه بل إمّا أنْ يُنفّذ أو لا ينفّذ»، ردَّ غاي بصوت هادئ تماماً، ومن ثم، لمّا عجز عن التوقّف قال: «لا أريد نصيحة، يا مايرز. شكراً لك».

«اسمع، يا غاي–» نهضَ مايرز واقفاً، مبتسماً، واهناً، هادئاً. لكنّه لم يتجاوز زاوية طاولة المكتب.

تناول غاي معطفه عن عارضة مُجاورة للباب: «أنا آسف فلننسَ الأمر».

«أنا أعرف فحوى المسألة إنه التوتّر الذي يسبق الزفاف. أنا عانيت منه، أيضاً. ما رأيك في أنْ ننزل ونحتسي مشروباً؟».

أثار أسلوب مايرز الوديّ إحساساً خاصّاً بالكرامة لم يعرفه غاي أبداً إلّا عندما واجهه. لم يُطِقِ النظر إلى وجه مايرز الهادئ، الخالي من التعبير، وابتذاله الأنيق. قال: «شكراً لك، ليست لديّ رغبة حقاً في ذلك» وأغلقَ الباب بهدوء خلفه.

الثالث والعشرون

ألقى غاي نظرة أخرى إلى صف الحجارة البنيّة على الجانب المُقابل من الشارع، لقد شاهد برونو حتماً. شعر بوخز ودوار في عينيه، وهما يصارعان الغسق. لقد شاهده *حقاً*، هناك بجوار البوابة الحديديّة السوداء، حيث لم يكن موجوداً. استدار غاي وأسرع يرتقي الدَّرَج. كانت في حوزته بطاقتان لمشاهدة أوبرا لفيردي في تلك الأمسية. سوف تقابله آنْ أمام دار الأوبرا عند الساعة الثامنة والنصف. لم يكن راغباً في رؤية آنْ في تلك الليلة، لم يرغب في مواجهة المرح الذي تتصف به آنْ، ولم يرغب في إرهاق نفسه بادّعائه بشعوره بأنّه أفضل حالاً مما هو عليه فعلاً. كانت قلقة لأنّه لا ينام. هذا لا يعني أنّها تكلّمتْ كثيراً، وهذا لم يزعجه البتّة. وفوق ذلك كلّه، لم يرغب في سماع موسيقى فيردي. ما الذي دفعه إلى شراء بطاقات لسماع فيردي؟ لقد أراد أنْ يفعل شيئاً يسعد آنْ، ولكن في أحسن الأحوال ما كانت ستحبّ ذلك كثيراً، ثم أليستْ فكرة مجنونة أنْ يشتري بطاقات حضور عرضٍ لا يُحبّه أيّ منهما؟.

أعطته السيدة ماكوسلند رقم هاتف كان من المُفترَض أنْ يتصل به. بدا له رقم إحدى قريبات آنْ. وتمنّى أنْ تكون آنْ منشغلة هذه الليلة.

قالتْ آنْ: «غاي، لا أعتقد أنَّ في استطاعتي أنْ أحضر. هناك شخصيتان تريد عمتي جوليا أنْ أقابلهما ولن تحضرا إلّا بعد العشاء».

«لا بأس».

«ولا أستطيع الفرار منها».

«لا بأس على الإطلاق».

«لكنّني آسفة. أتعلم أنني لم أرك منذ يوم السبت؟».

عضَّ غاي على طرف لسانه. إنَّ شعوراً بالنفور من تشبّثها، وقلقها، ومن صوتها الرقيق، الواضح، الذي كان بالنسبة إليه من قبل أشبه بالعِناق - هذا كلّه كشفَ عن أنّه لم يعُد يُحبّها.

«لِمَ لا تأخذ السيدة ماكوسلند معك هذه الليلة؟ أعتقد أنَّ ذلك سيكون لفتة لطيفة منك إنْ فعلت».

«آنْ. إنَّ الأمر لا يهمني على الإطلاق».

«هل وصلك المزيد من الرسائل يا غاي؟».

«كلا». كانت تلك المرَّة الثالثة التي تسأله ذلك السؤال!.

«إنني أحبّك حقاً لا تنسَ هذا، أرجوك».

«لن أنسى، آنْ».

هرع يرتقي الدرج إلى غرفته، وعلَّقَ معطفه واغتسل، ومشّطَ شعره، وفي الحال لم يعد هناك أي شيء آخر يقوم به، ورغبَ في آنْ، رغبَ فيها بشدّة. لِمَ تصرَّف بكل ذلك الجنون إلى درجة أنّه اعتقد أنّه لم يعد يرغب في رؤيتها؟ أخذَ يفتّش جيوبه عن رسالة السيدة ماكوسلند القصيرة المُرفقة برقم الهاتف، ثم هرع يهبط إلى الطابق السفليّ وبحث عنها في الصالة. لقد اختفتْ - وكأنَّ شخصاً ما تعمّدَ سرقتها لكي يُعيقه. أمعنَ النظر من خلال الزجاج المحفور للباب الأماميّ. قال في نفسه: إنه برونو، برونو هو الذي أخذها.

إنَّ آل فوكنر يعرفون رقم عمّتها. سوف يُقابلها، ويقضي الأمسية معها، حتى وإنْ كان ذلك يعني أنْ يقضي الأمسية مع عمّتها جوليا. رنَّ جرس الهاتف في لونغ أيلند، رنّ ورنّ ولم يردّ أحد. حاول من جديد أنْ يتذكّر كنية عمّتها، ولم يتذكَّر.

بدا أنَّ الغرفة ممتلئة بصمتٍ ملموس، مفعم بالترقّب. ألقى نظرة على رفوف الكتب المنخفضة التي أنشأها على طول الجدران، إلى نبات اللبلاب الذي أعطته إياه السيدة ماكوسلند والموضوع على دعامات الجدران، وإلى الكرسي المكسو بنسيج البَلش الأحمر الخالي المُجاور لمصباح القراءة،

وإلى رسمه الأوّليّ باللونين الأسود والأبيض فوق سريره وعنوانه «حديقة حيوان وهميّة» على ستائر رداء الراهب التي كانت تُخفي مطبخه الصغير. تقدَّم بضجر تقريباً وأزاح الستائر جانباً ونظر خلفها. انتابه شعور مُؤكَّد بأنَّ ثمة شخصاً ينتظره في الغرفة، على الرغم من أنّه لم يكن خائفاً أبداً. وأمسكَ بالصحيفة وباشر بالقراءة.

بعد بضع لحظات، كان في إحدى الحانات يشرب كأساً أخرى من المارتيني. فكَّرَ في أنَّ عليه أنْ ينام، حتى وإنْ كان ذلك يعني أنْ يشرب وحده، وهذا ما يبغضه. سار حتى ساحة تايمز، وقصَّ شعره، وفي طريق عودته إلى المنزل اشترى ربع عبوة من الحليب ومجلتيّ فضائح. وبعد أنْ كتب رسالة إلى أمّه، قال في نفسه: إنّه سوف يشرب بعض الحليب، ويقرأ الصحف، ومن ثم يأوي إلى السرير أو قد يعثر على رقم هاتف آنْ على الأرضيّة سقطَ منه حالما دخل لكنّه لم يجد شيئاً.

عند حوالي الساعة الثانية صباحاً، نهضَ من السرير وأخذ يتجول في الغرفة، جائعاً وغير راغبٍ من الأكل. ولكن ذات ليلة في الأسبوع السابق، حسبما يتذكّر، كان قد فتح علبة سردين والتهمها على نصل السكين. كان الليل هو وقت الانجذاب البهيميّ، والاقتراب من النفس. تناول دفتر ملاحظات عن رف الكتب وأخذ يستعرض صفحاته على عجل. كان أول دفتر ملاحظات خاصاً به في نيويورك، بدأه وهو في الثانية والعشرين من العمر. كان يضع رسوماً لا على التعيين -مبنى كرايزلر، عيادة بين ويتني للطب النفسيّ، مراكب كبيرة في نهر إيست ريفر، وعمّالاً ينحنون فوق مثاقِب كهربائيّة تنغرز أفقيّاً في الصخور. كانت هناك سلسلة من صور لأبنية راديو سيتي، مُرفقة بملاحظات حول المساحة، وعلى الصفحة المقابلة المبنى نفسه مع التعديلات التي سيُجريها، أو ربما مبنى جديد بالكامل حسب تصوّره الخاص. أغلقَ الدفتر بسرعة لأنّه كان جيداً، وانتابه الشكّ في استطاعته أنْ يقوم بشيء يُعادله في الجودة الآن. لقد بدا أنَّ مشروعَ نادي بالميرا يمثّل آخر دفقٍ من طاقة شبابه السخيّة، والسعيدة. قبضَ النشيجُ المكبوت على صدره مع ألم مألوف ومُمرِض- مألوف منذ السنوات التي تلت غياي ميريام. استلقى على سريره لكي يمنع النشيج التالي.

استيقظ غاي على حضور برونو في الظلام، على الرغم من أنّه لم يسمع شيئاً. وبعد الإجفال القصير الأوليّ جرّاء الفُجاءة، لم يشعر بأيّ قدر من المفاجأة. وكما تخيَّلَ، في ليالٍ سابقةٍ لتلك، فرِحَ كثيراً بحضور برونو. أهو برونو *حقاً*؟ نعم. عندئذٍ شاهد غاي طرف سيجارته، هناك بجوار الطاولة.

«برونو؟».

قال برونو بهدوء: «مرحباً دخلتُ بالمفتاح الإضافيّ. هل أنتَ مُستعد الآن؟» بدا برونو من صوته هادئاً ومُتعباً.

رفعَ غاي نفسه باتّكائه على مِرفقه. طبعاً كان برونو موجوداً. والطرف ذو اللون البرتقالي لسيجارته كان موجوداً. قال غاي: «نعم»، وشعر بالظلام يبتلع كلمة نعم، ليس كما حدث في الليالي الأخرى عندما كانت كلمة نعم صامتة، بل لا تخرج منه. لقد حلَّتْ العقدةَ التي في رأسه فجأة بدرجة مؤلمة. إنها ما كان ينتظر أنْ يقول، وما كان الصمتُ الذي ران على الغرفة ينتظر أنْ يسمعه. والوحوش الكامنة خلف الجدران.

جلس برونو على طرف السرير وقبَضَ على كلا ساعديه من فوق المِرفقين. «غاي، لن أراك بعد الآن».

«كلا». فاحتْ من برونو رائحة قوية من السجائر وكريم الشَّعر، وحموضة المشروب، لكنَّ غاي لم ينفر منه. كان رأسه لا يزال في حالة الانفكاك اللذيذة.

قال برونو: «لقد حاولتُ أنْ أكون لطيفاً معه خلال اليومين الأخيرين. كلا ليس لطيفاً، بل مُهذّباً. لقد قال هذه الليلة شيئاً لأمي، قُبيل خروجنا».

قال غاي: «لا أريد أنْ أسمع ما قال!». ومنع برونو من المتابعة مرات عِدَّة لأنه لم يرد أنْ يعرف ما قاله والده، ولا كيف كان مظهره، ولا أيّ شيء عنه.

خيَّم الصمتُ على كليهما بضع لحظات، بالنسبة إلى غاي لأنه لا يريد أنْ يشرح، وبالنسبة إلى برونو لأنّه أُجبِرَ على الصمت.

تنشّقَ برونو بضجيج مُقرِف. «غداً سوف نذهب إلى ولاية مين، وسوف ننطلق حتماً عند الظهيرة أمي وأنا والسائق وليلة الغد سوف تكون ليلة جيدة ولكن كل ليلة ما عدا ليلة الخميس هي كذلك. وأي وقت بعد الساعة الحادية عشرة...».

وتابع الكلام، مُكرِّراً ما كان غاي يعرفه أصلاً، ولم يعمل غاي على إسكاته، لأنه كان يعلم أنّه سوف يلج المنزل وسوف يتمّ كل شيء.

«لقد كسرتُ قفل الباب الخلفيّ قبل يومَين، ضربته بمطرقة عندما كنتُ ثملاً. ولن يُصلحونه، لأنهم شديدو الانشغال. ولكن إذا فعلوا -»، وسلَّم مفتاحاً ليد غاي. «واشتريتُ لك هذا».

«ما هذا؟».

«قفّاز، قفّاز نسائيّ، لكنّه يمطّ». ضحك برونو.

تحسَّسَ غاي القفّاز القطنيّ الرقيق.

«وأحضرتَ المسدس، أليس كذلك؟ أين هو؟».

«إنّه في قعر الدرج».

سمعه غاي يرتطم بالخزانة وسمع الدرج يُفتَح. قعقعتْ مظلة المصباح، وسطعَ الضوءُ، كان برونو واقفاً هناك ضخماً وطويلاً ويرتدي معطفاً جديداً من وبر الجمل شاحباً إلى درجة البياض، ويلبس بنطلوناً أسود مُخطّطاً بخطوط بيضاء رفيعة. ويُحيط عنقه وِشاحٌ من الحرير الأبيض. تفحّصه غاي بدءاً بحذائه الصغير البنّيّ وحتى شعره المدهون بالزيت، وكأنَّ في إمكانه أنْ يكتشف من مظهره الخارجيّ سبب تبدّل مشاعره، أو حتى فحوى مشاعره. إنها المألوف وشيء أكثر، شيء يتَّسِم بالمشاعر الأخويّة. ضغط برونو على مفتاح الأمان في المسدس واستدار نحوه. كان تعبير وجهه أكثر جديّة مما رآه غاي آخر مرَّة، متورّداً وأكثر حيويّة مما تذكَّرَ أنّه كان من قبل. بدتْ عيناه الرماديتان أوسع مع دموعه وتميل إلى اللون الذهبيّ. نظر إلى غاي وكأنّه يحاول أنْ يعثر على الكلمات، أو كأنّه يُناشِد غاي أنْ يبحث عنها معه. ثم بلَّلَ شفتيه الرقيقتين المنفرجتين، وهزَّ رأسه، ومدَّ يده نحو المصباح وانطفأ الضوء.

بعد أنْ رحل، لم يبدُ أنّه رحل. لم يكن في سكون الغرفة غيرهما، والنوم.

***

عندما استيقظَ غاي كان ضوءٌ رماديّ مُبهِر يملأ الغرفة. كانت الساعة تشير

إلى الثالثة وخمس وعشرين دقيقة. وتخيّل أكثر مما تذكّر أنّه كان قد نهضَ لكي يقترب من جهاز الهاتف في صباح ذلك اليوم، وأنَّ مايرز اتّصل لكي يسأل عن سبب عدم مجيئه إلى المكتب، وأنّه قال إنّه لا يشعر بأنّه على ما يُرام. فليذهب مايرز إلى الشيطان. تمدَّد هناك يرمش بعينيه لكي يُبدِّد كسله، ويدعه يغوصُ داخل الجزء المُفكِّر من عقله في العمل الذي ينوي أنْ يقوم به، وبعد هذه الليلة سيكون كل شيء قد انتهى. ثم نهضَ وأخذ يقوم ببطء بأعماله الروتينيّة من حلاقة الذقن، وأخذ الدشّ، وارتداء الملابس، مُدرِكاً أنَّ لا شيء مما قام به له أيّة أهميّة حتى حلول الساعة ما بين الحادية عشرة ومنتصف الليل، الساعة التي لا يوجد عندها إسراعٌ ولا تأخّر، وأنها سوف تحلّ كما يجب أنْ يحصل. وشعر بأنّه يتحرَّك الآن على طول مسارات مُعيَّنة، وأنّه ما كان يستطيع أنْ يمنع نفسه عن القيام بذلك أو أنْ ينحرف عنه إذا شاء.

وسط تناوله وجبة إفطاره المتأخّرة في مقهى في الشارع، مسّه إحساسٌ غريب بأنّه في آخر مرّة شاهد آنْ أخبرها كل شيء عمّا يعزم القيام به، وأنها أصغتْ إليه بكل هدوء، لعِلمها بأنها يجب أنْ تصغي إكراماً له، لأنَّ عليه أنْ يقوم بما عليه أنْ يقوم به. بدا شيئاً طبيعيّاً جداً ولا مناص منه، وشعر بأنَّ كل شخص في العالم يجب أنْ يعلم بالأمر، الرجل الجالس إلى جواره يأكل لا يلوي على شيء، والسيدة ماكوسلند، التي تكنس أرض رواق منزلها في أثناء خروجه، والتي ابتسمتْ له ابتسامة شديدة الحنوّ وسألته إنْ كان يشعر بصحة جيدة. وأعلنت الروزنامة اليوميّة المُعلّقة على جدار المقهى عن يوم الجمعة الثاني عشر من شهر آذار. حدَّقَ غاي إليها برهة، ثم أنهى تناول وجبته.

أراد أنْ يستمر في التقدُّم. ومع بلوغه جادة ماديسون، ومن ثم الجادّة الخامسة وحتى آخر سنترال بارك سيراً على الأقدام، وإلى غرب سنترال بارك حتى محطة بنسلفانيا، كان قد قرَّر أنّه حان الوقت لركوب القطار إلى غريت نيك. وبدأ يفكّر في مسار تحرّكه لتلك الليلة، لكنّه أثار فيه الملل كأنّه مادة في المدرسة درسها وأعاد درسها مرّاتٍ عديدة، وتوقّف. وجد الآن في مقاييس الضغط الجويّ النحاسيّة المُعلَّقة في واجهة في جادّة ماديسون جاذبيّةً خاصّة، وكأنّه مُقبل على قضاء فترة عطلة ويمتلك تلك المقاييس ويلهو بها. وقال في نفسه: إنَّ مركب آنْ الشراعيّ يضم مقياس ضغط أنيقاً

كأي مقياس آخر، وإلّا كان لاحظ ذلك. يجب أنْ يحصل على أحدها قبل أنْ يُبحرا جنوباً في رحلة شهر عسلهما. وفكّرَ في حبّه، كأنّه شيء نفيس. كان قد وصل إلى أقصى شمال سنترال بارك، عندما تذكّر أنّه لم يُحضِر المُسدّس معه أو القفّاز. وكانت الساعة قد بلغت الثامنة. يا لها من بداية حمقاء! ونادى على سيارة أجرة وطلبَ من السائق أنْ يُسرِع ويعود به إلى المنزل.

ولكن كان هناك متّسعٌ من الوقت، إلى درجة أنّه راح يتجول قليلاً في غرفته بشرود. هل ينبغي أنْ ينتعل حذاءً ذا نعل من قماش الكريب؟ هل يعتمر قبعة؟ وأخرج مسدس اللوغر من قعر الدرج ووضعه على طاولة المكتب. كانت هناك خطّة واحدة وضعها برونو تحت المُسدس ففتحها، ولكن سرعان ما بدت كل كلمة فيها مألوفة جداً، فرماها إلى سلّة المهملات. ومن جديد جعل الزخم تحرّكاته أكثر سلاسة. وأحضر القفّاز القطنيّ الأرجوانيّ من الطاولة المُجاورة لسريره. فسقطتْ منه بطاقة صغيرة صفراء اللون. كانت بطاقة ركوب القطار في غريت نيك.

حدَّقَ إلى مسدس اللوغر الأسود الذي فوجئ أكثر من قبل بأنّه ضخم بصورة شنيعة. كم هو أحمق *الذي صنع* مثل ذلك المسدس الكبير! وأخرج مسدسه الخاص الصغير من الدرج العُلويّ. لمعَ مقبضُه ذو لون اللؤلؤ بجمالٍ متحفّظ. بدت أسطوانته النحيلة والقصيرة فضوليّة، راغبة في العمل، وقويّة قوة شهمة متحفّظة. ومع ذلك، لا ينبغي أنْ ينسى أنّه سوف يترك المُسدس الكبير في غرفة النوم، لأنه مسدّس برونو. ولكن لا يبدو الآن أنَّ الأمر يستحق العناء، أيْ أنْ يحملَ المسدس الثقيل لهذا السبب فقط. إنّه لم يعد الآن يكنّ حقّاً أي عداء لبرونو، وهذا هو الأمر الغريب.

اضطرب تماماً برهة من الزمن. طبعاً يجب أنْ تأخذ المسدس الكبير، لأنّه جزء من الخطّة! ووضع المُسدس في جيب المعطف. امتدتْ يده لتتناول القفّاز عن الطاولة. كان القفّاز أرجوانيّ اللون والكيس القماشيّ الذي يضم المُسدس كان بلون الخُزامى. وفجأة بدا من المناسب أنْ يأخذ المُسدس الصغير، بسبب تشابه الألوان، فأعاد المُسدس الكبير إلى قعر الدرج ووضع المسدس الصغير في جيبه. ولم يتبيَّنْ إنْ كان هناك أي شيء يجب القيام به، لأنَّ في استطاعته ببساطة أنْ يشعر، بعد أنْ راجع خطّة برونو مرات عديدة،

بأنّه نفَذَ كل شيء. وأخيراً أحضر كوباً من الماء وصبّه فوق اللبلاب الذي على دعامات الجدار. قال في نفسه: ربما يستطيع شرب فنجان من القهوة أنْ يجعله يقظاً. سوف يحصل على فنجان في محطة غريت نيك.

في لحظة معيَّنة وهو في القطار، ارتطم أحدهم بكتفه، فاضطربتْ أعصابه إلى درجة أنّه اعتقد أنَّ أمراً يجب أنْ يقع، وتدفّقَ سيلٌ من الكلمات في ذهنه، وكاد يصل إلى لسانه: *إنَّ الذي في جيبي ليس مُسدّساً حقاً. أنا لم أفكّر فيه كمُسدس. أنا لم أشتره لأنه مُسدس.* وفي الحال شعر بارتياح، لأنّه علِمَ أنّه سوف يستخدمه في القتل. إنه يُشبه برونو. ألم يشعر بذلك مراراً وتكراراً، ولم يعترف به كأي جبان؟ ألم يعلم أنَّ برونو يُشبهه؟ وإلّا لماذا أثار برونو إعجابه؟ لقد أحبَّ برونو. لقد أعدَّ برونو كلّ شيء بدقةٍ لأجله، وسوف يسير كل شيء على أحسن ما يرام لأنَّ كل شيء بالنسبة إلى برونو يسير دائماً على أكمل وجه. إنَّ العالم مُصمَّم من أجل أناسٍ كبرونو.

عندما ترجّلَ من القطار، كان المطر يهطل رذاذاً وسط ضبابٍ رقيق، وليس له اتّجاه. سار غاي مباشرة نحو صفّ من الحافلات كان برونو قد وصفها له. كان الهواء المُتدفِّق من النافذة أشدّ برودة من هواء نيويورك، ومنعشاً في الريف المنفتح. تحرّكتْ الحافلة مُغادرة مركز التجمّع المُضاء إلى الطريق الأشدّ ظلمة والذي تصطفّ المنازل على طول جانبيه. وتذكّر أنّه لم يتوقف في المحطة ليشرب القهوة وتسبّب له إلغاء القهوة بحالة من التوتّر كادتْ تدفعه إلى القفز من الحافلة والعودة ليشربها. يمكن لفنجان من القهوة أنْ يُشكّل الفرق كلّه. نعم، حياته! ولكن في موقف غراند ستريت، نهضَ واقفاً بحركة آليّة، وعاد الشعور بأنّه يتحرّك على امتداد مسارات راسخة يبثّ فيه الارتياح.

كانت خطوته تُصدر ضجيجاً رطباً ومطّاطيّاً على الطريق القذرة. وأمامه، هرعتْ فتاة ترتقي بضع دَرَجات، على طول ممشى أماميّ، وأصدر الباب الذي انغلقَ خلفها صوتاً هادئاً وأليفاً. كانت هناك رقعة أرض خالية لا توجد فيها إلّا شجرة واحدة، وعلى الطرف القصي الأيسر، كان هناك الظلام والغابة. وكانت تُحيط أضواء الشارع التي وزّعها برونو على أرجاء الخريطة هالة ذهبيّة وزرقاء زيتيّة. اقتربت سيارة ببطء، أضواؤها الأماميّة تدوران كأنهما عينان شرستان بسبب مطبّات الطريق، وتجاوزته.

فجأة وصل إلى المكان، وكأنَّ سِتارة أُزيحت لتكشف عن مشهد مسرحيّ يعرفه مُسبقاً: جدار طويل بارتفاع سبعة أقدام من الجصّ الأبيض في المقدّمة، تُعتِمه هنا وهناك شجرة كرز تُخيِّمُ عليه، وبعده سطحُ منزلٍ مُثلَّث الشكل أبيض اللون، ثم وجار كلب اجتاز الشارع. ومن آخر الشارع تناهى إلى سمعه صرير خطوات بطيئة. انتظر مُستنداً على الجانب الشماليّ الأكثر ظلمة من الجدار إلى أنْ ظهر شخص. كان رجل شرطة، يتمشّى واضعاً يديه مع العصا خلف ظهره. لم يشعر غاي بأي خوف، وقال في نفسه، بل أقلّ مما يشعر به لو أنَّ الرجل لم يكن شرطيّاً. وبعد أنْ تجاوزه الشرطيّ تمشّى غاي خمس عشرة خطوة بمُحاذاة الجدار، ثم قفز وتمسّكَ بالطنف الممتد على طول القمة، وزحفَ حتى ركبه وتحته مباشرة تقريباً، شاهد الشكل الشاحب لصندوق الحليب الذي كان برونو قد قال إنه رماه بالقرب من الجدار. وانحنى ليُمعن النظر من بين أغصان شجرة الكرز إلى المنزل. استطاع أنْ يتبيّن نافذتين من بين خمس نوافذ كبيرة في الطابق الأول، وجزءاً من مستطيل بِركة السباحة بارزاً باتجاهه. كانت الأنوار مُطفأة وقفز هابطاً.

هنا بدأ يتبيَّن في الخلفيّة أول الست درجات البيضاء من جانبها، والحواف المُهذَّبة المُبهمة لأشجار القرانيا الخالية من الأزهار التي تكتنف المنزل كلّه. وكما كان قد توقّع من رسومات برونو، كان المنزل صغيراً جداً بالمقارنة مع قِبابه المزدوجة العشر، التي بدا جليّاً أنها أُنشئتْ لأنَّ الزبون أراد قِباباً لا أكثر ولا أقلّ. وتابع التقدُّم على طول الجانب الداخليّ من الجدار إلى أنْ بدأ تقصّف الأغصان الصغيرة يُخيفه. كان برونو قد قال: ***تجاوزْ أرض المرج بزاوية منحرفة***، والسبب في ذلك وجود الأغصان الصغيرة.

عندما تحرّك باتجاه المنزل، نزع أحد الأغصان الكبيرة القبعة عن رأسه. حشر القبعة داخل الجزء الأمامي من معطفه، ثم أعاد يده إلى جيبه حيث يوجد المفتاح. متى لبس القفّاز؟ أخذَ نَفَساً وعبر المرج بخطوة تتراوح بين الركض والمشي، خفيفة وسريعة كخطوة قطّة. قال في نفسه: لقد سبقَ أنْ قمتُ بهذا مرّات عديدة، وهذه فقط واحدة من تلك المرّات. تردّدَ عند حافة العشب، وألقى نظرة على المرآب المألوف الذي كان دربُ الحصّى ينعطف عنده، ثم ارتقى الدَّرَجات الست الخلفيّة. فُتِحَ الباب الخلفيّ، ثقيلاً وسهلاً،

وأمسك بالمقبض على الجانب الآخر. لكنَّ الباب الثاني ذا قفل ييل قاومَ، وسرى فيه دفقٌ يُشبه الحَرَج قبل أنْ يدفع بقوة أكبر حتى استسلم. سمع تكّات ساعة على طاولة المطبخ إلى يساره. كان يعلم أنّها طاولة، على الرغم من أنّه لم ير غير الظلام مع أشكالِ أشياء أقلّ سواداً، المدفأة البيضاء الكبيرة، والطاولة والكراسي الخاصة بالخدم التي تُرِكَتْ، والخزانات. تحرّك بشكلٍ منحرف نحو الدّرَج الخلفيّ، مُحصِياً خطواته. *كان يمكن أنْ أطلب منك أنْ تستخدم الدَرَج الرئيسيّ لكنَّ الدرج كلّه يُصدر صريراً.* مشى ببطء وبلا إثارة أي جلبة، فاتحاً عينيه واسعاً، متجنّباً حاويات قمامة الخضروات التي لم يرها فعلاً. بثّتْ فكرة مُفاجئة مفادها أنَّ عليه أنْ يُشبه سائراً في نومه مجنوناً رعشةَ رعب.

أولاً اثنتا عشرة دَرَجة، ثم الغِ سبعاً. ثم مطلعين صغيرين من الدرج بعد المنعطف.... الغِ أربعاً، الغِ ثلاثاً، ثم ارتقِ بخطى واسعة إلى القمّة. تستطيع أنْ تحفظها، إنها تتسِم بإيقاع موجز. ألغى الدَّرجَة الرابعة في المطلع الأول القصير. كانت هناك نافذة مستديرة عند المنعطف قبل المطلع الأخير. وتذكّر غاي مقطعاً من مقالةٍ ما، *كما يُبنى منزل ما كذلك يُبنى نمط النشاط الذي سيمارسه ساكنوه... هل ينبغي على الطفل أنْ يقف عند النافذة ويطلّ على المشهد قبل أنْ يرتقي خمسَ عشرة دَرَجة نحو غرفة اللعب؟* على مسافة عشرة أقدام أمامه إلى اليسار توجد غرفة رئيس الخدم. قال برونو بنبرة صوتٍ متصاعدة وهو يتجاوز عمود الباب المُظلِم: *تلك هي المسافة الأقصر التي تقترب بها من أي شخص.*

أصدرتْ الأرضيّة أنينَ شكوى واهناً جداً، تراجع غاي بحركة مرنة، وانتظر، ثم دار حول البقعة. أطبقَتْ يده برهافة على مقبض باب الصالة. وبينما هو يفتحه، أصبح تكّ ساعة الجدار عند منبَسَط الدَّرَج الرئيس أكثر وضوحاً، وأدركَ أنّه يسمعه منذ بضع لحظات. وسمع تنهّداً.

تنهّد على الدرج الرئيسيّ!.

وضجَّ الرنين وقعقع مقبض الباب فشدَّ عليه بقوة كافية لكسره، حسب اعتقاده. *ثلاثة. أربعة.* أغلق الباب قبل أنْ يسمعه كبير الخدم! ألهذا السبب

قال برونو ما بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل؟ لعنه الله! والآن المُسدس الكبير ليس في حوزته! أغلقَ غاي الباب مع ارتجاج. وبينما كان يتصبّب بالعرق، شاعراً بالحرارة ترتفع منبعثة من ياقة معطفه إلى وجهه، استمرَّتْ الساعة تدقّ وتدقّ. ثم كانت الدقّة الأخيرة.

ثم أصغى، ولم يتبقَّ غير *التيك – توك* الأصمّ والأعمى من جديد، وفتح الباب ودخل إلى الصالة الرئيسة. ***باب غرفة والدي يقع إلى اليمين مباشرة.*** ومن جديد ظهرت آثار الأقدام تحته. لا شك في أنّه مشى هناك من قبل، نحو الصالة الخالية بحيث شعر وهو يُحدّق إلى باب غرفة والد برونو، ذات السجادة الرماديّة، والجدران المكسوّة بألواح الخشب بلون القشدة، والطاولة ذات السطح الرخاميّ عن أعلى الدَّرَج. كانت للصالة رائحة مميَزة وحتى تلك الرائحة كانت مألوفة. تصاعدَ إحساس بدغدغة حادّة إلى صِدغيه. وفجأة تيقّنَ من أنَّ الرجل العجوز كان يقفُ على الجانب المقابل من الباب، حابساً أنفاسه كما يفعل هو، وينتظره. أطال غاي حبس أنفاسه بحيث لو فعل العجوز مثله لمات. هراء! افتح الباب!.

أمسك مقبض الباب بيده اليُسرى، أما اليُمنى فتحرّكتْ آليّاً نحو المسدس الذي في جيبه. وشعر كأنّه آلة، خارج الإحساس بالخطر أو الأذى. لقد جاء إلى هنا مرات عديدة جداً، وقتله مرّات عديدة من قبل، وكانت تلك هي مرّة واحدة من تلك المرّات. حدَّقَ إلى الشقّ الذي في الباب الذي يبلغ اتّساعه بوصة، شاعراً بمساحةٍ لا متناهية تتَّسع خلف الأفق، منتظراً ريثما يتلاشى إحساسٌ بالدوار. لنفرض أنّه لم يره بعد أنْ أصبحَ في الداخل؟ لنفرض أنَّ العجوز رآه أولاً؟ ***إنّ ضوء الليل في الشرفة الخارجيّة يُضيء قليلاً الغرفة،*** لكنَّ السرير موجود في الركن المقابل. فتح الباب أكثر، وأصغى، وخطا بسرعة كبيرة إلى الداخل. لكن السكون كان يشمل الغرفة، والسرير يبدو كشيءٍ غامض وكبير في الزاوية المُظلِمة، مع شريط أكثر ضياءً عند موقع الرأس. أغلقَ الباب، ***قد تعصِف الريح بالباب،*** ثم واجه الركن.

كان المُسدس في يده أصلاً، مُسدَّداً إلى السرير الذي بدا خالياً مهما أمعنَ النظر إليه.

ألقى نظرة على النافذة التي تقع فوق كتفه الأيمن. كانت مفتوحة فقط بمقدار قَدَم، وكان برونو قد قال إنها سوف تكون مفتوحة *على مصراعيها*. والسبب هو الرذاذ. تجهَّم في وجه السرير، ومن ثم بفورة إثارة هائلة تبيَّنَ شكل رأس مُستلقٍ في موقع أقرب إلى جانب الجدار، مائلاً قليلاً إلى الجانب وكأنّه ينظر إليه بما يُشبه الاحتقار المرح. كان الوجه أشدّ سواداً من الشَّعر المُمتزِج مع الوسادة، والمُسدّس ينظر إليه مباشرة كما ينظر هو.

يجب إطلاق النار على الصدر، نظر المُسدّسُ طائعاً إلى الصدر. اقتربَ غاي أكثر من السرير ونظر من جديد إلى النافذة التي خلفه لم يسمع تنفّساً. يكاد المرء يعتقد أنّه ليس حيّاً. هذا ما طلبَ من نفسه أنْ يعتقد، أنّ الشكل كان مجرَّد دريئة وذلك لأنه لم يكن يعرف الدريئة، كان الأمر أشبه بالقتل في أثناء الحرب الآن؟

صدر عن النافذة «ها –ها– ها – ا!».

ارتجفَ غاي وارتجفَ المُسدس.

جاء الضحك من مسافة بعيدة، ضحك فتاة، بعيد لكنّه واضح ومُباشَر كطلقٍ ناريّ. بلَّل غاي شفتيه. جرفتْ حيويّة الضحكة برهةً المشهدَ كلّه، ولم يترك أي شيء مكانه، والآن أخذ الفراغ يملأ ببطء المكان وهو واقف هناك يهمّ بالقتل. حدث ذلك خلال نبضة قلب حياة الفتاة الشابة تمشي في الشارع مع شابٍ، ربما. والعجوز نائم في السرير، حيّ. *كلا، لا تفكّر! إنكَ تفعل هذا من أجل آنْ، ألا تتذكّر؟ من أجل آنْ ومن أجل نفسك! الأمر أشبه بالقتل في أثناء الحرب، أشبه بالقتل.*

ضغط على الزناد لم يصدر غير تكّة واحدة. ضغط مرة أخرى فأصدر تكّة. كانت خدعة! كل شيء زائف ولا وجود له! ولا حتى وقوفه هناك! وضغط على الزناد من جديد.

مزّقَ هديرٌ جوَّ الغرفة، توتّرتْ أصابعه من شدة الرعب. وتعالى الهدير من جديد، وكأنَّ القشرة الأرضيّة انفلَقَتْ.

قال الشكل الرابض على السرير «كاغ!». تحرَّك الوجه الرماديّ إلى أعلى، مُظهِراً حدود خط الرأس والكتفين.

كان غاي على سطح الشرفة الخارجيّة، يسقط. أيقظه الإحساس كأنّه سقوط في نهاية كابوس. وكالمعجزة سقط أحد أطراف المظلّة على إحدى يديه، وسقطَ إلى أسفل من جديد، على اليدين والرُّكبتين. قفز عن حافة الشرفة الخارجيّة، وركضَ على طول جانب المنزل، ومن ثم قطع أرض المرج مباشرة، وتوجّه إلى المكان الذي يوجد فيه صندوق الحليب. واستيقظ على الأرض التي تُصدر القعقعة، وعلى عجز ذراعيه المُرتطمتين اللتين حاولتا أنْ تُسرّعا سباقه مع المرج. قال في نفسه، هكذا الشعور بها، هكذا هي - *الحياة*، كالضحك في الطابق العلويّ. الحقيقة هي أنّها أشبه بالكابوس عندما يكون المرء مشلولاً، في مواجهة كل شيء مستحيل.

هتف صوت «هيه!».

كان رئيس الخدم يُلاحقه، تماماً كما توقَّع. شعر بأنَّ كبير الخدم خلفه مباشرة الكابوس!.

«هيه! هيه! يا هذا!».

التفتَ غاي تحت أشجار الكرز ووقفَ رافعاً قبضة يده. لم يكن رئيس الخدم خلفه مباشرة. كان بعيداً عنه بمسافة طويلة، لكنّه رآه. الشكل الذي يركض بجنون مرتدياً بيجامة بيضاء يتلوّى كدخان يتصاعد، ثم انعطفَ نحوه. وقف غاي، مشلولاً، منتظراً.

«هيه!».

سدَّد غاي قبضة يده نحو الذقن المقتربة، فانهار الغضب الأبيض.

قفز غاي نحو الجدار،

انتشر الظلام أكثر فأكثر من حوله، تجنّبَ شجرة صغيرة، وقفز فوق ما بدا أنّه خندق، وتابع الركض. وفجأة أصبح منبطحاً على وجهه والألم ينتشر من منتصفه وفي كل الاتجاهات، مُثبّتاً إياه على الأرض. ارتجفَ جسمه بعنف، ورأى أنَّ عليه أنْ يُلملمَ زخم الارتجاف ويستخدمه في الركض، وأنَّ هذا ليس على الإطلاق المكان الذي طلب برونو منه أنْ يذهب إليه، لكنّه لم يتمكّن من التحرّك. ***يجب أنْ تسير على دربٍ ضيِّق وقذر (بلا أضواء) باتجاه الشرق قبالة نيوهوب جنوب المنزل وتتابع طريقك عبر شارعين أكبر***

نحو شارع كولومبيا وتسير جنوباً (إلى اليمين)... إلى خط حافلات يذهب إلى محطة قطار أخرى. سهلٌ جداً على برونو أنْ يُدوِّن تعليماته اللعينة على ورقة. لعنه الله! أصبح يعرف الآن أين هو، إنّه في الحقل إلى الغرب من المنزل الذي لم يُذكَر في أي من الخطط أنّه يجب استخدامه! نظر خلفه. أين تقع جهة الشمال؟ ماذا حدث لضوء الشارع؟ ربما لن يتمكّن من العثور على الدرب الضيق في الظلام. لم يعرف إنْ كان المنزل يقع خلفه أم إلى يساره. ونبضَ ألمٌ غامض على طول ساعده الأيمن، كان حادّاً إلى درجة أنّه اعتقد أنّه يمكن أنْ يتوهَّج في الظلام.

شعرَ كأنّه تمزَّقَ إرباً بفعل انفجار طلقة المسدس، وبأنّه لن يتمكّن من استجماع طاقته للتحرّك من جديد، وبأنّه لا يأبه البتّة. وتذكّرَ أنّه كان قد تلقّى ضربة على رأسه في أثناء مباراة بكرة القدم في المدرسة الثانوية، عندما انبطح هكذا، عاجزاً ومتألِّماً. تذكّر وجبة العشاء، وجبة العشاء وزجاجة المياه الحارة التي جلبتها أمّه له في السرير، ولمسَ يديها وهي تُعدِّل من وضع الأغطية تحت ذقنه. كانت يده المرتجفة تحفّ بخشونة على الصخرة نصف المدفونة. عضَّ على شفته واستمر في التفكير الأبله، كما يفكّر المرء وهو نصف يقِظ في صباحٍ مُرهَق، في أنَّ عليه أنْ ينهض في اللحظة التالية على الرغم من الألم لأنّه ليس في وضعٍ آمن. كان لا يزال شديد القُرب من المنزل. وفجأة زحفتْ ذراعاه وساقاه من تحته وكأنَّ عِلم السكون حشد شحنة أُطلِقَتْ بسرعة، وعاد إلى الركض من جديد عبر الحقل.

سمعَ صوتاً غريباً دفعه إلى التوقّف - أنيناً موسيقيّاً منخفضاً كأنّه يصدر من الجهات كلّها.

إنها صفارات إنذار الشرطة، طبعاً. وكالأبله، اعتقدَ أولاً أنّها طائرة! تابع الركض، عالِماً أنّه فقط يركضٍ بلا هدى مُبتعداً مباشرة عن صفّارات الإنذار التي أضحتْ الآن خلفه، وأنَّ عليه أنْ ينعطف بسرعة يساراً لكي يعثر على الدرب الضيق. لا بدّ أنّه ركضَ بعيداً جداً عن الجدار الطويل المطليّ بالجص. بدأ يتّجه يساراً لكي يجتاز الطريق الرئيسيّة التي تقع حتماً في ذلك الاتّجاه، وإذا به يُدرك أنَّ صفارات الإنذار قادمة على الطريق. أو عليه أنْ ينتظر - لا يستطيع أنْ ينتظر. واستأنف الركض، بموازاة السيارات. ثم

قبضَ شيءٌ على قَدَمَه، فسبَّ، ووقع من جديد. تمدَّد داخل ما يشبه الخندق وذراعـاه ممدودتان، اليُمنى منثنيّة على أرضٍ مرتفعة. أثار الإحساس بالإحباط جنونه حتى دفعه إلى النشيج النكد. وانتاب يده اليُسرى إحساسٌ غريب. كانت مغموسة في الماء حتى الرسغ. قال في نفسه: سوف تتبلَّل ساعة يدي. ولكنْ كلما نوى أنْ يُخرِجها، استحال عليه أكثر تحريكها. شعر بقوّتين، واحدة تُحرِّك الذراع وأخرى ترفض ذلك، متوازنتين بصورة مثاليّة بحيث إنَّ حتى ذراعه لم تتوتّر. شيء لا يُصدَّق، يشعر الآنْ بأنّه يُكاد يستغرق في النوم. فجأة قال في نفسه: ***سوف يُحيط رجال الشرطة بي***، ونهضَ من جديد، وباشر الركض.

في مكان قريب إلى يمينه، زعقت صفّارة إنذار بانتصار وكأنّها عثرتْ عليه.

برز أمامه فجأة خيال مستطيل من الضوء، فاستدار وفرَّ منه. ثمة نافذة. كاد يرتطم بمنزل. لقد استيقظ العالم بأسره! وبات ***عليه*** أنْ يجتاز الشارع!.

تجاوزته سيارة الشرطة بمسافة ثلاثين قَدَماً على الطريق، مع ومضٍ من الأضواء الأماميّة وصله من خلال الشجيرات. أنَّت صفّارة إنذار أخرى إلى يساره، حيث ينبغي أنْ يوجد المنزل، وأخذ يتلاشى حتى صمتَ. اجتاز غاي الشارع منحنياً ليس بعيداً خلف السيارة وولجَ أعمق داخل الظلام. أينما كانت الطريق الضيِّقة الآن، يمكنه أنْ يركض بعيداً عن المنزل في هذا الاتّجاه. ***هناك ما يُشبه الغابة غير المُضاءة في كل اتجاه إلى الجنوب، من السهل الاختباء فيها إذا اضطررتَ إلى الابتعاد عن الدرب الضيق... لا تحاول أنْ تتخلَّص من مسدس لوغر مهما يحدث في المسافة بين منزلي ومحطة السكة الحديد.*** تحرّكتْ يده إلى جيبه وتحسّس برودة المسدس الصغير من خلال الثقوب التي في قفّازه. لم يتذكَّر أنّه أعاد المُسدس إلى جيبه. على أي حال ربما كان موضوعاً على السجادة الزرقاء! وماذا لو أنّه سقطَ منه؟ يا له من توقيت مناسب للتفكير في هذا!.

ثمة شيء أمسك به وأعاقه، كافح بحركة آليّة بقبضتيّ يديه، واكتشفَ أنها الشجيرات، والأغصان الصغيرة وجذور الخلنج، وظلَّ يُكافح بجسده ويندفع بقوة خلالها، لأنَّ صفارات الإنذار كانت لا تزال خلفه وهذه هي

الجهة الوحيدة التي يستطيع أنْ ينطلق نحوها. ركَّز انتباهه على العدوّ الذي يتقدّمه، ويكتنفه من الجانبين وحتى من خلفه، ويتمسّك به بآلاف الأيدي الصغيرة الحادة التي بدأتْ قعقعتها تلفتْ انتباه حتى صفّارات الإنذار. وأنفقَ طاقته بفرح على مكافحتها، مُستمتعاً بقتالها المُنصِف، السليم، ضده.

استيقظَ عند حافة الغابة، منبطحاً على التل المُنحدر. هل استيقظَ، أم أنّه سقطَ قبل لحظة فقط؟ ولكنْ هنالك لون رماديّ في السماء أمامه، إنّها بداية الفجر، وعندما نهضَ واقفاً، أنبأه بصره المُشوَّش بأنّه كان فاقداً للوعي. تحرَّكتْ أصابعه مباشرة نحو كتلة الشَّعر والرطوبة التي برزتْ من جانب رأسه. قال في نفسه مرعوباً: ربما رأسي فُجَّ، ووقفَ برهة متبلّد الحسّ، متوقّعاً أنْ يسقط ميتاً.

في الأسفل، توهّجتْ الأضواء القليلة في البلدة الصغيرة كالنجوم عند الغسق. أخرج غاي بحركة آليّة منديلاً وضمَّدَ به بإحكام قاعدة إبهامه حيث كان جرحٌ ينزّ دماً يبدو أسود اللون. تقدَّم من إحدى الشجرات واتّكأ عليها. فتّشَتْ عيناه البلدة والدرب في الأسفل. لا شيء يتحرّك هناك. أهذا هو؟ المتّكئ على الشجرة مع ذكرى انفجار طلقة المُسدَّس، وصفّارات الإنذار، وصراعه مع الغابة؟ أراد أنْ يشرب ماء. رأى على الجانب القذر على أطراف البلدة محطة وقود، فشقّ طريقه نحوها.

كانت هناك مضخّة ماء على النمط القديم بجوار محطة الوقود، وضعَ رأسه تحتها، فوخزه وجهه كأنّه قِناع من الجراح. وأخذ ذهنه يُصبح ببطء أشدّ صفاءً. لا يمكن أنْ يكون قد ابتعد أكثر من ميلين عن غريت نيك. نزع قفّاز اليد اليُمنى الذي كان عالقاً بأحد الأصابع وبالرسغ، ووضعه في جيبه. أين القفّاز الآخر؟ هل تركه في الغابة حيث ضمّدَ إبهامه؟ واساه دفقٌ من الفزع بطابعه المألوف. يجب أنْ يعود ليجلبه. فتشَ جيوب معطفه، وفتح معطفه وفتش جيوب بنطلونه، سقطَتْ قبعته عند قدميه. لقد نسي أمر القبعة، ماذا لو أنّه أسقطها في مكانٍ ما؟ ثم عثر على فردة القفّاز داخل كمّه الأيسر، لم يتبقَّ أكثر من شقّ من قمّته لا يزال يُحيط برسغه، مع مُزقة، فوضعه في جيبه مع إحساس مُبهم بالارتياح يُشبه السعادة. قَلَبَ طرف البنطلون الذي كان قد تمزّق. وقرّر أنْ يمشي في الاتّجاه الذي كان يعلم أنّه الجنوبيّ، ومن ثم

يستقلّ أيّة حافلة تتجه أعمق في الجنوب ويبقى على متنها إلى أنْ يصل إلى محطة قطار.

حالما عرِفَ غايته، استقرّ الألم. كيف يمكنه أنْ يسير مسافة الطريق كلها بتينك الرُّكبتين؟ ومع ذلك واظبَ على السير، رافعاً رأسه لكي يحثّ نفسه على التقدُّم. كان في موقعٍ من الوقت الذي يتحقَّق عنده بصورة مُريبة توازن الليل والنهار، لا يزال الظلام سائداً، على الرغم من أنَّ ألوان قوس قزح باهتة كانت موزّعه في كل مكان. بدا أنّه ربما ما زال الظلام يُغطّي على الضوء، لأنَّ الظلام أكبر. ليت كان في الإمكان إبقاء الظلام مدة كافية ريثما يصل إلى المنزل ويقفل الباب!.

وفجأة اقتحم ضوءُ النهار الليلَ، وشقَّ كامل الأفق على يساره، وأحاطَ خطٌّ فضيّ قمّة التلّ، وأصبح لون التل خبّازيّاً وأخضر والبنيّ، وكأنّه يفتح عيونه. كان هناك منزل صغير أصفر اللون قائماً تحت شجرة على التلّ. إلى اليمين، أصبح حقلٌ مُظلِم عشباً باسقاً من اللونين الأخضر والبنّيّ، يتموّج برفق كسطح البحر. بينما كان ينظر، طار عصفور من بين الأعشاب مُطلقاً صرخة وكتبَ رسالة ممتلئة بالحياة، سريعة، ومُثلَّمة، بجناحيه المُدبَّبين الحادّين عبر صفحة السماء. توقفَ غاي وراقبه إلى أنْ اختفى.

الرابع والعشرون

للمرة المائة، تفحّصَ وجهه في مرآة الحمّام، متلمِّساً بصبر كل خدش بقلم رصاص يوقِف النزف، ثم أعاد رشّ البودرة. قام بإسعاف وجهه ويديه بموضوعيّة، وكأنها ليستْ أعضاء في جسمه. وعندما تقابلت عيناه بالعينين المُحدّقتين إليه في المرآة، ابتعدتا، كما لا بدّ أنهما فعلتا، كما قال غاي في نفسه، أول مرّة على متن القطار في ذلك اليوم، عندما حاولَ أنْ يتفادى عينيّ برونو.

رجع وسقط على سريره. كان لا يزال أمامه بقيّة النهار، ويوم الغد، الأحد. لم يكن بحاجة إلى رؤية أحد. كان في وسعه أنْ يذهب إلى شيكاغو لقضاء مدة أسبوعين ويقول إنّه كان مُسافراً بداعي العمل. ولكن قد يبدو

الأمر مُريباً إذا غادر البلدة في اليوم التالي، أي ***بالأمس، ليلة أمس***. ولولا يديه المخدوشتين، كان يمكن أنْ يُصدِّق أنَّه فعل ذلك في أحد أحلامه. لأنه لم يكن يريد أنْ يفعله، كما قال في نفسه. لم يفعله بإرادته. لقد كانت تلك إرادة برونو، وقد نفَّذها من خلاله. ودَّ لو يلعن برونو، لو يلعنه بصوت مرتفع، لكنّه الآن لا يمتلك الطاقة اللازمة لذلك. والغريب في الأمر أنّه لم يضمر أي إحساس بالذنب، وبدا له الآن أنَّ حقيقة أنَّ إرادة برونو حرّضته هي السبب. ولكن ما هو ذلك الشيء، الإحساس بالذنب، الذي ازداد بعد موت ميريام عمّا هو الآن؟ الآن هو فقط مُتعَبْ، لا يأبه بأي شيء. أم أنَّ هذا هو الشعور الذي يتولَّد بعد ارتكاب جريمة القتل؟ حاول أنْ ينام، وعاد عقله يقتفي آثار اللحظات التي أمضاها في حافلة لونغ أيلند، والعاملَين اللذين حدَّقا إليه، وادّعاءه النوم والصحيفة فوق وجهه، لقد شعر بالمزيد من الخزي مع العاملَين...

تراخت رُكبتاه على الدَّرَج الأماميّ وكاد يسقط. لم ينظر ليرى إنْ كان هناك مَنْ يُراقبه. وبدا تصرّفاً عاديّاً أنْ ينزل من البيت ويشتري صحيفة. لكنّه كان يعلم أيضاً أنّه لا يمتلك القُدرة على النظر ليرى إنْ كان هناك مَنْ يُراقبه، أو على إبداء الاهتمام، وكان يخاف الوقت الذي ستأتيه تلك القدرة، كما يخشى رجلٌ مريض أو جريح الخضوع للعمليّة الجراحيّة الحتميّة التالية.

كانت صحيفة ***جورنال - أميركان*** تضم السرد الأطول، مع مسقط جانبيّ مُظلَّل لصورةِ القاتل، استُلهِمَ من وصف كبير الخدم، ويُمثّل رجلاً طوله ستّة أقدام وإنش، يزن حوالي مائة وسبعين إلى ثمانين رطلاً، ويرتدي معطفاً قاتم اللون ويعتمر قبّعة. قرأ غاي المقال بدهشة معتدلة، وكأنَّه ليس المقصود: كان طوله لا يتجاوز الخمسة أقدام وتسعة إنشات ويزن حوالي المائة وأربعين. ولم يكن يعتمر قبعة. وألغى الجزء من المقالة الذي يُعرِّف بصمويل برونو، وقرأ باستمتاعٍ جمّ تصوّر الطريقة التي هرب بها القاتل. قيل إنَّه اتّجه شمالاً من طريق نيوهوبْ، حيثُ اعتُقِدَ أنّه أضاع طريقه في بلدة غريت نيك، وربما استقلَّ قطار الساعة الثانية عشرة وثماني عشرة دقيقة. وطبعاً توجّه إلى الشمال الشرقيّ وفجأة شعر بالارتياح، وبالأمان. وحذَّرَ نفسه من أنْ يكون ذلك الإحساس بالأمان وهماً. نهضَ واقفاً، وللمرة الأولى شعرَ بالذعر كما

كان شعر عندما مشى متعثّراً في الأرض الخالية المُجاورة للمنزل. كانت الصحيفة قد صدرتْ قبل بضع ساعات. وربما اكتشفوا خطأهم الآن. وربما هم قادمون لإلقاء القبض عليه، وربما وصلوا إلى باب بيته. وانتظر، ولم يُسمَع أي صوت صادر من أي جهة، ومن جديد شعر بالتعب، فجلس. أجبر نفسه على التركيز على ما تبقّى من العمود الصحفيّ. وتعرَّضَ هدوء القاتل إلى التوتّر، وبدا أنَّ الحقيقة هي أنَّ الأمر هو مسألة داخليّة. لا وجود لبصمات أصابع، ولا أدلّة ما عدا بعض آثار الأقدام، قياس تسعة ونصف، واللطخة التي تركها الحذاء على الجدار المدهون بالجصّ الأبيض. قال في نفسه: يجب أنْ يتخلَّص من الملابس في الحال، ولكن من أين له بالطاقة اللازمة لفعل ذلك؟ قال غاي في نفسه: من الغريب أنْ يُبالغوا في تقدير حجم حذائه والأرض شديدة الرطوبة. قالت الصحيفة: «... إنَّ حجم الطلقة صغير بصورة غريبة». يجب أنْ يتخلَّص من مُسدّسه، أيضاً. شعر بقدرٍ قليل من الألم. سوف يكره ذلك، كم سيكره اللحظة التي يتخلّى فيها عن مُسدّسه! أجبر نفسه على النهوض لكي يُحضِر المزيد من الثلج من أجل وضعه في المنشفة التي كان يضغطها على رأسه.

اتصلتْ آنْ به هاتفياً في وقت متأخر من النهار لكي تطلب منه أنْ يرافقها إلى حفلة تُقام في ليلة يوم الأحد في مانهاتن.

«حفلة هيلين هيبرن أنتَ تعلم، سبقَ أنْ أخبرتك عنها».

قال غاي، مع أنّه لم يتذكّر أبداً، «نعم». خرج صوته متوازناً، «أعتقد أنني لا أشعر بأيّة رغبة في ارتياد أيّة حفلة، يا آنْ».

على امتداد الساعة الأخيرة أو نحوها، شعر بالخَدر. جعل كلمات آنْ تبدو كأنها قادمة من بعيد، وغريبة. أصغى إلى نفسه يقول الأشياء الصحيحة، من دون حتى أنْ يتوقّع، أو يُبدي اهتماماً ربما، إنْ كانت آنْ تبيَّنتْ أي فرق. قالتْ آنْ: إنَّ في استطاعتها أنْ تدفع كريس نيلسون إلى مُرافقتها، ولم يعترض غاي على ذلك، وعبَّرَ عن اعتقاده بأنَّ نيلسون سوف يسعد كثيراً بمرافقتها لأنَّ نيلسون، الذي كان يُقابل آنْ كثيراً قبل أنْ تتعرَّف إلى غاي، كان لا يزال يُحبّها، حسب اعتقاد غاي.

قالتْ آنْ: «لِمَ لا أُحضِر بعض الأطعمة المُعلَّبة في أمسية الأحد ونتناول وجبة خفيفة معاً؟ يمكن إرجاء لقائي بكريس إلى وقتٍ لاحق».

«كنتُ أفكّر في الخروج يوم الأحد، يا آنْ، لأرسم».

«أوه، آسفة كان لديّ شيء أخبرك به».

«ما هو؟».

«شيء أعتقد أنّه سيعجبك. حسن - لندعه إلى وقت لاحق».

ارتقى غاي الدّرَج ببطء، تفادياً لانتباه السيدة ماكوسلند. قال في نفسه برتابة: لقد كانت آنْ لطيفة معه، كانت لطيفة معه، في لقائهما التالي سوف تعرف بالأمر وسوف تكرهه. لقد انتهت صِلته بآنْ، انتهتْ صِلته بآنْ. أخذ يُردِّد هذا إلى أن استغرقَ في النوم.

استمرَّ في النوم حتى ظهيرة اليوم التالي، ثم تمدَّد على السرير حتى آخر النهار في حالة من الخَدَر جعلتْ حتى من اجتياز أرض الغرفة لكي يُعيد ملء المنشفة بقطع الثلج أمراً مؤلِماً. وشعر بأنّه لن ينام بالقدر الكافي لاستعادة قِواه. قال في نفسه: سأستعيد ما حدث. استرجَعَ جسده وعقله السير على الدرب الطويل الذي سافرا عليه. للعودة إلى ماذا؟ تمدَّد لا يأتي بأيّة حركة وشعر بالخوف، وهو ينضح بالعرق ويرتجف من الخوف. ثم اضطرَّ إلى النهوض لكي يذهب إلى الحمّام. كان يُعاني من حالة ضعيفة من الإسهال. قال في نفسه: إنّه بسبب الخوف كما يحدث في ساحة الحرب.

بينما كان نصف نائم حلُمَ بأنّه اجتاز أرض المرج باتجاه المنزل. كان المنزل رقيقاً وأبيض ولا يُقاوَم كغيمة. وظلَّ واقفاً هناك غير راغبٍ في إطلاق النار، ومُصمّماً على مُقاومته لكي يُثبتْ أنّ في استطاعته التغلّب عليه. أيقظه ضجيج الطلق الناريّ. فتحَ عينيه على الفجر يملأ الغرفة. ورأى نفسه واقفاً بجوار طاولة العمل، تماماً كما وقفَ في الحلم، مُوجِّهاً فوهة المسدس نحو سريرٍ في الركن، حيث كافح صمويل برونو للجلوس المعتدل وهدر المُسدس وصرخ غاي.

قفز خارج السرير يترنّح واختفى الشكل. وعند نافذته كان هناك الضوء المكافح الذي شاهده في فجر ذلك اليوم، الامتزاج نفسه للحياة مع الموت.

سوف يسطع الضوء نفسه عند فجر كل يوم يعيشه، وسوف يكشِف دائماً تلك الغرفة، وسوف تُصبح الغرفة أشدّ وضوحاً مع التكرار، ويُصبح رعبه أكثر حِدَّة. ماذا لو أنّه أفاقَ في فجر كل يوم عاشه؟.

رنَّ جرس الباب في المطبخ الصغير.

قال في نفسه: إنَّ الشرطة في الطابق السفليّ. هذا هو التوقيت المناسِب *لإلقاء* القبض عليه عند الفجر ولم يأبه، لم يأبه البتّة. سوف يُدلي باعترافٍ كامل، سوف يكشِف عن الأمر كله دفعة واحدة!.

مال لكي يضغط على زر الماء، ثم اقترب من الباب وأصغى.

ارتقتْ خطوات سريعة ورشيقة. إنها خطوات آنْ. تشبه خطوات الشرطة وليس خطوات آنْ! استدار دورة كاملة، ولفتَ الانتباه إلى ظلّه بتصرّف أحمق، رفعَ شَعره إلى الخلف بكلتيّ يديه وأحسَّ بالعقدة على رأسه.

همسَتْ آنْ حالما دخلتْ: «إنّه أنا. أتيتُ مباشرة من منزل هيلين. إنه صباح غاية في الجمال!»، ورأتْ الضماد، فتلاشى التيه عن وجهها. «ماذا ألمَّ بيدك؟».

تراجعَ إلى الظل بجوار خزانة المكتب. «تورطتُ في قتال».

«متى؟ ليلة أمس؟ ووجهك أيضاً، يا غاي!».

«نعم». قال في نفسه، يجب أنْ يحصل عليها، أنْ يُبقيها معه. سوف يفنى من دونها. وبدأ يُحيطها بذراعيه، لكنها دفعته بعيداً عنها، وهي ترمقه في العتمة.

«أين، يا غاي؟ مع مَنْ؟».

«مع رجل لا أعرفه»، قال هذا بصوت خالٍ من النبرة، من دون أنْ يعلم أنّه كذبَ، لأنّه كان من الضروريّ جداً أنْ يُبقيها معه. قال بسرعة «في حانة. لا تديري مفتاح الضوء. أرجوك، يا آنْ».

«في حانة؟».

«لا أعلمُ كيف حدث الأمر فجأة».

«مع شخصٍ لم تره من قبل؟».

«نعم».

«لا أصدّقك».

تكلَّمتْ ببطء، وفي الحال تولّى الرعب غاي، مُدرِكاً أنها شخص منفصل عنه، شخص يحمل عقلاً مختلفاً، ولديه ردود أفعالٍ مختلفة.

تابعت قائلة: «كيف أُصدّقك؟ ولماذا أصدّقك بشأن الرسالة، وبشأنْ معرفة الشخص الذي أرسلها؟».

«لأنها الحقيقة».

«أو الرجل الذي تقاتلتَ معه على المرج أكان الرجل نفسه؟».

«كلا».

«أنتَ تُخفي شيئاً عني، يا غاي»، ثم أصبحتْ أكثر رقّة، ولكنْ بدا أنَّ كل كلمة بسيطة تُهاجمه: «ما الأمر، حبيبي؟ أنتَ تعلم أنني أريد أنْ أساعدك. ولكن يجب أنْ تُصارحني».

قال: «لقد أخبرتك»، وشدَّ على أسنانه. كان الضوء خلفه قد بدأ يتبدَّل. قال في نفسه: ليتَ في وسعه أنْ يحتفظ بآنْ الآن، لاستطاع أنْ يبقى حيّاً في فجر كل يوم. نظر إلى استرسال شَعرها المستقيم، باهت اللون، ومدَّ يده ليلمسه، لكنّها تراجعتْ.

«لا أفهم كيف يمكن أنْ نستمر في علاقتنا على هذا الأساس، يا غاي. لن نستطيع».

«لن تستمر لقد انتهتْ. أُقسِم لك يا آنْ صدّقيني أرجوك». بدا أنَّ تلك اللحظة هي امتحان، وكأنها الآن أو أبداً من جديد. قال في نفسه: يجب أنْ يضمّها بين ذراعيه، يضمّها بقوة إلى أنْ تكفّ عن مقاومته. لكنّه لم يستطع أنْ يدفع نفسه إلى التحرّك.

«ما أدراك؟».

تردَّد «لأنها حالة ذهنيّة».

«تلك الرسالة كانت حالة ذهنيّة؟».

«الرسالة ساهمتْ فيها. لقد شعرتُ بأنني موثوق بشدّة. كان ذلك عملي، يا آنْ!»، وأحنى رأسه مُعلِّقاً آثامه على عمله!.

قالتْ ببطء: «ذات يوم قلتَ إنني أُسعدك، أو إنَّ ذلك في استطاعتي على الرغم من كل شيء لم أعُد أرى ذلك صحيحاً».

كانت تقصد أنْ تقول إنّه حتماً لم يُسعدها، ولكنْ إنْ كان لا يزال في استطاعتها الآنْ أنْ تحبّه، فكيف سيحاول أنْ يُسعدها! كيف سيعبدها ويخدمها! «أنتِ تسعدينني، يا آنْ. ليس لديّ أي شيء آخر». انحنى أكثر وبدأ يجهشُ فجأة بالبكاء، بلا إحساس بالخجل، بنشيج مُدمِّر لم يوقف اللحظة الطويلة قبل أنْ تلمس آنْ كتفه. وعلى الرغم من إحساسه بالامتنان، شعر كأنّه يتملَّص من تلك اللمسة، أيضاً، لأنه شعر بأنها ليست أكثر من شَفَقَة، فقط الإنسانيّة وحدها دفعتها إلى لمسه أصلاً.

«هل أُعد لك وجبة إفطار؟».

حتى في نبرة الصبر الساخط التي سمعها في صوتها، كان يعلم أنَّ هناك لمسة غفران تعني غفراناً كاملاً، عن الشجار في حانة. قال في نفسه، لن تعلم أبداً بما جرى ليل يوم الجمعة، لأنه دُفِنَ عميقاً جداً بعيداً عن عِلمها أو عن عِلم أيّ شخصٍ آخر.

الخامس والعشرون

قال برونو، وقدمه مُثبَّتة على الكرسيّ: «لا يهمني ما تعتقد البتّة!». كاد حاجباه الأشقران الرفيعان يتلامسان عندما تجهّم، ثم ارتفعا عند الطرفَين كشاربيّ قطّة. نظر إلى جيرارد كأنّه نمرٌ ذهبيّ اللون، خفيف الشَّعر وصل إلى حافة الجنون.

أجابَ جيرارد مع هزّ كتفيه المحنيين استخفافاً: «أنا لم أقُلْ أنني أعتقد أي شيء. هل فعلتُ؟».

«أنتَ ألمحتَ إلى ذلك».

«أنا لم أُلمِّح إلى شيء». اهتزَّ كتفاه المُستديرَان مرّتين وهو يضحك. «أنتَ أسأتَ فهمي، يا تشارلز. لم أقصد أنْ أخبر أحداً عن عمد بأنَّكَ ستغادر. أنتَ الذي ذكرت ذلك مُصادفة».

حدَّقَ برونو إليه. كان جيرارد قد أشار تواً إلى أنّه إنْ كانت تلك مسألة داخليّة، فلا بدّ أنَّ لبرونو وأمّه صِلة بالأمر، وقد كانت فعلاً مسألة داخليّة. كان جيرارد يعلم أنّه وأمّه قرَّرا في يوم الثلاثاء القريب أنْ يُغادرا في يوم الجمعة. ما أغرب فكرة أنْ يدفعاه إلى قطع كل تلك المسافة إلى هنا في شارع وول ليُخبراه بذلك! لم يكن لدى جيرارد أيّة معلومات ولا يستطيع أنْ يخدعه بالادّعاء بأنَّ لديه تلك المعلومات. لقد كانت جريمة قتل كاملة أخرى.

سأل برونو: «هل تمانع إذا رحلتُ؟». كان جيرارد يعبث ببعض الأوراق على طاولة مكتبه وكأنَّ لديه عملاً آخر يشغله هنا.

«دقيقة فقط تناول مشروباً»، وأومأ جيرارد برأسه باتجاه زجاجة من البوربون على الرف في الطرف المقابل من غرفة المكتب.

«لا، شكراً». كان برونو شديد الاشتياق إلى تناول مشروب، ولكن لن يقبله من جيرارد.

«كيف حال أمّك؟».

«لقد سبقَ أنْ سألتني». لم تكن أمّه في صحّة تامّة، كانت تعاني الأرق، وهذا هو السبب الرئيس في رغبته في الحصول على منزل. واجتاحته من جديد موجة عنيفة من الامتعاض من موقف جيرارد بوصفه صديقاً للعائلة. أو ربما صديقاً لوالده! «بالمناسبة، نحن لا نستخدمك من أجل هذا، كما تعلم».

رفعَ جيرارد بصره مع ابتسامة مرتسمة على وجهه المستدير، المُرقّش ذي اللون الباهت الزهري المائل إلى الأرجوانيّ: «سوف أعمل على هذه القضيّة بلا مقابل، يا تشارلز. إلى هذه الدرجة أجدها مُثيرة للاهتمام». وأشعلَ سيجاراً آخر يُشبه أحد أصابعه البدينة، ولاحظَ برونو مرة أخرى، مع إحساس بالاشمئزاز، بقع صلصة مرق اللحم على طرف ياقة بزّته ذات اللون البنيّ الخفيف، المُجعّدة، وربطة عنقه المُهلهلة الشنيعة ذات اللون الرخامي. كان أقلّ شيء في جيرارد يُزعج برونو. كلامه البطيء يزعجه. وذكريات المرّات الأخرى الوحيدة التي قابل فيها جيرارد، مع والده، أزعجته. بل إنَّ آرثر جيرارد لم يبدُ من نوع التحرّي الخاصّ الذي ليس من المُفترَض أنْ يبدو

كتحرٍّ. وعلى الرغم من سجلّه المُشرِّف، وجد برونو من المستحيل عليه أنْ يُصدِّق أنَّ جيرارد هو تحرٍّ من الدرجة الأولى. «لقد كان والدك رجلاً عظيماً جداً، يا تشارلز. من المؤسِف أنكَ لم تعرفه معرفة أفضل».

قال برونو: «بل عرفته جيّداً».

نظرتْ عينا جيرارد الصغيرتان، ببقعهما السمراء، إليه بجديّة. «أعتقد أنّه عرفك أفضل من معرفتك به. لقد ترك لي عدداً من الرسائل التي تتحدث عنك، عن شخصيتك، وعن آماله التي يُعلّقها عليك».

مدَّ برونو يده ليتناول سيجارة: «إنه لم يعرفني البتّة. لا أعلم لماذا نتطرَّق إلى هذا الموضوع إنه خارج عن موضوعنا وهو مُروِّع»، واسترخى في جلسته.

«أنت كنتَ تكره والدك أليس كذلك؟».

«هو الذي كرهني».

«لكنّه لم يفعل من هذه الناحية لم تعرفه».

سحبَ برونو يده عن ذراع الكرسي فأصدرت صريراً بسبب العرق. «هل نتوصّل إلى أيّة نتيجة، وإلّا فلماذا تحجزني هنا؟ إنّ أمي متوعكة وأريد أنْ أذهب إلى المنزل».

«آمل أنْ تتحسّن حالتها سريعاً، لأنني أريد أنْ أطرح عليها بعض الأسئلة. ربما غداً».

ارتفعت حرارة جانبيّ عنق برونو. سوف يكون تأثير الأسابيع القليلة التالية رهيباً على أمّه، وسوف يزيدها جيرارد سوءاً لأنّه عدوّ لكليهما. نهضَ برونو واقفاً ورمى بمعطفه المطريّ على أحد ذراعيه.

أشار جيرارد بإصبعه إليه بحركة عفويّة وكأنّه ما زال جالساً على الكرسي. «الآن أريد منكَ أنْ تحاول أنْ تفكّر مرّة أخرى، إلى أين ذهبت بالتحديد ومَنْ قابلتَ في ليلة يوم الخميس، أنتَ غادرتَ أمّك والسيدة تمبلتون والسيد روسّو أمام بلو إنجل عند الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة صباحاً. إلى أين ذهبت؟».

تنهّد برونو: «إلى هامبرغر هيث».

«هل قابلتَ أحداً تعرفه هناك؟».

«مَنْ يمكن أنْ أعرف هناك، القطّة؟».

«إذن إلى أين ذهبت؟»، وتفحّصَ جيرارد ملاحظاته.

«إلى حانة كلارك في الجادَّة الثالثة».

«هل قابلتَ أحداً هناك؟».

«طبعاً، عامل البار».

ابتسم جيرارد: «عامل البار قال إنّه لم يرك».

عبسَ برونو. جيرارد لم يقُل هذا قبل نصف ساعة. «وماذا في هذا؟ كان المكان مزدحماً. ربما أنا أيضاً لم أر عامل البار».

«إنَّ عمّال البار هناك كلّهم يعرفونك، وقالوا إنكَ لم تكن حاضراً في ليلة يوم الخميس. وزيادة على ذلك، المكان لم يكن مزدحماً. أقلتَ ليلة يوم الخميس؟ الساعة الثالثة أو الثالثة وثلاثين دقيقة؟ - إنني فقط أحاول أنْ أساعدكَ على التذكُّر، يا تشارلز».

ضغط برونو شفتيه سخطاً. «ربما لم أذهب إلى حانة كلارك. في المعتاد أذهب إلى هناك لكي أتناول مشروب آخر الليل، ولكن ربما لم أفعل. ربما توجهتُ إلى المنزل مباشرة، لا أعلم. وماذا عن كل الناس الذين تحدثنا معهم أنا وأمي في صباح يوم الجمعة؟ لقد اتصلنا هاتفيّاً بالعديد من الناس لكي نودّعهم».

«أوه، نحن نعمل على استجواب أولئك. ولكنْ جديّاً، يا تشارلز -» استند جيرارد على ظهره، ووضع ساقاً فوق ساق بدينة وقصيرة، وركّزَ انتباهه على نفث دخان سيجاره ليُشعله - «لا يمكن أنْ تكون قد تركتَ أمّك وأصدقاءها فقط لكي تُحضِر شطيرة ومن ثم تعود إلى المنزل وحدك، أليس كذلك؟».

«ربما. ربما أعاد لي ذلك وعيي».

«لماذا أنتَ غامض هكذا؟» قالها بلكنة أهالي ولاية أيوا المُزمجرة.

«وما خطب كوني غامضاً؟ من حقّي أنْ أتصرّف بغموض عندما أكون ثملاً!».

«المقصود هو -وطبعاً لا يهمّ إنْ كنتَ قد ذهبتَ إلى حانة كلارك أو إلى أي مكان آخر- مَنْ الذي قابلتَ وأخبرته بأنكَ مُغادر إلى ولاية مين في اليوم التالي. عليكَ أنْ تعتقد أنت نفسك أنَّ من الغريب أنّ والدك قُتِلَ في يوم مغادرتك نفسه».

«لم أرَ أحداً. لقد دعوتك لكي تستعرض كل مَنْ أعرف وتسألهم».

«لقد اكتفيتَ بالتجوال وحدك حتى الساعة الخامسة صباحاً».

«مَنْ قال إنني رجعتُ إلى المنزل بعد الخامسة؟».

«هربرت. هربرت قال هذا بالأمس».

تنهّد برونو: «لِمَ لم يتذكَّر هذا كلّه في يوم السبت؟».

«حسن، كما قلت، هكذا تعمل الذاكرة. إنها تغيب - ثم تعود. وذاكرتك أيضاً سوف تعود؟ وإلى أنْ يحدث هذا، سأكون حاضراً. نعم، تستطيع أنْ تذهب الآن، يا تشارلز» وقام جيرارد بإيماء لا مبالٍ.

تلكّأ برونو قليلاً، مُحاولاً أنْ يفكّر في قول شيء، ولمّا لم يستطع، خرج وحاول أنْ يصفع الباب لكنَّ ضغط الهواء أعاق ذلك. سار عائداً خلال الرواق الرث، الكئيب لمكتب التحرّي السرّي، حيث ارتفع ضجيج ضاربة الآلة الكاتبة التي كانت تكتب بانهماك خلال المقابلة -كان جيرارد دائماً يقول «نحن»، وهنا كانوا جميعاً، يكدحون خلف الأبواب- وأومأ برأسه مودِّعاً الآنسة غراهام، سكرتيرة الاستقبال التي كانت قد عبَّرتْ عن تعاطفها معه قبل ساعة من الزمن لدى دخوله. كم كان مرحاً عندما دخل قبل ساعة، مُصمّماً على ألّا يدع جيرارد يُعكّر مزاجه، والآن - لم يستطع أنْ يتحكَّم في غضبه عندما أحدثَ شرخاً بينه وبين أمّه، ويمكن أنْ يعترف بذلك أيضاً. وماذا يهمّ؟ ماذا لديهم ضدَّه؟ أيّة أدلّة في حوزتهم ضد القاتل؟ لديهم أدلّة خاطئة.

غاي! ابتسم برونو وهو يهبط بالمصعد. لم يخطر غاي في باله مرَّة واحدة وهو في غرفة مكتب جيرارد! ولا حتى بمقدار ومضة عندما انهال عليه جيرارد بالاستفسار عن المكان الذي ذهب إليه في ليلة يوم الخميس! غاي! هو وغاي! مَنْ يُشبههما؟ مَنْ يُضاهيهما؟ كم اشتاقَ الآن إلى أنْ يكون مع غاي. سوف يشدّ بقوة على يد غاي، وليذهب باقي العالم إلى الجحيم!

لقد كان إنجازاهما فريدين! كالانطلاق عبر صفحة السماء! كسهمين من النار الحمراء ظهرا ثم اختفيا بأقصى سرعة، بحيث وقفَ الجميع يتساءلون إنْ كانوا قد شاهدوهما فعلاً. وتذكَّرَ قصيدة كان قد قرأها ذات مرة عبّرَتْ عن طرفٍ مما كان يعني. واعتقدَ أنّه ما زال يحملها في أحد جيوب حقيبة العناوين. هرع إلى إحدى الحانات قبالة شارع وول، وطلب مشروباً، وأخرج ورقة صغيرة من جيب دفتر العناوين. كانت منزوعة من ديوان شِعر كان يمتلكه في أيام المدرسة.

ذو العينين المُثقلتين

بقلم فاشيل ليندسي

لا تتركوا ذوي الأرواح الغضّة
يختنقون قبل أنْ
يُقدّموا إنجازات غريبة
ويستعرضون افتخارهم.

إنَّ جريمة العالم الوحيدة هي
أنْ ينشأ أطفاله كسالى،
وأنْ يكون فقراؤه كالدواب، مُرهقين وعيونهم مُثقلة.

إنهم ليسوا فقط جياعاً، بل جياع
بلا أحلام،
ليس لأنهم لا يبذرون الحب، بل
لأنهم نادراً ما يحصدون،
ليس لأنهم يخدمون، بل لأنه
ليستْ لديهم آلهة يخدمونها،
ليس لأنهم يموتون، بل لأنهم
يموتون كالبهائم.

إنه وغاي ليسا من ذوي العيون المُثقلة. وهو وغاي لن يموتا كالدواب الآن. هو وغاي سوف يحصدان، هو سيُعطي غاي نقوداً، أيضاً، إذا قبِلها.

السادس والعشرون

عند نحو الوقت نفسه في اليوم التالي، كان برونو جالساً على كرسي الشاطئ على مصطبة منزله في غريت نيك، في مزاجٍ هادئ وراض رائق جديد جداً لم يعرفه من قبل. في صباح ذلك اليوم خرج جيرارد ليتحرّى، أما برونو فكان شديد الهدوء والدماثة، وحرصَ على أنْ يتناول هو وجاسوسه الصغير وجبة غداء، والآن ذهبَ جيرارد وهو يشعر بافتخارٍ شديد بسلوكه. لا ينبغي أنْ يسمح لجيرارد أنْ ينال منه من جديد كما فعل بالأمس، لأنَّ تلك هي الطريقة لجعله يضطرب ويرتكب الأخطاء. وطبعاً، كان جيرارد هو الأبله. لو أنّه تعامل معه بلطفٍ أشدّ بالأمس، لتعاون أكثر. تعاونَ؟ ضحك برونو بصوتٍ مرتفع. ماذا قصد بقوله تعاون؟ ماذا كان يفعل، يخدع نفسه؟

فوقه كان ثمة طائر لا يتوقف عن التغريد. «تويدلدي؟» ويُجيب نفسه، «تويدل دَمْ!» أبرزَ برونو رأسه. كان يمكن لأمّه أنْ تعرف نوع ذلك الطائر. حدَّقَ بعيداً على امتداد المرج الموشّى بلونٍ أحمر خمريّ، وإلى الجدار المطليّ بالجير الأبيض، وإلى شجر القرانيا الذي بدأ يُخرِجُ براعمه. بعد ظهيرة هذا اليوم، وصله شيكٌ بقيمة عشرين ألفاً من أجل أمّه. وسوف يصِله المزيد عندما يتوقف موظفو التأمين عن الثرثرة ويحصل المُحامون على كل اختزال للإجراءات الروتينيّة. وعلى مائدة الغداء، تحدث هو وأمّه عن الذهاب إلى كابري، حديثاً تمهيديّاً، لكنّه كان يعلم أنهما سوف يذهبان إلى هناك. وفي هذه الليلة، سوف يخرجان لتناول وجبة العشاء للمرّة الأولى، إلى مكان *intime* (حميم) هو مطعمهما المُفضَّل، مقابل الطريق العام ليس بعيداً عن غريت نيك. ولا عَجَبَ في أنه لم يكن يحب الطبيعة من قبل. والآن بعد أنْ امتلك العشب والأشجار، أصبحت لها أهميّة.

قلَّبَ صفحات دفتر العناوين بشكلٍ عفويّ على حجره. كان قد عثر عليه

في صباح هذا اليوم، ولم يكن يعلم أنّه في حوزته وهو في سانتا فِه، وأراد أنْ يتيقَّن من أنّه لا يضمّ معلومات عن غاي قبل أنْ يقع في يد جيرارد. ولا شك في أنَّ هناك أناساً كثيرين يريد أنْ يتقصّى عنهم من جديد، الآن بعد أنْ أصبح لديه المكان الذي يبحث فيه. وخطرتْ له فكرة، فتناول قلم رصاص من جيبه وتحت حرف الباء كتب:

تومي بانديني

232 و. الشارع 76

وتحت حرف السين كتب:

«سليتش»

محطة إنقاذ الحياة

هيل غيت بريدج.

أعطِ جيرارد بضعة أشخاص غامضين لكي يتحقّق منهم.

دان الساعة الثامنة والربع فندق أستور، هذا ما عثر عليه في المذكّرات مكتوباً على خلفيّة الدفتر. بل إنّه حتى لم يتذكّر مَنْ يكون دان. ***احصل على الدولارات من كابت بحلول أول شهر حزيران.*** الصفحة التالية أشاعت قليلاً من القشعريرة في جسمه: ***مادة من أجل غاي 25 دولاراً.*** انتزع الصفحة المثقوبة من الدفتر. ذلك الحزام من سانتا فِه هو من أجل غاي. لِمَ دوّنَ هذا أصلاً؟ في لحظة ملل معيَّنة.

هدرَ ضجيج سيارة جيرارد الكبيرة السوداء وهي تسير على الممر.

أجبر برونو نفسه على الجلوس هناك وانتهى من تفتيش محتوى المذكرات. ثم دسَّ دفتر المذكّرات في جيبه، وأقحمَ الورقة المُنتَزَعَة في فمه.

تمشّى جيرارد على بلاط الأرضيّة وفي فمه سيجار وذراعاه متدليتان.

سأل برونو «هل من جديد؟».

«بعض الأشياء» وترك جيرارد عينيه تنتقلان من زاوية المنزل بخطٍّ قُطريّ

عبر أرض المرج إلى الجدار المطلي بالجير، وكأنّه يُعيد تقدير المسافة التي قطعها القاتل ركضاً.

تحرّك فكّ برونو بشكلٍ عفويّ وهو يمضغ قطعة الورق الصغيرة، وكأنّه يمضغ علكة. سأله «أشياء مثل ماذا؟». رأى خلف كتفيّ جيرارد جاسوسه الصغير جالساً في مقعد السائق في السيارة، يُحدِّقُ إليهما بثبات من تحت حافة القبعة الرماديّة. قال برونو في نفسه، لم يجدوا إلّا هذا من بين كل ذوي الخلقة الشريرة.

على غِرار حقيقة أنَّ القاتل لم يرجع مباشرة إلى البلدة لقد تابع سيره في هذا الاتجاه العام». وقام جيرارد بإيماء يُشبه إيماء صاحب متجر ريفي وهو يُشير إلى طريق ما، مُستخدماً كامل ذراعه. «لقد قطع أرض الغابة مباشرة التي هناك وواجه صعوبة كثيرة. وعثرنا على هذه».

قفز برونو ونظر إلى قطعة من قفّاز قرمزيّ ومُزقة من مادة زرقاء قاتمة، تشبه قماش معطف غاي. «يا إلهي أواثق أنت من أنها من معطف القاتل؟».

«من دون أدنى شك انتُزِعَتْ من معطف والأخرى – ربما من قفّاز».

«أو من لفاع».

«كلا، هناك درزة صغيرة» وعبثَ جيرارد بها بإبهامه المُرقَش البدين.

«قفّاز راقٍ جداً».

«قفاز للسيدات» رفعَ جيرارد بصره مع ومض في عينه.

رسم برونو ابتسامة ساخرة مرحة، ثم كفَّ عن ذلك نادماً.

قال جيرارد متنهّداً: «في أول الأمر ظننتُ أنّه قاتل مُحترِف. هو حتماً يعرف المنزل ولكن لا أعتقد أنَّ قاتلاً محترفاً يمكن أنْ يفقد عقله ويُحاول أنْ يخترق تلك الغابة كما فعل».

قال برونو مُبدياً اهتماماً: «همم – م».

«كان يعرف أيضاً الدرب الصحيح الذي ينبغي أنْ يسلكه. والدرب الصحيح لا يبعد أكثر من عشر ياردات».

«كيف عرِفتَ هذا؟».

«لأنَّ هذه العملية كلّها تمَّ التخطيط لها بدقّة، يا تشارلز. القفل المكسور على الباب الخلفيّ، وصندوق زجاجات الحليب هناك بجوار الجدار».

خيَّمَ الصمت على برونو. لقد أخبر هربرت جيرارد أنّه، أي برونو، كسر القفل وربما أخبره هربرت أيضاً أنّه وضع صندوق الحليب هناك.

«قفّاز قرمزي!»، وقهقه جيرارد، بمرحٍ، أكثر مما كان برونو قد سمعه يضحك من قبل. «ماذا يهمّ اللون ما دام القفّاز يمنع ترك بصمات أصابع، هه؟».

قال برونو: «صحيح».

ولجَ جيرارد المنزل من خلال باب المصطبة.

تبعه برونو بعد برهة. عاد جيرارد إلى المطبخ، وارتقى برونو الدّرَج. رمى دفتر العناوين على سريره، ثم سار على طول الرواق. أشاعَ فيه باب غرفة والده المفتوح إحساساً غريباً، وكأنّه قد بدأ يُدركُ تواً أنَّ والده قد مات. ورأى أنَّ كون الباب مفتوحاً هو ما بثَّ فيه هذا الإحساس، كطرف قميص متدلٍ، كحارس مخذول، ولو أنَّ الكابتن كان حيّاً لمَا بقيَ مفتوحاً. تجهَّمَ برونو، ثم ذهب وأغلقَ الباب بسرعة في وجه السجادة التي وطأتها أقدام التحرّيين، وقدما غاي، وفي وجه طاولة المكتب ذات الأوراق المنهوبة ودفتر الشيكات المفتوح كأنما في انتظار تواقيع والده. وفتح باب غرفة أمّه بحذر. كانت مستلقية على السرير وقد رفعت لفاعها الساتان الزهريّ عالياً حتى ذقنها، ومُديرة رأسها نحو داخل الغرفة وكانت عيناها مفتوحتين، منذ أنْ استلقتْ هناك في ليل يوم السبت.

«ألم تنامي يا أمي؟».

«كلا».

«جاء جيرارد من جديد».

«أعلم».

«سأخبره بأنكِ لا تريدين أحداً يُزعجك».

«عزيزي، لا تكن سخيفاً».

جلسَ برونو على السرير ومال مُقترباً منها. «أتمنّى لو تنامين، يا أمي».

كانت هناك ظلال مُجعّدة أرجوانيّة اللون تحت عينيها، وكانت قد جعلتْ فمها في وضعيّةٍ لم يرها من قبل، فأضحت زاويتاه طويلتين ورقيقتين.

«عزيزي، أواثق من أنَّ سام لم يأتِ على ذِكر أي شيء أمامك - من أنّه لم يذكر أيّ شخص؟».

«أتتخيّلين أنّه يمكن أنْ يُخبرني بشيءٍ كهذا؟». أخذ برونو يتجول في أرجاء الغرفة. كان مجرد وجود جيرارد في المنزل يُضايقه. كان سلوك جيرارد بغيضاً جداً، وكأنّه يُخفي شيئاً يُدين كل شخص، حتى هربرت الذي كان برونو يعلم أنّه يعبد والده الذي لم يكن ليقول أي شيء من شأنه أنْ يُدينه ويوجّه إليه اتّهاماً جليّاً. لكنَّ برونو كان يعلم أنَّ هربرت لم يره وهو يقيس طول المكان، وإلّا كان الآن جيرارد قد أبلغه بذلك. لقد تجوّلَ في أرجاء المكان، والمنزل أيضاً في أثناء مرض والدته، ولم يكن يمكن لأي شخص شاهده أنْ يعلَم إنْ كان يقيس أرض المكان بخطواته أم لا. لقد أراد أنْ يبوح بكل شيء عن جيرارد الآن، لكنَّ أمّه لم تفهم. وأصرَّتْ على الاستمرار في الاستعانة بخدماته، لأنّ من المُفترَض أنّه الأفضل في مجاله. لكنه وأمّه لم يكونا يعملان معاً. قد تقول أمّه شيئاً آخر لجيرارد -كاتخاذهما قرار رحيلهما يوم الجمعة في يوم الخميس فقط- على جانب كبير من الأهميّة من دون أنْ تبلغه بأيّ شيء عن برونو!.

قالت أمّه مبتسمة: «أتعلم أنكَ تزداد بدانة، يا تشارلي؟».

برونو أيضاً ابتسم، إنها تبدو على سجيتها. كانت عندئذٍ تضعُ قلنسوة الاستحمام وهي جالسة على طاولة الزينة. قال: «الشهيّة ليست شيئاً سيئاً». لكنَّ شهيّته كانت أشدّ سوءاً وكذلك الأمر هضمه. في كل الأحوال كان يزداد بدانة.

حالما أغلقَتْ أمّه باب الحمّام قرع جيرارد باب الغرفة.

أخبره برونو: «سوف تستغرقُ أمي وقتاً طويلاً».

«هلّا أخبرتها بأنني سوف أكون في الصالة؟».

قرع برونو باب الحمّام وأخبرها بذلك، ثم توجّه إلى غرفته الخاصّة. وأدركَ من وضعيّة دفتر العناوين على سريره أنَّ جيرارد عثر عليه وفتّشه.

وقام برونو ببطء بإعداد مشروب بكأس صغيرة، وشربه، ثم مشى بهدوء على طول الرواق وسمع جيرارد يتحدّث مع أمّه.

«– ألم يبدُ أنّه في حالة نفسيّة عالية أو متدنّية، هه؟».

قالتْ أمّه: «إنه ولد شديد تقلُّب المزاج، في الواقع. وأشكّ في أنْ أكون قد لاحظت».

«أوه – أحياناً ينتقي الناس مشاعر خارقة. ألا توافقين، يا إلسي؟».

لم تُجِب أمّه.

«– أمرٌ مؤسف، لأنني أودّ أنْ أحصل على المزيد من التعاون منه».

«أتعتقد أنّه يُخفي شيئاً؟».

«لا أعلم»، ورسم ابتسامته المُثيرة للاشمئزاز، واستشفَّ برونو من نبرة الصوت أنَّ جيرارد توقَّعَ منه أنْ يكون مُصغياً، أيضاً «هل تعلمين أنتِ؟».

«طبعاً لا أعتقد أنّه يُخفي شيئاً. إلى ما ترمي، يا آرثر؟».

واجهته بجرأة. قال برونو في نفسه: بعد هذا لن تُبدي أيَّ احترام لجيرارد. لقد تصرف بغباء من جديد، ذلك الأبله من أيوا.

سأل جيرارد، كما يفعل تحرّي المسلسلات الإذاعية: «تريدين مني أنْ أصل إلى كبد الحقيقة، أليس ذلك، إلسي؟ إنّه مُشوَّش فيما يتعلَّق بما فعل في ليلة يوم الخميس بعد أنْ غادرك. إنَّ لديه عدداً من المعارف الغامضين. أحدهم ربما كان أجيراً يعمل عند عدوٍّ لسام، جاسوساً أو ما شابه. ويمكن لتشارلز أنْ يكون قد أخبر أحداً بأنكما أنتِ وهو ستغادران في اليوم التالي».

«ماذا تقصد، يا آرثر، بقولك إنَّ تشارلز يعرفُ شيئاً حول هذا؟».

«إلسي، لن أُفاجأ إذا كان صحيحاً. هل ستُفاجئين أنتِ، حقاً؟».

غمغمَ برونو «اللعنة عليه!». اللعنة عليه لأنه قال هذا **لأمه**!

«سوف أخبرك حتماً بكل ما أسرَّ به إليّ».

اندفعَ برونو نحو الدّرَج لقد صدَمَه استسلامها. ماذا لو أنَّها بدأتْ تشكّ؟ إنَّ القتل جريمة لن تتقبّلها أبداً. ألم يُدرِكْ هذا في سانتا فِه؟ وماذا إذا تذكّرتْ غاي، وتذكّرتْ أنّه تحدث عنه في لوس أنجلوس؟ وإذا عثر

جيرارد على غاي في غضون الأسبوعَين التاليين، قد يجد عليه خدوشاً تدل على اجتيازه الغابة، أو رضّاً أو جرحاً قد يُثير ارتياباً. وسمع برونو خطى هربرت الخفيفة على طول رواق الطابق السفليّ، ورآه يظهر حاملاً صينيّة عليها مشروب والدته الذي تتناوله بعد الظهيرة، فتراجع وعاد إلى ارتقاء الدّرَج من جديد. كان قلبه ينبض كأنّه يخوض معركة، معركة غريبة متعدّدة الجوانب. هرعَ عائداً إلى غرفته الخاصّة، وتناول مشروباً كبيراً، واستلقى وحاول أنْ ينام.

استيقظَ مع اهتزازٍ مُفاجئ وابتعد من تحت يد جيرارد الموضوعة على كتفه.

قال جيرارد: «باي – باي»، وكَشَفَتْ ابتسامته عن أسنانه السُّفلى المُلطّخة بالتبغ. «سوف أغادر وفكّرتُ في توديعك».

قال برونو: «هل يستحق هذا أنْ توقِظ شخصاً من نومه؟».

قهقه جيرارد وتهادى خارجاً من الغرفة قبل أنْ يتمكّن برونو من قول عبارة مُهدِّئة يرغب حقاً في قولها. وغاص من جديد في الوسادة وحاولَ أنْ يستأنف قيلولته، ولكن عندما أغمضَ عينيه، رأى قامة جيرارد القصيرة والممتلئة بالبزّة ذات اللون البنيّ الباهت تسير على طول الأروقة، ينزلق كالطيف خلال أبوابٍ مُغلَقة، وينحني لكي يُفتّش الأدراج، ويقرأ الرسائل، ويُدوّن ملاحظات، ويستدير ليشير بإصبعه نحوه، مُسبّباً العذاب لأمّه بحيث كان مُستحيلاً ألّا يرّد له الصاع صاعين.

السابع والعشرون

هتفَ برونو عبر الطاولة: «ماذا تستشفّين منه أيضاً؟ إنّه يوجّه الاتّهام إليّ!».

«عزيزي، إنّه لا يتّهمك. إنه يؤدي عمله».

دفعَ برونو كرسيه إلى الخلف: «ألا ترغبين في الرقص، يا أمي؟».

«أنتَ لستَ في حالةٍ تسمح لك بالرقص».

لم يكن كذلك فعلاً وكان يعلم ذلك. «إذن أنا بحاجة إلى مشروب آخر».

«عزيزي، الطعام قادم في الحال».

آلمَه صبرها على الأمر كلّه، والهالات الأرجوانيّة تحت عينيها، إلى درجة أنّه لم يستطع أنْ ينظر أمامه. تلفّتَ برونو حوله بحثاً عن نادل. كان المكان شديد الازدحام في تلك الليلة، ومن الصعب تمييز نادل من أي شخص آخر. توقفتْ عيناه وتركّزتا على رجلٍ جالسٍ على مائدة على الجانب المقابل من حلبة الرقص بدا أقرب شَبَهاً بجيرارد. لم يتبيَّن الشخص الذي كان معه، أما الرجل نفسه فبدا أشبه بجيرارد من دون أدنى شك، بالرأس الأصلع والشّعر البنيّ الخفيف، ما عدا أنَّ الرجلَ كان يرتدي سترةً سوداء. أغمضَ برونو إحدى عينيه لكي يوقِف التفتُّت المتواتر للصورة.

«تشارلي، اجلس النادل قادم».

كان جيرارد **فعلاً**، وهو يضحك الآن، كأنَّ الشخص الآخر أخبره بأنه يُراقبهما. وتساءل برونو، للحظة واحدة، غاضبة، هل يُخبر أمّه أم لا؟.

ثم جلسَ وقال بعنف: «جيرارد جالسٌ هناك!».

«أحقاً؟ أين؟».

«إلى يسار الفرقة الموسيقيّة تحت المصباح الأزرق».

«لا أراه»، ومدَّتْ نفسها إلى أعلى «عزيزي، أنتَ تتخيل».

هتفَ برونو: «أنا **لا** أتخيّل!»، ورمى فوطته على طبق لحم البقر مع عُصارته.

قالت بصبر: «إنني أرى الشخص الذي تعني، وهو ليس جيرارد».

«أنتِ لا ترينه بوضوح كما أراه أنا! إنّه هو ولم تعُد لديّ شهيّة للأكل بوجودنا في مكانٍ واحد معه!».

تنهّدت: «تشارلز، هل ترغب في مشروب آخر؟ تناول مشروباً آخر. ها هنا نادل».

«لا أرغب حتى في مشروب بوجوده! أتريدين أنْ أُثبت لك أنّه هو؟».

«ما أهميّة ذلك؟ لن يُزعجنا. ربما هو يقوم بحراستنا».

«إذن تعترفين بأنّه هو! إنّه يتجسس علينا وهو يرتدي بزّة سوداء لكي يتمكّن من ملاحقتنا أينما ذهبنا!».

قالتْ بسرعة: «إنّه ليس آرثر على أيّة حال»، وهي تعصر ليمونة فوق السمك المطبوخ. «أنتَ تهلوس».

حدَّقَ برونو إليها فاغراً فمه: «ماذا تعنين بقولك مثل هذه الكلام لي، يا أمي؟» وتحشرج صوته.

«حبيبي، إنَّ الجميع ينظرون إلينا».

«لا يهمّني!».

قاطعته قائلة: «عزيزي، دعني أخبرك شيئاً أنتَ تُغالي في هذا الأمر وتفعل هذا لأنَّ هذا ما تريد. أنت تريد الإثارة لقد سبقَ أنْ شهدت ذلك».

انعَقَدَ لسان برونو تماماً إنَّ أمّه تنقلب ضدَّه. لقد سبقَ أنْ رآها تنظر إلى الكابتن كما تنظر إليه الآن.

تابعتْ قائلة: «ربما قلتَ شيئاً لجيرارد في ثورة غضب، وهو يعتقد أنكَ تتصرَّف بغرابة شديدة. في الواقع، هذا صحيح».

«أيُشكِّل هذا سبباً وجيهاً لاقتفاء أثري نهاراً وليلاً؟».

قالت بحزم: «عزيزي، لا أعتقد أنَّ هذا من شيم جيرارد».

نهضَ برونو واقفاً بحركة سريعة ومشى مترنّحاً نحو الطاولة التي يجلس عليها جيرارد، وأثبتَ لجيرارد أنّه لا يخشاه. اعترضَتْ طريقه طاولتان عند حافة حلبة الرقص، لكنّه كان قد تيقّن عندئذٍ من أنّه جيرارد.

رفعَ جيرارد رأسه نحوه ولوّحَ بيده بحركة وديّة، ونظر جاسوسه الضئيل إليه مُحدِّقاً. أما هو، هو وأمّه فكانا يدفعان ثمن ذلك! فغر برونو فاه، لا يعرف بالضبط ما يريد أنْ يقول، ثم استدار مترنّحاً. كان يعرف بالضبط ما يريد أنْ يفعل، يريد أنْ يتّصل بغاي. هنا والآن. في هذا المكان نفسه الذي يوجد فيه جيرارد. وكافح في شقّ طريقه عبر حلبة الرقص باتجاه حجيرة الهاتف المجاورة للبار. ارتطمتْ به أجساد الراقصين البطيئة، التي تدور بجنون ودفعته إلى الخلف كأنهم موجة في البحر، وأربكته. واندفعتْ الموجة نحوه من جديد. مرحةً لكنها لا تُقهَر، تدفعه أكثر إلى الخلف، واستعاد ذكرى لحظة مُشابهة مرَّ بها في أثناء إقامة حفلة في منزله وهو صبي صغير،

عندما حاول أنْ يشقّ طريقه خلال الراقصين نحو أمّه في الطرف المقابل من غرفة الجلوس.

استيقظَ برونو في الصباح الباكر من اليوم التالي، وهو في السرير، وبقيَ متمدداً بسكون، يستعيد اللحظات الأخيرة التي استطاع أنْ يتذكّرها. كان يعلم أنّه فقد وعيه. هل اتصل هاتفيّاً بغاي قبل أنْ يفقد وعيه؟ إنْ كان قد فعل، فهل استطاع جيرارد أنْ يقتفي أثرها؟ إنّه حتماً لم يتّصل بغاي وإلّا لتذكّر ذلك، ولكن ربما اتّصل بمنزله. ونهضَ لكي يسأل أمّه إنْ كان قد فقد وعيه وهو في حجرة الهاتف. ثم عاد إليه الارتعاش ودخل غرفة الحمّام. تدفَّقَ الويسكي والماء على وجهه عندما رفع الكأس. استند إلى باب الحمّام. كان الارتعاش قد أصبح ينتشر على كامل جسمه، في كل الأوقات، ويتسبَّب في إيقاظه باكراً أكثر فأكثر، وأصبح يضطر إلى تناول المزيد فالمزيد من المشروب ليلاً لكي يتمكّن من النوم.

وبين الجرعات كان هناك جيرارد.

الثامن والعشرون

انتابَ غاي، للحظة، شعور ضعيف، كما يستعيد المرء ذكرى إحساسٍ ما، بالأمان وبالاكتفاء الذاتيّ وهو جالس على طاولة عمله التي يُرتِّب عليها بعناية كتبه ودفاتر ملاحظاته عندما كان في المستشفى.

خلال الشهر الأخير، غسل وأعاد دهن كل رفوف الكتب، ونظَّفَ سجادته وستائره، وغسل مطبخه الصغير إلى أنْ أصبح البورسلان والألومنيوم يلمعان. وفكَّرَ وهو يصبّ المياه القذرة في البالوعة، في أنّه يفعل ذلك كلّه بدافع الشعور بالذنب، ولكن بما أنّه لم يعد ينام أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات في الليلة الواحدة، وبعد أنْ يبذل مجهوداً جسديّاً، رأى أنَّ تنظيف المنزل هو سلوك أكثر فائدة من إرهاق المرء نفسه عبر التسكّع في شوارع المدينة.

نظر إلى الصحف على السرير التي لم يفتحها بعد، ثم نهضَ واقفاً واستعرضَ بسرعة صفحاتها. لكنَّ الصحف كانت قد توقفتْ عن ذِكر جريمة

القتل منذ ستة أسابيع. لقد أزال كل الدلائل - مزَّقَ القفّاز الأرجواني ثم تخلّصَ منه مع مياه المرحاض، ومزَّقَ المعطف (معطف جيد، كان قد فكَّرَ في إعطائه إلى أحد المتسولين، ولكنْ مَنْ الذي تبلغ به السفالة إلى درجة التفكير في إعطاء حتى لمتسوّلٍ معطَفَ قاتل؟) والبنطلون مُزقاً صغيرة وتخلَّصَ منها بالتدريج مع القمامة. وألقى المسدس الكبير من فوق جسر مانهاتن، ورمى حذاءه من فوق جسرٍ آخر. والشيء الوحيد الذي لم يتخلَّص منه كان المُسدّس الصغير.

ذهبَ إلى طاولة مكتبه لكي ينظر إليها. أشاع ملمس متانتها على أطراف أصابعه الارتياح في نفسه. إنّ المسدس هو الدليل الوحيد الذي لم يتخلَّص منه، الدليل الذي يحتاجون إليه إذا عثروا على برونو. كان يعرف بالضبط لماذا احتفظَ بالمسدس: إنّه *ملكه الخاصّ*، جزء منه، وهو اليد الثالثة التي نفّذتْ جريمة القتل. إنه هو نفسه عندما كان في سن الخامسة عشرة واشتراه، هو عندما أحبَّ ميريام واحتفظَ به في غرفتهما في شيكاغو، وكان ينظر إليه بين حينٍ وآخر من خلال أشدّ لحظاته رضاً، وعمقاً. إنه أفضل ما فيه، بمنطقه الآليّ، المُطلَق. ثم قال في نفسه، إنّه يُشبهه في مقدرته على القتل.

إذا تجرّأ برونو على الاتّصال به من جديد، فسوف يقتله، هو أيضاً. كان غاي متيقّناً من قُدرته على فعل ذلك. وبرونو أيضاً يعلم هذا. لطالما كان برونو قادراً على قراءة ما يدور في خلده. كان صمت برونو الآن يوفّر له المزيد من الارتياح أكثر من صمت الشرطة. في الحقيقة، لم يكن قلقاً البتّة من عثور الشرطة عليه، ولم يقلق أبداً. لطالما كان القلق يسكن داخله، بوصفه معركة نفسه ضد نفسه، ويُعذّبه بشدّة احتمالُ تدخّل القانون. لقد كان قانون المجتمع هيّناً بالمقارنة مع قانون الضمير. قد يذهب إلى القانون ويعترف، لكنَّ الاعتراف بدا شيئاً ضئيلاً، مجرد إيماء، وحتى طريقة سهلة للخروج من المأزق، بدا تجنّباً للحقيقة. إذا قام القانون بإدانته، فسوف يكون ذلك مجرد إيماء.

تذكَّرَ أنّه كان قد قال لبيتر ريغز قبل ذلك بعامَين: «إنني لا أكنّ أي احترام للقانون». لماذا يحترم تمثالاً يُسميّه هو وميريام زوجاً وزوجة؟ كان قد قال لبيتر ريغز وهو في الخامسة عشرة بفهمه الضحل: «إنني لا أكنّ أي احترام للكنيسة». وطبعاً كان يعني بذلك أصحاب المذهب المعمداني في

ميتكالف. وفي سن السابعة عشرة اكتشفَ الله وحده. اكتشفَ الله من خلال مواهبه الخاصّة في اليقظة، ومن خلال حسّ بوحدة الفنون كلّها، ومن ثم وحدة الطبيعة، وأخيراً العِلم - وحدة قِوى الخلق والتنظيم كلها في العالم. آمنَ بأنَّه ليس في استطاعته أنْ يُنجِز عمله من دون إيمان باللّه. وأين كان إيمانه عندما قام بعمليّة القتل؟ لقد تخلّى عن الله، لكنَّ الله لم يتخلَّ عنه. وبدا له أنّه لم يحمِل أي كائن بشريّ، أو احتاج إلى أنْ يحمل، شعوراً بالذنب أكثر منه، وأنّه ما كان يمكن أنْ يحمله ويتعايش معه إلّا إذا كانت روحه ميّتة أصلاً، وأنَّ ما تبقّى منه الآن ليس أكثر من قشرة خارجيّة.

استدار بصورة خرقاء لكي يواجه طاولة العمل، وخرج من بين أسنانه هسيس، ووضعَ يده، بعصبيّة، وبنزق، على فمه. ومع ذلك، شعر بأنَّه لا يزال هناك شيء سوف يظهر، سوف يضع يده عليه، عقابٌ قاس، معرفة شيء أشدّ مرارة.

وفجأة انبجس منه همس: «إنني لا أعاني بالقدر الكافي!». ولكن لماذا همسَ؟ أكان يشعر بالخزي؟ ثم قال بصوتٍ عاديّ، وهو يتلفّتْ حوله وكأنّه توقّعَ أنْ تكون هناك أُذُن تسمعه: «إنني لا أعاني بالقدر الكافي!». وكان يمكن أنْ يصرخ وهو يقولها، لو لم يشعر بأنّها تنطوي على نبرة مناشدة، واعتبر نفسه غير جدير بالمناشدة للحصول على أي شيء، من أي شخص.

على سبيل المثال، كان لا يزال يفكّر في كتبه الجديدة، الكتب الجديدة الجميلة التي اشتراها في ذلك اليوم - ويحبّها. لكنّه شعر بأنّه تركها هناك قبل وقتٍ طويل على طاولة عمله، كما ترك شبابه. قال في نفسه، يجب أنْ يذهب في الحال ويعمل. لقد فُوِّضَ لوضع مُخطّط لمستشفى. وتجهَّم في وجه الركام الصغير من الملاحظات التي دوّنها تواً، القابعة تحت بقعة ضوء مصباحه الشبيه بعنق الإوزّة. وبصورة ما لم يبدُ تفويضه شيئاً حقيقيّاً. وقريباً سوف يعود إلى وعيه ويكتشف أنَّ كل تلك الأسابيع كانت وهماً، حلماً من التمنّي. مستشفى. أليست مستشفى مناسِبة حتى أكثر من سجن؟ وتجهَّمَ بحيرة، عالِماً أنَّ عقله قد ضلَّ بشكلٍ عنيف، وأنَّه قبل أسبوعَين عندما باشر بوضع مُخطط للجزء الداخليّ للمُستشفى لم يفكّر مرّة واحدة في الموت، وأنّ ما كان يشغله هو المُستلزمات الإيجابيّة للصحّة والاستشفاء وحدها.

وتذكَّرَ فجأة أنّه لم يكن قد أخبر آنْ عن مشروع المستشفى، ولهذا السبب بدا الأمر غير حقيقيّ. لقد كانت هي جرعته من الواقعيّة، وليس عمله. ولكن من ناحية أخرى، لِمَ لمْ يُخبرها؟

يجب أنْ يذهب في الحال ويعمل، ولكنّه الآن يشعر في ساقيه بالطاقة المسعورة التي كان يشعر بها في مساء كل يوم، الطاقة التي دفعته إلى الخروج إلى الشوارع أخيراً في محاولة عقيمة لتبديدها. كانت تلك الطاقة تُخيفه لأنه لم يستطع أنْ يعثر على أيّة مهمّة يمكن أنْ تمتصّها، ولأنّه كان أحياناً يشعر بأنَّ المهمّة قد تكون انتحاره. ومع ذلك، في عمق أعماقه، ورُغماً عن إرادته، كانت جذوره ما تزال متشبّثة بالحياة، وشعر بأنَّ الانتحار هو مهرب الجبناء، وتصرّف خالٍ من الرحمة في حق الذين أحبّوه.

فكَّرَ في أمّه، وشعر بأنّه لا يمكن أنْ يسمح لها بأنْ تعانقه بعد الآن. وتذكّر أنّها أخبرته بأنَّ الرجال كلّهم طيّبون على قدم المُساواة، لأنَّ لكل الرجال أرواحاً، والروح طيّبة بأكملها. وقالتْ: إنَّ الشرّ دائماً ينبع من الظواهر الخارجيّة. وهذا ما آمن به حتى بعد مرور أشهر على موت ميريام، عندما رغبَ في اغتيال عشيقها ستيف. وهذا ما آمن به حتى وهو على متن القطار، يقرأ لأفلاطون. وفي داخل نفسه، كان الحصان الثاني لسائق العربة دائماً مُطيعاً في أول الأمر. أمّا الآن فقال في نفسه، لكنَّ الحب والكره، والخير والشر، يتعايشون معاً جنباً إلى جنب في القلب الإنسانيّ، وليس فقط بنِسَبٍ متفاوتة في رجل ما وآخر، بل الجميع أشرار والجميع طيّبون. ويكفي أنْ يبحث المرء عن القليلِ من كليهما لكي يعثر على كل شيء، يكفي أنْ يخدش المرء السطحَ. إنَّ بجوار كل شيء نقيضاً له، ومقابل كل قرار سبب لمناقضته، ومقابل كل حيوان هناك حيوان آخر يُدمّره، وهناك ذَكَر وأنثى، الموجب والسالب. لقد كان انقسام الذرة هو الدمار الوحيد الحقيقيّ، كسرُ القانون العالمي للوحدة. لا شيء يوجد إلّا مع نقيضه المُلازِم له. أيمكن وجود مساحة في مبنى، من دون أغراض تملأها؟ وهل توجد الطاقة من دون مادّة، أو المادة من دون طاقة؟ إنَّ المادة والطاقة، الخمول والحيويّة، اللذين كانا يُعتبَران مُتناقضين، أصبح معروفاً الآن أنّهما شيء واحد.

وبرونو، هو وبرونو. كل واحد منهما هو ما لم يختر الآخر أنْ يكونه، هو الذات المُهمَلة، وما ظنَّ أنّه يكرهه ولكن ربما في الواقع أحبّه.

شعر لبرهة من الزمن كأنّ به مسّاً من الجنون. فكَّرَ، إنَّ الجنون والعبقريّة غالباً ما يتراكبان، أيضاً. ولكن ما أشد ابتذال الحياة التي يعيشها معظم الناس! في قلب الماء، كغالبيّة السمك!.

كلا، هناك تلك الطبيعة التي تسمح بالازدواجيّة حتى في أصغر بروتون وإلكترون داخل أصغر ذرّة. والعِلم الآن يعمل على شقّ الإلكترون، وربما لا يستطيع ذلك لأنّه لا يستند إلّا على فكرة: الحقيقة الواحدة والوحيدة، وهي أنَّ النقيض حاضرٌ دائماً. مَنْ يعلم إنْ كان الإلكترون هو مادة أم طاقة؟ ربما الله والشيطان يرقصان معاً يداً بيدّ حول كل إلكترون!.

رمى السيجارة باتجاه سلّة المهملات وأخطأ.

عندما أطفأ العقب داخل السلّة، رأى الصفحة المسحوقة التي دوّنَ عليها في الليلة السابقة إحدى اعترافاته الممسوسة بالشعور بالذنب. وجرّته بصورة مُثيرة للاشمئزاز إلى حاضرٍ انقضَّ عليه من كل جانب - برونو، آنْ، غرفته، هذه الليلة، والمؤتمر المُزمَع عقده مع هيئة المُستشفيات في الغد.

مع حلول منتصف الليل، عندما شعر بالنعاس، غادر طاولة عمله وتمدَّد بحذر على سريره، ولم يجرؤ على خلع ملابسه لئلا يوقِظ نفسه من جديد.

حلُمَ بأنّه استيقظ في الليل على صوت تنفّسٍ بطيء وحذر كان يسمعه كل ليلة في غرفته بينما يحاول أنْ ينام. والآن وصله من خارج نافذته. كان أحدهم يتسلّق المنزل. وفجأة قفز شخص طويل القامة يضع قلنسوة كبيرة بحجم جناحيّ خفّاش إلى داخل الغرفة.

قال الشخص المجهول بلهجة عاديّة: «ها قد وصلتُ».

قفز غاي خارج سريره لكي يُقاتله: «مَنْ أنت؟»، واكتشفَ أنّه برونو.

قاومه برونو أكثر مما قاتله. لو أنَّ غاي استخدم أقصى قواه، لثبَّتَ كتفيّ برونو على الأرض، ودائماً في حلمٍ يتكرّر، كان غاي يستخدم أقصى قوة لديه، ويثبّتَ غاي برونو إلى الأرض برُكبتيه ثم يخنقه، لكنَّ برونو كان يبقى مُكشّراً في وجهه وكأنّه لا يشعر بأي شيء.

أخيراً يُجيب برونو: «أنت».

استيقظ غاي ثقيل الرأس ويتعرَّق. اعتدلَ في جلسته مرتفعاً أكثر، منتبهاً بحذر لغرفته الخالية. هنا سمع أصواتاً رطبة لزجة في الغرفة، وكأنَّ أفعى تزحف خلال الفناء الإسمنتيّ في الأسفل، تصفع تلافيف جسمها الرطبة على الجدران. وفجأة تبيّنَ له أنّه صوت هطل مطر، مطر صيفيّ، فضيّ وخفيف، وغاص من جديد في وسادته. وطفقَ يبكي بهدوء. فكّرَ في المطر، المنهمر بزاوية مائلة على الأرض. وكأنّه يقول: أين هي نباتات الربيع لكي أرويها؟ أين الحياة الجديدة التي تعتمد عليّ؟ ***أين الكرمة النضرة، آنْ، كما رأينا الحب في شبابنا؟*** كما كتبَ في الليلة السابقة على الورقة المُجعّدة. سوف يجدُ المطرُ الحياةَ الجديدة في انتظاره، مُعتمدةً عليه. وما سقط في فناء منزله كان فقط ما فاض منه. ***أين الكرمة النضرة، يا آنْ***...

تمدَّد وعيناه مفتوحتان إلى أنْ أرخى الفجر قبضة أطراف أصابعه عن عتبة النافذة، كالشخص الغريب الذي قفز إلى الداخل. كما فعل برونو. ثم نهضَ وأضاء الأنوار، وأسدلَ الستائر وعاد إلى عمله.

التاسع والعشرون

ضغط غاي قَدَمَه على المكبح، لكنَّ السيارة قفزتْ، تصرخ، نحو الطفل. سمع صوت قعقعة خفيفة لدراجة هوائيّة تسقط. خرج غاي مُسرِعاً ودار حول السيارة، فارتطمت رُكبته بشكلٍ موجِع على المِصدّ الأماميّ، وجرَّ الطفل ورفعه من كتفيه.

قال الصبيّ الصغير: «أنا بخير».

هرعتْ آنْ، شاحبة اللون كما حال الصبيّ. «أهو بخير، غاي؟».

«أعتقد ذلك». قبضَ غاي على الدولاب الأماميّ للدراجة برُكبتيه وعدَّل من وضعيّة المقود، شاعراً بعينيّ الطفل الفضوليّتين تنظرانْ إلى يديه اللتين ترتعشان بعنف.

قال الصبي: «شكراً لك».

راقبه غاي وهو يمتطي الدراجة وينطلق بها وكأنّه يشهد معجزة. نظرَ إلى آنْ وقال بهدوء، مع تنهّد مرتعش: «لم يعُد في مقدوري القيادة اليوم».

أجابتْ، بهدوء كما فعل هو، «لا بأس»، لكنَّ غاي كان يعلم أنَّ الشكَّ يملأ عينيها، عندما استدارتْ لتذهب وتجلس على مقعد السائق.

اعتذر غاي لآل فوكنر حالما عاد إلى السيارة، فغمغموا بشيء عن أنَّ مثل تلك الحوادث تقع لأي سائق بين حينٍ وآخر. لكنَّ غاي شعر بفحوى صمتهم الحقيقيّ من خلفه، صمت الصدمة والرعب. لقد رأى الصبيّ قادماً من آخر جانب الطريق. وكان الصبي قد توقَّف من أجله ليمرّ، لكنَّ غاي اتّجه بالسيارة نحوه وكأنّه يقصد أنْ يصدمه. فهل هذا صحيح؟ أشعل سيجارة بيدٍ مرتعشة. قال في نفسه: لا شيء غير سوء التناسق، وقد شهده مرات عديدة خلال الأسبوعَين الأخيرين - الارتطام بأبوابٍ دوّارة، وعجزه حتى عن وضع قلم بمُحاذاة مِسطرة، وكثيراً ما انتابه الإحساس بأنه ليس في ***المكان*** الذي هو فيه ويقوم بالعمل الذي يقوم به. وعاد من جديد متجهّماً إلى القيام بالعمل الذي يقوم به الآن، وهو قيادة سيّارة آنْ قاصداً ألتون لمعاينة المنزل الجديد. لقد انتهى بناء المنزل. وركَّبَتْ آنْ وأمّها الستائر والأقمشة في الأسبوع السابق. كان اليوم هو الأحد، قُرابة الظهيرة. وكانت آنْ قد أخبرته بأنها استلمَتْ رسالة رقيقة من أمّه بالأمس، وأنَّ أمّه أرسلتْ إليها ثلاثة مآزر محبوكة والكثير من الأطعمة المحفوظة المصنوعة في المنزل لتبدأ بها ملء رفوف مطبخها. فهل يتذكَّر هذا كلّه؟ إنَّ كل ما يبدو أنّه يتذكره هو الرسم الأوليّ لمستشفى برونكس الذي في جيبه، الذي لم يُخبر آنْ عنه بعد. وتمنّى لو يذهب إلى مكانٍ ما ولا يقوم بأي شيء غير العمل، ولا يرى أحداً، ولا حتى آنْ. استرقَ نظرةً إليها، إلى وجهها المرفوع بهدوء ذي التقوُّس القليل على جسر الأنف. كانت يداها القويتين النحيلتين تُديران المقود بخبرة إلى هذه الناحية وتلك. وفجأة تيقّنَ من أنّها تحبّ سيارتها أكثر من حبّها له.

قالتْ آنْ: «إنْ كان بينكم أحد جائع فليسمعني صوته الآن. هذا المتجر الصغير هو الأخير قبل قطع أميالٍ طويلة».

ولكن لا أحد كان يشعر بالجوع.

قال والدها: «إنني أتوقَّع أنْ أُدعى إلى العشاء على الأقلّ مرَّة في العام، يا آنْ. ربما إلى وجبة من البط أو السمّان وأسمع أنَّ الصيدَ هنا وفير، هل أنت بارع في استخدام البندقيّة؟».

أعادت آنْ السيّارة إلى الطريق المؤدية إلى المنزل.

أخيراً قال غاي، بعد أنْ تلعثمَ مرّتين، «بقدرٍ معقول، يا سيدي». كان قلبه يدفعه بقوة إلى الفرار، كان متأكّداً من أنه لا يمكن أنْ يُخفِّف من اندفاعه إلّا بالركض.

ابتسمتْ آنْ له «غاي!». وأوقفتْ السيارة، وهمستْ له: «عندما تعود إلى المنزل تناول جرعة من مشروب. هناك زجاجة من البراندي في المطبخ»، ولمستْ رسغه، فأبعدَ غاي يده بحركة سريعة، لا إراديّة.

قال في نفسه: يجب أنْ يتناول بعض البراندي أو ما شابه. لكنّه كان يعلم أيضاً أنّه لن يشرب أي شيء.

مشتْ السيدة فوكنر إلى جواره وهو يجتاز المرج الجديد، «إنه جميل بكل بساطة. وآمل أنْ تكون فخوراً به».

أومأ غاي برأسه إيجاباً. كان بناؤه قد اكتمل. ولم يعُد مُضطراً إلى تخيّله كما فعل وهو في الخزانة البنيّة في غرفة الفندق في المكسيك. وكانت آنْ ترغب في استخدام حجارة القرميد المكسيكيّة في المطبخ. كان معظم ما تلبسه آنْ بين حين وآخر مكسيكيّ الهويّة. الحزام، وحقيبة اليد، والصندل المكسيكيّ. وكانت التنورة الطويلة المُزركشة التي بدت حينئذٍ من تحت المعطف الجوخ مكسيكيّة الطراز. وشعر بأنّه لا بدّ انتقى فندق مونتيكارلو لكي تتلبّسه الغرفة ذات اللون الورديّ والبنّيّ الشنيع ووجه برونو في الخزانة البنيّة حتى آخر حياته.

لم يتبقَّ الآن أكثر من شهر على زواجهما ما زالت هناك أربع ليالٍ لأيام الجمعة، وبعدها تجلس آنْ على الكرسي الأخضر المُربَّع الكبير بجوار الموقد، وسوف يُناديه صوتها وهي في المطبخ المكسيكيّ الطِراز، وسوف يعملان معاً في الاستديو في الطابق العُلويّ. هل يحقّ له أنْ يسجنها معه؟ وقفَ يُحدِّقُ إلى غرفة نومهما مُدرِكاً بغموض أنها تبدو مُكدَّسة بالأغراض، لأنَّ آنْ قالتْ إنها «لا تريد» غرفة نوم «حديثة».

همسَت له: «لا تنس أنْ تشكر أمّي على قطع الأثاث، هلّا فعلت؟ كما تعلم، أمي هي التي أهدتها لنا».

كانت تقصد طبعاً أثاث غرفة النوم بلون الكرز. وتذكَّرَ أنها أخبرته بهذا في صباح ذلك اليوم على مائدة الإفطار، وتذكّر يده المُضمَّدة، وآن بثوبها الأسود الذي ارتدته للذهاب إلى حفلة هيلين. ولكن عندما كان ينبغي أنْ يقول شيئاً عن الأثاث، لم يفعل، ومن ثم فات الأوان على ذلك. وشعر بأنّه لا بدّ أنهما كانا يعلمان أنَّ ثمة خطباً ما. كل شخص في العالم يجب أنْ يعلم. كان فقط ينتظر حكم الإعدام، وأُرجئ ريثما يأتي ثقلٌ ما ليقع عليه ويقتله.

قال السيد فوكنر، وهو يُقدِّم له سيجارة: «أتفكِّر في تولي عمل جديد، يا غاي؟».

لم يرَ غاي شكله هناك عندما قفز إلى الشرفة الجانبيّة. ومع حسّ بتبرير نفسه أخرج الورقة المطويّة من جيبه وعَرَضها عليه، وشرحها له. تكثَّفَ حاجبا السيد فوكنر، الكثّان، الرماديّان، وهو يفكِّر مليّاً. قال غاي في نفسه: لكنّه لا يُصغي إليّ البتّة. إنّه ينحني أكثر فقط لكي يرى ذنبي الشبيه بدائرة من الإحساس بالذنب تكتنفني.

قال السيد فوكنر: «الغريب أنَّ آنْ لم تُخبرني أيّ شيء عن الأمر».

«إنني أحتفظ به لنفسي».

قال السيد فوكنر وهو يضحك: «أوه، تجعله هدية عُرس؟».

لاحقاً، استقلَّ آل فوكنر السيارة وعادوا لتناول شطائر في ذلك المتجر الصغير. كان غاي قد ملَّ المنزل، ورغب في أنْ تتمشى آنْ معه إلى أعلى التلّ الصخريّ.

قالتْ: «سآتي حالاً تعال إلى هنا» وقفتْ أمام الموقد الحجريّ العالي، ووضعتْ يديها على كتفيه ونظرتْ إلى وجهه، بشيء من الخوف، لكنها كانت ما تزال تتوهج بشعورها بالفخر بمنزلهما الجديد. قالت له، وهي تُمرِّر طرف إصبعها على طول منخفضات وجنته: «هذه التجاعيد تزداد عمقاً، إنْ كنتَ لا تعلم سوف أجعلك تأكل».

تمتمَ: «ربما أنا بحاجة إلى القليل من النوم». كان قد أخبرها بأنَّ عمله

أصبح يتطلَّب منه تكريس ساعات طويلة. كان قد أخبرها، من دون الأشياء كلها، أنه يقوم ببعض الأعمال للوكالة، أعمالاً بالأجرة، كما فعل مايرز، لكي يكسب بعض النقود.

«حبيبي، نحن – نحن أثرياء. فما الذي يُزعجك؟».

كانت قد سألته مرات عِدَّة إنْ كان السبب هو توتره من يوم العرس، إنْ كان يرغب في الزواج منها. وإذا سألته مرَّة أخرى، فقد يوافق، لكنه كان يعلم أنّها لن تسأله الآن، أمام موقدهما. قال بسرعة: «لا شيء يُزعجني».

ناشدته: «إذن هلّا توقّفتَ عن إرهاق نفسك بالعمل؟»، ثم عانقته، بلفتة عفويّة، بدافع فرحها وحدسها المُسبق.

قبّلها، بحركة آليّة –كأنّه أمرٌ لا أهميّة له البتّة، كما قال في نفسه– لأنه كان يعلم أنها توقّعتْ منه ذلك. قال في نفسه، سوف تلاحظ، وهي دائماً تلاحظ أقلّ اختلاف في القُبلة، وكان قد مرَّ وقت طويل منذ أنْ قبّلها آخر مرَّة. وعندما لم تقُل أيّ شيء، بدا له فقط أنَّ التغيُّر الذي طرأ عليه كان ببساطة هائلاً إلى درجة لا يستحق معها الذّكر.

الثلاثون

قطع غاي أرض المطبخ وانعطفَ نحو الباب الخلفيّ. «كان تصرّفاً متهوراً مني أنْ أدعو نفسي في يومْ عطلة الطبّاخة».

«لماذا تقول إنّه تصرّف متهوّر؟ سوف تأكل كما نفعل في ليالي أيام الخميس، هذا كل ما في الأمر». أحضرَتْ له السيدة فوكنر قطعة من الكرفس الذي كانت تغسله عند المغسلة. «ولكن سيخيب أمل هيزل لأنها لم تكن حاضرة لتصنع الغُريّبة بيديها. سوف تُضطر إلى أكلها من يديّ آنْ هذه الليلة».

خرج غاي. كانت فترة بعد الظهيرة وضّاءة بفعل أشعة الشمس، على الرغم من أنَّ السياج الشائك كان يرمي قضباناً طويلة منحرفة من الظل على مساكب نبات الزعفران وزهر السوسن. يستطيع أنْ يرى فقط شَعر آنْ المربوط إلى الخلف واللون الأخضر الباهت لسترتها الصوفيّة خلف الطبقة العليا من بحر المرج الممتد. كم من مرَّة جمع النعناع والبقلة المائيّة هناك

مع آنْ، من الجدول المتدفِّق من الغابة حيث تقاتل مع برونو. وذكَّرَ نفسه بأنَّ برونو أصبح من الماضي، انقضى، اختفى. ومهما كان الأسلوب الذي لجأ إليه جيرارد، فإنّه جعل برونو يخشى الاتصال به.

راقبَ سيارة السيد فوكنر السوداء الأنيقة تدخل الممشى وتتقدَّم ببطء إلى داخل المرآب المفتوح. تساءلَ فجأة، ماذا يفعل هنا، كيفَ خدَعَ الجميع، حتى الطبّاخة المُلوّنة التي تحبّ أنْ تصنع الغُريِّبة له لأنه، في مناسبة واحدة ربما، مدح حلوياتها؟ انتقلَ ليحتمي بشجرة الإجاص، حيث لا آنْ ولا والدها يمكن أنْ يُشاهداه بسهولة. قال في نفسه: إذا خرج من حياة آنْ، فأي فرقٍ سيُحدثُ في حياتها؟ إنها لم تتخلَّ عن أصدقائها، أصدقائها وأصدقاء تيدي، الشبّان الصالحين للانتخاب، الشبان الوسيمين الذين يلعبون في ملاعب البولو، وفي النوادي الليليّة، بلا إثارة الشغب، قبل أنْ ينخرطوا في مجال أعمال آبائهم ويتزوج كل منهم إحدى الصبايا الجميلات اللواتي يُزيِّنَّ نواديهن الريفيّة. آنْ كانت مختلفة، طبعاً، وإلّا لما جذبَتْ اهتمامه أصلاً. لم تكن إحدى الصبايا الجميلات اللائي يعملن في مجالٍ ما مدة عامَين فقط لتقول إنها نجحتْ، ومن ثم تتزوج أحد الشبّان الجديرين بالانتخاب. ولكن ألنْ يكون وضعها هو نفسه، أنْ تكون هي نفسها، من دونه؟ لطالما أخبرته بأنه مُلهِمها، هو وطموحه، ولكنها كانت تتمتع بالموهبة نفسها، ولديها الحافز نفسه يوم قابلها، أما كان يمكن أنْ تستمرّ على ذلك المنوال؟ وأما كان رجلٌ آخر، مثله لكنّه جديرٌ بها، عثر عليها؟ وبدأ يسير مُقترباً منها.

هتفَتْ له: «كدتُ أنتهي. لِمَ لم تأتِ قبل الآن؟».

قال بارتباك: «لقد أسرعت».

«كنتَ تتكئ على المنزل منذ عشر دقائق».

كان فرع صغير من بقلة الماء يطفو مع مجرى الجدول، فقفز لكي يُنقذه. شعر كأنّه حيوان الأبوسوم، يُخرجه من الماء. «أعتقدْ أنّي سأقبل عملاً قريباً، يا آن».

رفعَتْ بصرها، مذهولة. «عملاً؟ تعني في شركة؟».

كانت عبارة تُستخدَم في مجال أخرى في الهندسة المعماريّة. «عملاً في

شركة». أومأ برأسه إيجاباً، من دون أنْ ينظر إليها. «أشعر بأنّه يُعجبني. إنه عمل ثابت والراتب مُجزٍ».

ضحكتْ قليلاً «ثابت؟ بينما ينتظرك عملُ عامٍ كامل في المستشفى؟».

«لستُ مُضطراً إلى التواجُد في غرفة الرسم طوال الوقت».

نهَضَتْ واقفة. «أقبلْتَه من أجل النقود؟ لأنكَ لم تتلقَّ نقود المستشفى؟».

أشاح بوجهه عنها وخطا خطوة واسعة على الضفّة الرطبة. قال بصوت منخفض: «ليس بالضبط ربما جزئيّاً». كان قد قرَّر قبل أسابيع أنْ يُعيد أجره إلى إدارة المستشفيات بعد أنْ يدفع رواتب طاقمه.

«لكنكَ قلتَ إنه لا يهمّ، يا غاي. نحن الاثنان وافقنا - في استطاعتك تحمّل التكاليف».

بدا كأنَّ العالمَ بأسره قد خيَّمَ عليه الصمت فجأة، وكان يُصغي. راقبها وهي ترفع شعرها إلى الخلف وتترك بقعة من التراب الرطب على ساعدها. «ليس إلى وقتٍ طويل. ربما لستة أشهر، وربما أقلّ من ذلك بكثير».

«ولكن لماذا تقبله أصلاً».

«يُعجبني!».

«لماذا يُعجبك؟ لماذا تريد أنْ تصبح شهيداً، يا غاي؟».

لم يقُلْ شيئاً.

تخلَّصَتْ الشمس الغاربة من بين الأشجار وتدفّقَتْ فجأة عليهما. ازدادَ تجهّم غاي، مُظلّلاً عينه بالجبين الذي يحمل ندباً أبيض من الغابة - قال في نفسه: الندبة التي ستبرز دائماً. ورفسَ حجراً على الأرض، من دون أنْ يتمكّن من زحزحته من مكانه. دعْها تعتقد أنَّ العمل ما زال يشكّل جزءاً من إحساسه بالإحباط بعد مشروع بالميرا. دعْها تعتقد أيّ شيء.

قالت: «غاي، أنا آسفة».

نظر غاي إليها. «آسفة؟».

اقتربتْ منه. «آسفة. أعتقد أنني أعلم السبب».

كان لا يزال يُبقي يديه داخل جيبه «ماذا تعنين؟».

انتظرتْ قليلاً. «حسبتُ أنَّ هذا كلّه، كل اضطراب حالك بعد مشروع بالميرا -أعني، حتى من دون عِلمك- يعود في منشئه إلى ميريام».

استدار بسرعة مبتعداً: «كلا، كلا، ليس هذا هو السبب»، قالها بكل صدق، ومع ذلك بدت كأنّها كذبة! أقحمَ أصابعه في شَعره وجرفه إلى الخلف.

قالتْ آنْ بنعومة وبوضوح: «اسمع، يا غاي، لعلّك لا ترغب في إقامة العرس بقدر ما تعتقد أنك ترغب. إنْ كنتَ تعتقد أنَّ هذا جزء من شخصيتك، اعترِف به، لأنَّ في استطاعتي أنْ أتقبّله بسهولةٍ تفوقُ تقبّلي لفكرة العمل تلك. إنْ كنتَ ترغب في الانتظار -انتظر- أو إذا كنتَ ترغب في فسخ الزواج من أصله، فليكنْ».

كان قد اتّخذَ قراره، ومنذ وقت طويل. شعر بهذا في قلب هدوئها. في استطاعته أنْ يتخلّى عنها في هذه اللحظة. والألم الناتج عن ذلك سوف يقضي على ألم الإحساس بالذنب.

هتفَ والدها من الباب الخلفيّ: «هيه، آنْ! ألن تنزلي؟ أنا بحاجة إلى ذلك النعناع!».

ردّتْ هاتفة: «امنحني دقيقة، يا أبي! ما رأيك، يا غاي؟».

ضَغَطَ لسانه على سقف فمه. قال في نفسه: إنها شمس غابتي المُظلِمة لكنّه لم يتمكّن من قول ذلك. واكتفى بقول: «لا أستطيع أنْ أقول».

«حسن - أنا أريدك أكثر من أي وقت مضى، لأنكَ تحتاج إليّ الآنْ أكثر مما احتجتَ إليّ في السابق»، وضغطَتْ النعناع وبقلة الماء على يده. «هل تريد أنْ تحمل هذه إلى أبي. وشاركْه المشروب. يجب أنْ أغيِّر ملابسي»، واستدارتْ وانطلقتْ باتّجاه المنزل، ليس بسرعة، بل بسرعة فائقة جداً بالنسبة إلى غاي بحيث لم يتمكّن من متابعتها.

شرب غاي عدَّة كؤوس من مشروب جلّاب النعناع. كان والد آنْ قد صنعه بالطريقة التقليديّة، جاعلاً كؤوس السُّكَّر والبوربون والنعناع متوفرة طوال النهار، وكانت تزداد برودة وتجمّداً، وسأل غاي إنْ كان قد سبقَ له أنْ تذوّقَ أطيب منه في أي مكان آخر. ولم يتمكّن غاي من قياس الدرجة التي هبط إليها توتّره، ولكن كان من المستحيل عليه أنْ يسكر. كان قد جرَّبَ ذلك مرّاتٍ عِدَّة ومرِض، من دون أنْ يسكر.

في لحظةٍ ما بعد الغسق، وهو على المصطبة مع آنْ، تخيَّلَ أنّه كان يمكن ألّا يعرفها أفضل مما عرفها في زيارته لها أول ليلة، وشعرَ فجأة بشوقٍ ممتع، هائل إلى دفعها إلى أنْ تحبّه. حينئذٍ تذكَّر منزل ألتون الذي ينتظرهما بعد زفاف يومِ الأحد، وكل السعادة التي عرفها حتى الآن مع آنْ اندفعتْ عائدة إليه. لقد رغبَ في حمايتها، في تحقيق هدفٍ مستحيل يُسعدها. وبدا أنَّ ذلك هو أشدّ ما عرف من طموح إيجابيّ، وسعيد، في حياته. إذن، هناك مخرج إذا رغب في إيجاده. إنّه فقط جزءٌ من ذاته عليه أنْ يتقبّله، وليس كامل ذاته، ليس برونو، أو عمله. كل ما كان عليه أنْ يفعل هو فقط أنْ يسحق الجزء الآخر من ذاته، وأنْ يعيش في الذات التي تكوّنه الآن.

الحادي والثلاثون

ولكن كانت هناك نقاطٌ متعددة يمكن للذات الأخرى أنْ تجتاح منها الذات التي يريد أنْ يُحافِظ عليها، وهناك أشكال لا حصر لها للإغارة: كلمات، وأصوات، وأضواء، وأفعال معيَّنة تؤديها يداه أو قدماه، وإذا لم يفعل أيّ شيء على الإطلاق، ولم يسمع أو يرى أيّ شيء، يبقى هتافُ صوت داخليّ منتصِر يصعقه ويُهدّده. والزفاف الذي أُعِدَّ له بدقّة شديدة، وبجوّ مُبهِج، وبنقاء شديد بتخاريم بيضاء وملابس كتّانيّة، والجميع ينتظره بسعادة غامرة، بدا كأنّه أسوأ خيانة ارتكبها في حياته، وكلّما اقترب موعده أكثر، فكَّر بمزيد من الهيستريا والعبث في إلغائه. ورغبَ ببساطة وحتى آخر ساعة في الفرار.

اتّصل به روبرت تريتشر، صديق أيام شيكاغو، لكي ينقل إليه أفضل أمنياته ويسأله إنْ كان في استطاعته أنْ يحضر حفل الزفاف. وتخلَّصَ غاي منه بذريعة واهية. شعرَ بأنَّ المناسَبة تتعلَّق بآل فوكنر، ثم بالأصدقاء، وبكنيسة عائلتهم، وسوف يُشكِّل حضور صديقٍ نقطة ضعفٍ في وضعه. لقد دعا فقط مايرز، الذي لا أهميّة له -الذي لم يعُد يتقاسم معه غرفة مكتب منذ أيام تفويض المستشفى- وتيم أوفلارتي، الذي لم يتمكّن من الحضور، واثنين أو ثلاثة من المهندسين المعماريين من أكاديميّة ديمز، الذين يعرفون

عن عمله أكثر من معرفتهم به شخصياً. ولكن بعد مُضيّ نصف ساعة على مكالمة تريتشر من مونتريال، عاد غاي فاتّصل ببوب وسأله أنْ يصبح إشبينه.

أدركَ غاي أنَّ تريتشر لم يكن قد خطر على باله منذ قُرابة عام، ولم يردّ على آخر رسالة بعثها إليه. ولم يفكِّر في بيتر ريغز، أو في فيك دو بويستر وفي غونثر هول. كان في المعتاد يُعرِّج على فيك وزوجته في شقتهما في شارع بليكر، وفي إحدى المناسبات اصطحب معه آنْ إلى هناك. كان فيك رسّاماً، وكان قد بعثَ إليه بطاقة دعوة إلى معرضه في الشتاء السابق، حسب ما يتذكّر غاي. بل إنّه لم يلبّ الدعوة. والآن يتذكّر بشكلٍ مبهم أنَّ تيم كان في نيويورك وأنّه اتصل به لكي يدعوه إلى تناول طعام الغداء معاً خلال الفترة التي كان برونو ينهال عليه خلالها بالمكالمات الهاتفيّة، وأنّه رفضَ الدعوة. وتذكّر غاي أنّه ورد في كتاب «*اللاهوت الجرمانيّ*» [15] أنَّ الجرمان القُدامى كانوا يُصدرون على رجلٍ بأنّه بريء أو مُذنب بعدد أصدقائه الذين يأتون لكي يحكموا على سلوكه. فكم عدد الذين سيحكمون في صالحه الآن؟ لم يكن يُخصِّص الكثير من الوقت لأصدقائه، لأنهم لم يكونوا من النوع الذي يتوقّع أنْ تُخصِّص لهم مثل ذلك الوقت، أما الآن فشعر بأنَّ أصدقاءه يتجنبونه في المقابل، وكأنهم أحسّوا من دون أنْ يروه أنّه أصبح غير جدير بالصداقة.

في صباح يوم أحد العرس، بينما كان غاي يتمشى ضمن دوائر بطيئة حول بوب تيتشر في مجلس الكنيسة، تشبَّثَ بذكرى رسوماته للمستشفى كأنها آخر جزء من الأمل، والبرهان الأخير على أنّه ما زال موجوداً. لقد أنجز عملاً ممتازاً. وقد مدحه بوب تيتشر، صديقه. كان قد أثبتَ لنفسه أنّه لا يزال قادراً على الإبداع.

كان بوب قد تخلّى عن محاولة فتحِ حديثٍ معه. كان جالساً معقود الذراعين، وتعبيرٌ جميلٌ ولكن شارد يرتسمُ على وجهه البدين. ظنَّ بوب أنّه ببساطة عصبيّ. ولم يكن بوب يعرف فحوى شعوره، بينما كان غاي يعلم ذلك، لأنّه مهما ظنَّ أنّه بادٍ عليه، إلّا أنّه لم يكن ظاهراً. وكان هذا

15- «اللاهوت الجرمانيّ» كتاب في الروحانيات يُعتقَد أنَّ تاريخه يعود إلى القرن الرابع عشر كتبه راهب مجهول، ولاحقاً اكتشف الراهب مارتن لوثر أجزاءً منه. – المترجم

هو الجحيم، أيْ إنَّه يمكن لحياةِ المرء أنْ تكون بكل بسهولة محض نِفاق. وهذا هو الجوهر، زفافه وصديقه، بوب تيتشر، الذي لم يعُد يعرفه. وغرفة اجتماع الكنيسة الصغيرة بنوافذها المرتفعة ذات القضبان، كانت أشبه بزنزانة. وكانت غمغمة الأصوات في الخارج أشبه بغمغمة غوغاء يتوقون إلى اجتياح السجن والانتقام من العدالة.

«آمل أنْ تكون قد أحضرتَ زجاجة».

قفز بوب: «أحضرتُ حتماً إنَّ وزنها ثقيل ونسيتها تماماً». وضعَ الزجاجة على الطاولة وانتظر غاي كي يأخذها. كان بوب في حوالي الخامسة والأربعين من العمر، معتدل المزاج لكنّه متفائل، مع سِمة لا تُمحى من العزوبة والانهماك وكان يتّصِف بالهيمنة الكاملة في أداء مهنته. وحثَّ غاي، «أنتَ أولاً، أريد أنْ أشرب نخباً خاصاً مع آنْ»، ثم أردفَ بنعومة، مع ابتسامة: «إنها غاية في الجمال، يا غاي. جمال يُجاري جمال جسر أبيض».

وقفَ غاي ينظر إلى الزجاجة المفتوحة سِعة ربع غالون. عندئذٍ بدا أنَّ الهرج خارج النافذة يسخر منه، ومن آنْ. وكانت الزجاجة الموضوعة على الطاولة جزءاً منه، من العرس التقليديّ المُتخَم، وشبه الظريف. كان قد شرب الويسكي في حفل زفافه إلى ميريام. أطاحَ غاي بالزجاجة إلى ركن الغرفة فأنهى ضجيجُ تكسّرها وتناثرُ شظاياها هديرَ الأبواق، والأصوات، والاهتزاز السخيف لآلة الأرغن برهة من الزمن، وبدأتْ تتراجع من جديد.

«آسف، بوب. أنا شديد الأسف».

لم يكن بوب قد أزاح عينيه عنه. «لا ألومك أبداً» وابتسم.

«لكنني ألوم نفسي!».

«اسمع، أيها العجوز».

أدركَ غاي أنَّ بوب لم يكن يعلم أيضحك أم يلزم الجديّة.

قال تريتشر: «انتظر، سوف أُحضر المزيد لكلينا».

حالما مدَّ بوب يده ليتناول المزيد، دخلتْ قامةُ بيتر ريغز النحيلة. فقدَّمه غاي إلى تريتشر. وكان بيتر قد جاء من نيو أورلينز مباشرة لكي يحضر عرسه.

قال غاي في نفسه: ما كان ليأتي لو كان هذا حفل زواجه من ميريام. كان بيتر يكره ميريام. وكان الشيب قد ظهر الآن على سبلتي بيتر، على الرغم من أنَّ وجهه النحيل كان لا يزال بشوشاً كوجه فتى في السادسة عشرة. وردَّ غاي على عناقه بعناقٍ سريع، شاعراً بأنّه قام بذلك بحركة آليّة، على الدرابزين كما فعل في ليلة يوم الجمعة.

قال بوب فاتحاً الباب: «حان الوقت، يا غاي».

مشى غاي إلى جواره. كانت تفصله عن مذبح الكنيسة اثنتي عشرة دَرَجة. قال غاي في نفسه: يا للوجوه المُتَّهِمة، الواجمة بفعل الرعب، كما كان آل فوكنر وهم جالسون في المقعد الخلفيّ للسيارة. متى سيتدخلون ويوقفون العرس بكلّه؟ إلى متى سينتظر الجميع؟.

همس أحدهم: «غاي!».

أحصاها غاي، ست، سبع.

توجّه النداء الهامس إليه ضعيفاً، من بين الوجوه، «غاي!»، فألقى غاي نظرة إلى جهة اليسار، وتبع تحديق امرأتين كانتا تنظران خلفهما، فرأى وجه برونو ولا أحد غيره.

نظر غاي أمامه من جديد. أكان ذاك برونو أم شبحه؟ كان الوجه يبتسم باشتياق، والعينان الرماديتان حادتين كالإبر. أخذ يُحصي، عشرة، إحدى عشرة. *ارتق اثنتي عشرة درجة، واترك سبع... تستطيع أنْ تتذكّرها، إنَّ لها إيقاعاً مُنتظماً*. وَخَزَتْه فروة رأسه. ألم يكن ذلك برهاناً على أنّه شبح وليس برونو؟ صلّى، يا رب، لا تدعني أفقد الوعي. فردَّ عليه الصوت الداخليّ، الأفضل أنْ تفقد الوعي على أنْ تتزوج.

كان واقفاً بجوار آنْ، وكان برونو موجوداً معهما، إنه ليس حَدَثاً، وليستْ لحظة، بل حالة، شيء كان موجوداً دائماً وسوف يبقى موجوداً دائماً. برونو، وهو، وآنْ. والتقدُّم على المسار. التقدُّم على المسار طوال العمر وإلى أنْ يُفرّقنا الموت، وهذا هو العقاب. أي عقاب أسوأ من هذا يمكن أنْ يتوقَّع؟.

أخذتْ الوجوه تبرز من حوله وتبتسم، وشعر غاي بنفسه يُقلّدهم كأبله. إنهم في نادي سيل وراكيت. هناك مائدة إفطار مفتوحة، وشربَ الجميع

كأساً من الشمبانيا، حتى هو نفسه. وبرونو لم يكن موجوداً. في الحقيقة لم يكن هناك غير نسوة عجائز مُضمّخات بالعطور، تغطيهنّ التجاعيد، مُسالمات يعتمرن القبعات. ثم طوّقت ذراع السيدة فوكنر عنقه وقبّلتْ وجنته ومن خلفها رأى برونو يشقّ طريقه بصعوبة من خلال الباب مع الابتسامة نفسها، والعينين الشبيهتين بدبّوسَين نفسيهما اللتين عثرتا عليه تواً. تقدَّم برونو مباشرة منه وتوقف، وهو يتمايل على قدميه.

«أقدِّم إليك أفضل - أفضل أمنياتي، يا غاي. لا أظنك تُمانع في أنْ ألقي نظرة إلى الداخل، أليس كذلك؟ إنها مناسبة سعيدة!».

«اخرج من هنا، اخرج بأقصى سرعة».

تلاشتْ ابتسامة برونو على مضض. قال بالصوت الأجشّ نفسه: «لقد رجعتُ تواً من كابري». كان يرتدي بزّة بلون أزرق - أرجوانيّ قاتم من القماش المتين بياقة عريضة كياقة بزّة السهرة. «كيف حالك، غاي؟».

بربرتْ إحدى قريبات آنْ برسالة مُعطَّرة في أُذُن غاي، فردَّ عليها بغمغمة. ثم استدار، ومشى مبتعداً.

أعلنَ برونو: «أردتُ فقط أنْ أتمنى لك الخير لا أكثر».

قال غاي: «اخرج. الباب خلفك». وقال في نفسه: ولكن لا ينبغي أنْ يزيد على ذلك. وإلّا فقد السيطرة على أعصابه.

«أعلِنْ الهدنة، يا غاي. أريد أنْ أقابل العروس».

ترك غاي امرأتين في منتصف العمر تجرّانه بعيداً، واحدة من كل جانب. وعلى الرغم من أنّه لم يعُد يراه، كان يعلم أنَّ برونو قد تراجعَ، مع ابتسامة متأذّية، نزقة، نحو المائدة المفتوحة.

أخذ السيد فوكنر الكأس نصف الفارغة من يده، وقال: «هل كل شيء على ما يُرام، غاي؟ دعنا نشرب شيئاً أفضل على البار».

شرب غاي مقدار نصف كأس من الويسكي. وتكلَم ولم يدرِ ماذا كان يقول. كان متيقّناً من أنّه قال: أوقفوا هذا كلّه، فليذهب الجميع إلى بيوتهم. لكنّه لم يقُل ذلك، وإلّا لهدر السيد بالضحك. أم هل كان سيفعل؟.

كان برونو يُراقبُ من تحت الطاولة بينما هم يقطعون الكعكة، راقبَ آنْ في الغالب، كما لاحظَ غاي. كان فم برونو رقيقاً، كخط يبتسم بشكلٍ جنونيّ، وعيناه مائلتين كدبوس من الماس على ربطة عنقه ذات اللون الأزرق الداكن، ورأى غاي على وجهه المزيج نفسه من الحزن، والرهبة، والتصميم، والفكاهة الذي كان قد رآه في لحظة لقائهما الأولى.

اقتربَ برونو من آنْ: «أعتقد أنني قابلتكِ في مكانٍ ما من قبل. هل تمتّين بأيّة صِلة إلى تيدي فوكنر؟».

راقبَ غاي يديهما تتقابلان. وظنَّ أنّه لن يتحمّل ذلك، لكنّه تحمَّله، من دون أنْ يأتي بأيّة حركة.

«إنّه نسيبي»، قالت آن هذا مع ابتسامتها الرخيّة، الابتسامة نفسها التي رسمتها لأحدهم قبل برهة.

أومأ برونو برأسه إيجاباً. «لعبتُ الغولف معه مرّتين».

شعرَ غاي بيدٍ تستقرّ على كتفه.

كان ذاك بيتر ريغز: «أتسمح لي بدقيقة، يا غاي؟ أودّ».

لحقَ غاي ببرونو وآنْ قائلاً: «لا أسمح». وأطبقَ أصابعه حول يد آنْ اليُسرى.

مشى برونو متهادياً على الجانب الآخر منها، بقامةٍ شديدة الانتصاب، وبكثير من الارتياح، حاملاً على طبق أمامه نصيبه الذي لم يلمسه من الكعكة. «إنني صديقٌ حميم لغاي من معارفه القُدامى» وغمز برونو له من خلف رأس آنْ.

«حقاً؟ أين تعارفتما أنتما الاثنان؟».

«في المدرسة، نحن صديقان قديمان من أيام الدراسة» وكشّر برونو. «في الحقيقة، أنتِ أجمل عروس رأيتها منذ سنين عديدة، يا سيدة هينز وأنا حتماً سعيد بلقائك». قال هذا، ليس بنبرةٍ ختاميّة بل بيقين راسخ دفعَ آنْ إلى الابتسام من جديد.

أجابتْ: «وأنا سعيدة بلقائك».

«وآمل أنْ ألقاكما أنتما الاثنين أين تنويان أنْ تقيما؟».

قالتْ آنْ: «في كونكتيكت».

قال برونو وهو يغمز بعينه لغاي: «كونكتيكت ولاية جميلة»، وغادرهما بعد أنْ انحنى انحناءة لبقة.

سأل غاي آنْ: «أهو صديق لتيدي؟ هل تيدي هو الذي دعاه؟».

ضحكتْ في وجهه: «لا داعي لكل هذا القلق، يا حبيبي! سوف نغادر قريباً».

«أين تيدي؟». وفي الوقت نفسه تساءلَ: ولكن ما فائدة العثور على تيدي، ما معنى إثارة مشكلة من هذا؟

قالت له: «رأيته قبل قليل على آخر الطاولة. ها هو كريس. يجب أنْ أرحّبَ به».

التفتَ غاي، باحثاً عن برونو، فرآه يلتهم البيض المقلي، ويتحدث بمرح مع شابّين كانا يبتسمان له وكأنهما تحت تأثير سِحر شيطان.

والمفارقة هي أنَّه بعد ذلك ببضع دقائق في السيارة فكَّر غاي بمرارة في أنّه لم يكن أمام آنْ أيّة فُسحة من الوقت لتتعرّف عليه وفي أول لقاء له معها، كان مُكتئباً. والآن أضحتْ جهوده حقيقيّة، لأنّه نادراً ما يبذل جهوداً. وربما مرَّتْ عليه أيام أمضاها في مكسيكو سيتي كان خلالها متصالحاً مع نفسه.

سألته آنْ: «هل كان الرجل ذو البزّة الزرقاء يتردَّد على ديمز؟».

كانا يتوجهان بالسيارة إلى مونتوك بوينت. كان أحد أقارب آنْ قد أعارهما الكوخ من أجل قضاء ثلاثة أيام عسل، فقط ثلاثة أيام من شهر العسل، لأنه تعهّدَ بمباشرة العمل في هورتون، شركة هورتون وكيز، للمهندسين المعماريين، في غضون أقلّ من شهر، وسوف يُضطر إلى العمل بسرعة لكي يحصل على الرسوم التفصيليّة للمستشفى قبل أنْ يُباشِر. «كلا، على المؤسّسة. فترة وجيزة من الوقت». ولكن لماذا تورّطَ في كذبة برونو؟.

قالتْ آنْ، وهي تعدِّلُ من شأنْ ثوبها حول الكاحلين قبل أنْ تضع قدميها على المقعد القابل للطيّ: «وجهه مُثير للاهتمام».

سألها غاي: «مُثير للاهتمام؟».

«لا أعني بكلامي أنّه جذّاب فقط قويّ».

صرَّ غاي على أسنانه. قويّ؟ ألا تتبيَّن أنّه مجنون؟.

الثاني والثلاثون

سلّم موظف الاستقبال في شركة هورتون، هورتون وكيز، للمهندسين المعماريين، رسالة مفادها أنَّ تشارلز برونو اتّصلَ به هاتفيّاً وترك رقمه. كان رقمه في غريت نيك.

قال غاي: «شكراً لك»، وتابع طريقه عبر البهو.

لنفترِض أنَّ الشركة تحتفظ بسجلات للرسائل الهاتفيّة. إنّها لا تفعل، ولكن لنفرض أنها تحتفظ. لنفرض أنَّ برونو هبط عليهم ذات يوم. لكنَّ أصحاب شركة هورتون، هورتون وكيز عفنون جداً، وبرونو لا يختلف كثيراً عنهم. ثم أليس هذا بالضبط هو سبب وجوده هنا، واختلاطه بهم، تحت تأثير وهم مفاده أنَّ التحوّل المُفاجئ هو كفّارة وأنّه سوف يبدأ بالشعور بأنّه أفضل حالاً هنا؟.

دخل غاي إلى الاستراحة الرحبة، حسنة الإضاءة وذات الأثاث المُنجَّد بالجلد، وأشعل سيجارة. وكان مينْويرينغ ووليمز، اثنان من المهندسين المعماريين من الدرجة الأولى، جالسين على أريكتين كبيرتين مُلبّستين بالجلد، يقرآن تقارير الشركة. وشعر غاي بأنَّ عيونهما تتركَّز عليه وهو يُحدِّق من النافذة. كانا يُراقبانه طوال الوقت، لأنه من المُفترَض أنّه شخصيّة متميِّزة، عبقريّ، كما أكَّدَ عضو شركة هورتون الأصغر للجميع، فماذا يفعل هنا؟ قد يكون أشد إفلاساً مما يعتقد الجميع، طبعاً، وهو عريس حديث العهد، ولكن بغضّ النظر تماماً عن ذلك وعن مستشفى برونكس، من الواضح أنّه كان عصبيّاً، وفاقداً السيطرة على الأمور. وقد يقولان لنفسيهما: من الأفضل أحياناً أنْ يفقدا السيطرة على الأمور، فلمَ يتردّدان في قبول وظيفة مُريحة؟ حدَّقَ غاي نحو الأسفل إلى الفوضى القذرة لأسقف منازل حي مانهاتن وشوارعه التي بدتْ أشبه بأرضيّة نموذجيّة لِما لا ينبغي أنْ تُبنى مدينةٌ ما على أساسها. وعندما استدار، أطرقَ مينْويرينغ عينيه كتلميذ مدرسة.

أمضى الفترة الصباحيّة يُبدِّد وقته على إنجاز عمل كان يقوم به منذ بضعة أيام. قالوا له، لا تستعجل. كل ما عليه أنْ يفعل هو أنْ يمنح الزبون ما يُريد وأنْ يوقِّع باسمه عليه. والآن، هذا العمل هو متجرٌ تنويعيّ خاصّ بمجتمع صغير ثريّ في ويستشستر، والزبون يريد شيئاً أشبه بقصر قديم، ينسجم مع البلدة، ولكن على الطراز الحديث، أيضاً، أفهمت؟ وقد طلبَ إحضار غاي دانييل هينز بالاسم على وجه الخصوص. وكان في استطاعة غاي أنْ يرفض تلك المهمّة بضبط تفكيره على مستوى الخداع، والرسم الكاريكاتوريّ، ولكنْ كونها سوقاً تجاريّة فرضَ متطلبات عمليّة مُعيَّنة. وأمضى الفترة الصباحيّة في المحو وفي بري أقلام الرصاص، ووجد أنَّ الأمر سيستغرق منه أربعة أيام أو خمسة زيادة، وحتى آخر الأسبوع التالي، إلى أنْ يخرج بفكرة ولو أوّليّة يعرضها على الزبون.

هتفتْ آنْ من المطبخ في مساء ذلك اليوم قائلة: «سوف يأتي إلينا تشارلي برونو هذه الليلة، أيضاً».

ظهر غاي من خلف الحاجز: «ماذا؟».

«أليس هذا اسمه؟ ذلك الشاب الذي رأيناه في العرس».

كانت آنْ تفرم الثوم المُعمَّر على لوح من الخشب.

«أنتِ دعوته؟».

أجابت آنْ بنبرة عادية جداً بحيث إنَّ شكّاً عنيفاً من احتمال أنْها تختبره بثَّ رعشة خفيفة في ظهره، «يبدو أنّه سمع أننا نُقيمُ عرساً، لذلك اتصل هاتفيّاً ودعا نفسه بنفسه بصورةٍ ما. هيزل - لا أريد الحليب، يا ملاكي، لدينا الكثير من الكريما في البرّاد».

راقبَ غاي هيزل تضع وعاء الكريما بجوار وعاء جبن الغورغونزولا المُفتَّت.

سألته آنْ: «أتمانع في حضوره، يا غاي؟».

«لا أبداً، لكنّه ليس صديقاً لي في الحقيقة». وتحرّك بارتباك نحو الخزانات وأخرج منها علبة ورنيش تلميع الأحذية. كيف يستطيع أنْ يوقفه؟ لا بدّ من وجود طريقة لذلك، ولكن حتى وهو يعصر دماغه، كان يعلم أنَّ الطريقة الوحيدة هي تجنّبه.

قالت آنْ مبتسمة: «بل أنتَ تمانع».

«كل ما في الأمر، أنني أرى أنّه من نوع الأشخاص الصخّابين العديمي التهذيب».

«ألا تعلم أنَّ استبعاد أي شخص من حفل الانتقال إلى منزل جديد فأل سيئ؟».

عندما وصل برونو كان مُصاباً بالتهاب في العين. كان الجميع يُعلِّقون على المنزل الجديد، لكنَّ برونو توجّه إلى غرفة الجلوس ذات لون أحمر الآجرّ وأخضر الغابة وكأنما كان قد حضر إلى هناك من قبل مئات المرّات. أو كأنّه يُقيم هناك، هذا ما فكّر فيه غاي وهو يُقدِّم برونو إلى الموجودين في الغرفة. ركّزَ برونو ابتسامته العريضة، وانتباهه المتحمِّس على غاي وعلى آنْ، وكاد لا يولي أي انتباه لتحيات الآخرين -فكَّر غاي، يبدو أنَّ اثنين أو ثلاثة منهم يعرفونه- ما عدا سيدة تُدعى السيدة تشستر بولتينوف من منسي بارك، لونغ أيلند، التي أخذ برونو يُصافح يدها بكلتيّ يديه وكأنّه عثر على حليفٍ له. أخذ غاي يُراقب برعب السيدة بولتينوف وهي تتفحّصُ برونو مع ابتسامة عريضة، وديّة.

سأل برونو غاي بعد أنْ أحضر مشروباً لنفسه: «كيف حال أدقّ الأشياء؟».

«عظيم. في أحسن حال». صمَّم غاي على أنْ يبقى هادئاً، مع أنّه لم يُخدِّر نفسه. كان قد تناول حتى ذلك الحين جرعتين أو ثلاث في المطبخ. لكنّه وجد نفسه يمشي مُبتعداً، متراجعاً، نحو الدرج اللولبي العمودي في ركن غرفة الجلوس. قال في نفسه: برهة فقط، لكي يستعيد توازنه. هرع يرتقي الدرج نحو غرفة النوم، ووضع يده الباردة على جبينه، ثم أنزلها ببطء إلى وجهه.

قال صوت من الجانب المقابل للغرفة: «عـذراً، ما زلـتُ أقوم بالاستكشاف. إنه منزل رائع، يا غاي، اضطررتُ إلى التراجع إلى القرن التاسع عشر لبعض الوقت».

كانت هيلين هيبرن، صديقة آنْ من أيام مدرسة برمودا، واقفة بجوار طاولة المكتب. قال غاي في نفسه، حيث يوجد المسدس الصغير.

«تصرفي كأنكِ في بيتك لقد صعدتُ إلى هنا فقط لأُحضِر منديلاً. كيف

تجدين مشروبك؟». سَحَبَ غاي الدرج العُلويّ الأيمن حيث يقبع معاً المُسدّس الذي لم يكن يريده والمنديل الذي لم يكن يحتاج إليه.

«في الواقع – أفضل حالاً مني».

افترضَ غاي أنَّ هيلين تعيش في فترة زمنيّة «مجنونة» أخرى. وكانت آنْ تعتبرها فنانة تجاريّة، وجيّدة، لكنها لا تعمل إلّا عندما ينفد مُخصّصها ربع السنويّ وتنحدر نحو فترة من الكآبة. وشعر بأنها لم تُحبّه، منذ مساء يوم الأحد حين رفضَ أنْ يُرافق آنْ إلى حفلتها كانت تنتابها الريبة حوله. ما الذي تفعله الآن في غرفة نومهما، أتتظاهر بتذوّق مشروباتها أكثر مما كانت تفعل؟

«هل أنتَ دائماً شديد الجديّة، يا غاي؟ أتعلم ماذا قلتُ لآنْ عندما أخبرتني أنها ستتزوج منك؟».

«قلتِ لها إنها مجنونة».

«بل قلت» لكنّه شديد الجديّة، شديد الجاذبيّة وربما عبقريّ، لكنّه مفرط في جديّته، كيف تتحمّلين ذلك؟ «ثم رفعتْ وجهها الأشقر الجميل المُربّع، وقالت: «إنكَ حتى لا تدافع عن نفسك. أراهن على أنكَ جدّي إلى درجة أنكَ لا تسمح لنفسك بتقبيلي، أليس كذلك؟».

أجبر نفسه على الاقتراب منها، وقبّلها.

«هذه ليستْ قُبلة».

«ولكنني لا أتعمّد الجديّة».

وخرج. قال في نفسه: سوف تُخبر آنْ، سوف تخبرها بأنها وجدته في غرفة النوم ويبدو متألّماً عند الساعة العاشرة. قد تفتّش الدرج وتعثر على المسدس، أيضاً. لكنّه لم يُصدِّق أياً من تلك الأشياء. إنَّ هيلين غبيّة، ولا يعلم البتّة سبب إعجاب آنْ بها، لكنّها ليست مُثيرة للمشاكل وليست مُتطفّلة على غرار آنْ. يا إلهي، ألم يترك المسدس هناك في الدرج بجوار درج آنْ طوال فترة إقامتهما هناك؟ إنّه لم يعُد يخشى أنْ تفتش آنْ نصف طاولة المكتب بقدر عدم خشيته من أنْ تفتح بريده.

عندما هبط كان برونو وآنْ جالسين على الأريكة الموضوعة في الركن

الأيمن من الموقد. كان الكأس الذي يُحرّكه برونو بين حين وآخر باتجاه ظهر الأريكة بحركة عفويّة يترك بُقعاً على القماش.

رفعَتْ آنْ نظرها إليه. «إنه يُخبرني كل شيء عن كابري الجديدة، يا غاي. لطالما رغبتُ في أنْ نذهب معاً إلى هناك».

تابع برونو كلامه، متجاهلاً غاي: «أفضل ما يمكن عمله هو أخذ منزل كامل، أو قلعة، كلما كان المكان أكبر كان أفضل. أنا وأمي نُقيم في قلعة كبيرة إلى درجة أننا لم نمش إلى الطرف المقابل منها إلى أنْ تعذَّرَ عليّ ذات ليلة أنْ أعثُر على الباب الصحيح. وكانت هناك عائلة إيطاليّة كاملة تتناول وجبة العشاء في الطرف القصيّ من الشرفة، وفي الليلة ذاتها انتقلوا إلينا، وكان عددهم اثني عشر شخصاً، وسألوا إنْ كان في استطاعتهم أنْ يعملوا على خدمتنا من دون مقابل، فقط إذا سمحنا لهم أنْ يُقيموا هناك. وطبعاً وافقنا».

«ألم تتعلّم شيئاً من اللغة الإيطاليّة؟».

هزَّ برونو كتفيه نفياً، «لا حاجة إلى ذلك!». عاد صوته خشناً من جديد، تماماً كما كان غاي يسمعه دائماً في عقله.

شغلَ غاي نفسه بالعبث بسيجارة، شاعراً بتحديق برونو الحادّ والعابث بحياء إلى آنْ يخترق ظهره، أعمق من الوخز المُخدّر للكحول. لا شك في أنَّ برونو قام تواً بمدح الثوب الذي ترتدي، الثوب المصنوع من التفتا الرمادي المُفضَّل لديه مع الشكل الصغير الأزرق الشبيه بعينيّ طاووس. كان برونو دائماً يولي انتباهه لملابس النساء.

قال صوت برونو الواضح من خلفه وكأنّه أدار رأسه: «غاي وأنا تحدّثنا ذات مرَّة عن السفر».

سحقَ غاي سيجارته داخل المنفضة، وأخمد كل شرارة، ثم توجّه نحو الأريكة. قال لبرونو: «ما رأيك في مشاهدة غرفة الألعاب في الطابق العُلويّ؟».

قال برونو: «طبعاً» ونهضَ واقفاً «أي نوع من الألعاب تمارس؟».

دفعه غاي إلى داخل غرفة صغيرة مُبطَّنة باللون الأحمر، وأغلقَ من خلفه. «إلى أي حدّ ستتمادى؟».

«غاي! أنت سكران!».

«ما هدفك من إخبار الجميع بأننا صديقان حميمان؟».

«لم أُخبر الجميع. أنا أخبرت آنْ».

«ما غرضك من إخبارها أو إخبار أي شخص؟ ما غرضك من المجيء إلى هنا؟».

«اصمت، يا غاي! هس-س-س-س!» كان برونو يُلوِّح بكأس المشروب الذي يحمله بيده بحركة عفويّة.

«ما زالتْ الشرطة تراقب أصدقاءك، أليس كذلك؟».

«ليس إلى درجة دفعي إلى القلق».

«غادِرْ، غادِر الآن» كان صوته يرتعشُ من عزم محاولته التحكُّم فيه. ثم لماذا يتحكَّم في نفسه؟ ما زال في حوزته المُسدّس ذو الطلقة الواحدة في الطرف المقابل من الرواق. رماه برونو بنظرة ملؤها الضجر ثم تنهّد. كان النَّفَس الذي ارتطم بالشَّفَة العليا أشبه بصوت التنفُّس الذي كان غاي قد سمعه في غرفته في أثناء الليل.

ترنّحَ غاي قليلاً، وشَحَنَه الترنُّح بالغضب.

علّقَ برونو بدماثة: «أعتقد أنَّ آنْ جميلة».

«إذا رأيتك تتكلَّم معها من جديد، فسوف أقتلك».

تراختْ ابتسامة برونو، ثم عادت أكثر اتّساعاً: «أهذا تهديد، غاي؟».

«هذا وعد».

بعد ذلك بنصف ساعة، مرَّ برونو من خلف الأريكة التي كان يجلس هو وآنْ عليها. بدا مفرط طول القامة وهو واقف على الأرض، ورأسه الصغير يتبوّأ حجارة الموقد، ثم رفعه ثلاثة رجال ولم يعرفوا ماذا يفعلون به.

قالتْ آنْ: «خذوه - فلنقُل إلى غرفة الضيوف».

ضحكتْ هيلين: «هذا فأل حسن، يا آنْ ينبغي أنْ يسهر أحدهم طوال الليل في كل احتفال بمنزل جديد، كما تعلمين. الضيف الأول!».

تقدَّمَ كريستوفر نلسون من غاي: «من أين أتيتَ به؟ كان غالباً ما يغيب عن الوعي في نادي غريت نيك، ولا يعود في استطاعته أنْ يشرب المزيد».

كان غاي قد استفهمَ من تيدي عنه بعد الزفاف، لم يكن تيدي هو الذي دعا برونو، بل لا يعرف أيّ شيءٍ عنه، خلافَ أنّه لم يطقه.

ارتقى غاي الدّرَج إلى المُحترَف، وأغلقَ الباب. على طاولة عمله كان تصميم أوّلي لم يكتمل للمخزن التنويعيّ الذي بدا له موروباً ودفعه ضميره إلى جلبه إلى المنزل ليُكمله خلال نهاية الأسبوع. كادتْ الخطوط المألوفة، التي تبدو الآن مبهمة بفعل الخمر، تجعله يشعر بالغثيان. تناول صفيحة فارغة من الورق وبدأ يرسم المبنى المطلوب. كان يعلم بالضبط ما أرادوا وأملَ في أنْ يُنهيه قبل أنْ يُصاب بالغثيان، ويمكن أنْ يُصاب بالغثيان كأي كلب بعد أنْ ينتهي منه، لكنّه لم يشعر بالغثيان بعد أنْ انتهى منه واكتفى بالجلوس باسترخاء على كرسيه، وأخيراً نهضَ وفتح إحدى النوافذ.

الثالث والثلاثون

تمَّ قبول تصميم المخزن التنويعيّ وتلقّى الكثير من المديح، أولاً من الأخوين هورتون ومن ثم من الزبون نفسه، السيد هاوارد ويندام من نيو روشيل، الذي جاء إلى المكتب في وقتٍ مبكّر بعد ظهيرة يوم الإثنين لكي يرى التصميم. وكافأ غاي نفسه بقضاء ما تبقّى من النهار في التدخين في مكتبه وتقليب صفحات نسخة من كتاب *Religio Medici*[16] المُغلّفة بالجلد المغربي الفاخر الذي كان قد اشتراه من مكتبة برينتانو ليُهديها لآن في عيد مولدها. تساءلَ، تُرى ما هو المشروع التالي الذي سيكلّفونه بتصميمه؟. أخذ يتصفّح الكتاب، متذكّراً الفقرات التي كانت تُثير إعجاب بيتر وإعجابه... *ما زال الرجل الخالي من السُرَّة يعيش داخلي*... أي عمل فظيع سوف يطلبون منه تنفيذه بعد ذلك؟ لقد نفَّذَ تواً عملاً مُفوَّضاً. ألم يُنفِّذ ما يكفي؟ لم يعُد يُطيق تكليفه بتصميم مخزن تنويعيّ آخر. ليس هذا بدافع رثاء الذات، بل هي *الحياة*. كان لا يزال حيّاً، إذا أراد أنْ يضع اللوم على نفسه على هذا. نهضَ عن طاولة الرسم، وتوجه نحو آلته الكاتبة وبدأ يضرب رسالة استقالته.

16- Religio Medici: كتاب في السيرة الذاتيّة الروحية من تأليف توماس براون (1605-1691)، من أوائل كتب السيرة الذاتيّة التحليليّة. - المترجم

أصرَّتْ آنْ على أنْ يخرجا ويحتفلا في تلك الأمسية. كانت في غاية السعادة، بل تغمرها السعادة، وشعر غاي بمعنوياته ترتفع قليلاً، بتردُّد، كما تحاول طائرة من ورق أنْ ترتفع عن الأرض في يومٍ ساكن الهواء. وراح يُراقبُ أصابعها النحيلة، السريعة، وهي تشدّ شَعرها إلى الخلف على الجانبَين وتقفل الدبوس.

سألتْه وهما عندما هبطا إلى غرفة الجلوس: «ألا نستطيع أنْ نعدّ للرحلة البحريّة الآن؟».

كان لا يزال قلب آنْ راغباً بشِدّة في القيام رحلة بحرية على طول الشاطئ على متن الباخرة «*إنديا*»، رحلة شهر العسل التي كانا قد أرجآها. وكان غاي قد قرَّر أنْ يُكرِّس وقته كلّه لغرف الرسم التي كانت تقوم بتنفيذ تصاميمه للمستشفى، أما الآن فلا يستطيع أنْ يرفض طلب آنْ.

«بعد كم من الوقت نستطيع أنْ تغادر في اعتقادك؟ بعد خمسة أيام» بعد أسبوع»؟

«ربما بعد خمسة أيام».

شهقَتْ «أوه، تذكّرتُ يجب أنْ أمكث حتى الثالث والعشرين من الشهر، هناك رجلٌ سيصل من كاليفورنيا ويُبدي اهتمامه بمنسوجاتنا القطنيّة».

«ثم أليس هناك عرض أزياء في آخر الشهر؟».

«أوه، يمكن لليليان أنْ تتولى هذا الأمر» ابتسمتْ، «جميلٌ منك أنْ تتذكَّر هذا!».

انتظرَ ريثما وضعت قلنسوة معطفها المصنوع من جلد الفهد على رأسها، مسرور لفكرة كونها ستعقد صفقة مع رجل من كاليفورنيا في الأسبوع التالي. ولنْ تترك أمر هذه الصفقة إلى ليليان. كانت آنْ تشكّل نصف إدارة الأعمال في المحل. وشاهد للمرّة الأولى الأزهار برتقاليّة اللون طويلة السيقان سألها: «من أين أتت هذه الأزهار؟».

«من شارلي برونو مع بطاقة يعتذر فيها لأنه فقد وعيه في ليلة يوم الجمعة». ضحكتْ: «أعتقد أنها جميلة».

حدَّقَ إلى الأزهار: «من أي نوع هذه؟».

«زهر الربيع الإفريقيّ»، وأمسكت الباب لكي يمرّ منه، وخرجا لكي يركبا السيارة.

قال غاي في نفسه: إنَّ الأزهار ترضي غرورها، لكنّه كان يعلم أيضاً أنَّ إعجابها ببرونو قد قلَّ منذ ليلة الحفلة. ومن جديد فكَّر غاي في مدى متانة الصِّلة التي تربط بينهما، أي برونو وهو، والمؤلِّفة من عدد كبير من الذين ارتادوا الحفلة. قد تقوم الشرطة في أي وقت بالتحقيق معه. وحذَّرَ نفسه من أنها سوف تُحقّق معه فعلاً. ولِمَ لا يُبدي الكثير من القلق؟ ما هي حالته الذهنية التي لم يعُد بسببها قادراً حتى على معرفة كنه تلك الحالة؟ أهو الاستسلام؟ الانتحار؟ أم ببساطة خَدَر الغباء؟.

خلال أيام الكسل التالية التي اضطرّ إلى قضائها في شركة هورتون، هورتون وميز من أجل مباشرة وضع تصاميم الجزء الداخلي للمتجر التنويعيّ، تساءلَ أيضاً إنْ كان مُشوّشاً ذهنيّاً، إنْ كان جنونٌ مُرهف قد ألمَّ به. وتذكّر فترة الأسبوع أو نحوه التي تلتْ ليلة يوم الجمعة، عندما بدا أنَّ وجوده، وأمنه مُعلّقان في حالةِ توازنٍ دقيقة يمكن لانهيارٍ في الأعصاب أنْ يخلّ به في لحظة. والآن لم يعُد يشعر بهذا. ومع ذلك ما زال يحلم ببرونو وهو يُغيرُ على غرفته. وإذا استيقظ عند الفجر، يبقى شاعراً بأنّه واقف في الغرفة وفي يده مُسدّس. يبقى شاعراً بأنّ عليه وبسرعة كبيرة أنْ يُكفِّر عمّا ارتكبَ، أنْ يجد كفّارة لا يمكن لأي خدمة أو تضحية أنْ تعوّض عنها، بل شعر كأنّه شخصان، أحدهما يستطيع أنْ يخلق ويشعر بانسجام مع الله عندما يخلق، والآخر يستطيع أنْ يقتل. وفي القطار كان برونو قد قال: «إنَّ أي شخص من أي نوع يستطيع أنْ يقتل». أيستطيع الرجلُ الذي شرحَ مبدأ الكابول[17] لبوبي كارتريدج قبل عامين في ميتكالف أنْ يقتل؟ كلا، ولا الرجل الذي وضع تصميم المستشفى، أو حتى المخزن التنويعيّ، وفكَّرَ مليّاً في اللون الذي سيدهن به الكرسي المعدنيّ في المرج الخلفيّ في الأسبوع السابق، بل هو الرجل الذي ألقى نظرة إلى المرآة في الليلة السابقة ورأى للحظة من الزمن القاتل، كأنّه أخٌ سرّيّ له.

17- الكابول: دعامة ناتئة (في جسر، مثلًا) مُثبَّتة من طرف واحد.

والآن كيف يستطيع أنْ يجلس على طاولة مكتبه وبفكّر في القتل، في حين أنّه في غضون أقلّ من عشرة أيام سوف يكون مع آنْ على متن باخرة بيضاء؟ لماذا وُهِبَ آنْ، أو القُدرة على حبّها؟ وهل وافقَ بسرعة على القيام بالرحلة البحريّة فقط لأنّه أراد أنْ يتحرَّر من برونو على مدى ثلاثة أسابيع؟ إنَّ برونو يستطيع، إذا شاء، أنْ يأخذ آنْ منه، لطالما اعترفَ بهذا لنفسه، ولطالما حاول أنْ يواجه هذا الافتراض. لكنّه أدركَ أنّه منذ أنْ شاهدهما معاً، منذ يوم الزفاف، تحوّلَ الاحتمال إلى رعب واضح.

نهَضَ واقفاً واعتمر قبّعته ليخرج ويتناول الغداء، وفي أثناء اجتيازه البهو سمعَ أزيز لوحة المفاتيح. ثم هتفتْ الفتاة له:

«خُذ المكالمة من هنا إنْ شئت، سيد هينز».

رفعَ غاي سمّاعة الهاتف، عالِماً أنها من برونو، وأنّه سوف يوافق على مقابلة برونو في وقت لاحِقٍ من النهار. وطلبَ منه برونو أنْ يتناول الطعام معه، ووعده غاي بمقابلته في مطعم ماريوز فيلا ديست بعد عشر دقائق.

كانت واجهة المطعم مُجلّلة بستائر مزينة بأشكال ورديّة وبيضاء. وانتاب غاي شعور بأنَّ برونو أعدَّ له فخّاً، وأنَّ تحريين يختبئون خلف الستارة الورديّة والبيضاء، لكنَّ ذلك ليس من شيم برونو. وشعر بأنّه غير مُهتمّ، غير مهتم البتّة.

لمحه برونو من البار فنزل عن مقعده مع ابتسامة واسعة. قال غاي في نفسه، وهو يتمشى في المكان ورأسه شامخ من جديد، ومرَّ بجواره مباشرة. فوضع برونو يده على كتف غاي.

«مرحباً، غاي. حجزتُ مائدة في آخر هذا الصف».

كان برونو يرتدي بزّته القديمة بلون بنيّ الصدأ. وتذكّر غاي المرة الأولى التي لحق بالساقين الطويلتين، على طول القطار المتهادي نحو المقصورة، لكنَّ الذكرى لم تجلب معها أي ندم الآن. في الحقيقة، لقد شعر بتعاطف نحو برونو، كما كان يشعر ليلاً، لكنَّ ذلك لم يحدث حتى الآن في أثناء النهار. بل إنه لم يمقت شعور برونو الواضح بالامتنان لأنه حضر لكي يشاركه تناول وجبة الغداء.

أمرَ برونو بإحضار الكوكتيل وطعام الغداء. طلب لنفسه كبداً مطبوخاً، بسبب حِميته الجديدة، كما قال، وطلب فطيرة البيض واللحم المُقدَّد لغاي، لأنه يعلم أنَّ غاي يُحبّها. كان غاي يتفحّص المائدة الأقرب إليهما. وانتابه شكّ مُحيِّر في الأشخاص الأربعة بملابسهم الأنيقة، أربع نساء في أربعينيات أعمارهن، وكلهنّ يبتسمن وعيونهن تكاد تكون مُغمضة، وكلهن يرفعن كؤوس الكوكتيل. وخلفهنّ، رجل يبدو أوروبيّاً يرمي ابتسامة عبر المائدة إلى مُرافقه غير المرئيّ. كان النّدُل يهرعون جيئة وذهاباً بحماس. أيمكن أنْ يكون هذا مجرد عرضٍ مسرحيّ ابتكره ونفّذه رجلٌ مجنون، يمثّل هو وبرونو دوريّ شخصيّتين فيه، الشخصيتان الأشدّ جنوناً؟ لأنَّ كل حركة شاهدها، وكل كلمة سمعها، بدتْ مُغلَّفة بالكآبة البطوليّة للقدر المحتوم.

كان برونو يقول: «أتعجبك؟ لقد أحضرتها من محل كلايد في صباح هذا اليوم. إنها أفضل تشكيلة في البلد على الأقلّ لفصل الصيف».

نظر غاي نحو أسفل إلى العلب الأربع التي تضم ربطات العنق وكان برونو قد فتحها على حجريهما. كانت هناك ربطات عنق من الحرير والكتان المحبوك، وربطة عنق فراشيّة بلون بنفسجي فاتح من الكتّان الفخم، وهناك ربطة عنق من حرير الشانتونغ بلون أزرق فاتح، تشبه قماش ثوب آنْ.

شعر برونو بخيبة الأمل، لأنّه بدا أنها لم تُعجب غاي. «أهي صارخة؟ إنها لفصل الصيف».

قال غاي: «جميلة».

«إنها المُفضّلة لدي لم أر مثيلاً لها أبـداً»، ورفع برونو ربطة العنق البيضاء المحبوكة مع خطوط حمراء رفيعة عند مركزها، «في أول الأمر اشتريتها لتكون لي، ولكنْ رغبتُ في أنْ أمنحها لك لك خصيصاً، أقصد إنها ملكك، غاي».

«شكراً لك». شعر غاي بالتواء بغيض في شفته العليا. فكَّر فجأة، كان يمكن أنْ يكون هو عشيق برونو الذي أحضر الهديّة له، كعربون سلام.

قال برونو، رافعاً كأسه: «في نخب الرحلة».

كان برونو قد تحدّثَ مع آنْ في صباح ذلك اليوم عبر الهاتف، وأتتْ آنْ

على ذِكر الرحلة البحريّة، كما قال. وأخذ يُردِّد برونو على مسمعه بحزن أنَّ آنْ امرأة رائعة.

«إنها غاية في النقاء. والمرء لا يُقابل كثيراً حتماً امرأة تتمتع بمثل *لطفها*. لا بدّ أنكَ غاية في السعادة، يا غاي». وتمنّى لو أنْ غاي يردّ بشيءٍ ما، بعبارة أو بكلمة، تشرح بصورة ما سبب سعادته. لكنَّ غاي لم يفُه بأية كلمة، وشعر برونو بأنّه مرفوض، شعر بكتلة خانقة تتحرَّك من صدره إلى أعلى حنجرته. ما الذي اعتبره غاي إهانة في كلامه؟ ورغبَ برونو بشدّة في أنْ يضع يده على قبضة يد غاي المُستقرَّة بشكل خفيف على حافة الطاولة، فقط برهة من الزمن كما يفعل أخٌ مع أخيه، لكنّه كبح نفسه. «هل أُعجِبَتْ بكَ في الحال أم أنْ تعرَّفكَ إليها استغرقَ فترة طويلة؟ غاي؟».

سمعه غاي يُكرر طرح السؤال وكأنما بعد زمن طويل جداً. «كيف تسألني عن الفترة الزمنيّة؟ إنها حقيقة» وألقى نظرة على وجه برونو الضيِّق، والغائر، إلى خصلة الشعر فوق الجبين التي كانت لا تزال تُضفي على جبينه تعبيراً متردِّداً، لكنَّ عينيّ برونو كانتا تعبّران عن ثِقة أشد بكثير في النفس مما كانتا عندما قابلهما في أول مرَّة، وأقلّ حساسيّة. قال غاي في نفسه: لأنَّ في حوزته نقوداً الآن.

«نعم، أعلم ما تعني». لكنَّ برونو لم يعلم، ليس تماماً. ومع ذلك كان غاي سعيداً بآنْ حتى وهو مُفلِس. أجفلَ برونو عندئذٍ لمجرّد أنّه فكّر مرة واحدة في أنّه يمكن أنْ يُعطي نقوداً لغاي. وكاد يسمع الطريقة التي يقول بها غاي، «كلا» مع تلك النظرة المتراجعة التي تبدو في عينيه، وكأنّه أصبح في الحال على بُعد أميال منه. كان برونو يعلم أنّه لن يحصل على الأشياء التي حصل غاي عليها مهما كان في حوزته من مال أو مهما فعل به. لقد اكتشفَ أنَّ وجود أمّه معه ليس ضماناً للسعادة. وأجبرَ برونو نفسه على الابتسام: «أتظنّ أنَّ آنْ مُعجبة بي حقاً؟».

«حقّاً».

«ماذا تحب أنْ تفعل خِلاف تصميم الأزياء؟ أتحب الطبخ؟وما شابه من أشياء؟». راقبَ برونو غاي وهو يرفع كأس المارتيني ويشربه كلّه بثلاث

جرعات. «في الواقع، أودّ أنْ أعرف الأشياء التي تؤديانها معاً كالتمشّي أو حلّ الكلمات المتقاطعة».

«مَنْ يقوم بأشياء كهذه؟».

«ماذا تفعلان في الأمسيات؟».

«آنْ تعمل أحياناً في الأمسيات». وانساب عقله بسهولة، كما لم يحدث له من قبل مع برونو، وهو يرتقي إلى المُحترَف العُلويّ حيث كان هو وآنْ غالباً ما يعملان معاً في الأمسيات، وبين حين وآخر تحدّثه آنْ، أو تُريه شيئاً لكي يُعلِّق عليه، وكأنّها لم تبذل أي جهد في عملها، وعندما تغمس فرشاة الدهان بسرعة في كأسٍ من الماء، يصدر ما يُشبه الضحك.

«شاهدت لوحتها في *هاربر بازار* قبل شهرين مع مُصممين آخرين. إنها بارعة جداً، أليست كذلك؟».

«شديدة البراعة».

«إنني –» ووضع برونو ساعديه واحداً فوق الآخر على الطاولة، «إنني فرِح حقاً لأنكَ سعيد معها».

طبعاً كان سعيداً، شعر غاي بارتخاء كتفيه، وأصبح تنفّسه أسهل، ولكن في تلك اللحظة، كان صعباً عليه تصديق أنها تخصّه. كانت أشبه بإلهة هبطَتْ لكي تنتزعه من وسط معارك كان سيموت فيها من دون أدنى شك، كما تفعل الآلهة في الأساطير عندما ينقذن الأبطال، لكنّهنّ يُضفن عنصراً في آخر القصص دائماً يصدمه، عندما كان يقرؤها وهو طفل، ويجده دخيلاً وجائراً. وفي الليالي التي يُجافيه النوم خلالها، عندما كان يتسلَّل إلى خارج المنزل ويرتقي التل الصخريّ وهو بالبيجاما والمعطف، في ليالي الصيف الخالية من التحدّي، واللامبالية، لم يكن يسمح لنفسه بالتفكير في آنْ. وتمتم غاي «*Dea ex machina*[18] (الحل المُفاجئ).

«ماذا؟».

18– عبارة في المسرح الروماني القديم، وتعني ظهور عنصر مُفاجئ في آخر المسرحيّة ليحلّ إشكالاً مستعصياً. – المترجم

لماذا يجلس هنا مع برونو، ويأكل معه على مائدة واحدة؟ ودَّ لو يتشاجر مع برونو وودَّ لو يبكي. لكنه في الحال شعر بلعناته تزول وسط فيضٍ من الإحساس بالشفقة. إنَّ برونو لا يعرف كيف يُحبّ، وهذا كل ما يحتاج إليه. وبرونو ضائع تماماً، وأعمى بحيث يعجز عن الحب أو عن الإلهام بالحب. بدا الوضع في الحال مأساويّاً.

«ألم يحدث أنْ أحببتَ ذات مرة، يا برونو؟». شاهد غاي تعبيراً متململاً، غريباً، يطلّ من عينيّ برونو.

أشار برونو طالباً مشروباً آخر: «كلا، لم أُقِم علاقة حبٍّ حقيقيّة، في اعتقادي»، وبلّل شفتيه. إنّه ليس فقط لم يعرف الحب أبداً، بل لم يأبه كثيراً بمُضاجعة امرأة. لم يستطع أنْ يكفّ عن التفكير في أنّه شيء سخيف، وأنّه كان يقفُ بعيداً ويُراقب نفسه. وعند نقطة معيَّنة، ومرّة واحدة، بدأ يُقهقه. وارتبك برونو. كان ذلك هو الفرق الأشدّ إيلاماً الذي شعر بأنّه يُميِّزه عن غاي، أي إنَّ في استطاعة غاي أنْ ينسى نفسه مع النساء، وأنّه عمليّاً قتل نفسه من أجل ميريام.

نظر غاي إلى برونو، فأطرقَ برونو عينيه. كأنما كان برونو في انتظاره ليُخبره كيف يعشق. «أتعلم ما هي أعظم حِكمة في العالم، يا برونو؟».

قال برونو مع ابتسامة متكلّفة: «أعرف الكثير من الحِكَم، فأيّها تعني؟».

«التي تقول إنَّ لكل شيء نقيضه المُجاور له».

«تقصد أنَّ الأضداد تتجاذب؟».

«هذا تبسيط مفرِط. أعني - أنت أهديتني ربطات عنق، ولكن تبدَّى لي أيضاً أنّه كان يمكن أنْ تجعل رجال الشرطة ينتظرونني هنا».

أسرع برونو إلى القول، وقد أصبح عصبيّاً: «إكراماً للمسيح، يا غاي، أنت *صديقي!* وأنا مُعجبٌ بك!».

قال غاي في نفسه: وأنا مُعجبٌ بك، ولا أكرهك. لكنَّ برونو لا يمكن أنْ يقول هذا، لأنه كان يكرهه فعلاً تماماً كما أنّه هو لن يقول لبرونو، أنا مُعجبٌ بك، بل، أنا أكرهك، لأنّه مُعجب به فعلاً. صرَّ غاي على أسنانه، ودَعَكَ جبينه بأصابعه جيئة وذهاباً. كان يتكهّن بوجود توازن بين الإرادة الإيجابيّة

والسلبيّة جدير بشلّ كل فعلٍ قبل أنْ يقوم به. ومثل هذا الشيء، على سبيل المِثال، هو الذي أبقاه جالساً هنا. فقفز واقفاً، وأُريقت المشروبات الجديدة على مفرش الطاولة.

حدَّقَ برونو إليه بدهشة ورعب: «ما الأمر، غاي؟»، ولحقَ به. «انتظر، غاي! أتظن أنني أفعل شيئاً كهذا؟ لن أفعله دهري!».

«لا تلمسني!».

كاد برونو يبكي. «غاي!». لِمَ يعامله الناس هكذا؟ *لِمَ*؟ وصرخ وهو على الرصيف: «لن أفعل ذلك دهري! ولا مقابل مليون دولار! ثِقْ بي غاي!».

دفعَ غاي يده نحو صدر برونو وأغلقَ باب سيارة الأجرة، كان يعلم أنَّ برونو لا يمكن أنْ يخونه، ولكنْ إنْ كان كل شيء غامضاً كما يعتقد، فكيف يستطيع أنْ يتيقَّن؟.

الرابع والثلاثون

«ما صِلتكَ بالسيدة غاي هينز؟».

كان برونو يتوقَّع هذا. كان في حوزة جيرارد آخر بيانات اتّهامه، الأزهار التي كان قد أرسلها إلى آنْ. «أنا صديق. صديق زوجها».

«أوه، صديق؟».

«أحد معارفه» وهزَّ برونو كتفيه استخفافاً، لعِلمِهِ أنَّ جيرار سوف يعتقد أنّه يُحاول أنْ يتباهى لأنَّ غاي كان شخصيّة مشهورة.

«أتعرفه منذ مدة طويلة؟».

«ليست طويلة». مدَّ برونو يده ليتناول ولاعته، من مكان ارتخائه الأفقيّ على كرسيه المُريح.

«لماذا أرسلتَ الزهور؟».

«أعتقدُ بدافع الشعور بالسعادة. كنتُ ذاهباً لحضور حفلة هناك في تلك الليلة».

«هل معرفتك به جيدة إلى هذه الدرجة؟».

من جديد هزَّ برونو كتفيه. «كانت حفلة عاديّة. كان أحد المهندسين المعماريين الذين تذكّرناهم عندما فكّرنا في بناء منزل». قال برونو في نفسه: لقد خطر هذا القول له فجأة، وكان جيداً.

«والآن، لنعُد إلى ماتْ ليفاين».

تنهّدَ برونو. ربما كان سبب إلغاء غاي من الموضوع يعود إلى أنّه خارج المدينة. والآن جاء دور ماتْ ليفاين - أصبحوا شديدي الغموض، وكان يُقابل مات كثيراً قبل وقوع جريمة القتل، ولم يُدرك أنَّ ذلك أمر مفيد. «ماذا عنه؟».

«كيف تصادفَ أنكَ قابلته في الرابع والعشرين، والثامن والعشرين، وفي الثلاثين من شهر نيسان، وفي الثاني، والخامس، والسادس، والسابع من شهر آذار، وقُبيل وقوع جريمة القتل بيومين؟».

«أفعلتُ هذا؟» وابتسم. في آخر مرة لم يكن في حوزة جيرارد أكثر من ثلاثة تواريخ. ومات أيضاً لم يُحبّه، ربما قال مات أسوأ الأشياء. «كان مهتماً بشراء سيارتي».

«وأنت كنتَ مهتمّاً ببيعها؟ لماذا، لأنكَ اعتقدتَ أنكَ سوف تحصل على سيارة جديدة قريباً؟».

«قال برونو بشرود: أردتُ أنْ أبيعها لكي أحصل على واحدة صغيرة. السيارة الموجودة في المرآب الآن الكروسلي».

ابتسم جيرارد: «منذ متى وأنتَ تعرف مارك ليف؟».

ردَّ برونو: «منذ أنْ كان اسمه مارك ليفيتسكي. عُد قليلاً إلى الوراء وسوف تكتشف أنّه قتل والده هو في روسيا». نظر برونو بحنق إلى جيرارد بدت كلمة «هو» غريبة، ما كان ينبغي أنْ يقولها، لكنَّ جيرارد يحاول أنْ يبدو بارعاً في التعامل مع الأسماء المُستعارة!.

«مات أيضاً لا يهتم بك. ما الأمر، ألم تتمكنا أنتما الاثنين من إقامة علاقة ودّية؟».

«تقصد بشأن السيارة؟».

قال جيرارد بصبر: «تشارلز».

«أنا لا أقول أي شيء». نظر برونو إلى أظافره المقروضة، وفكّر من جديد في مدى تطابق صِفات مات مع المُواصفات التي ذكرها كبير الخدم هربرت للقاتل.

«أنتَ لم تقابل إرني شرودر كثيراً مؤخّراً».

فتحَ برونو فمه بضجر لكي يُجيب.

الخامس والثلاثون

جلسَ غاي، حافي القدمين، مرتدياً بنطلوناً قطنيّاً أبيض اللون، واضعاً ساقاً فوق ساق، على الجزء الأمامي من سطح الباخرة «*إنديا*». كانت لونغ أيلند قد بدتْ تواً للعيان، لكنّه لم يرغب في النظر إليها منذ الآن. كان التقدُّم المتهادي للسفينة يُهدهده بصورة ممتعة ومألوفة، كشيءٍ عرفه طوال حياته. وبدا اليوم الذي قابل فيه برونو في المطعم يوماً يُثير الجنون. لا شك في أنّه كان ينجرف نحو الجنون، ولا شك في أنَّ آنْ لاحظتْ ذلك.

مطَّ ذراعه وشدَّ جلدها الأسمر الرقيق الذي يكسو عضلاتها. كان أسمر البشرة كإيغون، صبي السفينة نصف البرتغاليّ الذي كانا قد استخدماه من حوض سفن في لونغ أيلند في بداية الرحلة. لم يتبقَّ غير ندبة صغيرة على حاجبه الأيمن لونها أبيض.

كانت الأسابيع الثلاثة التي أمضياها في البحر قد منحته السكينة والاستسلام اللذين لم يكن قد عرفهما من قبل، وكان قبل شهر مضى يمكن أنْ يعتبره أمراً غريباً. لقد أصبحَ يشعر بأنَّ كفّارته، مهما كانت، شكّلتْ جزءاً من قَدَرِه، وعلى غرار ما تبقّى من قَدَرِه كان سيعثر عليها من دون أنْ يبحث عنها. ولطالما وثقَ بحسّه بالقَدَرَ. كان قد عرفَ، وهو صبي صغير مع بيتر، أنّه لن يكتفي بالأحلام، وعرِفَ أيضاً بصورة ما أنَّ بيتر سوف يكتفي بالحلم، وأنّه سوف يُبدِع أبنية مشهورة، وأنَّ اسمه سوف يحتل مركزه المناسِب في عالم الهندسة المعماريّة، وأخيراً –ولطالما بدا له أنَّ هذا سيمثّل ذروة إنجازاته– أنّه سوف يُنشئ جسراً. سيكون جسراً أبيض يمتدّ كجناحيّ ملاك، هكذا فكَّر وهو صبي، كالجسر الأبيض المنحني لروبرت ميلارت الذي ظهر في كتبه

عن الهندسة المعمارية. ربما كان من قبيل العجرفة أنْ يُؤمن هكذا بقدره. ولكن من ناحية أخرى، مَنْ يستطيع أنْ يكون أشدّ تواضعاً بصورة أصيلة من شخص مُجبَر على الرضوخ لقوانين قدره؟ وجريمة القتل التي كانت تُعتبَر موتاً شنيعاً، وإثماً ارتكبه في حقّ نفسه، أصبح يؤمن الآن بأنّها ربما تشكّل جزءاً من قدره، أيضاً. كان من المستحيل التفكير في غير هذا. وإذا كان الأمر كذلك، فسوف يُمنَح وسيلة لتقديم كفّارته، ويُمنَح القدرة على تنفيذها. وإذا كان الموت وفقاً للقانون قد استبدَّ به في أول الأمر، فسوف يُمنَح القدرة على مواجهته أيضاً، ومقدرة إضافيّة كافية لآنْ لكي تواجهه. وشعر بصورة غريبة بأنّه أشدّ تواضعاً من أضأل سمكة منوّة[19] في البحر، وأقوى من أعظم الجبال الشاهقة على وجه الأرض. لكنّه لم يكن متعجرفاً. كانت عجرفته بمثابة خط دِفاع، بلَغَتْ ذروتها عندما انفصل عن ميريام. ثمّ ألم يعلم حتى حينئذٍ، وهو ممسوس بها، ومسكين بائس، أنّه سوف يعثر على امرأة أخرى يمكن أنْ يُحبّها وتبقى دائماً على حبّه؟ وأيّ برهانٍ أفضل احتاج إليه على أنَّ هذا هو الوضع من أنَّه وآنْ لم يكونا من قبل أشدّ تقارُباً، ولم تكن حياتهما أشدّ تناغماً، مما كانت عليه في أثناء الأسابيع الثلاثة هذه التي أمضياها في البحر؟.

استدار بحركةٍ من قَدَمه، فرآها تتكئ على الصاري الأساسيّ. ارتسمتْ ابتسامة خفيفة على شفتيها وهي تحدق إليه من أعلى، ابتسامة شبه مكبوتة، ملؤها الفخر كابتسامة أمّ، كما تخيَّلَ غاي، نجحتْ في تخليص طفلها من المرض بأمان، وردَّ لها غاي الابتسامة بمثلها، متعجّباً كيف استطاع أنْ يثِق في معصوميتها وفي استقامتها وبقيَتْ مع ذلك مجرد كائن بشريّ. وفوق ذلك كلّه، تعجّبَ من كونها مُلكهُ. ثم نظر إلى يديه المشتبكتين وفكّر في العمل الذي سيباشره في الغد على مشروع المستشفى، وفي كل العمل القادم، وفي أحداث قدره التي تنتظره.

بعد بضع ليال لاحقة اتصل برونو قال إنّه موجود في الجوار وأراد أنْ يُعرِّج علينا، بدا رصيناً ومُكتئباً قليلاً.

19– المنوّة: سمكة أوروبيّة صغيرة.

رفَضَ غاي طلبه. أخبره بهدوء وبحزم بأنّه لا هو ولا آنْ يريدان أنْ يرياه بعد الآن، ولكن حتى وهو يتكلَّم شعر بأنَّ صبره ينفد بسرعة، وسلامة عقله التي تمتَّعَ بها خلال الأسابيع الأخيرة تنهار تحت وطأة جنون أي حديث يدور بينهما.

علِمَ برونو أنَّ جيرارد لم يتحدث مع غاي بعد. ولم يعتقد أنَّ جيرارد سوف يُحقِّق مع غاي أكثر من بضع دقائق. لكنَّ غاي بدا شديد البرودة. ولم يتمكّن برونو من دفعه إلى إخباره الآن بأنَّ جيرارد حصل على اسمه، وأنّه قد يخضع للتحقيق، أو أنّه ينوي أنْ يُقابل غاي من الآن فصاعداً في سرّية تامة –بعيداً عن الحفلات أو الدعوات على مائدة الغداء– إذا سمح غاي له بذلك.

قال برونو بصوت خافت: «حسن»، وأنهى المكالمة.

ثم رنَّ جرس الهاتف من جديد. أطفأ غاي السيجارة التي كان قد أشعلها تواً بارتياح، متجهّماً، وأجاب على الهاتف.

«ألو، معك آرثر جيرارد من مكتب التحرّي السرّي...» وطلبَ جيرارد مقابلته.

تلفّتَ غاي حوله، ناظراً بضجر إلى أرجاء غرفة الجلوس، مُحاولاً أنْ يفكِّر في أنَّ جيرارد استرق السمع إلى حديث برونو عبر خط مُراقَبة، وأنَّ جيرارد قد ألقى القبض تواً على برونو. وارتقى إلى الطابق العلوي ليُخبر آنْ.

سألته آنْ، متفاجئة: «تحرٍّ خاصّ؟ ما الداعي؟».

تردَّد غاي برهة. كانت هناك أماكن كثيرة جداً كان يمكن أنْ يتردَّد عندها مُطوّلاً! اللعنة على برونو! اللعنة عليه لأنه يُلاحقه! «لا أعلم».

وصل جيرارد بسرعة انحنى بكياسة على يد آنْ، وبعد أنْ اعتذر لتطفّله على أمسيتهما، بدأ حديثاً مُهذّباً حول المنزل وعن بقعة الحديقة في الجزء الأمامي. حدَّقَ غاي إليه بشيءٍ من الدهشة. بدا جيرارد بليداً، ومُتعباً، ومُشوّشاً بصورة مُبهمة. ربما لم يكن برونو مُخطئاً كليّاً بشأنه حتى هيئته الشاردة، الذي فاقمها البطء في كلامه، لم توحِ بشرود التحرّي اللامع. وبينما جيرارد يستقرّ مع سيجار ومشروب مُسكِر، لاحظ غاي البراعة في العينين

بلونهما الكستنائي الفاتح والطاقة الكامنة في اليدين المُكتنزتين. عندئذٍ شعر غاي بالانزعاج، لقد بدا جيرارد غامضاً.

«هل أنت صديق لتشارلز برونو سيد هينز؟».

«نعم. أعرفه».

«لقد اغتيل والده في آذار الفائت كما ربما تعلم، ولم يُعثَر على القاتل».

قالتْ آنْ: «لم أكنْ أعلم هذا!».

انتقلتْ عينا جيرارد ببطء منها إلى غاي.

قال غاي: «وأنا أيضاً لم أكن أعلم».

«ألا تعرفه إلى هذه الدرجة؟».

«إنَّ معرفتي به سطحيّة جداً».

«متى تقابلتما وأين؟».

«في –» وألقى غاي نظرة سريعة على آنْ – «مؤسسة باركر للفنون، أعتقد في شهر كانون أول». شعر غاي كأنّه وقع في فخ، لقد كرَّر جواب برونو الوقح في العرس، ببساطة لأنَّ آنْ كانت قد سمعتْ برونو يقوله، وربما آنْ نسيت. قال غاي في نفسه: إنَّ جيرارد يتأمّله كأنّه لا يُصدِّق أيّة كلمة منه. لِمَ لمْ يُحذّره برونو بشأنْ جيرارد؟ لِمَ لمْ يتّفقا على الرواية التي كان برونو ذات مرّة قد اقترحها عن لقائهما في حانة في قلب المدينة؟.

أخيراً سأل جيرارد: «ومتى قابلته من جديد؟».

«في الواقع – ليس قبل حفل الزفاف في شهر حزيران» وشعر بأنّه يتلبَّس تعبير الوجه المرتبك لرجلٍ لم يعلم بعد الغرض من التحقيق معه. قال في نفسه: لحُسن الحظ أنّه كان قد طمأنَ آنْ بأنَّ إصرار برونو على أنهما صديقَان حميمَان هو مجرد أسلوب برونو في الفكاهة. وأضاف غاي «نحن لم ندْعُه».

«جاء هكذا ببساطة؟» بدا كأنَّ جيرارد فهمَ الوضع. «لكنكَ دعوته إلى الحفلة التي أقمتها في شهر تموز؟» وألقى نظرة على آنْ أيضاً.

أخبرته آنْ «لقد اتصل هاتفيّاً وطلبَ أنْ يحضر، فقلت – قلتُ نعم».

ثم سألَ جيرارد إنْ كان برونو يعلم بأمر إقامة الحفلة عبر أحد أصدقائه الذين حضروا، فقال غاي ربما، وأعطى اسم امرأة شقراء كانت قد ابتسمتْ

لبرونو ابتسامة مُروّعة في تلك الأمسية. ولم يكن في حوزة غاي أسماءٌ أخرى يمدّه بها. لم يكن قد شاهد برونو مع أي شخص.

استرخى جيرارد في جلسته: «أأنتَ مُعجَبٌ به؟»، وابتسم.

أخيراً أجابت آنْ، بتهذيب: «كثيراً».

قال غاي، لأنَّ جيرارد كان ينتظر: «لا بأس به. يبدو وقحاً قليلاً». كان الجانب الأيمن من وجهه في الظل. تساءلَ غاي إنْ كان جيرارد يتفحّص وجهه الآن بحثاً عن ندب.

«هو يعبد الأبطال، يعبد القوّة، بصورة ما»، ابتسم جيرارد، لكنَّ الابتسامة لم تعد تبدو صادقة، أو ربما لم تكن كذلك أبداً. «آسف لإزعاجك بهذه الأسئلة، سيد هينز».

بعد بضع دقائق أخرى، كان قد غادر.

سألته آنْ: «ما معنى هذا؟ أيشكّ في تشارلز برونو؟».

أوصد غاي الباب، ثم عاد. «لعله يشكّ في أحد معارفه. ربما يعتقد أنَّ تشارلز يعرف شيئاً، لأنه كان يكره والده كثيراً. أو هذا ما أخبرني به تشارلز».

«أتعتقد أنَّ برونو ربما يعرف؟».

«لا أحد يعلم. أليس كذلك؟»، وتناول غاي سيجارة.

«يا إلهي». وقفتْ آنْ تنظر إلى زاوية الأريكة، وكأنها ما زالتْ ترى برونو حيث كان يجلس في ليلة الحفلة. وهمستْ: «إنَّ ما يجري في حياة الناس شيء مُذهل!».

السادس والثلاثون

قال غاي في سمّاعة الهاتف بعصبيّة: «اسمع، اسمع يا برونو!». بدا برونو أشدّ سُكراً من صوته مما عرف عنه غاي، لكنّه صمَّم على أنْ ينفَذ إلى عقله المُشوَّش. وفجأة فكّر في أنَّه ربما يكون جيرارد معه، فجعل صوته أشد رقّة، وجُبناً بدافع الحذر. لقد اكتشفَ أنَّ برونو يتكلَّم من كشك هاتف، وحده. «هل أخبرتَ جيرارد بأننا تقابلنا في مؤسسة الفنون؟».

قال برونو إنه فعل. وَصلَه الجواب من خلال غمغمة السُكر التي تكلَّم

بها. وأراد برونو أنْ يأتي إليه. لم يستطع غاي أنْ يُخبره بأنَّ جيرار قد زاره تواً لكي يستجوبه، وأعاد السمّاعة بقوة إلى مكانها، وفتح ياقة قميصه واسعاً. إنَّ برونو يتصل به الآن! لقد أبرز جيرارد خَطَرَه. وشعر غاي بأنَّ قطع أيّة صِلة له ببرونو أصبحَ أمراً أشدّ إلحاحاً من تلفيق رواية معه تكون متطابقة. وأشدّ ما أزعجه أنّه لم يستطع أنْ يستشفّ من هراء برونو ما حدث له، أو حتى المزاج الذي كان فيه.

كان غاي في الطابق العُلوي في المُحترَف مع آنْ عندما رنَّ جرس الباب.

لم يفتح من الباب إلّا قليلاً، لكنَّ برونو دفعه حتى فتحه واسعاً، وتعثّر وهو يعبر غرفة الجلوس، وانهار على الأريكة. وقفَ غاي في طريقه، لم يتكلّم في أول الأمر من فرط الغضب، ثم بفعل الإحساس بالاشمئزاز انتفخت رقبة برونو البدينة، المحمرَّة، وبرزت من ياقته. بدا مُنتفخاً أكثر منه ثملاً، وكأنَّ استسقاء الموت تسبَّبَ في تورّم كامل جسمه، وملأ حتى محجريّ عينيه العميقَين بحيث جحظَتْ عيناه بلونهما الأحمر - الرمادي بصورة غريبة. وحدَقَ برونو إليه. وذهبَ غاي إلى جهاز الهاتف لكي يطلب سيارة أجرة.

همستْ آنْ نحو أسفل الدّرج: «غاي، مَن هذا؟».

«إنه تشارلز برونو، وهو ثمل».

فجأة احتجَّ برونو: «أنا لستُ ثملاً!».

هبطتْ آنْ حتى منتصف مطلع الدّرَج، فرأته. «ألا ينبغي أنْ نجعله يصعد إلى الطابق العُلوي؟».

«لا أريده هنا». كان غاي يبحث في دليل الهاتف، يحاول أنْ يعثر على رقم هاتف شركة سيارات أجرة.

هسَّ برونو «نعم - مممم!» كأنّه إطار سيارة ينفِّس.

التفتَ غاي. كان برونو يُحمل فيه بعينٍ واحدة، العين التي كانت الشيء الوحيد الحيّ المتمدِّد، الشبيه بالجثّة. كان يتمتم بشيء، تمتمة منتظمة.

اقتربتْ آنْ من غاي: «ماذا يقول؟».

اقتربَ غاي من برونو وقبضَ عليه من مقدمة قميصه. لقد أثارت التمتمة

البلهاء غضبه، فسال لعاب برونو على يده وهو يُحاول أنْ يجعله ينهض. «انهضْ واخرج من هنا!»، ثم سمعه يقول:

صاح برونو، «سأخبر*ها*، سأخبر*ها* -سأخبرها، سأخبر*ها*» وأخذت العينان الحمراوان الهائجتان تُحدِّقان إليه. «لا تطردني. سوف أخبر*ها*- سوف-».

أطلقَ غاي سراحه باشمئزاز.

«ما الأمر، غاي؟ ماذا يقول؟».

قال غاي: «سوف أرافقه إلى الطابق العُلوي».

حاولَ غاي بكل قِواه أنْ يحمل برونو على كتفه، لكنَّ الثقل الساكن، المترهّل، دحره. وأخيراً، مدَّده غاي على الأريكة الكبيرة، وذهب إلى النافذة الأماميّة. لم يكن هناك أيّة سيارة في الخارج. ربما برونو سقط من السماء. واستغرقَ برونو في النوم من دون أنْ يُصدر أي ضجيج، وجلسَ غاي يُراقبه، ويُدخّن.

استيقظ برونو عند حوالي الساعة الثالثة صباحاً، وجرع كأسين من المشروب لكي يوازن نفسه. وبعد لحظات، بدا طبيعياً تقريباً، ما عدا انتفاخ جسمه. كان سعيداً جداً لأنه وجد أنّه في منزل غاي، ولم يتذكَّر وقت وصوله. «دارت بيني وبين جيرار جولة أخرى من التحقيق». ابتسم. «طوال ثلاثة أيام. هل قرأتَ ما ورد في الصحف؟».

«كلا».

قال برونو بهدوء: «أنتَ الرائع، لا تلقي حتى نظرة على الصحف! إنَّ جيرارد مولع برائحة المتشردين. بصديقي المحتال، مات ليفاين. فهو ليستْ لديه حجّة غياب في تلك الليلة. ويعتقد هربرت أنّه يمكن أنْ يكون المجرم. وقد تحدثتُ مع الثلاثة طوال ثلاثة أيام. وربما يقع الخيار على مات».

«تقصد أنْ يموت بسبب ذلك؟».

تردَّد برونو، ولا يزال يبتسم: «لا أقول يموت، بل ينال العقوبة. هناك حادثتا قتل أو ثلاث مُسجّلة في حقّه حتى الآن. وسوف يُسعد الشرطة أنْ تنال منه». سرَتْ الرعشة في برونو وشرب ما تبقّى في كأسه.

ودَّ غاي لو يتناول منفضة السجائر الكبيرة التي أمامه ويحطِّم بها رأس برونو المنتفخ، ويحرق التوتّر الذي شعر بأنّه سوف يزداد ويزداد إلى أنْ يقتل برونو، أو يقتل نفسه. وأمسك كتفيّ برونو بقوة بكلتي يديه. «هلّا خرجت؟ أُقسِم على أنها ستكون المرّة الأخيرة التي أقول فيها هذا!».

قال برونو بهدوء، من دون أي حركة مقاومة: «كلا». ورأى غاي اللامبالاة القديمة بالألم، وبالموت، التي كان قد رآها عندما تقاتل معه في الغابة.

وضع غاي يديه على وجهه، وشعر بالتواءاته على راحتيه. همس «إذا تحمّلَ هذا المدعو مات الذنب، فسوف أخبرهم القصة كلها».

«أوه، لن يتحمّل الذنب. ليس لديهم ما يكفي من الأدلّة. إنها نكتة، يا صاحبي!». وابتسم برونو ابتسامة عريضة، «إنَّ مات هو الشخصيّة الصحيحة التي لديها الدليل الخطأ. وأنتَ الشخصيّة الخطأ التي لديها الدليل الصحيح. أنتَ شخصيّة هامة، بحقّ الله!» وأخرج شيئاً من جيبه وناوله لغاي. «لقد عثرتُ على هذا في الأسبوع الفائتْ شيء جميل جداً، يا غاي».

نظر غاي إلى الصورة الفوتوغرافيّة لـ «مخزن بيتسبرغ»، مع خلفيّة سوداء جنائزيّة. كان كُتيّباً من المتحف الحديث. قرأ: «غاي دانييل هينز، في الثلاثين تقريباً، يتبع تراث رايت[20]. أنجزَ أسلوباً متميِّزاً، عنيداً يتميَّز ببساطته الصارمة من دون قسوة، من أجل نعمة يُسمّيها «الغنائيّة»...». أغلقه غاي بعصبيّة، وقد اشمأز من الكلمة الأخيرة التي كانت من اختلاق المُتحف..

أعاد برونو الكتيِّب إلى جيبه. «أنتَ أحد القمم إذا بقيتَ ثائر الأعصاب، يمكنهم أنْ يفتشوك تفتيشاً دقيقاً من دون أنْ يشكّوا فيك».

نظر غاي إليه باحتقار. «ومع ذلك هذا ليس سبباً يُبرِّر لك مقابلتي. لِمَ فعلتَ هذا؟» ولكن كان يعلم السبب. لأنَّ حياته مع آنْ كانت تفتن برونو. لأنّه هو نفسه استمدَّ شيئاً من رؤية برونو، بعض العذاب الذي خفَّ بصورة منحرفة.

20- رايت؛ المقصود به هنا فرانك لويد رايت (1869-1959) مهندس معماري، صمم الفندق إمبريال في طوكيو ومتحف غوغنهايم، في نيويورك والعديد من المنازل الخاصّة.

راقبه برونو كأنّه يعلم كل ما يجري في خلده: «أنا مُعجَبٌ بك، يا غاي، ولكنْ تذكَّر – إنَّ لديهم من الأدلّة ضدك أكثر مما لديهم ضدّي. أستطيع أنْ أنجو إذا أفشيتَ أمري، أمّا أنتَ فلا تستطيع. فقد يتعرَّف هربرت عليك. ويمكن لآنْ أنْ تتذكّر أنكَ كنتَ تتصرَف بشكل غريب الأطوار في تلك الفترة. وهناك الخدوش والندبة. وهناك كل الأدلّة الصغيرة التي رموها أمامك، كالمسدس، وقطع القفّاز–» وسردها برونو ببطء وباستمتاع، كأنها ذكريات قديمة. «في مواجهتي معك، أراهن على أنكَ سوف تنهار».

السابع والثلاثون

علِمَ غاي حالما سألته آنْ أنها رأت الانبعاج. كان ينوي أنْ يُصلحه، ونسي. في أول الأمر قال إنه لم يكن يعلم كيف ظهر هناك، ثم قال إنّه تذكّر. قال إنه كان قد خرج بالقارب في الأسبوع السابق، وإنّه ارتطم بعوامة إرشاد.

سخرت منه قائلة: «لا تأسف كثيراً على ذلك، فالأمر لا يستحق»، وأمسكتْ بيده وهي تنهض لتقف. «لقد قال إيغون إنكَ أخذتَ القارب وخرجت به بعد ظهيرة أحد الأيام. ألهذا السبب لم تذكر أيَّ شيءٍ عنه؟».

«أعتقد ذلك».

«هل خرجتَ به وحدك؟» وابتسمت آنْ قليلاً، لأنه لم يكن بحّاراً جيداً بالقدر الذي يسمح له بالخروج وحده بالقارب.

كان برونو قد اتصل وأصرَّ على أنْ يخرجوا للإبحار. وكان جيرارد قد وصل إلى طريقٍ مسدودة جديدة مع مات ليفاين، كان يجد طرقاً مسدودة أينما اتّجه، وأصرَّ برونو على الاحتفال. قال: «لقد خرجت بالقارب مع تشارلز برونو بعد ظهيرة أحد الأيام». وكان قد أحضر المسدس معه في ذلك اليوم، أيضاً.

«لا بأس، غاي. ولكن لماذا قابلته من جديد؟ حسبتُ أنكَ تكرهه كثيراً».

تمتم «كانت نزوة. حدث ذلك خلال اليومين اللذين كنتُ أقوم خلالهما بالعمل في المنزل». كان غاي يعلم أنَّ الوضع ليس حسناً، وحافظَتْ آنْ على لمعان نحاس الباخرة «*إنديا*» وعلى الخشب المدهون باللون الأبيض نظيفاً، كتمثال مطليّ بالذهب وبالعاج. وبرونو! أصبحت الآن لا تثق ببرونو.

«غاي، هذا ليس الرجل نفسه الذي قابلناه أمام شقّتك، أليس كذلك؟ ليس الذي تحدّث معنا وسط الثلج؟».

«نعم؟ إنه الرجل نفسه» شدَّت أصابعه بعجز على وزن المسدس الذي في جيبه.

تبعَتْه آنْ بخطوة عفويّة على متن الباخرة: «ما سبب اهتمامه بك؟ ليس لديه اهتمام خاص بفن العمارة. لقد تحدثتُ معه في ليلة الحفلة».

«وهو ليس مهتماً بي، كل ما في الأمر أنه لا يعرف ماذا يفعل بحياته». قال في نفسه: يستطيع أنْ يتحدَّث بعد أنْ يتخلَّص من المسدس.

«هل تعرّفتَ عليه في المدرسة؟».

«نعم. كان يتمشّى في أحد الأروقة». ما أسهل الكذب عندما ***يُضطر*** المرء إلى الكذب! لكنه كان أشبه بالحوالق تلتفّ حول قدميه، وجسده، وعقله. وذات يوم سوف يرتكب الخطأ القاتل مُقدَّرٌ له أنْ يخسر آنْ، وربما خسرها منذ الآن، في هذه اللحظة وهو يُشعل سيجارة وهي واقفة تتكئ على الصاري الرئيسيّ، تراقبه. وبدا كأنَّ ثِقل المُسدس يُثبّته في مكانه، فاستدار بتصميم ومشى باتجاه مقدّمة الباخرة. ومن خلفه سمعَ وقع خطوات آنْ على متن الباخرة، خطوتها الخفيفة بحذاء التنس، عائدة إلى غرفة الربّان.

كان يوماً كئيباً، يعِد بهطل المطر. تهادت الباخرة «*إنديا*» ببطء على سطح الماء المتقلِّب، وبدا أنّها لم تبتعد عن الشاطئ الرماديّ أكثر مما كانت قد ابتعدتْ قبل ساعة من الزمن. اتّكأ غاي على عمود المقدِّمة المائل ونظر نحو الأسفل إلى ساقيه المتدثرتين باللون الأبيض، وإلى السترة الزرقاء بأزرارها المُذهّبة التي كان قد أخذها من خزانة الملابس في الباخرة «*إنديا*»، وربما كانت تخصّ والد آنْ. قال في نفسه: كان يمكن أنْ يُصبح بحّاراً وليس مهندساً معماريّاً. كان شديد الحماس لخوض غمار البحر وهو في سن الرابعة عشرة. فما الذي منعه عن ذلك؟ كم كانت حياته ستختلف من دون – ماذا؟ من دون ميريام، طبعاً. شدَّ قامته بنزق واستلَّ المسدس من جيب السترة.

حمل المسدس بكلتيّ يديه فوق المياه، ومِرفقه على عمود المُقدّمة. قال في نفسه: كم يبدو قطعة نفيسة بارعة، وكم يبدو بريئاً الآن. إنّه هو نفسه – وتركه يسقط. انقلبَ المُسدس رأساً على عقِب، في توازنٍ مثاليّ، بما يبدو عليه من إرادة مألوفة، ثم اختفى.

«ماذا كان هذا؟».

التفتَ غاي ورآها واقفة على السطح بالقرب من القمرة. قدَّرَ المسافة بينه وبينها بحوالي عشرة أقدام أو اثني عشر قَدَماً. لم يعرف بما يُجيب، بأي شيء على الإطلاق يمكن أنْ يقوله لها.

الثامن والثلاثون

تردَّد برونو في تناول المشروب. كان لجدران الحمّام شكل التكسُّر إلى قطع صغيرة، وكأنَّما يمكن للجدران ألّا تكون موجودة حقاً.

«ماما!»، لكنَّ نبرة صوته الشاكية والخائفة كانت تُخزيه، وشرب مشروبه.

ولجَ غرفة والدته على أطراف أصابع قدميه وأيقظها بضغط زرّ موجود بجوار سريرها، وهي إشارة ترسلها إلى هربرت في المطبخ تُنبئه بها بأنها باتت مستعدّة لتناول وجبة إفطارها.

تثاءبتْ «آه – آه»، ثم ابتسمتْ. «وكيف حالك؟» وربتتْ على ذراعه ونهضَتْ من بين الأغطية، ودخلَتْ الحمّام لكي تغتسل.

ظلَّ برونو جالساً على سريرها إلى أنْ خرجت وعادت من جديد إلى تحت الأغطية.

«من المُفترَض أنْ نقابل ذلك الرجل المسؤول عن تلك الرحلة بعد ظهيرة هذا اليوم. ما اسمه؟ ساوندرز؟ يُستحسن أنْ تشعر برغبة في مرافقتي».

أومأ برونو برأسه موافقاً. كان الحديث يدور حول رحلتهما إلى أوروبا، وأنهما قد يحوّلانها إلى جولة حول العالم. لم تبدُ شيئاً يتَّصِف بأيّ سِحر في صباح ذلك اليوم. ربما يرغب في الدوران حول العالم مع غاي. نهضَ برونو واقفاً، متسائلاً هل يخرج ليُحضِر مشروباً آخر.

«كيف تشعر؟».

كانت أمّه دائماً تطرح عليه هذا السؤال في التوقيت الخطأ. قال «بخير»، وجلس من جديد.

ثم كان هناك قرع على الباب، ودخل هربرت. قال هربرت: «صباح الخير، مدام. صباح الخير، سيدي»، من دون أنْ ينظر إلى أيٍّ منهما.

تجهَّمَ برونو وهو ينظر إلى الأسفل إلى حذاء هربرت الصامت، المُلمّع والنظيف، سانداً ذقنه بيده. أصبحتْ وقاحة هربرت مؤخراً لا تُطاق! لقد جعله جيرارد يعتقد أنّه يمثّل مفتاح القضيّة برمّتها إذا قبضوا على الرجل الصحيح. الجميع يتحدثون عن مدى شجاعته وكيف طارد المجرم. وقد ترك له والده في وصيّته مبلغ عشرين ألفاً. *وربما* يأخذ هربرت إجازة!.

«هل تعرف المدام إنْ كان سيوجد على مائدة العشاء ستة أشخاص أم سبعة؟».

بينما كان هربرت يتكلَّم، رفعَ برونو بصره ونظر إلى ذقنه الزهريّة، المُدبّبة، وقال في نفسه: «لقد سدَّدَ له غاي ضربة قوية على ذلك الموقع وطرحه أرضاً».

«أوه، يا إلهي. لم أتّصل بهم بعد، يا هربرت، ولكن أعتقد أنهم سبعة».

«عظيم جداً، مدام».

قال برونو في نفسه: رتليدج أوفربِك الثاني كان يعلم أنَّ الأمر سوف ينتهي بأمّه إلى دعوته، على الرغم من أنها تظاهرتْ بأنْ الشكّ ينتابها لأنّه سيشكّل رقماً مفرداً. كان رتليدج يحبّ أمّه بجنون، أو أنّه يتظاهر بذلك. وأراد برونو أنْ يُخبر أمّه بأنَّ هربرت لم يُرسِل ملابسه لكي تُكوى منذ ستة أسابيع. لكنّه شعر باشمئزاز ولم يقُل شيئاً.

قالت وهي تقضم قطعة من الخبز المُحمَّص: «أتعلم، أكاد أموت شوقاً إلى مشاهدة أستراليا». كانت قد دعمتْ خريطة بوعاء القهوة.

انتشرَ إحساسٌ واضح بوخز على مؤخرتها. فنهضَت واقفة. «ماما، لا أشعر بأنني على ما يُرام».

تجهّمتْ في وجهه بقلق، مما أخافه أكثر، لأنّه أدركَ أنّه ليس في وسعها أنْ تفعل أيّ شيء لتساعده. «ما الأمر، يا حبيبي؟ ماذا تريد؟».

هرع يُغادر الغرفة، شاعراً بأنّه يجب أنْ يتقيّأ. أصبح الحمّام شديد السواد. خرج وهو يترنَّح، وترك زجاجة الويسكي التي كانت ما تزال غير مفتوحة تسقط على سريره.

«ماذا، تشارلي؟ ما الأمر؟».

«أريد أنْ أتمدَّد»، وارتمى، ولكن لم يكن ذلك فحوى الأمر. وأومأ لأمّه أنْ تبتعد لكي يتمكّن من النهوض، ولكن عندما اعتدل في جلسته رغب من جديد في الاستلقاء، لذلك نهضَ واقفاً. «أشعر كأنّني سأموت!».

«تمدَّدْ، يا عزيزي. ما رأيك ببعض - بعض الشاي الساخن؟».

مزَّقَ برونو سترة التدخين، ثم الجزء العلوي من بيجامته، كان يختنق، كان عليه أنْ يلهث لكي يتنفّس. كان يشعر **فعلاً** بأنّه يموت!.

هرعتْ نحوه حاملة منشفة مُبلّلة: «ما الأمر، أهي معدتك؟».

«كل شيء»، وخلع خفّه. ذهب إلى النافذة ليفتحها، لكنّها كانت مفتوحة أصلاً. استدار، يتصبَّب عَرَقاً: «ماما، ربما أنا أموت أتعتقدين أنني أموت؟».

«سأعدّ لك مشروباً».

زعقَ «كلا، أحضري لي طبيباً! وأعدّي لي مشروباً، أيضاً!». قام بحركة واهنة بحلّ رباط البيجاما وترك البنطلون يسقط. ما الأمر؟ الأمر ليس فقط رعشة. كان من فرط الضعف بحيث عجز عن الارتعاش. حتى يداه كانتا ضعيفتين وتستشعران وخزاً خفيفاً رفع يديه كانت الأصابع معقوفة نحو الداخل. لم يتمكّن من فتحها. «ماما، ثمة خطبٌ في يديّ! انظري، ماما، ما هذا، ما هذا؟».

«اشربْ هذا!».

سمعَ صوت ارتطام الزجاجة بحافة الكأس لم يستطع انتظاره وهرع إلى الرواق، وانحنى من فرط الرعب، مُحدِّقاً إلى أصابعه الرخوة، المنحنية. الخطب في الإصبعين الأوسطين في كل يد. كانت منحنية إلى الداخل، حتى كادت تلامس راحة اليدين.

همستْ: «عزيزي، البس رداءك!».

«أحضري طبيباً!»، تقول رداءً! إنها تتكلَّم عن رداء! ماذا يهم إنْ كان عارياً؟، «ولكن لا تدعيهم يأخذوني من هنا، ماما!». اندفعَ نحوها وهي واقفة عند جهاز الهاتف. «ارتجي الأبواب كلها! أتعلمين ماذا يفعلون؟». تكلَّم بسرعة وبثقة في النفس، لأنَّ الخَدَر كان ينتقل إلى أعلى وأصبح يعرف الآن ما يحدث له. كان يعاني من حالة غريبة! وسوف يبقى هكذا طوال حياته! «أتعلمين ماذا يفعلون، ماما، إنهم يلبسونك رداء المجانين بلا تردد وهذا سوف يقتلني!».

«دكتور باكر؟ أنا السيدة برونو. هلّا رشّحتَ لنا طبيباً في الجوار نلجأ إليه؟».

صرخ برونو: كيف يمكن لطبيب أنْ يأتي إلى هنا في عمق ريف كونكتيكت؟ وشهق «ماسوم-». لم يقوَ على الكلام، ولا على تحريك لسانه. لقد ضاع داخل حباله الصوتيّة! «اااااااغ!» وأخذ يتلوّى من تحت سترة التدخين التي كانت أمّه تحاول أنْ تضعها عليه. فليقف هربرت هناك ويفغر فاه في وجهه إذا شاء!.

«تشارلز!».

أشار إلى الفم بيديه بشكلهما الغريب واقترب من مرآة الخزانة كان وجهه شاحباً، ومُسطّحاً حول الفم وكأنَّ أحداً ضربه بلوح خشب، وكانت شفتاه متراجعتين بصورة مرعبة خلف أسنانه. ويداه! لن يتمكّن من حمل الكأس بعد الآن، ولن يتمكَّن من إشعال سيجارة، لن يتمكّن من قيادة سيارة، بل لن يتمكّن من اللجوء إلى المرحاض بمفرده!.

«اشرب هذا!».

نعم، مشروب، مشروب. حاول أنْ يستقبله كلّه بشفتيه المتيبّستين وحرَّكَ وجهه وسال نحو الأسفل إلى صدره وأومأ طالباً المزيد حاولَ أنْ يُذكّرها بأنْ تُقفِلَ الأبواب. أوه، يا إلهي، إذا زال الألم فسوف يبقى ممتنّاً طوال حياته! وسمح لهربرت ولأمّه بدفعه إلى السرير.

اختنقَ «له - مهْ!» (لا تدعيهم). لوى مبذل أمّه وكاد يوقِعها فوقه. ولكن

في استطاعته الآن على الأقلّ أنْ يقبض على شيءٍ ما. قال مع لهاثه: «لاه خذني!» (لا تدعيهم يأخذونني)، وطمأنته بأنها لن تدعهم. وأخبرته بأنها سوف تقفل الأبواب كلّها.

قال في نفسه: إنّه جيرارد، جيرارد ما زال يعمل ضدّه، ولن يتوقف عن ذلك أبداً. وليس فقط جيرارد بل حشد هائل من الناس، إنّهم يُفتشون ويستنبطون معلومات من أشخاص ويقومون بزيارتهم، ويكتبون على الآلات الكاتبة، يهرع جيئة وذهاباً ويجمع المزيد فالمزيد من الأجزاء من سانتا فِه الآن، وذات يوم قد يقوم جيرارد بجمعها معاً. وذات يوم قد يدخل جيرارد عليه ويجده على الحالة التي هو عليها في هذا الصباح، ويطرح عليه الأسئلة وسوف يُفشي له كل شيء. ويقول إنّه قتلَ شخصاً. والذي يقتلُ أحداً يقتلونه. قد لا يتمكّن من تحمّل الوضع وحدَّقَ إلى مصدر الضوء في ركن السقف. ذكَّره بمانع الرشح المستدير المصنوع من الكروم الذي في حوض المغسلة في منزل جدَّته في لوس أنجلوس. لماذا فكّرَ في هذا؟.

صدمه وخز الإبرة تحت الجلد بشكلٍ حادّ.

كان الطبيب الشاب ذو المظهر العصبيّ يتحدث مع أمّه في زاوية الغرفة المُعتمة. لكنه شعر بتحسُّن. لن يأخذونه الآن. أصبح الوضع على ما يُرام. كان الخوف قد استبدَّ به قبل قليل. وراح يراقب من تحت أعلى غطاء السرير، بحذر، أصابعه وهي تصبح ليّنة. همس «غاي». كان لسانه لا يزال ثقيلاً، لكنّه استطاع أنْ يتكلَّم. ثم شاهد الطبيب يخرج.

قال بنبرة رتيبة عندما رأى أمّه تقترب: «ماما، لا أريد أنْ أذهب إلى أوروبا!».

«حسن، عزيزي، لن نذهب»، وجلستْ برفق على جانب السرير، وفي الحال شعر بتحسّن.

«هل قال الطبيب إنه لا ينبغي أنْ أذهب؟»، وكأنه لن يذهب إذا شاء الطبيب ذلك! ممَّ كان خائفاً؟ ليس حتى من التعرُّض لنوبة أخرى كهذه! لمسَ الكتف المنتفخ لمبذل والدته، لكنّه فكَّرَ في رتليدج أوفربك على مائدة عشاء هذه الليلة، وترك يده تسقط. كان متأكّداً من أنَّ أمّه تُقيم

علاقة غراميّة معه. كانت تتردد كثيراً على مُحترفه في سيلفر سبرينغ، وكانت تُطيل المكوث. لم يرغب في الاعتراف بذلك، ولكنْ لِمَ لا يفعل ما دام كل شيء يجري أمامه؟ كانت تلك العلاقة الغرامية هي الأولى، ووالده ميّتْ فلِمَ لا تفعل، ولكن لماذا انتقت مثل ذلك الأحمق؟ بدتْ عيناها أشدّ سواداً الآن، في الغرفة المُعتِمة. إنها لم تتغيَّر منذ وفاة والده. وأدركَ برونو الآن أنها ستبقى هكذا، ولن تعود شابّة كما كان يحبّها. «لا تحزني، يا أمي».

«هل تعدني، يا عزيزي، بأنْ تُقلع عن شرب الخمر؟ لقد قال الطبيب إنها بداية النهاية وما حدثَ لك هذا الصباح هو تحذير، ألا تفهم؟ إنه تحذير من الطبيعة»، وبلّلتْ شفتيها، وكانت الرقّة المُفاجئة للشّفَة السُّفلى القريبة منه شيئاً فوق طاقة تحمُّل برونو.

أغمضَ عينيه بشدّة. إذا أعطى وعداً، فسوف يكون كاذباً. «اللعنة، هل أُصِبتُ بالهذيان الارتعاشيّ؟ لم أُصِب به من قبل».

«لكنَّ هذا أسوأ، لقد تحدثتُ مع الطبيب قال إنّه يُحطِّم نسيجك العصبيّ، ويمكن أنْ يقتلك ألا يعني هذا أيّ شيء لك؟».

«نعم، ماما».

«عِدني»، وراقبتْ جفنيه يرفرفان ثم ينسدلان من جديد، وسمعته يتنهّد. قالتْ في نفسها: إنَّ المأساة لم تبدأ في هذا الصباح، بل قبل سنين عديدة عندما بدأ يُعاقر الخمر وحده، و لم يكن سبب المأساة هو شرب الكأس الأولى، لأنّ الكأس الأولى لم تكن الملاذ الأول بل الأخير. قبل ذلك كان يجب أنْ يحدث فشل ذريع في كل شيء –فشل حياتها هي وسام، وفشل أصدقائه، وفشل أمله، وفشل اهتماماته، حقاً. وعلى الرغم مما بذلتْ من جهد، لم تستطع أنْ تكتشف سبب البداية أو مكانها، لأنّ تشارلي كان دائماً يحصل على كل شيء، وقد بذلت هي ووسام أقصى جهدهما لتشجيعه على القيام بأي عمل وكل عمل يُبدي اهتماماً به. ليتها فقط تكتشف الموقع من الماضي الذي بدأ فيه الأمر– نهضَت واقفة، وقد شعرت بحاجة إلى مشروب.

فتح برونو عينيه بتردُّد شعرَ بثقل النوم اللذيذ رأى أنّه أصبح في منتصف

المسافة من الطرف المقابل من الغرفة، كأنّه كان يراقبَ نفسه على شاشة، كان يرتدي بزّته البنيّة المحمرَّة. إنها الجزيرة في ميتكالف. رأى جسده الأصغر سناً، والأكثر نحافة يتقوَّس نحو ميريام ويطرحها أرضاً، خلال تلك اللحظات القليلة التي تفصل بين الزمن السابق والزمن اللاحق. شعر بأنه قام بعدد من الحركات، وخطرتْ في باله أفكارٌ خاصة لامعة خلال تلك اللحظات، وذلك الفاصل الزمنيّ لن يعود أبداً. كما قال غاي عن نفسه، في ذلك اليوم وهما على متن القارب، عندما نفّذَ مشروع بالميرا كان برونو سعيداً لأنَّ تلك اللحظات الخاصة وقعتْ في التوقيت نفسه. وأحياناً كان يعتقد أنَّ في وسعه أنْ يموت بلا ندم، إذ أي شيء آخر يمكن أنْ يفعله ويُضاهي تلك الليلة في ميتكالف؟ أي شيء آخر يفوق ذلك في فظاعته؟ أحياناً، كاللحظة الراهنة، كان يشعر بأنَّ طاقته قد تنحدر، وأحياناً، قد يخبو فضوله. لكنه لم يأبه، لأنه شعر بأنه أصبحَ بصورة ما شديد الحِكمة الآن، وشديد الرضا حقاً. بالأمس فقط أراد أنْ يطوف العالم. لماذا؟ ألكي يقول إنّه فعل ذلك؟ يقول لِمَنْ؟ في الشهر السابق كان قد كتبَ رسالة لوليم بيب، يتطوّع فيها بالهبوط إلى أعماق البحر داخل كرة أعماق[21] ضخمة كانا يختبرانها أولّا من دون أنْ يكون داخلها إنسان. لماذا؟ كان كل شيء سخيفاً بالمقارنة مع ما حدث في تلك الليلة في ميتكالف. إنَّ كل شخص عرفه كان سخيفاً بالمقارنة مع غاي. والأشدّ سُخفاً من كل شيء كان التفكير في أنّه رغبَ في رؤية الكثير من النساء الأوروبيات! لعلَّ عاهرات القبطان أغضبنه، فما أهمية ذلك؟ الكثير من الناس يعتقدون أنَّ الجنس مُغالى في أهميّته. ليس هناك حب يدوم إلى الأبد، كما يقول علماء النفس، ولكن ليس عليه حقاً أنْ يقول هذا عن غاي وآنْ. إنَّ لديه شعوراً بأنَّ حبّهما قد يدوم، ولكنه لم يكن يعلم السبب. لم يكن السبب فقط هو أنَّها كانت تكتنفُ غاي إلى درجة أنّه أصبح لا يرى ما تبقّى. ليس فقط لأنَّه أصبح في حوزة غاي ما يكفي من النقود الآن، بل كان شيئاً خفيّاً حتى أنّه لم يفكّر فيه بعد. وأحياناً كان يشعر بأنّه على شفا أنْ يفكّر فيه. كلا، لا يريد أنْ يُعطي جواباً بالنيابة عن نفسه، بل يريد أنْ يُبقيه ضمن مجال البحث العِلميّ.

21- كرة الأعماق: جهاز غوصكرويّ من أجل دراسة الحياة في أعماق البحار. - المترجم

تقلَّبَ على جنبه، مبتسماً، وهو يفتح أعلى ولّاعة دنْهيل مع تكّة ويُغلقها مع تكّة أخرى. إنَّ ذلك الرجل المختصّ بالرحلة لن يُقابلهما اليوم ولا في أي يوم آخر. إنَّ المنزل مُريح أكثر بكثير من أوربا، ثم إنَّ غاي موجود هنا.

التاسع والثلاثون

كان جيرارد يُلاحقه خلال الغابة، ملوِّحاً بكل الأدلّة في وجهه - قطع القفّاز، ومُزِق المعطف، وحتى المسدس، لأنَّ جيرارد كان قد ألقى القبض على غاي. وكان غاي موثوقاً هناك في الغابة، ويده اليُمنى تنزف دماً غزيراً. إذا لم يستطع غاي أنْ يدور ويصل إليه، فسوف ينزف حتى الموت. كان جيرارد يُقهقه وهو يركض، وكأنّها نكتة بارعة، حيلة جيدة يمارسانها، لكنّه كشفها أصلاً. وبعد قليل سوف يلمسه جيرارد بتينك اليدين القبيحتين!.

نادى «غاي!» لكنَّ صوته بدا ضعيفاً، وأوشك جيرارد أنْ يلمسه. تلك كانت اللعبة، عندما *يلمسه* جيرارد!.

صارع برونو بكل ما أوتي من قوة لكي يعتدل في جلسته وانزلقَ الكابوس من عقله كقطعة كبيرة من الصخر.

جيرارد! ها هو!.

«ما الأمر؟ أهو كابوس؟».

لمسَته اليدان الزهريتان - الأرجوانيتان، وتدحرج برونو وخرج من السرير وسقط على الأرض.

ضحك جيرارد: «استيقظتَ في التوقيت الدقيق، هه؟».

ضغط برونو على أسنانه بقوة كافيه لكسرها واندفع نحو الحمّام وتناول جرعة من المشروب وكان الباب مفتوحاً واسعاً. وفي المرآة، بدا وجهه أشبه بساحة معركة في الجحيم.

«آسف على التدخّل، لكنني اكتشفتُ شيئاً جديداً»، قال جيرارد بصوت متوتر، عالي النبرة يدلّ على أنّه سجَّل انتصاراً صغيراً، «فيما يخصّ صديقك غاي هينز. الشخص الذي كنتَ تحلم به تواً، أليس كذلك؟».

تكسّر الكأس وهو في يد برونو، وأخذ يجمع الشظايا بدقّة من الحوض ويضعها في القعر المُدبَّب الحواف للكأس ومشى مترنّحاً عائداً إلى سريره.

«متى قابلتَه، يا تشارلز؟ ليس في شهر كانون أول الماضي». اتكأ جيرارد على خزانة الأدراج، وهو يُشعل سيجارة. «هل قابلته قبل قُرابة العام ونصف؟ هل كنتَ رفيقاً له على متن القطار المتوجّه إلى سانتا فِه؟». انتظرَ جيرارد الجواب. وأخرجَ شيئاً من تحت ذراعه ورماه على السرير. «أتتذكّر هذا؟».

كان كتاب أفلاطون الخاص بغاي من سانتا فِه، ما زال ملفوفاً والعنوان المُدوَّن عليه شبه مُمحى. دفعه برونو جانباً، «طبعاً، أتذكّره. لقد أضعته وأنا متوجّه إلى مكتب البريد».

«كان فندق لا فوندا يحتفظ به على الرفّ. كيف حدثَ واستعرتَ كتاباً عن أفلاطون؟».

رفعَ برونو بصره «عثرتُ عليه في القطار كان مُدوّناً عليه عنوان غاي، وعليه كنتُ أنوي أنْ أعيده إليه بالبريد. في الحقيقة، عثرتُ عليه في عربة الطعام». نظر مباشرةً إلى جيرارد، الذي كان يُراقبه بعينيه الصغيرتين الثابتتين، والحادّتين، اللتين لا يبدو دائماً أنَّ هناك شيئاً خلفهما.

سأله جيرارد من جديد بالطريقة الحليمة التي يستجوبُ بها المرءُ طفلاً يعلمُ أنّه يكذب، «متى قابلته، يا تشارلي؟».

«في شهر كانون أول».

«أنت تعلم طبعاً بمقتل زوجته».

«طبعاً، قرأت عن ذلك، ثم قرأتُ عن بنائه نادي بالميرا».

«فقلتَ في نفسك: يا له من أمر غريب، لأنكَ كنتَ قد عثرتَ على كتاب قبل ذلك بستة أشهر ويخصّه».

تردَّد برونو «نعم».

زمجر جيرارد، وأطرقَ بصره مع ابتسامة صغيرة تنمّ عن الاشمئزاز.

انتاب برونو شعور غريب، مُزعج. أين كان قد شاهد من قبل ابتسامة مثلها مع زمجرة؟ رأى واحدة عندما كذِبَ على والده بشأن شيءٍ ما، كذبَ بكل وضوح وتمسّك بكذبه، وقد سبَّبت له زمجرة والده، وعدم التصديق

والابتسامة، إحساساً بالخزي. وأدرك برونو أنَّ عينيه ناشدتا جيرارد أنْ يُسامحه، لذلك قام عن عمد بالإشاحة ببصره بعيداً نحو النافذة.

التقطَ جيرارد الكتاب: «وأجريتَ كل تلك الاتصالات الهاتفية إلى ميتكالف حتى من دون أنْ تكون لك معرفة بغاي هينز».

«أيّة اتصالات؟».

«اتّصالات عِدَّة».

«ربما واحدة عندما كنتُ ثملاً».

«بل مرّاتٍ عِدّة. بخصوص ماذا؟».

«بخصوص الكتاب اللعين!» إنْ كان جيرارد يعرفه حقّ المعرفة، فعليه أنْ يعلم أنَّ ذلك هو بالضبط ما سيفعله. «ربما اتّصلتُ عندما سمعت أنَّ زوجته قُتِلَتْ».

هزَّ جيرارد رأسه نفياً: «أنتَ اتّصلتَ قبل أنْ تُقتَل».

«وما أهمية هذا؟ ربما فعلت».

«تقول ما أهميّة هذا؟ سوف أُضطر إلى سؤال السيد هينز. وبالنظر إلى اهتمامك بجريمة القتل، أليس أمراً مدهشاً أنكَ لم تتصل به بعد ارتكاب جريمة القتل؟».

صرخ برونو: «لقد سئمتُ القتل!».

قال جيرارد وهو يخرج: «أوه، أصدقك، يا تشارلي، أصدّقك!»، ومشى على طول الرواق نحو غرفة أمّه.

أخذَ برونو دشّاً وارتدى ملابسه بعناية بطيئة وتذكَّر أنَّ جيرارد كان أشدّ اهتماماً بكثير بمات ليفاين. وحسب عِلمه، هو لم يتصل هاتفيّاً إلّا مرّتين بميتكالف من فندق لا فوندا، الذي لا بدّ أنَّ جيرارد حصل منه على الفواتير. كان في استطاعته أنْ يقول إنَّ والدة غاي أخطأتْ بشأنْ المُكالمات الأخرى، وإنه لم يكن المُتَّصِل.

سألَ برونو أمّه: «ماذا يُريد جيرارد؟».

«ليس الكثير أراد أنْ يعرف إنْ كنتُ أعرف أحد أصدقائك. غاي هينز».

كانت ترفع شَعرها نحو الأعلى، لكي ينتصب بشكلٍ جامح حول الوجه الهادئ، المُتعَب. «هو مهندس معماري، أليس كذلك؟».

«آه – هاه. لا أعرفه معرفة وثيقة»، وأخذَ يتمشّى خلفها في أرجاء المكان. كانت قد نسيتْ المشابك في لوس أنجلوس، كما توقَّع منها أنْ تنسى. شكراً لله، لأنه لم يُذكِّرها بأنّه كان يعرف غاي عندما خرجت صور نادي بالميرا! لا بدّ أنّه كان يعرف في قرارة عقله أنّه سوف يدفع غاي إلى ارتكاب الجريمة.

«كان جيرارد يتحدّث عن مكالماتٍ أجريتَها معه في الصيف الفائت. ما معنى هذا كلّه؟».

«أوه، ماما، لقد سئمتُ كثيراً معلومات جيرارد البلهاء!».

الأربعون

بعد بضع لحظات في صباح ذلك اليوم، خرج غاي من غرفة مكتب المدير في شركة هانسون وناب درافترز، وهو أسعد حالاً مما شعر منذ أسابيع مضَتْ. كانت الشركة تنسخ آخر تصاميم المستشفى، والأشد تعقيداً من أي شيء أشرف غاي عليه، وكانت الموافقات الأخيرة قد صدرتْ على مواد البناء، ووصلته برقيّة في الصباح الباكر من بوب تريتشر جعلتْ غاي يبتهج من أجل صديقه القديم. لقد عُيِّنَ في اللجنة الاستشاريّة للمهندسين لمشروع سد ألبرتا في كندا، وهو عمل لطالما صبا إلى نيله خلال السنوات الخمس الأخيرة.

في مواقع متفرقة من إحدى الطاولات الطويلة المنتشرة على كلا جانبيه، كان أحد واضعي التصاميم يرفع بصره إليه ويُراقبه لدى سيره نحو الباب الخارجيّ. وأومأ غاي برأسه يُحيي أحد العمّال المُبتسمين. وكان يشعر بأدقّ وهج من احترام الذات. وقال في نفسه، أو ربما كان السبب هو بزّته الجديدة، البزّة الثالثة فقط طوال حياته التي صُنِعَتْ لأجله. وكانت آنْ هي التي انتقتْ القماش بنقوشه المُربّعة ذات اللونين الرمادي والأزرق. وانتقتْ آنْ ربطة العنق الصوفيّة ذات اللون الأحمر بلون البندورة في ذلك الصباح لكي تتماشى معها، ربطة عنق قديمة لكنه يُحبّها. شدَّ ربطتها أمام

المرآة الموجودة بين المصاعد. كانت هناك شعرة شائبة شعثة برزتْ من أحدْ الحاجبين الكثّين، الأسودين، وارتفع الجبين قليلاً في تعبير دهشة. مسّدَ الشعر نحو الأسفل. كانت أول شعرة شائبة لاحظَ وجودها عنده.

فتح أحد واضعي التصاميم باب غرفة المكتب: «سيد هينز؟ أنا محظوظ لأنني لحقتُ بك. هناك مكالمة هاتفيّة لك».

عاد غاي أدراجه، متمنّياً ألّا تستغرقَ وقتاً طويلاً، لأنه سوف يُقابل آنْ على مائدة الغداء في غضون عشر دقائق. تلقّى المكالمة في غرفة مكتب خالية قبالة غرفة وضع التصاميم.

«ألو، غاي؟ اسمع، لقد اكتشفَ جيرارد أنَّ كتاب أفلاطون... نعم، في سانتا فِه. والآن، اسمع، إنَّ هذا لا يُغيِر أيّ شيء...».

مَضَتْ خمس دقائق قبل أنْ يعود غاي إلى المصاعد لطالما أدركَ أنَّه قد يتمّ العثور على كتاب أفلاطون. كان برونو قد قال: إنَّ ذلك لن يحدث أبداً. يمكن لبرونو قد يُخطئ، وبالتالي يمكن أنْ يُلقى القبض على برونو. تجهَّمَ غاي وكأنَّ ذلك لا يُصدَّق، أي فكرة إلقاء القبض على برونو. وكان ذلك بصورةٍ ما شيئاً لا يُصدَّق، حتى الآن.

بينما خرج برهة إلى ضوء الشمس، عاد من جديد إلى التفكير في البزّة الجديدة، وشدّ قبضة يده من فرط إحساسه بخيبة الأمل من نفسه. كان برونو قد قال: «لقد عثرتُ على الكتاب في القطار، أسمعت؟ وإنْ كنتُ قد اتّصلتُ بك في ميتكالف، فذلك بداعي الكتاب. لكنني لم أقابلك حتى حلول شهر كانون أول...». كان صوته أشدّ اقتضاباً وقلقاً مما سمعه في أي وقت سابق، كان شديد الحذر، والاستعجال، وكأنّه ليس صوت برونو. وأخذ غاي يستعرض تفاصيل الخطة المحبوكة التي سردها برونو على مسمعه وكأنها شيء لا يخصّه، وكأنها عيِّنة من مادّة يُعاينها بلا اهتمام من أجل تفصيل بزّة. كلا، لا توجد ثقوب فيها، ولكنها لا تصلح بالضرورة للّبس. وخاصة إذا كان أحدهم قد شاهدهما على متن القطار. النادل، على سبيل المِثال، الذي قام على خدمتهما وهما في مقصورة برونو.

حاول أنْ يُبطئ من وتيرة تنفّسه، حاولَ أنْ يُبطئ خطوته ورفع بصره نحو القرص الصغير لشمس الشتاء. كسرَ حاجباه الأسودان مع الشَّعرة الشائبة،

والندبة البيضاء، حاجباه اللذان يزدادان تشعّثاً، كما قالتْ آنْ، كسرا وهج الشمس وحوّلاه إلى ذرات عملتْ على حمايته. إذا نظر المرء مباشرة إلى عين الشمس مدة خمس عشرة ثانية، يمكن أنْ تحترق قرنيّة عينه، تذكَّر هذه المعلومة التي استمدّها من مصدرٍ ما. وآنْ أيضاً قامتْ بحمايته وعمله أيضاً حماه *البَزَّة الجديدة، البَزّة الجديدة السخيفة*. فجأة شعرَ بأنّه ناقص وبليد الذهن، وعاجز. لقد اندسَّ الموت إلى دماغه غلَّفه ربما كان يتنفّسَ هواء الموت منذ زمن طويل، حتى تعوَّدَ عليه تماماً. حسنٌ، إذن، لم يكن خائفاً. شدّ كتفيه بانتصاب مُفتَعَل.

عندما وصل إلى المطعم لم تكن آنْ قد وصلتْ بعد، ثم تذكّرَ أنّها قالتْ إنها سوف تُحضِر الصور التي التُقِطَتْ في يوم الأحد في المنزل. أخرجَ غاي برقيّة بوب تريتشر من جيبه وراح يعيد قراءتها مرّة بعد أخرى.

تمَّ تعييني في لجنة ألبرتا وأوصيتُ بك هذه المرة العمل على جسر، يا غاي. تحرَّر في أقرب وقت ممكن القبول مضمون سأبعث إليك رسالة.

بوب

القبول مضمون. بغضّ النظر عن الأسلوب الذي صمَّم به حياته، كانت مقدرته على تصميم جسر لا شك فيها. أخذ غاي يرشف من كأس المارتيني وهو يتأمّل، مُحافِظاً على توازنه بثبات تامّ.

الحادي والأربعون

تمتم جيرارد بلهجة مُرضية، مُحدِّقاً إلى التقرير المضروب على الآلة الكاتبة على طاولة مكتبه: «لقد انتقلتُ إلى قضيّة أخرى». لم يكن قد نظر إلى الشاب برونو منذ أنْ دخل. «إنَّ جريمة قتل زوجة غاي هينز لم تُحلّ أبداً».

«نعم، أعلم هذا».

«وفكّرتُ في أنكَ ربما تعرف الكثير عنها والآن أخبرني بكل ما تعرف»، واستقرَّ جيرارد في جلسته.

استشفَّ برونو أنّه يخوض في القضيّة منذ يوم الإثنين عندما حصل على كتاب أفلاطون. قال برونو: «لا شيء. لا أحد يعرف أي شيء. هل يعرفون؟».

«ما رأيك؟ لا بدّ أنكَ تبادلتَ الكثير من الأحاديث مع غاي حول القضيّة».

«ليس حول الموضوع بالذات لم نتحدث على الإطلاق. لماذا؟».

«لأنَّكَ شديد الاهتمام بالقتل».

«ماذا تقصد، بأنّني شديد الاهتمام بالقتل؟».

«أوه، تشارلز، كفانا مُداورة، إذا لم أعرف منكَ، فسوف أعرف الكثير من قضية والدك!» قال جيرارد ذلك في ثورة نادرة من نفاد الصبر.

باشر برونو بمدّ يده لتناول سيجارة ثم توقف. «لقد تحدثتُ معه عن الجريمة». قال هذا بهدوء، وباحترام. «إنّه لا يعرف أيَّ شيء، بل إنّه لم يكن حتى يعرف زوجته معرفة جيدة حينئذٍ».

«مَنْ في اعتقادك ارتكب الجريمة؟ هل خطر في بالك ولو مرَّة أنَّ السيد هينز يمكن أنْ يكون قد دبّرها؟ ألم تفكِر ربما في طريقة ارتكابه لها وإفلاته من العقاب؟». استرخى جيرارد من جديد بارتياح واضعاً يديه خلف رأسه، وكأنهما يتحدثان عن حالة الجو الجيدة في ذلك اليوم.

أجاب برونو: «طبعاً لا أعتقد أنّه دبّرها. يبدو أنكَ لا تعرف مكانة الشخص الذي تتحدث عنه».

«إنَّ الوزن الوحيد الذي يستحق أخذه بعين الاعتبار هو نوع المسدس، يا تشارلز»، ورفع جيرارد سمّاعة هاتفه. «وبما أنكَ ستكون ربما أول مَنْ يُخبرني - أدخِلْ السيد هينز، من فضلك؟».

انتفضَ برونو قليلاً، ولاحظ جيرارد ذلك. راقبه جيرارد في صمت وهما يُصغيان إلى وقع خُطى غاي تقترب منهما على طول الرواق. قال برونو في نفسه: لقد توقَّع من جيرارد أنْ يفعل ذلك. فماذا في هذا، ماذا في هذا، ماذا في هذا؟.

فكّر برونو، يبدو غاي متوتّراً، لكنَّ التوتّر هو مظهره الاعتياديّ وسرعان ما أخفاه. تكلّم مع جيرارد، وأومأ برأسه لبرونو.

قدّمَ جيرارد له الكرسي المتبقّي، كرسي قائم الظهر. «إنّ هدفي الوحيد

من طلبي منكَ الحضور إلى هنا، يا سيد هينز، هو طرح سؤال شديد البساطة عليك. عمّ كان تشارلز يتحدث معك في معظم الوقت؟». قدَّمَ جيرارد لغاي سيجارة من علبةٍ بدا كأنَّ عمرها عام، حسب تقدير برونو، فقبِلها غاي.

رأى برونو غاي يُقطّب ما بين حاجبيه وقد بدا عليه الغضب وكان ذلك مناسِباً جداً. أجابَ غاي: «كان يتحدث معي بين حينٍ وآخر عن نادي بالميرا».

«وماذا أيضاً؟».

نظر غاي إلى برونو. كان برونو يقرض، بحركة عاديّة إلى درجة عدم الاكتراث، ظفر أحد أصابع يده التي كانت تدعم وجنته. أجاب غاي: «لا أتذكّر».

«ألم يتحدث معك عن زوجتك المغدورة؟».

«نعم».

سأله جيرارد بدماثة: «كيف تحدث معك عن جريمة القتل؟ أعني عن مقتل زوجتك».

شعر غاي بوجهه يحمرّ. ونظر من جديد إلى برونو، كما يمكن لأي شخص أنْ ينظر، في اعتقاده، إلى طرفٍ آخر يدور النقاش حوله ويتمَّ تجاهله فيه. «كان كثيراً ما يسألني إنْ كنتُ أعرف الفاعل».

«وهل تعرفه؟».

«كلا».

«هل أنتَ مُعجَب بتشارلز؟». ارتعشتْ أصابع جيرارد البدينة قليلاً، بشكل متنافر مع الوضع وبدأتْ تعبث بعلبة كبريت موضوعة على نشّافة طاولة المكتب.

فكَّرَ غاي في أصابع برونو عندما كانا في القطار، وهما تعبثان بعلبة كبريت، وترميها فوق اللحم المفروم. أجاب غاي بارتباك: «نعم، يُعجبني».

«ألم يُضايقك؟ ألم يفرِض نفسه عليك مرات كثيرة؟».

قال غاي: «لا أظنّ ذلك».

«ألم تنزعج عندما حضر حفل زفافك؟».

«كلا».

«هل أخبركَ تشارلز مرّة أنّه يكره والده؟».

«نعم، قال هذا».

«وهل أخبرك مرّة أنه يودّ لو يقتله؟».

«كلا»، أجاب بنبرة الصوت الاعتياديّة نفسها.

أخرج جيرارد الكتاب الملفوف بورق بنيّ من درج في طاولة مكتبه. «هذا هو الكتاب الذي كان برونو ينوي أنْ يُعيده إليك بالبريد. آسف لأنني لا أستطيع أنْ أُعيده إليك الآن، لأنني قد أحتاج إليه. كيف تصادفَ أنْ وقع كتابك في يد تشارلز؟».

«لقد أخبرني بأنّه عثر عليه في القطار». دقّقَ غاي النظر في ابتسامة جيرارد الناعسة، المُبهمة. كان قد رأى أثَرَها في الليلة التي عرَّج فيها على منزله، ولكنها لم تكن تشبه هذه. إنَّ هذه الابتسامة محسوبة لكي توحي بالكراهية. هذه الابتسامة هي سلاح بارع. قال غاي في نفسه: كيف يمكن مواجهة مثل هذه الابتسامة على مدى الأيّام. ونظر، بحركة لا إراديّة، إلى برونو.

نقّل جيرارد نظراته بين غاي وبرونو: «ألم تتقابلا في القطار؟».

قال غاي: «كلا».

«لقد تحدثتُ مع النادل الذي قام على خدمتكما على مائدة العشاء وأنتما في مقصورة تشارلز».

أبقى غاي نظره على جيرارد. قال في نفسه: هذا الإحساس بالخزيّ الصريح أشدّ تدميراً من الإحساس بالذنب. هذا هو الدمار الذي كان يشعر به، حتى وهو جالس منتصب القامة، يوجّه نظره مباشرة إلى جيرارد.

قال برونو بصوت حادّ: «وما أهميّة هذا؟».

«أهميته هو أنني مهتم بالسبب الذي يدفعكما أنتما الاثنين إلى تكبّد العناء الدقيق»، وهزَّ جيرارد رأسه مازحاً: «وقول إنكما تقابلتما بعد ذلك التاريخ بأشهر»، وانتظرَ، تاركاً اللحظات العابرة تنهشهما. «ليس لديكما جواب. حسن، الجواب واضح. أي، هناك جواب واحد، وهو التخمين».

فكّرَ غاي، إنَّ الثلاثة كلهم يفكرون في الجواب. أصبحَ الجواب جليّاً الآن، وهو ربطه ببرونو، وربط برونو بجيرارد، وربط جيرارد به هو. إنّه الجواب الذي أعلنه برونو بلا تفكير، العنصر المفقود إلى الأبد.

«هلّا أخبرتني أنت، يا تشارلز، يا مَنْ قرأتَ العديد من القصص البوليسيّة؟».

«لا أعلم إلى ما ترمي».

«في غضون بضعة أيام قُتِلَتْ زوجتك، يا سيد هينز. وفي غضون بضعة أشهر، قُتِلَ والد تشارلز. وتخميني الأول والواضح هو أنكما معاً كنتما تعرفان أنَّ تينك الجريمتين سوف تقعان-».

قال برونو: «أوه، هذا هراء!».

«-وتناقشتما حولهما وهذا طبعاً محضُ تخمين. على أساس فرضيّة أنكما تقابلتما في القطار. أين تقابلتما؟». ابتسم جيرارد: «سيد هينز؟».

قال غاي: «نعم، تقابلنا في القطار».

أشار جيرارد بأحد أصابعه التي يكسوها النمش إليه: «ولِمَ كنتَ خائفاً من الاعتراف بهذا؟»، ومن جديد شعر غاي من أسلوب جيرارد المُبتذَل قدرته على بثّ الرعب.

«لا أعلم».

«ألأنَّ تشارلز أخبرك بأنّه يودّ لو يُقتَل والده؟ وشعرتَ بالاضطراب، يا سيد هينز، لأنك كنتَ تعلم؟».

هل يمكن الوثوق بجيرارد هذا؟ ثم قال غاي ببطء: «لم يقُل تشارلز أيّ شيء عن قتل والده».

انتقلتْ عينا جيرارد في اللحظة المُناسِبة لكي تلمحا ابتسامة برونو المُتكلّفة التي تدلّ على الرضا. قال جيرارد: «وهذا محض تخمين، طبعاً».

غادر غاي وبرونو المبنى معاً. كان جيرارد قد صَرَفهما معاً، وسارا معاً على طول المبنى نحو المتنزّه الصغير حيث القطار النفقيّ، بالإضافة إلى سيارات الأجرة. نظر برونو خلفه إلى المبنى المرتفع والضيّق الذي غادراه.

قال برونو: «حسن، ما زال لا يعرف أيّ شيء. وكيفما نظرتَ إلى الأمر، سوف تدرك أنّه لا يعرف أيّ شيء».

كان برونو نكداً، لكنّه هادئ. وفجأة أدركَ غاي كم كان برونو يُحافظ على هدوئه وهو يتعرَض لهجوم جيرارد. كان غاي دائماً يتخيَّل برونو هستيريّاً عندما يتعرَّض للضغط. وألقى نظرة سريعة إلى قامة برونو الطويلة والمنحنية إلى جواره، شاعراً بتلك الصُّحبة المتهوّرة، الطائشة يوم التقيا في المطعم. ولكن لم يكن لديه ما يقول. فكّرَ، أنَّ برونو يعلم ولا شك أنَّ جيرارد لم يُخبرهما عن كل ما اكتشفَ.

تابع برونو قائلاً: «الغريب في الأمر، في الواقع، هو أنَّ جيرارد لا يبحث عنّا، بل يبحث عن أناسٍ آخرين».

الثاني والأربعون

أقحمَ جيرارد إصبعاً بين القضبان وأخذ يلويه باتجاه الطائر الذي رفرفَ بجناحيه رعباً مرتطماً بالجانب المقابل من القفص، وأطلقَ جيرارد صفيراً ناعماً أحاديّ اللحن.

من منتصف الغرفة، راقبته آنْ باضطراب لم يُعجبها اتّهامه غاي بأنّه يكذب، ولم تعجبها أيضاً محاولته إخافة طائرها الكناري. لقد كرهتْ جيرارد على مدى الربع ساعة الأخيرة، ولأنها كانت قد اعتقدتْ أنها أُعجِبَتْ به في زيارته الأولى، أزعجها سوء حكمها عليه.

سألها جيرارد: «ما اسمه؟».

أجابتْ آنْ: «سويتي». أطرقَتْ رأسها قليلاً، حرجاً، ودارتْ حول نفسها مقدار نصف دائرة. كان خفّها الجديد المصنوع من جلد التمساح يجعلها تشعر بأنها مفرطة طول القامة وبأنها حسناء، ورأتْ، عندما اشترته بعد ظهيرة ذلك اليوم، أنّه سوف يُعجب غاي، وأنّه سوف يُغويه بالابتسام وهما جالسان يشربان الكوكتيل قبل تناول وجبة العشاء، لكنَّ وصول جيرارد أفسد ذلك.

«هل لديك أيّة فكرة عن سبب امتناع زوجك عن قول أنّه قابل تشارلز في شهر حزيران قبل الماضي؟».

قالت آنْ في نفسها من جديد، أي الشهر الذي اغتيلتْ فيه ميريام: إنَّ حزيران ما قبل الماضي لا يعني لها أي شيء آخر. قالت: «كان شهراً صعباً بالنسبة إليه، إنه الشهر الذي ماتت فيه زوجته. لعلّه نسيَ معظَم ما جرى في ذلك الشهر» وتجهّمتْ، شاعرة بأنَّ جيرارد يُضخِّم من شأنْ اكتشافه الصغير، وأنّه ليس بالشيء المهم إلى تلك الدرجة، بما أنَّ غاي لم يُقابل تشارلز خلال الأشهر الستة التي تلت.

قال جيرارد بلهجة عاديّة، وهو يعود إلى الجلوس: «ليس في هذه الحالة. كلا، أعتقد أنَّ تشارلز تحدّثَ مع زوجك على متن القطار حول والده، وأخبره بأنّه يرغب في موته، بل ربما أخبره كيف ينوي أنْ يُخطط-».

قاطعته آنْ: «لا أستطيع أنْ أتخيّل غاي يُصغي إلى مثل ذلك الكلام».

تابع جيرارد برقّة: «لا أعلم، لا أعلم، لكنني أشكّ بقوة في أنْ تشارلز كان يعلم بأمر اغتيال والده وأنّه ربما أسرَ به إلى زوجك في تلك الليلة على متن القطار. إنَ تشارلز هو من هذا النوع من الشبّان. وأعتقد أنَّ زوجك هو من نوع الرجال الذين يُحافظون على السرّ، وقد حاول أنْ يتجنّب تشارلز منذ ذلك الحين فصاعداً. ألا تعتقدين أنّه فعل؟».

قالت آنْ في نفسها: إنَّ هذا جدير بأنْ يُفسِّر الكثير من الأمور، لكنّه سوف يجعل غاي شريكاً في الجريمة. يبدو أنَّ جيرارد يريد أنْ يجعل غاي شريكاً في الجريمة. قالت بحزم: «أنا واثقة من أنَّ زوجي ما كان يمكن أنْ يتحمّل تشارلز إلى تلك الدرجة، إنْ كان تشارلز قد أخبره بأمرٍ كهذا».

«نقطة جيدة جداً. ولكن -» وسكتَ جيرارد بإبهام، وكأنه تاه في خضم أفكاره الخاصّة البطيئة.

لم تحبّ آنْ أنْ تنظر إلى قمة رأسه الأصلع المكسوّ بالنمش، لذلك حدّقَتْ إلى علبة السجائر الفخّاريّة التي على طاولة القهوة، وأخيراً تناولت سيجارة.

«أتعتقدين أنَّ زوجك تنتابه أيّة شكوك حول مُنفِّذ جريمة قتل زوجته، يا سيدة هينز؟».

نفثتْ آنْ دخان سيجارتها بتحدٍّ: «حتماً لا أعتقد».

«في الواقع، إنْ كان تشارلز قد خاض في موضوع جريمة القتل في تلك

الليلة على متن القطار، فقد خاض فيه بصورة شاملة. وإذا كان لدى زوجك سبب للاعتقاد أنَّ حياة زوجته في خطر، وإذا كان قد أفشى بذلك الاعتقاد لتشارلز - فلماذا احتفظا معاً بما يُشبه السرّ المشترَك بينهما، وحتى بالخطر المُشترَك»، ثم أضاف بسرعة: «وهذا مجرّد تخمين، ولكنَّ على المُحقّقين دائماً أنْ يُخمّنوا».

«أنا أعرف أنَّ زوجي لا يمكن أنْ يكون قد قال أي شيء عن كون زوجته مُعرَّضة للخطر. أنا كنتُ معه في مكسيكو سيتي عندما وصل النبأ، وكنتُ معه على مدى أيام طويلة قبل ذلك في نيويورك».

سألها جيرارد بنبرة الصوت نفسها: «وماذا عن شهر آذار من هذا العام؟». مدَّ يده ليحمل كأس المشروب الفارغة، وسلَّمه لآنْ لكي تأخذه وتُعيد ملأه.

وقفتْ آنْ عند البار مُديرة ظهرها لجيرارد، متذكرة شهر آذار، الشهر الذي قُتِل فيه والد تشارلز، ومتذكّرة سلوك غاي العصبيّ حينئذٍ. هل دار ذلك الشجار في شهر شباط أو آذار؟ ثم أليس **صحيحاً** أنّه تشاجر مع تشارلز برونو؟.

«أتعتقدين أنَّ زوجك ربما كان يلتقي بتشارلز بين حين وآخر في حوالي شهر آذار من دون عِلمك؟».

قالتْ في نفسها، وطبعاً يمكن لهذا أنْ يوضِّح الأمر: أي إنَّ غاي كان يعلم بأمر نيّة تشارلز قتل والده، وأنّه حاول ثنيه عن ذلك، وتشاجر معه في إحدى الحانات. قالت بتردُّد: «أعتقد أنَّ هذا ممكن. لا أعلم».

«كيف بدا زوجك في حوالي شهر آذار، إنْ كنتِ تذكرين، سيدة هينز؟».

«كان متوتراً. أعتقد أنني أعلم الأمور التي تسبّبت في توتر أعصابه».

«أيّة أمور؟».

«تتعلَّق بعمله -». بصورة ما لم تستطع أنْ تُفضي إليه بأكثر من ذلك عن غاي. شعرتْ بأنَّ كل ما قالت سوف يستخدمه جيرارد في الصورة المُبهمة التي يحاول أنْ يرسمها لغاي. وانتظرتْ، وجيرار انتظر، وكأنّه يتنافس معها في مَنْ سيكسر الصمت أولاً.

أخيراً، نفضَ الرماد عن سيجاره وقال: «إذا تذكّرتِ أيّ شيء عن ذلك التوقيت فيما يخص تشارلز، هلّا حرصتِ على إخباري به؟ اتصلي بي في أي وقت نهاراً أو ليلاً. سوف يتوفر هناك دائماً شخصٌ يتلقّى رسائلك». ودوّنَ اسماً آخر على بطاقة عمله، وسلّمها لآنْ.

استدارتْ آنْ عن الباب وتوجّهتْ مباشرة نحو طاولة تقديم القهوة وأزالتْ كأسه. ومن خلال النافذة الأماميّة، رأته جالساً في سيارته ورأسه محنياً إلى الأمام، كأنّه نائم، في حين أنّه كان، في اعتقادها، يُدوِّن ملاحظاته. وفي الحال، تذكّرتْ ما كتبه عن أنَّ غاي ربما قابل تشارلز في شهر آذار من دون عِلمها. لِمَ قالتْ ذلك؟ لقد كانت على عِلم بالأمر فعلاً. لقد قال غاي إنّه قابل تشارلز، بين شهر كانون أول ويوم الزفاف.

عندما جاء غاي بعد ذلك بحوالي ساعة، كانت آنْ في المطبخ، تعدّ الوجبة التي كادتْ تنضج في الفرن. ورأتْ غاي رافعاً رأسه، ويشمّ الهواء.

قالت آنْ له: «أطبخ القريدس أعتقد أنني يجب أنْ أفتح نافذة التهوية».

«هل كان جيرارد هنا؟».

«نعم. أكنتَ تعلم أنّه قادم؟».

قال باقتضاب: «السيجار». كان جيرارد قد أخبرها عن اللقاء الذي تمّ في القطار، طبعاً. سألها: «ماذا أراد هذه المرّة؟».

ألقتْ آنْ عليه نظرة سريعة من النافذة الأماميّة. «أراد أنْ يعرف المزيد عن تشارلز برونو، وعمّا إذا كنتَ قد قلتَ أي شيء لي بشأنْ ارتيابك به بخصوص أي شيء. وأراد أنْ يعرف عمّا حدث في شهر آذار».

«شهر آذار؟». وارتقى إلى منصّة أعلى من الأرض حيث كانت آنْ واقفة.

وقفَ أمامها، وفجأة رأتْ آنْ بؤبؤيّ عينيه يتقلّصان، ورأتْ بعض الندب الرفيعة جداً على عظم الوجنة التي نتجتْ عن شجار آذار، أو شباط. «أراد أنْ يعرف إنْ كنتَ تشكّ في أمر نيّة تشارلز في قتل والده في ذلك الشهر». لكنَّ غاي اكتفى بالتحديق إليها وفمه مُغلق كعادته، من دون إبداء خوف، أو إحساس بالذنب. وتنحّتْ جانباً، وهبطتْ إلى غرفة الجلوس. قالتْ: «شيء مُريع، أليست كذلك، أقصد جريمة القتل؟».

ربتَ غاي بسيجارة جديدة على سطح ساعة يده. عذّبه سماعها تقول: «جريمة قتل». وتمنّى لو يستطيع أنْ يمحو كل ذكرى لبرونو من ذهنها.

«لم تكن تعلم، أليس كذلك، يا غاي - في شهر آذار؟».

«كلا، آنْ ماذا أخبرتِ جيرارد؟».

«أتصدِّق أنَّ تشارلز قتل والده؟».

«لا أعلم. أعتقد أنّه أمر مستحيل، لكنَّ هذا ليس من شأننا»، ولبضع لحظات لم يُدرِك أنَّ هذا كذب.

«هذا صحيح ليس من شأننا»، ونظرتْ إليه من جديد. «وقال جيرارد أيضاً إنكَ قابلتَ تشارلز في شهر حزيران الأخير على متن القطار».

«نعم، قابلته».

«حسن - ما أهميّة هذا؟».

«لا أعلم».

«أبسبب شيء قاله تشارلز وأنتما في القطار؟ ألهذا تمقته؟».

أقحمَ غاي يديه أعمق داخل جيبيّ سترته. فجأة رغب في شرب البراندي. كان يعلم أنّه أظهرَ ما شعر به، أي إنّه لا يستطيع أنْ يُخفيه عن آنْ الآن. قال بسرعة «: اسمعي، يا آنْ، لقد أخبرني برونو ونحن في القطار أنّه يرغب في موت والده، ولم يأتِ على ذِكر أيّة خطط، ولم يذكُر أي اسم ولم يعجبني الأسلوب الذي قاله به، وبعد ذلك أصبحتُ أنفر منه ورفضتُ أنْ أذكر هذا كله لجيرارد، لأنني لم أكن أعلم إنْ كان برونو قتل والده أم لا؟. فهذا من صميم عمل الشرطة. إنَّ الأبرياء يُشنقون لأنَّ الناس ينقلون عنهم مثل هذه الأقوال».

فكَّرَ، ولكن سواء صدَّقَته أم لا، فإنَّ أمره قد انتهى. وبدا أنَّ أحقرّ كذبة قالها في حياته، وأحقر شيء فعله - هو نقل ذنبه إلى رجلٍ آخر. حتى برونو ما كان يمكن أنْ يكذب هكذا، ما كان ليكذب ليُدينه هكذا. وشعر بأنّه زائف صِرف، وكاذب صِرف. ورمى سيجاره إلى الموقد وغطّى وجهه بيديه.

قال صوت آنْ برفق: «غاي، إنني أؤمن حقاً بأنكَ تفعل ما ينبغي فعله».

كان وجهه كذبة، وكذلك عيناه المدودتان، وفمه الصارم، ويداه

الحسّاستان. أنزل يديه إلى أسفل ووضعهما في جيبه. «كان يمكن أنْ أشرب كأس براندي».

سألته وهي واقفة عند البار: «أليس تشارلز هو الذي تشاجرتَ معه في شهر آذار؟».

لم يكن لديه أي سبب لعدم الكذب في هذا الأمر أيضاً، لكنه كذب. «كلا، يا آنْ» وأدركَ من النظرة الجانبيّة السريعة التي رمته بها أنها لم تُصدّقه. لعلّها اعتقدتْ أنّه تشاجر مع برونو لكي يمنعه. لعلها كانت فخورة به! أينبغي أنْ يكون هناك مثل هذا الغطاء من الحماية، الذي لم يكن حتى يريده؟ أينبغي أنْ يكون سبيله مُمهّداً أمامه دائماً؟ لكنَّ آنْ لم ترضَ بذلك. كانت دائماً تتطرَّق إلى هذا الموضوع مراراً إلى أنْ قال لها إنه كان يعلم.

في أمسية ذلك اليوم، أشعل غاي أول نار في ذلك العام، أول نار في منزلهما الجديد. وتمدَّدت آنْ على حجر الموقد الطويل ووضعتْ رأسها على وسادة الأريكة. كانت برودة الخريف الخفيفة المُثيرة للحنين تشحن الجو، وتملأ غاي بالحزن وبالطاقة القلقة. لم تكن الطاقة بهيجة كما كانت طاقة الخريف تبدو في شبابه، بل كانت تنطوي على الهوس واليأس، وكأنَّ حياته تنحدر إلى أسفل وكأنَّ تلك هي طفرته الأخيرة. أيُّ برهان أفضل يحتاج إليه على أنَّ حياته تنحدر إلى أسفل بحيث لم تعد لديه مخاوف مما ينتظره؟ ألا يُخمّن جيرارد هذا الآن، وهو يعلم أنّه اجتمع مع برونو على متن القطار؟ ألن يكتشف هذا ذات يوم، ذات ليلة، ذات لحظة بينما أصابعه البدينة ترفع سيجاراً إلى فمه؟ ماذا ينتظرون، جيرارد ورجال الشرطة؟ أحياناً ينتابه شعورٌ بأنَّ جيرارد أراد أنْ يجمع أصغر الحقائق المفيدة، وكل غرام من الدليل ضدهما معاً، إذن فليكتشفوها ولتدمّرهما. ولكن فكّرَ غاي، حتى وإنْ دمّروه، فإنهم لن يُدمروا منشآته ومن جديد شعر بعزلة روحه الغريبة والموحِشة عن جسده، وحتى عن عقله.

ولكن ماذا لو أنَّ سرَّه مع برونو لم يُكتَشَف أبداً؟ كانت لا تزال هناك تلك اللحظات من الرعب المُختلَط مما فعله، ومن القنوط المُطلَق، التي شعر خلالها بأنَّ ذلك السرّ يتّصِف بمناعة سحريّة. وفكَّرَ، ربما هذا هو السبب في عدم خوفه من جيرارد أو من الشرطة، لأنه ما زال يؤمن بمناعة السّرّ. فإذا

لم يكتشِفه أحد حتى الآن، بعد كل ما أظهرا من إهمال، وبعد كل تلميحات برونو، أليس هناك شيء يجعل ذلك السرّ حصيناً؟.

كانت آنْ قد استغرقَتْ في النوم حدَّقَ إلى الانحناء الرقيق لجبينها، الذي أصبح باهتاً وفضياً بفعل وهج النار. ثم وضع شفتيه على جبهتها وقبّلها، برقّة شديدة لكي لا تستيقظ. وترجم الوجعَ الذي في داخله إلى الكلمات التالية: «أنا أسامحك». أراد من آنْ أنْ تقولها، ولا أحد غير آنْ.

في عقله، كانت كفّة الميزان التي تحمل ذنبه راجحة جداً، فوق طاقة تحمُّل معيار الميزان، في حين على الكفّة المقابلة كان يرمي على الدوام وزن الدفاع عن النفس الخفيف إلى أقصى درجة أيضاً. واعتبرَ أنّه ارتكبَ الجريمة دفاعاً عن النفس، لكنّه تردَّد في الإيمان التامّ بهذا. فإذا آمن بصورة كاملة بوجود الشرّ داخله، فإنَّ عليه أنْ يؤمن أيضاً بالقوة المُلزِمة الفِطريّة على التعبير عنه. وعليه، وجد نفسه يتساءل بين حين وآخر، إنْ كان قد استمتعَ بارتكاب جريمته بصورة ما، واستمدَّ بعض الرضا الأكبر منها -بأي أسلوب آخر يمكن للمرء حقاً أنْ يشرح في عالم الرجال التحمُّلَ المتواصلَ للحروب، والحماسَ الدائمَ للحروب عندما تنشب، إنْ لم يكن من أجل الاستمتاع الهائل بالقتل؟- ولأنَّ المقدرة على التساؤل كانت كثيراً ما تظهر عليه، فإنّه قبِلها بوصفها حقيقة.

الثالث والأربعون

ابتسم محامي المُقاطعة، فيل هاولند، النظيف والنحيل، وذو المظهر الأنيق بقدر ما كان جيرارد مُشوّشاً، وابتسم بتسامُح من خلال دخان سيجارته: «لِمَ لا تدع الفتى وشأنه؟ في أول الأمر كانت وِجهة نظر، أتّفقُ معك وحقّقنا مع أصدقائه، أيضاً. ولم نجد شيئاً، يا جيرارد. ولا يمكنكَ أنْ تُلقي القبض على رجلٍ بسبب شخصيته».

وضعَ جيرارد ساقاً فوق ساق وسمحَ لنفسه برسم ابتسامة رقيقة لقد حانت ساعته. وتضاعفَ رضاه بجلوسه هنا وهو يبتسم بالطريقة نفسها التي ابتسم بها في جلساتِ تحقيق أخرى أقلّ خطورة.

دفعَ هاولند صفيحة من الورق كُتِبَتْ على الآلة الكاتبة بأطراف أصابعه

إلى حافة طاولة المكتب. قال هاولند بصوته الهادئ الضجر: «يوجد هنا اثنا عشر اسماً جديداً إنْ كان هذا يُثير اهتمامك. إنهم أصدقاء المرحوم السيد صمويل الذين أمدّتنا بأسمائهم شركات التأمين»، وكان جيرارد متأكِّداً من أنّه تظاهر بالضجر الشديد، لأنَّه بوصفِهِ محامي المقاطعة لديه مئات كثيرة من الرجال يأتمرون بأمره، ويمكنه أنْ يرمي شِباكاً أكثر دِقّة ولمسافة أبعد.

قال جيرارد: «يمكنك أنْ تنهال عليهم بالأسئلة».

أخفى هاولند دهشته بابتسامة، لكنّه لم يتمكّن من إخفاء فضوله المُفاجئ من عينيه السوداوين، الواسعتين. «أعتقد أنكَ حصلتَ على رجلك المطلوب. تشارلز برونو، طبعاً».

قهقه جيرارد: «طبعاً لكنني أتّهمه بجريمة قتل أخرى».

«بواحدة فقط؟ لطالما قلت إنه جدير به أنْ يرتكب أربع جرائم قتل أو خمس».

أنكر جيرارد ذلك بهدوء: «أنا لم أقُلْ هذا أبداً». كان يرتّب عدداً من الأوراق، ويطويها كل ثلاث معاً كالرسائل، على رُكبتيه.

«مَن الضحيّة؟».

«أينتابك الفضول؟ ألا تعلم؟». ابتسمَ جيرارد وسيجاره بين أسنانه وقرَّب كرسيّاً قائم الظهر منه، واستمرَّ في تغطية مقعده بأوراقه. لم يكن يستخدم أبداً طاولة مكتب هاولند، مهما كان عدد أوراقه كبيراً، وبات هاولند يعلم أنّه ليس مُضطراً إلى إزعاج نفسه وعرضها عليه. كان هاولند يكرهه، شخصيّاً ومِهنيّاً على قدم المساواة. وكان جيرارد يعلم ذلك. كان هاولند يتّهمه بأنّه لا ينسِّق عمله مع الشرطة ولم تكن الشرطة تنسِّق معه البتّة، ولكن على الرغم من كل العوائق التي يضعونها في طريقه، تمكّنَ جيرارد خلال العقد الأخير من الزمن من حلّ عدد كبير من القضايا التي لم تكن الشرطة حتى قد بدأتْ تعمل عليها.

نهضَ هاولند واقفاً وأخذ يتمشّى ببطء متقدِّماً من جيرارد على قدميه الطويلتين، النحيلتين، ثم تردَّدَ، متّكئاً على مقدِّمة طاولة مكتبه: «ولكن هل يُلقي هذا كلّه أي ضوء على *القضيّة*؟».

أعلنَ جيرارد: «إنَّ مشكلة قِوى الشرطة هي أنّها تفكِّر في مسارٍ واحد

وهذه القضيّة، كالعديد من أمثالها تتطلّب مسار تفكير مزدوج. وبكل بساطة لا يمكن حلّها إلّا بمسار تفكير مزدوج».

تنهّد هاولند: «مَنْ ومتى؟».

«هل سمعتَ عن غاي هينز؟».

«طبعاً لقد استجوبناه في الأسبوع الفائت».

«إنها زوجته اغتيلَتْ في الحادي عشر من حزيران في العام الفائتْ في ميتكالف، تكساس. خنقاً، أتذكر؟ والشرطة لم تعرف الجاني».

تجهّمَ هاولند: «أهو تشارلز برونو؟».

«أتعلم أنَّ تشارلز برونو وغاي هينز كانا على متن القطار نفسه المتوجّه جنوباً في الأول من شهر حزيران؟ أي قبل اغتيال زوجة هينز بعشرة أيام. والآن، ماذا تستنتج من ذلك؟».

«تعني أنهما كانا يعرفان بعضهما قبل شهر حزيران الفائت؟».

«كلا، بل أعني أنهما تقابلا على متن ذلك القطار. هل تستطيع أنْ ترتّب باقي المعلومات معاً؟ إنني أقدِّم إليك الحلقة المفقودة».

رسم محامي المقاطعة ابتسامة باهتة: «أتريد أنْ تقول إنَّ تشارلز برونو قتلَ زوجة غاي هينز؟».

«من دون أدنى شك». ورفع جيرارد بصره عن أوراقه، بعد أنْ انتهى. «والسؤال التالي هو: ما هو برهاني على هذا؟ وإليك الجواب: كل ما تريد»، وأومأ باتّجاه الأوراق المُكدّسة في صفٍ طويل، كأوراق اللعب. «اقرأ من الأسفل إلى أعلى».

بينما هاولند يقرأ، أحضر جيرارد كوباً من الماء من الحوض الذي في الركن وأشعل سيجاراً آخر من السيجار الذي كان يُدخّنه. كانت آخر إفادة من سائق سيارة أجرة ركبها تشارلز في ميتكالف قد وردتْ في صباح ذلك اليوم. ولم يكن قد تناول أي مشروب بعد، لكنّه كان سيتناول ثلاثة أكواب أو أربعة حالما يُغادر هاولند، في عربة استراحة القطار المتوجّه إلى إيوا.

وقَّعَ عمّال فندق لا فوندا على أوراق الإفادات، من شخصٍ يُدعى إدوارد

ويلسون كان قد شاهد تشارلز يُغادر محطة قطار سانتا فِه على متن قطار مُتّوجه شرقاً في يوم اغتيال ميريام هينز، إلى سائق سيارة أجرة ميتكالف أقلَّ تشارلز إلى متنزّه ملاهي «مملكة المرح» في بحيرة ميتكالف، وإلى عامل حانة في نُزُل الطريق حيث حاول تشارلز أنْ يحصل على مشروب قويّ، بالإضافة إلى فواتير مكالمات خارجيّة مع ميتكالف.

علَّقَ جيرارد: «ولكن لا شك في أنكَ كنتَ تعلم هذا مُسبقاً».

أجاب هاولند، ولا يزال يقرأ: «مُعظمه نعم».

سأله جيرارد: «هل تعلم أنّه قام في ذلك اليوم برحلة أيضاً استمرت أربعاً وعشرين ساعة إلى ميتكالف؟»، لكنَّ مزاجه كان حَسَناً إلى درجة أنه لم يرغب في التهكُّم. «وقد واجهتُ صعوبة في العثور على سائق سيارة الأجرة. لم نعثر له على أثر على امتداد الطريق إلى سياتل، ولكن حالما عثرنا عليه تذكّر على الفور أنَّ الناس لا ينسون شاباً مثل تشارلز برونو».

علَّقَ هاولند مازحاً: «إذن أنت تقول إنَّ تشارلز برونو مولع بالقتل، وإنّه قتل زوجة رجل قابله على متن قطار قبل ذلك بأسبوع؟ امرأة حتى لم ير وجهها؟ أم هل رآها؟».

مرة أخرى قهقه جيرارد: «طبعاً لم يرها. إنَّ تشارلز كما أعرفه كانت لديه خطّة». أفلتَ منه تعبير «كما أعرفه»، لكنَّ جيرارد لم يأبه. «ألا تفهم ما أعني؟ إنه واضح وضوح الأنف على وجهك؟ وهذا فقط النصف الأول».

«اجلس، يا جيرارد، سوف تتسبَّب لنفسك بنوبة قلبيّة».

«أنت لا تفهم لأنكَ لم تتعرف وما زلت لا تعرف شخصيّة تشارلز ولم تُبدِ اهتماماً بكونه أمضى مُعظم وقته يُخطط لارتكاب جرائم من أنواع شتّى».

«حسن، ما هو القسم الآخر من نظريتك؟».

«هو أنَّ غاي هينز قتل صمويل برونو».

تأوّه هاولند: «أوه!».

ابتسمَ جيرارد ردّاً على تكشير هاولند الأول الذي منحه لجيرارد منذ أنْ ارتكب هذا الأخير خطأً في إحدى القضايا قبل سنين مضتْ. قال جيرارد

ببراعة مرهفة، وهو ينفثُ دخان السيجار: «أنا لم أنته بعد من التقصّي حول غاي هينز. أريد أنْ أتمهّل في التعامل معه، وهذا هو السبب الوحيد لوجودي هنا، لأدعوك إلى التمهّل في التعامل معي. لم أعرف إلّا أنك سوف تقبض على تشارلز، اعتماداً على كل ما لديك من معلومات ضدّه».

مسّد هاولند على شاربه الأسود. «إنَّ كل ما قلت يؤكِّد اعتقادي بأنَّه كان عليك أنْ تستقيل قبل خمسة عشر عاماً».

«أوه، لقد حللتُ بضع قضايا خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة».

ضحك هاولند من جديد: «قضيّة رجل مثل غاي هينز؟».

«ضد رجل مثل تشارلز؟ بالمناسبة، أنا لا أقول إنَّ غاي هينز ارتكبَ الجريمة بملء إرادته، بل أُجبِرَ على ذلك مقابل معروف تشارلز الذي لم يطلبه منه بتحريره من زوجته»، ثم علَّق بين هلالين: «إنَّ تشارلز يكره النساء. تلك كانت خطّة تشارلز. تبادل الخدمات. بلا أيّة أدلّة ولا دوافع. أوه، أكاد أسمعه! ولكن حتى تشارلز هو كائن بشريّ. كان شديد الاهتمام بغاي هينز بحيث لم يدعه وشأنه بعد ذلك. وامتلأ غاي هينز بالرعب وعجز عن فعلِ أي شيء بهذا الشأنْ. نعم -» وهزَّ جيرارد رأسه مُشدِّداً، واهتزَّ فكّاه - «لقد أُكرِه هينز على القتل ربما لا أحد يعلم مدى فظاعة ذلك».

تلاشت ابتسامة هاولند برهة أمام جديّة جيرارد. كان احتمال صحّة القصة ضئيلاً، لكنّه احتمال قائم مع ذلك. «هممم - م».

أضافَ جيرارد: «إلّا إذا أخبرنا».

«وكيف في اعتقادك نستطيع أنْ ندفعه إلى إخبارنا؟».

«أوه، ما زال احتمال اعترافه وارداً، إنَّ الإرهاق ينال منه، ولكن إذا لم يحدث، سوف أعمل على مواجهته بالحقائق التي ينهمك رجالي في جمعها. ثمة شيء واحد، يا هاولند -»، وأشار جيرار بإصبعه إلى الأوراق التي على المقعد، «عندما تخرج أنت و - وجيشك من الثيران لجمع هذه الإفادات، لا تستجوبوا والدة غاي هينز لا أريد لغاي هينز أنْ يأخذ حذره».

«أوه أسلوب القط والفأر بالنسبة إلى السيد هينز»، وابتسم هاولند. ثم استدار لكي يُجري اتّصالاً هاتفيّاً حول مسألةٍ لا صِلة لها بالموضوع، وانتظر

جيرارد، كارهاً أنْ ينقل معلوماته إلى هاولند، وأنْ يُضطر إلى ترك مشهد تشارلز – وغاي. «حسن –» أطلقَ هاولند تنهّداً طويلاً –: «ماذا تريد مني أنْ أفعل، تريد أنْ أضغط على فتاك الصغير باستخدام هذه المعلومات؟ أتعتقد أنّه سوف ينهار ويُخبرني بكل شيء بخصوص خطّته البارعة مع غاي هينز، المهندس المعماريّ؟».

«كلا، لا أريد أنْ أُمارس الضغط عليه أنا أحبّ الأعمال النظيفة، أريد بضعة أيامٍ أُخَر أو ربما أسابيع لكي أنتهي من التقصّي حول هينز، بعد ذلك أقوم بمواجهتهما معاً. إنني أُفشي بهذا لك عن تشارلز، لأنني من الآن فصاعداً سوف أخرج شخصيّاً من القضيّة، لكي يعلمان بذلك، سوف أذهب إلى إيوا لقضاء فترة إجازة، سوف أفعل هذا حقاً، وسوف أجعل تشارلز يعلَم هذا». أشرقَ وجه جيرارد بابتسامة واسعة.

قال هاولند نادماً: «سوف يكون من الصعب كبح جِماح الرجال، خاصّة طوال الوقت الذي سيستغرقه جمع الأدلة ضد غاي هينز».

«بالمناسبة–» والتقطَ جيرارد قبعته وهزّها في وجه هاولند: «أنتَ لم تستطع أنْ تجعل تشارلز ينهار، ولكن في استطاعتي أنْ أجعل غاي هينز ينهار بما لديّ في هذه اللحظة».

«أوه، تقصد أنَّ في «*استطاعتنا*» أنْ نجعل غاي هينز ينهار؟».

نظر جيرارد إليه بامتعاضٍ شديد: «لكنكَ لستَ مُهتمّاً في جعله ينهار، أليس كذلك؟ ولا تعتقد أنّه الرجل المطلوب».

«اذهبْ واقضِ تلك الإجازة، يا جيرارد!».

أخذ جيرارد يُلملم أوراقه بانتظام وبدأ يضعها في جيوبه.

«ظننتُ أنكَ ستترك هذه».

«أوه، إنْ كنتَ تظن أنَّك سوف تحتاج إليها»، وقدَّم له جيرارد الأوراق، بكياسة، واستدار متوجهاً نحو الباب.

«هل تمانع في إخباري بما لديك لتجعل غاي هينز ينهار؟».

أخرج جيرارد من حنجرته صوت اشمئزاز وقال: «إنَّ الإحساس بالذنب يُعذِّب الرجل»، ثم خرج.

الرابع والأربعون

قال برونو، وقد بدأتْ الدموع تملأ عينيه بحيث اضطرَّ إلى إطراق عينيه والنظر إلى حجر الموقد الطويل تحت قدميه: «في الحقيقة، في هذه الليلة لا أرغب في أنْ أكون في أي مكان آخر في العالم غير هذا المكان، يا آنْ»، واتّكأ بمِرفقه بأناقة على رف المدفأة المرتفع.

«جميلٌ منكَ أنْ تقول هذا». ابتسمتْ آنْ ووضعتْ طبق الجبن المُذاب وسمك الأنشوفة مع الخبز المُحمّص على الطاولة الخشبيّة، «تناولْ واحدةً من هذه ما دامت ساخنة».

تناول برونو واحدة، على الرغم من عِلمه أنّه لن يتمكّن من ابتلاعها. بدتْ المائدة جميلة، أُعِدَّتْ من أجل شخصَين مفروشة بقماش من الكتّان الرمادي مع أطباق كبيرة رماديّة اللون. كان جيرارد قد ذهب لقضاء فترة من العطلة. لقد هزماه، هو وغاي، وفقد صوابه! فكَّرَ، كان يمكن أنْ يحاول تقبيل آنْ، لو لم تكن تخصّ غاي. ووقفَ برونو بشموخ وعدَّلَ من شأنْ طرفيّ كُمّيه. كان يشعر بفخر لأنّه يُعامِل آنْ كسيدٍ محترم. سأل برونو: «إذن غاي يعتقد أنَّ المكان هناك سيُعجبه؟». حينئذٍ كان غاي موجوداً في كندا، يعمل على إنشاء سدّ ألبرتا. «أنا سعيد لأنَّ كل ذلك الاستجواب الأبله قد انتهى، وهكذا لم يعُد مُضطراً إلى القلق بشأنْ القضيّة في أثناء عمله. يمكنكِ أنْ تتخيّلي شعوري كأنني أحتفل!» وضحك، في المقام الأول على تصريحه غير المقصود.

حدَّقَتْ آنْ إلى قامته الطويلة القلقة وهو بجوار رفّ المدفأة، وتساءلتْ إنْ كان غاي ينتابه شعورها نفسه بالافتتان، على الرغم من شعوره بالكراهيّة. لكنها مع ذلك لم تكن تعلم إنْ كان تشارلز قادراً على ترتيب أمر اغتيال والده، وأمضَتْ النهار بأكمله معه لكي تصل إلى قرار. وتملَّصَ من أسئلةٍ معيَّنة بإجاباتٍ مازحة، كان جادّاً وحريصاً في إعطاء إجابات للآخرين. كان يكره ميريام كأنّه يعرفها. وقد دُهِشَتْ آنْ لأنَّ غاي أخبره الكثير عن ميريام.

سألته آنْ: «لماذا لم ترغب في إخبار أحد بأمر مقابلتك غاي على متن القطار؟».

«لم أهتمّ للأمر لقد ارتكبتُ خطأً بالمزاح بهذا الشأنْ، وقلت إننا تقابلنا في المدرسة. ثم أخذت كل تلك الأسئلة تنهال عليّ، وبدأ جيرارد يستفيد من الأمر كله. وأعتقد أنَّ السبب هو أنّ الوضعَ بدا سيئاً، بصراحة. لقد قُتِلَتْ ميريام بعد ذلك مباشرة، أعلم هذا وأعتقد أنّه كان تصرّفاً جميلاً من غاي خلال التحقيق في مقتل ميريام ألّا يجرّ إلى القضيّة شخصاً قابله مُصادفة».
ضحك، وصفّقَ مرة واحدة بضجيج مرتفع واسترخى بكل ثقله على كرسيه. «وهذا لا يعني أنني شخصيّة مرتابة، البتّة!».

«ولكن لا صِلة لهذا أبداً بالاستجواب حول موت والدك».

«طبعاً لا صِلة له لكنَّ جيرار لا يهتم بالمنطق. كان ينبغي أنْ يُصبح مُخترعاً!».

تجهّمتْ آنْ. لم تصدّق أن يكون غاي قد وافق على قصّة تشارلز ببساطة لأنَّ قول الحقيقة كان سيبدو شيئاً سيئاً، أو حتى لأنَّ تشارلز أخبره وهما في القطار بأنّه يكره والده. يجب أنْ تسأل غاي من جديد. هناك الكثير من الأشياء التي يجب أنْ تسأله عنها. عن عِدائيّة تشارلز اتجاه ميريام، على سبيل المِثال، على الرغم من أنّه لم يرها قط. وانتقلتْ آنْ إلى المطبخ.

تمشّى برونو إلى النافذة الأماميّة حاملاً كأس مشروبه، وأخذ يراقب طائرة تتناوب أضواؤها الحمراء والخضراء على صفحة السماء السوداء. قال في نفسه: إنها أشبه بشخص يتمرّن، تلمس أطراف أصابعه كتفيه ثم يمدّ ذراعيه إلى الأمام من جديد. وودَّ لو أنَّ غاي على متن تلك الطائرة عائد إلى الوطن. نظر إلى الوجه الورديّ الشبيه بضوء الغسق لسطح ساعة يده الجديدة، وفكّرَ من جديد، قبل أنْ يتبيَّن الوقت على الأرقام الطويلة الذهبيّة، في أنَّ غاي ربما يرغب في أنْ تكون لديه ساعة يد كهذه، بسبب تصميمها الحديث. وبعد مرور فقط ثلاث ساعات أُخَر سوف يكون قد أمضى مع آنْ أربعاً وعشرين ساعة، يوماً كاملاً. كان قد عرَّجَ عليها مساء اليوم السابق بدل أنْ يتّصل بالهاتف، وكان الوقت قد أصبح متأخّراً، وكانت آنْ قد دعته لقضاء الليل. ونام في غرفة الضيوف حيث كانوا قد وضعوه في ليلة الحفلة، وكانت آنْ قد أحضرتْ له حساءً خفيفاً ساخناً قبل أنْ يستغرق في النوم. لقد غمرته

آنْ بمعاملتها العذبة، وهو أحبّها حقاً! واستدار دورة كاملة فرآها قادمة من جهة المطبخ حاملة أطباقهما.

قالت آنْ في أثناء تناول العشاء: «إنَّ غاي مولعٌ بك، في الحقيقة».

نظر برونو إليها، بما أنّه نسيَ ما كانا يتحدثان عنه. «إنني مستعد لتقديم *أيّة خدمة* له! إنني أشعر بأنَّ ثمة رابطاً قويّاً يصِلُ بيننا وكأنه أخ لي، ربما لأنَّ كل شيء بدأ يحدث له بعد أنْ تقابلنا في القطار». وعلى الرغم من أنّه بدأ يتصرّف بمرح، بل وبمزاح، إلّا أنَّ جديّة مشاعره الحقيقيّة اتّجاه غاي هيمنت عليه. ودفعَ منصب غلايين غاي القريب منه نحو الطرف المقابل من المائدة. كان قلبه ينبض بقوّة. كانت البطاطا المحشيّة لذيذة، لكنّه لم يجرؤ على تناول لُقمة واحدة أخرى. ولا على شرب الكثير من النبيذ الأحمر. كان لديه حافز لقضاء الليل من جديد. أما كان في استطاعته أنْ يبيت هذه الليلة من جديد، إذا شعر بأنّه متوعّك؟ ومن ناحية أخرى، كان المنزل الجديد أقرب مما ظنّتْ آنْ. كان سيُقيم حفلة كبرى في يوم السبت. سألها: «أواثقة من أنَّ غاي سوف يعود في عطلة نهاية الأسبوع هذه؟».

«هذا ما قال». أكلتْ آنْ سلطتها الخضراء وهي شاردة، «ولكن لا أعلم إنْ كانْ سيرغبْ في إقامة حفلة. وعندما يعمل لا يرغب في المعتاد في أي شيء يُلهيه أكثر من الإبحار».

«أنا أحبّ الإبحار إذا كنتما لا تمانعان في مُرافقتكما».

«تعال معنا». ثم تذكّرتْ، لقد كان تشارلز قريباً على متن الباخرة «*إنديا*»، وفرضَ نفسه على غاي، وتسبَّب في انبعاج مقدّمة الباخرة، وفجأة شعرتْ بالحيرة، بأنها مخدوعة، وكأنَّ شيئاً ما منعها من التذكُّر حتى الآن ووجدتْ نفسها تفكّر، يمكن أنْ يصدر عن تشارلز أي عمل، أعمال وحشيّة، وأنْ يخدع كل شخص بالسذاجة المُداهنة نفسها، بالابتسامة الخجول نفسها. ما عدا جيرارد. نعم، في إمكانه أنْ يُعدّ لاغتيال والده. ولا يمكن لجيرارد أنْ يفكّر في هذا الاتّجاه إلّا إذا كان ذلك ممكناً. ربما هي جالسة أمام قاتل. وشعرتْ بوخز الرعب وهي تنهض، بحركة سريعة أكثر من المعتاد وكأنها تنوي الفرار، ورفعتْ أطباق العشاء. ثم هناك استمتاعه الكئيب، القاسي بالتحدث

عن اشمئزازه من ميريام. وقالتْ آنْ في نفسها: جدير به أنْ يستمتع بقتلها. وعبرَ ذهنها شكٌّ هشّ في احتمال أنْ يقتلها كورقة نبات يابسة تذروها الرياح.

كادت تتلعثم وهي تقول من المطبخ: «إذن ذهبتَ إلى سانتا فِه بعد أنْ قابلتَ غاي؟».

«آه – هاه». بدا برونو ضخماً عندما عاد يغوص من جديد في كرسي الأريكة الكبير الأخضر.

أسقطتْ آنْ ملعقة فنجان قهوة صغيرة فأصدرتْ ضجيجاً مُزعجاً على حجارة القرميد. وقالت في نفسها: الغريب في الأمر هو أنّه مهما قيل لتشارلز أو سُئِلَ. لا شيء يصدمه، ولكنْ بدل أنْ تُسهل هذه السّمة الحديث معه، كانت تهزّها وتصعقها.

سمعَتْ صوتها يهتف من خلف الحاجز الفاصل: «هل ذهبتَ مرَّة إلى ميتكالف؟».

أجاب برونو: «كلا، كلا، لطالما رغبتُ في ذلك وأنتِ؟».

رشفَ برونو من فنجان القهوة الموضوع على رف المدفأة كانت آنْ جالسة على الأريكة الطويلة، وقد أمالتْ رأسها إلى الخلف بحيث كان منحنى نحرها فوق الياقة الصغيرة المُكشكشة لثوبها هو أخفّ شيء فيها تذكّرَ برونو أنَّ غاي قال ذات مرّة، إنَّ آنْ هي كالنور بالنسبة إليّ إذا استطاع أنْ يخنق آنْ أيضاً، عندئذٍ يمكن أنْ يُصبح هو وغاي متلازمين حقاً. تجهّم برونو في وجه نفسه، ثم ضحك وغيَّر وضع قدميه.

«ماذا يُضحكك؟».

ابتسم «كنتُ فقط أفكِّر، كنتُ أفكّر فيما يقوله غاي دائماً، عن ازدواجيّة كل شيء كما تعلمين، كالموجب والسالب، الموجودين جنباً إلى جنب. إنَّ كل قرار هناك سبب لمناقضته»، وفجأة لاحظَ أنّه يتنفّس بصعوبة.

«تقصد أنَّ لكل شيء جانبَين؟».

«أوه، كلا، هذا تبسيط مُفرِط!». أحياناً تكون النساء شديدات الفجاجة! «بل أقصد الناس، المشاعر، كل شيء! مزدوج! هناك اثنان في كل شخص،

وهناك أيضاً شخص مُناقِض تماماً لك مباشرة، كأنّه جزء خفيّ منك، يكمن في مكان ما من العالم». فرِحَ لأنّه يُردد كلمات غاي، على الرغم من أنّه لم يُحبّ سماعها، كما يتذكّر، لأنَّ غاي قال: إنَّ الشخصَين هما عدوّان لدودان، أيضاً، وكان غاي يقصد بذلك هو وإيّاه.

رفعَتْ آنْ رأسها ببطء عن ظهر الأريكة الطويلة وكأنَّ غاي هو الذي كان يتكلَّم، ولكن لم يحدث أبداً أنْ قال لها كلاماً كهذا. وتذكّرتْ آنْ الرسالة غير الموقَّعة في الربيع الفائت. لا بدّ أنَّ تشارلز هو الذي كتبها، ولا بدّ أنَّ غاي كان يعني بكلامه تشارلز عندما تحدث عن الكمين. إذ ليس هناك شخص آخر غير تشارلز يمكن لغاي أنْ يُبدي مثل هذا العنف اتجاهه. لا شك في أنَّ تشارلز هو الذي بدَّل الحقد بالتفاني.

تابع برونو كلامه بمرح: «إنّه ليس خيراً أو شرّاً، لكنّه يظهر بوضوح من خلال العمل. بالمناسبة، لا ينبغي أنْ أنسى أنْ أطلب من غاي أنْ يعطي ألف دولار لمتسوّل فلطالما قلتُ عندما كان في حوزتي مال إنني سأهب ألف دولار لمتسوّل. حسن، وقد فعلتُ، ولكن أتعتقدين أنّه شكرني؟ لقد استغرقَ مني إقناعه بأنَّ النقود حقيقيّة عشرين دقيقة! واضطررتُ إلى أخذ ورقة نقديّة من فئة المئة دولار إلى المصرف لكي أفكّها من أجله! ثم بدأ يُعاملني كأنّي مجنون!» نظر برونو إلى أسفل وهزَّ رأسه. كان يأمل في أنْ تكون تجربة تبقى في الذاكرة، ومن ثم ذكر كيف نظر ابن الحرام ذاك إليه بتألُّم بالمعنى الحرفيّ في المرّة التالية التي رآه فيها –وكان لا يزال يتسوّل عند ركن الشارع نفسه، أيضاً– لأنه لم يُحضِر له ألفَ دولارٍ *أخرى*! «على أي حال كما كنتُ أقول–».

قالت آنْ «عن الخير والشر» كم اشمأزّتْ منه. أصبحتْ تعرف الآن شعور غاي اتجاهه لكنها لم تعرف بعد لماذا يتحمّله غاي.

«أوه، حسن، إنَّ مثل هذه الأشياء تتجلّى من خلال الأفعال كالقتلة، فقط على سبيل المِثال. إنَّ معاقبتهم في دور القضاء لن يجعل منهم أُناساً أفضل، كما يقول غاي. إنَّ كل إنسان هو دار قضاء نفسه ويكتفي بمعاقبة نفسه بنفسه. وفي الحقيقة، إنَّ كل إنسان بالنسبة إلى غاي هو كل شيء!» وضحك. كان ثملاً إلى درجة أنّه لم يعد الآن يُميِّز وجهها، لكنّه أراد أنْ يُخبرها بكل

الأحاديث التي دارتْ بينه وبين غاي، وحتى آخر سرّ صغير لم يتمكن من إفشائه لها.

سألته آنْ: «إنَّ عديمي الضمائر لا يُعاقبون أنفسهم، أليس كذلك؟».

رفعَ برونو بصره نحو السقف «هذا صحيح إنَّ بعض الناس من البلاهة بحيث ليست لديهم ضمائر، وآخرون أشرار بالنتيجة نفسها. وفي العموم، البلهاء هم الذين يتمّ إلقاء القبض على» وهتف برونو وقد بدا أكثر جدّيّة، «على سبيل المثال، لديك قاتلا زوجة غاي ووالدي، لا بدّ أنَّ كليهما شديدا الذكاء، ألا تعتقدين؟».

«تقصد أنّ على المرء أنْ يكون لديه ضمير حتى لا يستحق إلقاء القبض عليه؟».

«أوه، ليس هذا ما أقصد طبعاً لا أقصد هذا! ولكن لا تظنّي أنهم لا يُعانون قليلاً بأسلوبهم الخاص!» وضحك من جديد، لأنّه كان حقاً من فرط الثمالة بحيث لم يعُد يعرف كيف يتّجه. «إنهم ليسوا مجرّد مجانين، كما يُقال عن قاتل زوجه غاي. إنَّ هذا يُبيِّن قِلَّة ما تعرفه السلطات في عِلم الجريمة الحقيقيّ. إنَّ جريمة كتلك تتطلّبُ تخطيطاً لها». وفجأة تذكّر أنّه لم يُخطِّط لتلك الجريمة قط، لكنّه خطَّط حتماً لجريمة قتل والده، وهذا يوضِّح ما يعنيه بالضبط. «ما الأمر؟».

وضعتْ آنْ أصابع يدها الباردة على جبينها. «لا شيء».

أعدَّ برونو لها مشروباً مُسكِراً عند البار الذي كان غاي قد أنشأه على جانبه من الموقد ورغِبَ برونو في أنْ يكون لديه شبيه له في منزله.

«من أين حصل غاي على تلك الخدوش التي على وجهه في شهر آذار الماضي؟».

التفتَ برونو إليها: «أيّة خدوش؟». لقد أخبره غاي أنها لا تعرف شيئاً عن الخدوش.

«بل أكثر من خدوش جراح وثمة رضوض في الرأس».

«لم أرها».

«لقد تعارك معك، ألم يفعل؟». حدَّقَ برونو إليها وفي عينيه ومض غريب زهريّ اللون. الآن لم تعُد مُخادعة إلى درجة أنْ تبتسِم، لقد كانت متأكّدة وشعرتْ بأنَّ تشارلز يوشك أنْ يندفع عبر أرض الغرفة ويضربها، لكنّها أبقتْ عينيها مُثبَّتين على عينيه. قالتْ في نفسها: إذا أخبرتْ جيرارد بذلك فسوف يكون العراك دليلاً على معرفة تشارلز بهويّة القاتل. ثم رأتْ ابتسامة تشارلز تعود.

ضحك «كلا!» وجلس. «أين قال إنه حصل على تلك الخدوش؟ أنا لم أره في أي مكان في شهر آذار. كنتُ خارج المدينة». نهضَ واقفاً. وفجأة بدأ يشعر بألم في معدته، ولم يكن السبب هو الأسئلة بل منبعه معدته. ماذا لو أنّه أُصيبَ بنوبة أخرى الآن أو في صباح الغد لا ينبغي أنْ يفقد الوعي، لا ينبغي أنْ يدع آنْ ترى ***ذلك*** في الصباح! وتمتم: «يجب أنْ أذهب قريباً».

«ما الأمر أتشعر بتوعّك؟ أنت شاحب قليلاً».

لم تكن متعاطِفة أدركَ هذا من نبرة صوتها، النساء كلّهن غير متعاطفات، ما عدا أمّه «شكراً لكِ يا آنْ على - على النهار كلّه».

ناولته معطفه، ومشى متعثراً ليخرج من الباب، وصرّ على أسنانه مع بداية مسيره الطويل نحو سيارته المتوقفة عند حافة الطريق.

عندما عاد غاي إلى البيت بعد ذلك ببضع ساعات كان الظلام يعمّ المنزل. جاس غرفة الجلوس، ورأى عقب السيجارة مسحوقاً في وسطها، ومنصب السيجار موضوع على طرف الطاولة، ورأى الانبعاج على وسادة صغيرة على الأريكة الطويلة. وكانت تسود فوضى غريبة لا يمكن أنْ تكون من فعل آنْ وتيدي، أو كريس، أو هيلين هيبرن ألم يكن يعرف؟».

هرع يرتقي إلى الغرفة الضيوف برونو ليس هناك، لكنّه رأى كتلة مُشوّشة لصحيفة، على الطاولة المُجاورة للسرير وقطعاً نقديّة صغيرة تركن إلى جوارها. وعند النافذة، كان ضياء الفجر يبزغ كذاك الفجر. أدار ظهره للنافذة، وخرجت أنفاسه المكبوتة كأنها نشيج. ماذا قصدتْ آنْ بفعلها ذلك في حقّه؟ الآن من دون الأوقات كلّها حين لا يمكن تحمّل هذا السلوك - بينما نصفه في كندا والنصف الآخر هنا، وهو في قبضة برونو الشديدة، برونو ورجال الشرطة في إثره. كانت الشرطة قد أتاحتْ له فترة قصيرة من العزلة! لكنّه تخلّفَ الآن، ولم يعُد في استطاعته التحمّل أكثر.

انتقلَ إلى غرفة النوم وركعَ بجوار آنْ وقبّلها حتى تستيقظ، بشكلٍ مُفزِع، خشن، إلى أنْ شعر بذراعيها تطوّقه ودفنَ وجهه داخل كتلة الأغطية الناعمة التي فوق صدرها. شعر كأنما عاصفة هوجاء، هادرة، تكتنفه، هو وهي، وكأنَّ آنْ هي نقطة السكون الوحيدة، في مركزها، وكأنَّ إيقاع تنفسّها هو الدلالة الوحيدة على وجود نبضٍ طبيعيّ في عالم عاقل. وخلع ملابسه وهو مُغمَض العينين.

كانت كلمات آنْ الأولى هي: «لقد اشتقتُ إليك».

وقفَ غاي بالقرب من آخر السرير ويداه في جيبيّ ردائه، مشدودتان. كان ما يزال متوتراً، وبدا أنَّ العاصفة تمركزتْ في جوهره هو الآن. «سوف أمكثُ هنا ثلاثة أيام هل اشتقتِ إليّ؟».

ارتفعتْ آنْ قليلاً وهي على السرير «لِمَ تنظر إليّ هكذا؟».

لم يُجِب غاي.

«لم أقابله إلّا مرة واحدة، يا غاي».

«لِمَ قابلته أصلاً؟».

«لأنَّ -» تورّدتْ وجنتاها باللون الزهريّ بلون البقعة التي على كتفها، كما لاحظَ غاي خدشَتْ لحيتُه كتفها، لم يكن قد كلّمها بتلك اللهجة من قبل. وبدا كأنَّ كونها تنوي أن تُجيب عن سؤاله بعقلانيّة يُزوّده بسبب آخر لغضبه. «لأنه عرَّج عليّ-».

«إنّه دائماً يُعرِّج ودائماً يتّصل هاتفيّاً».

«لِمَ؟».

انفجر غاي قائلاً: «لقد نام هنا!»، ثم شاهد انكماش آنْ متمثّلاً في الارتفاع الدقيق لرأسها، وفي اضطراب رموش عينيها.

«نعم، في ليلة يوم قبل أمس» تحدّاه صوتها الثابت «جاء في وقتٍ متأخّر، وطلبت منه أنْ يبيت الليلة».

كان قد خطر في باله وهو في كندا أنَّ برونو قد يتودَّد إلى آنْ، لمجرَّد أنّها تخصّه هو، وأنَّ آنْ ربما تُشجّعه لأنها تريد أنْ تعرف ما لم يُخبرها به. وهذا لا يعني أنَّ برونو كان سيتمادى كثيراً، لكنَّ لمس يده ليد آنْ، وفكرة سماح آنْ له بذلك، والسبب لسماحها بحدوثه، عذَّبه. «وجاء إلى هنا ليلة أمس؟».

«لِمَ أنتَ منزعج إلى هذا الحدّ؟».

«لأنه خطِر إنه شبه مجنون».

قالت آنْ بالصوت الثابت البطيء نفسه: «لا أعتقد أنَّ هذا هو سبب انزعاجك منه، لا أعلم لماذا تدافع عنه يا غاي. ولا أعلم لِمَ لا تعترف بأنّه هو الذي كتب تلك الرسالة إليّ وهو الذي دفعك إلى حافة الجنون في شهر آذار؟».

تجمَّدَ غاي في حالة من الدفاع عن النفس والشعور بالذنب. قال في نفسه: إنّه دفاع ضد برونو، دائماً ضد برونو! كان يعلم أنَّ برونو لم يعترف أبداً بأنّه بعث الرسالة إلى آنْ. كل ما في الأمر هو أنَّ آنْ، على غرار جيرارد، مع اختلاف الحقائق، كانت تجمع أطراف الخيوط معاً. كان جيرارد قد ترك القضيّة، أمّا آنْ فلم تتركها أبداً. كانت آنْ تتعامل مع خيوطٍ غير محسوسة، والقطع غير المحسوسة هي التي تكوِّن الصورة الكاملة. لكنّها لم تحصل بعد على الصورة الكاملة، سوف يستغرق ذلك بعض الوقت، وقتاً أطول قليلاً من أجل تعذيبه! استدار نحو النافذة بحركة ثقيلة مُتعبة، كان من فرط الوهن بحيث لم يقوَ على إخفاء وجهه أو حني رأسه. ولم يأبه بسؤال آنْ عن الحديث الذي دار بينها وبين برونو في اليوم السابق. وبصورة ما شعر بالضبط بما تحدّثا بشأنه، وبالضبط كم زادتْ معلومات آنْ. وفجأة شعر بأنَّ هناك فترة مُحدَّدة مُخصّصة لألم التأجيل هذا. وقد تجاوزتْ كل توقّع منطقيّ، كما تفعل الحياة أحياناً في مواجهة مرضٍ قاتل، هذا كل شيء.

قالتْ آنْ بهدوء، والآن لم تعُد تناشده، وأصبح صوتها يشبه فقط قرع ناقوس يُعلن عن مدة معيَّنة من الزمن: «أخبرني يا غاي، هلّا أخبرتني، أرجوك؟».

أجاب، ولا يزال ينظر إلى النافذة: «سوف أخبرك»، ولكن بينما هو يقول هذا، ويُصدِّق نفسه، ملأه ضياء، كان متيقّناً من أنَّ آنْ تتبيَّنه على نصف وجهه، وفي كامل كيانه، وأول ما خطر في باله كان أنْ يتقاسمه معها، على الرغم من أنّه لم يستطع للحظة أنْ يُبعِد عينيه عن ضوء الشمس الممتد على عتبة النافذة. قال في نفسه: إنَّ الضياء هو في وقتٍ واحد إزالة الظلام وإزالة الوزن، هو اللاوزن. سوف يُخبر آنْ.

مدَّتْ ذراعيها نحوه: «غاي، تعال إلى هنا»، فجلس إلى جوارها، وأحاطها بذراعيه، وضمّها إليه بقوة. قالتْ: «ثمة طفل قادم على الطريق يا حبيبي، فلنكن سعيدين. هلّا كنتَ سعيداً، غاي؟».

نظر إليها، وقد شعر فجأة برغبة في الضحك تعبيراً عن السعادة، وعن تأثير المفاجأة، وعن الشعور بالحياء. همس «طفل!».

«ماذا سنفعل خلال أيام وجودك هنا؟».

«متى سيأتي آنْ؟».

«أوه – ما زال الوقت باكراً أعتقد أنّه سيأتي في شهر أيار. ماذا سنفعل غداً؟».

«سوف نخرج حتماً ونبحر بالقارب إذا لم يكن البحر هائجاً»، وهنا دفعته النبرة الحمقاء، التآمريّة في صوته إلى الضحك ضحكاً مرتفعاً.

«أوه، غاي!».

«هل أبكي؟».

«شيء جميل أنْ أسمعك تضحك!».

الخامس والأربعون

في صباح يوم السبت اتصل برونو هاتفيّاً لكي يُهنِّئ غاي على تعيينه في لجنة ألبرتا ولكي يطلب منه ومن آنْ الحضور إلى حفلته في مساء ذلك اليوم. وحضّه صوت برونو المتلهِّف، المُبتهج إلى الاحتفال. «إنني أتكلَّم من هاتفي الخاص، يا غاي لقد عاد جيرارد إلى إيوا. تعال، أريد أنْ أُريكَ منزلي الجديد»، ثم قال: «دعني أكلِّم آنْ»

«آنْ في الخارج الآن».

أدركَ غاي أنَّ التحقيقات قد انتهتْ وقد لاحظتْ الشرطة وجوده وكذلك فعل جيرارد، مع الشكر.

عاد غاي إلى غرفة الجلوس حيث كان هو وبوب تريتشر يتناولان وجبة إفطارهما المتأخّرة. كان بوب قد جاء إلى نيويورك بالطائرة قبله بيوم، وكان غاي قد دعاه لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. وكانا يتحدثان عن ألبرتا وعن

الرجال الذين عملا معهم في اللجنة، وعن المنطقة، وعن صيد سمك التروت، وعن كل ما خطر في بالهما. وضحك غاي على نكتة ألقاها بوب باللغة العاميّة الفرنسيّة - الكنديّة. كان ذلك في صباح يوم مُشمِس مُنعِش من شهر تشرين ثاني، ولدى عودة آنْ من جولة التسوُّق كانا ينويان أنْ يستقلوا السيارة إلى لونغ أيلند ومن ثم يركبوا القارب. شعر غاي بابتهاج كأنّه يوم عطلة في أيام الطفولة، لأنَّ بوب كان في صحبته. وكان بوب يمثّل كندا والعمل هناك، المشروع الذي شعر غاي فيه كأنّه ولجَ غرفة أخرى أرحب داخل ذاته لا يستطيع برونو أنْ يتبعه إليها. ومنحه سر المولود القادم إحساساً بالهِبة النزيهة، وبالميزة السّحريّة.

حالما دخلتْ آنْ من الباب، رنَّ جرس الهاتف من جديد. نهضَ غاي واقفاً، لكنّ آنْ هي التي أجابت. قال غاي في نفسه: إنَّ برونو يعرف بصورة مُبهمة وبدقّة متى يتّصل. ثم أصغى غير مُصدِّق، إلى الحديث ينساب نحو الشّراع بعد ظهيرة ذلك اليوم.

قالتْ آنْ: «تعال إذن أوه، أعتقد أنّه لا بأس ببعض البيرة إذا أردتَ أنْ تجلب معك شيئاً».

رأى غاي بوب يُحدِّقُ إليه مُستفهماً.

سأله بوب: «ما الأمر؟».

عاد غاي إلى الجلوس من جديد. «لا شيء».

«إنّه تشارلز. لا أظنكَ تمانع كثيراً إذا حضر، أليس كذلك، يا غاي؟». قَطَعتْ آنْ برشاقة أرض الغرفة مع حقيبة بقاليتها. «قال:إنه إذا خرجنا للإبحار فيودّ أنْ يأتي في يوم الخميس، وأنا دعوته فعلاً».

قال غاي: «لا أمانع»، ولا يزال ينظر إليها. كانت في مزاج مرح، حيويّ في صباح ذلك اليوم، ومن الصعب تخيّلها ترفضُ تنفيذ أي طلبٍ لأي شخص، ولكن كان غاي يعلم أنَّ دعوتها برونو تنطوي على أكثر من ذلك، لقد أرادتْ أنْ تجمع بينهما مرّة أخرى لم تستطع الانتظار، حتى في هذا اليوم. وشعر غاي بارتفاع نسبة اشمئزازه، وقال بسرعة لنفسه: إنها لا تُدرك، بل لا تستطيع أنْ تُدرِك، وعلى أيّة حال هذه الفوضى التي أحدثتها كلّها هي

بسببك لذلك نحّى الاحتقار جانباً، ورفضَ حتى الاعتراف بوصمة العار التي يمكن لبرونو أنْ يُخلفها في ذلك اليوم. وقرَّر أنْ يُبقي نفسه مُعرَّضاً للضغط نفسه طوال النهار.

قال له بوب: «يمكنكَ أنْ تقوم بما هو أسوأ من التركيز على توتُّر أعصابك قليلاً، يا صديقي العزيز». رفع كوب القهوة وجرعه كله، باستمتاع. «حسن، على الأقلّ لم تعُد مدمناً على شرب القهوة كما كنتَ في السابق. كم كنتَ تشرب، عشرة أكواب؟».

«شيئاً كهذا». كلا، بل كان قد امتنع عن شرب القهوة تماماً، في محاولة لنيل قسطٍ من النوم، والآن أصبح يكره القهوة.

توقفوا في مانهاتن من أجل انضمام هيلين هيبرن، ثم عبروا جسر تريبورو إلى لونغ أيلند. كانت أشعة شمس الشتاء على الساحل تتسِم بصفاء متجمِّد، تمتد رقيقة على الشاطئ، وتتلألأ بعصبيّة على المياه المتلاطمة. قال غاي في نفسه: إنَّ الباخرة «*إنديا*» أشبه بكتلة راسية من الثلج، مُتذكِّراً عندما كان بياضها يمثّل جوهر الصيف. وبينما كان ينعطف، بحركة آليّة، حول زاوية موقف السيارات، وقعَتْ عيناه على سيارة برونو الطويلة البرّاقة ذات الغطاء القابل للطيّ. تذكَّرَ غاي عندما قال برونو: إنَّ حصان دوامّة الملاهي الذي اختبأ على متنه كان بلون أزرق ضارب إلى الأرجوانيّ، ولهذا السبب اشترى السيارة. وشاهد برونو واقفاً تحت سقيفة غرفة الربّان، رآه كلّه ما عدا رأسه، بالمعطف الأسود الطويل والحذاء الصغير، والذراعين اللتين كان يضع يديهما في الجيبين، والقلق المألوف الذي تتّسِم به قامته المُنتظرة.

حمل برونو صندوق البيرة ومشى في اتّجاه السيارة مع ابتسامة حيّة، ولكن حتى عن بُعد، استطاع غاي أنْ يرى التيه المكبوت، المُستعد للانفجار. كان يضعُ لِفاعاً بلونه الأزرق الضارب إلى الأرجوانيّ، كلون سيارته. «مرحباً، مرحباً غاي فكّرتُ في أنْ أقابلك ما دام ذلك في استطاعتي» ونظر إلى آنْ طلباً لمساعدة.

قالتْ آنْ: «تسعدني رؤيتك أقدِّمُ إليك السيد تريتشر. وهذا برونو».

حيّاه برونو «ألم تتمكن من حضور الحفلة هذه الليلة، يا غاي؟ لقد كانت حفلة كبرى. كلكم لم تتمكنوا؟» وشملَتْ ابتسامته هيلين وبوب.

قالتْ هيلين: إنها كانت منشغلة وإلّا كان يُسعدها أنْ تحضرها. ألقى غاي عليها نظرة سريعة وهو يُغلق باب السيارة، فرآها تتكئ على ذراع برونو، لتبدِّل حذاءها. أعطى برونو صندوق البيرة لآنْ وكأنّه ينوي أنْ يرحل.

تحزَّزَ شعر حاجبيّ هيلين الأشقر: «ألا ترافقنا؟».

احتجَّ برونو قليلاً: «إنني لا أرتدي الملابس المناسبة».

«أوه، هناك الكثير من قماش المُشمَّع في الباخرة».

اضطروا إلى إنزال أحد قوارب النجاة عن متن الباخرة وتجادل غاي وبرونو بأدب ولكن بعناد حول مَنْ يجب أنْ يُجذِّف، إلى أنْ اقترحت هيلين أنْ يُجذّفا هما الاثنان. جذَّفَ غاي بضربات طويلة وعميقة، وبرونو إلى جواره في وسط مقعد التجذيف، يُجاريه بعناية. كان في استطاعة غاي أنْ يشعر بإثارة برونو غريبة الأطوار تتصاعد مع اقترابهما من الباخرة. وطارت قبعة برونو عن رأسه مرتين، وأخيراً نهضَ واقفاً وأطاح بها بحركة استعراضيّة إلى البحر.

قال وهو ينظر إلى غاي: «إنني أكره القبعات في كل الأحوال».

رفضَ برونو أنْ يرتدي القماش المُشمَّع، على الرغم من أنَّ رذاذ المياه كان يندفع بين حين وآخر على قمرة الربّان وكانت الريح قوية ولا يمكن نشر الشراع ودخلت الباخرة المضيق بطاقة المُحرِّك المنخفضة، وبوب على المقود.

هتفَ برونو: «في صحّة غاي!»، ولكن بنبرة غريبة مكبوتة وغير واضحة لاحظ غاي وجودها منذ أنْ تكلَّم في صباح ذلك اليوم «تهانينا، وتحياتنا!». وفجأة أحضر القارورة الفضيّة، الجميلة، المُزخرفة برسوم الفاكهة وقدَمها لآنْ. كانت أشبه بآلة قوية وخرقاء لا تستطيع أنْ تجد إيقاعها المناسب لتنطلق. «براندي نابوليون. خمسة نجوم».

رفضَتْ آنْ العرض، أما هيلين، التي كانت تشعر بالبرد، فشربتْ قليلاً، وكذلك فعل بوب، ومن تحت قماش المُشمَّع أمسك غاي بيد آنْ التي

ترتدي القفّاز وحاولَ ألّا يُفكِّر في أي شيء، لا في برونو، ولا في ألبرتا، ولا في البحر. لم يتحمّل النظر إلى هيلين، التي كانت تشجِّع برونو، ولا إلى ابتسامة بوب المهذَّبة، المُحرجة بصورة مبهمة وهو ينظر أمامه على المقود.

سأل برونو من جديد، وهو ينفض الرذاذ بهياج عن كمّه: «هل هناك منكم مَنْ يتذكَّر أغنية «ندى ضبابيّ، ضبابيّ»؟. لقد أوصله الشرب من القارورة الفضيّة إلى حالة السُّكر.

شعر برونو بالحَرَج لأنَّ لا أحد رغبَ في المزيد من مشروبه الاستثنائيّ، ولأنَّ لا أحد رغبَ في الغناء. وحطَّمه أيضاً أنَّ هيلين قالت:إنَّ أغنية «ندى ضبابيّ، ضبابيّ» تسبِّب الاكتئاب. كان يريد أنْ يغنّي أو يصرخ أو يفعل أي شيء. في أيّة مُناسبة أخرى يمكن أنْ يجتمعوا معاً هكذا؟ هو وغاي وآنْ وهيلين وصديق غاي. وأخذ يدور حول نفسه على مقعده في الزاوية ويرى كل ما يجري من حوله، وحتى خط الأفق الرفيع الذي كان يظهر ويختفي خلف أمواج البحر الهائجة، وإلى أرض اليابسة المتلاشية خلفهم. حاول أنْ ينظر إلى العلم المُثلّث على قمة الصاري، لكنَّ تمايُل الصاري سبَّبَ له الدوار.

أعلنَ: «ذات يوم سوف نقوم أنا وغاي بجولة حول العالم ككرة من زجاج الميكا، ونربطها بشريط ونرفعها عالياً!»، ولكن لا أحد أولاه أيّ انتباه.

كانت آنْ تتحدّث مع هيلين وتقوم بإيماء يشبه الكرة بيديها، وكان غاي يشرح شيئاً بخصوص المُحرِّك لبوب. وعندما انحنى غاي لاحظَ برونو أنَّ التغضنات في جبينه تبدو أعمق، وأنَّ عينيه حزينتان كحالهما دائماً.

هزَّ برونو ذراع غاي: «ألا تدرك أيّ شيء! أينبغي أنْ تكون جديّاً إلى هذه الدرجة اليوم؟».

باشرتْ هيلين بقول شيء ما عن كون غاي دائماً جديّاً، فزمجر برونو ليُسكتها، لأنها لا تعلم أيّ شيء عن جديّة غاي وسببها. وتبادل برونو ابتسامة الامتنان مع آنْ وقدَّم لها قارورة الخمر من جديد.

لكنَّ آنْ رفضَت من جديد، وكذلك فعل غاي.

قال برونو متأذّياً: «لقد أحضرتها خصيصاً لأجلك، يا غاي حسبتُ أنكَ تحبّها».

قالتْ آنْ: «اشرب قليلاً، غاي».

تناولها غاي وشرب قليلاً.

«في صحّة غاي! العبقريّ، والصديق، والشريك!» قال برونو هذا وشرب بعده. «إنَّ غاي عبقريّ فعلاً هل تعلمون هذا كلّكم؟»، وأخذ يتلفَّتْ حوله، ورغب فجأةً بنعتهم بجماعة الحمقى.

قال بوب موافقاً: «طبعاً».

رفع برونو قارورته: «بما أنك صديق قديم للغاي، أحييكَ أنتَ أيضاً!».

«شكراً لك. أنا صديق قديم جداً أحد أقدمهم».

تحدّاه برونو: «إلى أي مدى أنت قديم؟».

ألقى بوب نظرة إلى غاي وابتسم: «عشر سنوات أو نحوها».

تجهّمَ برونو. قال بهدوء، مُهدِّداً: «أنا أعرف غاي طوال حياته اسأله».

شعر غاي بآنْ وهي تلوي يدها لكي تتخلَّص من قبضته ورأى بوب يُقهقه، لا يعرف ماذا يفهم من ذلك. تفصَّدَ العرقُ بارداً من جبينه ولم يتبقَّ لديه أدنى قدرٍ من الهدوء، كما كان يحدث معه دائماً. لماذا دائماً يعتقد أنَّ في استطاعته أنْ يتحمَّل برونو، ويمنحه فرصة أخرى؟.

«هيا غاي، أخبره أنني أقدم صديق لك».

قال غاي: «نعم». كان يدرك وجود ابتسامة آنْ الصغيرة المتوترة وصمتها. ألمْ تصبح الآنْ تعرف كل شيء؟ ألا تكتفي الآن بانتظاره هو وبرونو لكي يُفصِحا عن ذلك بالكلمات خلال اللحظات التالية؟ وفجأة بدا كأنها لحظة في المقهى بعد ظهيرة يوم الجمعة في الليلة التي شعر بأنّه أخبر خلالها آنْ بكل ما ينوي أنْ يقوم به. كان سيُخبرها، كما تذكَّرَ، أما الحقيقة التي لم يُفضِ بها إليها، أي إنّ برونو يحوم من جديد حوله، فبدا أنها آخر إجراء شجب قوي جيد لتأخّره في الحضور.

هتفَ برونو لهيلين، التي كانت تبتعد عنه شيئاً فشيئاً على المقعد: «طبعاً أنا مجنون! مجنون إلى درجة أنْ أُمسِك بالعالم كلّه وأوسِعه ضرباً! وكل مَنْ لا يعتقد أنني أوسعه ضرباً، سوف أسوّي الأمر معه شخصيّاً!». ضحك، وكل ما فعله الضحك، كما اكتشفَ، هو أنّه حيَّرَ الوجوه الحمقاء، المُبهمة

من حوله، وخدعها ودفعها إلى الضحك معه. وصرخ في وجوههم بمرح «قرود!».

همس بوب لغاي: «مَنْ هذا؟».

قال برونو: «غاي وأنا سوبرمانان!».

علَقَت هيلين: «أنتَ سوبرمان سكران».

كافح برونو لكي يركع على إحدى رُكبتيه: «هذا غير صحيح!».

قالت آنْ له: «تشارلز، اهدأ!»، لكنّها ابتسمتْ هي أيضاً، وردَّ برونو عليها برسم تكشير.

«أنا أتحدّى ما قالت عن سُكري!».

سألتْ هيلين: «عمَّ يتحدّث؟ هل حقّقتما أنتما الاثنان نجاحاً ساحقاً في سوق البورصة؟».

«سوق البورصة، -!» سكتَ برونو، متذكّراً والده «ييبي -هووو- ووو! أنا من تكساس! ألم يسبق لك أنْ ركبتَ دوّامة خيل الملاهي في ميتكالف غاي؟».

اهتزّتْ قدما غاي من تحته، لكنّه لم ينهض ولم ينظر إلى برونو.

قال له برونو: «حسن، سوف أجلس لكنّكَ خيبَتَ أملي. أنت تُخيب أملي بصورة مُفزِعة!». هزَّ برونو قارورته الفارغة، ثم قذفَ بها عبر حافة الباخرة.

قالتْ هيلين: «إنه يبكي».

نهضَ برونو واقفاً وخرج من قمرة الربّان إلى سطح الباخرة، أراد أنْ يبتعد كثيراً عنهم، بل بعيداً عن غاي.

سألتْ آنْ: «إلى أين هو ذاهب؟».

غمغم غاي: «دعيه يذهب»، وحاول أنْ يُشعِل سيجارة.

ثم سُمِعَ صوت طرطشة ماء، وعلِمَ غاي أنَّ برونو سقط عن سطح الباخرة. خرج غاي من قمرة الربّان قبل أنْ يتكلّم أيٌّ منهم.

هرعَ غاي إلى مُؤخر الباخرة، مُحاولاً أنْ يخلع معطفه. شعر بأنَّ أحدهم يُثبّتُ ذراعيه خلفه، وعندما استدار لطمَ وجه بوب بقبضة يده وسقط هو نفسه

عن سطح الباخرة، ثم تعالتْ الأصوات وتراكضَتْ الخُطى، ومرّتْ لحظة من السكون الموجِع ثم بدأ جسمه يرتفع من خلال المياه ونزع معطفه بحركة بطيئة، وكأنَّ المياه الباردة كانت مجرد ألم جمّده. برز عالياً، ورأى رأس برونو على مسافة بعيداً جداً عنه، أشبه بصخرة تعلوها الطحالب ومغمورة حتى منتصفها في الماء.

صاح صوت بوب: «لا تستطيع أنْ تلحق به!» ثم قاطعه صوت ارتطام الماء بقوة بأُذنه.

هتفَ برونو من قلب البحر، كنحيب الموت: «غاي!».

سبَّ غاي. لم يستطع أنْ يصل إليه. عند الضربة العاشرة ليده للماء، برز من جديد «برونو!» لكنّه لم يعُد يراه الآن.

أشارتْ آنْ من مؤخّر الباخرة «*إنديا*»: «هناك، غاي!».

غاي لم يره، لكنّه اندفعَ نحو الموقع الذي تذكَّر أنّه رأى فيه رأسه، وغاصَ في ذلك الموقع، متلمّساً حوله على امتداد ذراعيه، وحتى أطراف أصابعه. كانت المياه تُعيقُ حركته. شعر كأنّه يتحرَّكُ داخل كابوس أو على مرج ارتفعَ إلى السطح تحت موجة واستنشق دفعة من الهواء. كانت الباخرة «*إنديا*» موجودة في موقع آخر، وتغيِّر اتجاهها. لِمَ لمْ يوجّهوه؟ إنهم لا يأبهون، أولئك الآخرين!.

«برونو!».

لعلّه خلف إحدى تلك الأمواج العاتية. واندفع قُدُماً، ثم أدرك أنّه أصبح بلا هدى. وضربَتْ موجةُ جانب رأسه، فسبَّ كتلة البحر القبيحة، الهائلة. أين هو صديقه، وأخوه؟.

غاصَ من جديد، إلى أعمق ما أمكنه، ناشراً طوله المفرِط قدر استطاعته. ولكن الآن بدا كأنّه لم يعُد هناك إلّا الفراغ الرمادي الأخرس يملأ المدى كلّه، لم يكن يمثّل فيه أكثر من نقطة صغيرة من الوعي. وأخذَ الشعور بالوحدة السريعة، الثقيلة، يضغط عليه أكثر، مُهدّداً بابتلاع حياته. مدَّ بصره من دون جدوى. وتحوّل اللون الرماديّ إلى أرضيّة بنيّة، ممتدّة.

صرخ، وهو يرتفع إلى السطح: «هل عثرتم عليه؟ كم الساعة الآن؟».

قال صوت: «ابقَ حيث أنت، غاي» قالتْ آنْ: «لقد غاصَ، يا غاي. رأيناه»
أغمضَ غاي عينيه وبكى.
أدركَ أنهم جميعاً غادروا، واحداً إثر آخر، غرفة المبيت وتركوه، حتى آنْ.

السادس والأربعون

غادر غاي السرير بحذر خشية أنْ يوقظ آنْ، وهبط إلى الطابق السفليّ وانتقل إلى غرفة الجلوس. أسدل الستائر وأضاء المصباح، على الرغم من عِلمه عدم وجود ما يمنع ضوء الفجر الذي كان عندئذٍ يتسلّل من تحت ستائر البندقيّة، من تحت القماش أخضر اللون، كسمكة بلا شكلٍ منتظم بلون خبّازي - فضيّ. كان قد استلقى في الطابق العلويّ ينتظر الفجر في الظلام، عالِماً أنّه سوف يأتي من أجله في نهاية المطاف، ليمتد بدءاً بنهاية السرير، خائفاً أكثر من أي وقتٍ مضى قبضة الآليّة التي حرّكته، لأنه بات يعلم الآن أنَّ برونو يحمل عبء نصف ذنبه. فإذا كان الإحساس بالذنب لا يُطاق من قبل، فكيف يمكنه أنْ يتحمّله الآن وحده؟ كان يعلم أنّه لا يستطيع أنْ يتحمّله.

حسدَ برونو لأنه مات فجأة، وبهدوء تامّ، وبعنف شديد، وهو في ريعان الشباب، كما كان برونو يُنجِز كل شيء دائماً. وسَرَتْ فيه رعشة عنيفة. جلس لا يأتي بأيّة حركة على الأريكة، وجسمه تحت البيجاما الرقيقة قاسٍ ومشدود كما في أوقات الفجر الأولى. ثم نهضَ واقفاً بنوبة فُجائيّة كانت دائماً تكسر توتّره، وارتقى إلى المُحتَرَف في الطابق العلويّ قبل أنْ يعلَم فعلاً ما ينوي فعله. نظر إلى القطع الكبيرة من أوراق الرسم ذات السطح الأملس على طاولة العمل، كانت أربع أو خمس بقيَتْ كما تركها بعد أنْ وضع رسماً تخطيطيّاً لشيء ما من أجل بوب. ثم جلس وباشر بالكتابة من الزاوية العليا اليُسرى وعبرها ببطء في أول الأمر، ثم بسرعةٍ مضطّردة عن ميريام وعن القطار، وعن المكالمات الهاتفيّة، وعن برونو في ميتكالف، وعن الرسائل، والمسدس، وعن دماره، وعن ليلة يوم الجمعة. كتبَ كل تفصيل عرِفه ويمكن أنْ يُساهم في فهم برونو، وكأنّه لا يزال حيّاً. وسوّدتْ كتابته ثلاثاً من صفائح الورق من الحجم الكبير. ثم طَوى الأوراق ووضعها داخل مُغلَّف

أكبر حجماً، وختمه. أخذ يُحدِّق إلى المُغلَّف فترة طويلة، مُستمتعاً بما بثّه فيه من ارتياحٍ جزئيّ، متعجباً من انفصاله الآن عنه. كان من قبل قد دوّنَ اعترافات انفعاليّة مرات متعددة، ولكن لعِلمِهِ أنَّ لا أحد سوف يراها، فإنها لم تتركه أبداً. وهذه موجَّهة إلى آنْ. آنْ سوف تلمس هذا المُغلَّف، سوف تحمل يداها صفحات الورق، وسوف تقرأ عيناها كل كلمة فيها.

رفع غاي راحتيّ يديه إلى عينيه الحارتين، المتألّمتين. لقد أرهقتْه ساعات الكتابة إلى درجة النعاس تقريباً. وانجرفَتْ الأفكار، لا تستقر على قرار، والأشخاص الذين كان يكتب عنهم -برونو، وميريام، وأوين ماركمان، وصمويل برونو، وآرثر جيرارد، والسيدة ماكوسلند، وآنْ- الأشخاص والأسماء كانت تتراقص حول حافة عقله. *وميريام*. الغريب في الأمر أنها أصبحتْ بالنسبة إليه الآن شخصاً حياً أكثر من أي وقتٍ سابق. كان قد حاولَ أنْ يصِفها لآنْ، حاول أنْ يُقيِّمها. وأجبره هذا على تقييمها لنفسه. قال في نفسه: عندما كانت شخصاً حيّاً لم تكن تستحق الكثير، حسب معايير آنْ أو معايير أي شخص، لكنّها كانت كائناً بشريّاً. وصمويل برونو أيضاً لم يستحق الكثير -كان مجرد صانع للمال جشعاً، وكئيباً، يكرهه ابنه، وزوجته لا تحبّه. ومَنْ أحبّه حقّاً؟ مَنْ تألَّمَ حقاً لموت ميريام أو لموت صمويل برونو؟ هذا إنْ وُجِدَ شخصٌ تألَّمَ- عائلة ميريام، ربما؟ تذكّر غاي أخاها وهو على منصّة الشهادة في أثناء الاستجواب، تذكّرَ العينين الصغيرتين اللتين لا تحملان غير الحقد الوحشيّ، والخبيث، وليس الحزن. وأمّها، الحقود، الروح الشريرة كعهدها دائماً، التي لا يهمّها على مَنْ يقع اللوم ما دام سيقع على شخصٍ ما، لم يكسرها الألم، أو يُضعِفها. هل كان هناك أي هدف، حتى وإنْ أراد أنْ يوجَد، في الذهاب لمقابلتهما وإضفاء هدف على حقدهما؟ هل كان ذلك سيجعلهما يشعران بأي ارتياح؟ أم كان سيُريحه هو؟ لقد رأى أنَّ ذلك لن يحدث. إنْ كان هناك أحدٌ أحبَّ حقاً ميريام - فهو أوين ماركمان.

أنزلَ غاي يديه عن عينيه وانساب الاسم بحركة آليّة إلى داخل عقله. لم يكن قد فكَّر في أوين قط قبل أنْ يكتب الرسالة. كان أوين شخصيّة غامضة في الخلفيّة. اعتبره غاي أقلّ أهمية من ميريام. ولكن لا بدّ أنَّ أوين أحبّها. وكان ينوي أنْ يتزوجها. لقد كانت تحمل طفله. ماذا لو أنَّ أوين علَّقَ سعادته

كلّها على ميريام. ماذا لو أنّه عرِفَ الألم خلال الأشهر التي تلتْ كما كان غاي قد عرفه عندما ماتت ميريام بالنسبة إليه في شيكاغو. حاولَ غاي أنْ يتذكَّر كل تفصيل في أوين ماركمان في أثناء الاستجواب. تذكّر سلوكه المُشين، وأجوبته الهادئة، والمباشرة إلى أنْ أصدر اتّهامه بالغيرة. من المستحيل معرفة ما كان يجول في رأسه.

قال غاي: «أوين».

نهضَ ببطء كانت هناك فكرة تتشكّل في ذهنه حتى وهو يحاول أنْ يُقيِّم ذكرياته عن الوجه الطويل، الكالح، والقامة الممشوقة والمترهلة التي تشكِّل أوين ماركمان. سوف يذهب ويُقابل ماركمان ويتحدث معه، ويُخبره كل شيء. إنَّ كان يُدين بذلك لأي شخص، فهذا الشخص هو ماركمان. فليقتله ماركمان إنْ أراد ذلك، فليستدع الشرطة أو ليفعل أي شيء، ولكن سوف يكون قد أخبره، بصدق، ووجهاً لوجه. فجأة أصبح ذلك ضرورة مُلحّة. طبعاً. كانت تلك هي الخطوة الوحيدة والخطوة التالية. وبعد ذلك بعد دَينه الشخصيّ، سوف يتنكّب أي عبء يُسنده القانون إليه. سوف يكون مُستعداً حينئذٍ. يمكنه أنْ يستقل القطار اليوم، بعد طرح أسئلةٍ من المُفترَض أنْ يُجيب القانون عنها بشأنْ برونو. لقد طلبتْ منه الشرطة أنْ يكون في المحطة مع آنْ في صباح هذا اليوم. بل في استطاعته حتى أنْ يستقل الطائرة بعد الظهيرة، إذا حالفه الحظ. أين تقع؟ هيوستن. ليت أوين يكون لا يزال هناك. لا ينبغي أنْ يدع آنْ ترافقه إلى المطار يجب أنْ تظنّ أنّه ذاهب إلى كندا كما كان يُخطط. لم يرغب في أنْ تعرف الأمر الآنْ. كان موعده مع أوين أكثر إلحاحاً. بدا أنّه يُحدِثُ فيه تغييراً أو ربما كان الأمر أشبه بطرح معطفٍ عتيق ومتهرِّئ، إنه يشعر بأنه عارٍ الآن، لكنّه لم يعُد خائفاً.

السابع والأربعون

جلسَ غاي على مقعد متحرِّك بين صفيّ مقاعد الطائرة المتوجّهة إلى هيوستن. كان يشعر بالبؤس وبالتوتّر، وكأنّه في غير مكانه وكأنّه خطأ، وبصورة ما، أشبه بالكتلة الصغيرة للمقعد نفسه الذي يسدّ الممر الفاصل بين المقاعد

ويُفسِد التناسُق داخل الطائرة كأنه خطأ، وغير ضروريّ، ومع ذلك كان مُقتنعاً بأنَّ ما يفعله ضروريٌّ. كانت المصاعب التي تغلَّبَ عليها للوصول إلى هذا المدى قد وضَعَتْه في مزاجٍ من التصميم العنيد.

كان جيرارد موجوداً في مركز الشرطة لكي يستمع إلى الاستجواب حول موت برونو. كان قد انتقل بالطائرة من إيوا، كما قال، لقد كانت نهاية مؤسِفة، لكنَّ تشارلز لم يكن أبداً حذراً بشأنْ أي شيء. من المؤسِف أنَّ ما حدث قد حدث على متن قارب غاي. كان غاي قادراً على الإجابة عن كل الأسئلة من دون إظهار أي انفعال. وبدت تفاصيل حادثة اختفاء جثّته شيئاً تافهاً. كان غاي مُضطرباً أكثر بحضور جيرارد ولم يرغب في أنْ يلحق جيرارد به حتى تكساس. ولكي يكون آمناً بصورة تامة، كان عليه حتى أنْ يُلغي حجز رحلته على متن الطائرة إلى كندا، التي كانت قد غادرتْ في وقتٍ مُبكِّر من بعد الظهيرة. ثم انتظر وصول تلك الطائرة ما يُقارب الأربع ساعات في المطار. لكنّه كان آمناً. لقد قال جيرارد إنه عائد إلى إيوا بقطار بعد الظهيرة.

مع ذلك، ألقى غاي نظرة أخرى حوله إلى المُسافرين، نظرة أشدّ بطئاً ودقّة من النظرة الأولى. لم يبدُ أنَّه أثار أدنى اهتمام أيّ منهم.

خشخشتْ الرسالة السميكة التي في جيبه عندما انحنى فوق الأوراق التي على حِجره، وكانت تحتوي تقارير محليّة حول العمل في مشروع ألبرتا، وكان بوب قد أعطاه إياها. لم يرغب غاي في قراءة أي مجلّة، ولم يرغب في الإطلال من النافذة، ولكنه كان متيقّناً من أنّ في استطاعته أنْ يحفظ غيباً، بصورة آليّة وفعّالة، مواد التقارير التي ينبغي حِفظها غيباً. وعثر على صفحة مأخوذة من مجلّة مُتخصّصة في فن العمارة الإنكليزيّة مُنتَزَعة ومُقحَمة بين الصفحات المنسوخة. كان بوب قد أحاط إحدى الفِقرات بالقلم الرصاص الأحمر:

إنَّ غاي دانييل هينز هو أهم مُهندس معماري خرج حتى الآن من الجنوب الأميركي، لقد نفَّذَ أول عمل مُستقلّ وهو في سن السابعة والعشرين، وكان مبنى بسيطاً يتألّف من طابقَين باسم «مخزن بيتسبرغ». وقد أسّسَ هينز مبادئ الحُسن والأداء التي تمسّك بها بثبات، ومن خلالها نما فنّه حتى أصبح على ما هو عليه الآن. وإذا أردنا أنْ نتعرَّف على عبقريّة هينز الخاصّة، فيجب أنْ نعتمد بشكل رئيسي على تلك الصِّفة الغريبة والمحيِّرة، «الحُسن»، التي لم

تكن معروفة قبل مجيء هينز في فن العمارة الحديثة. وإنجاز هينز هو الذي جعل من مفهومه الخاص للحُسن صِفة أساسيّة في عصرنا. ومبناه الرئيسيّ ضمن مجموعة بالميرا ذائعة الصيت في شاطئ بالميرا في فلوريدا، كان يُدعى «البارثينون الأميركيّ»....

تقول الفقرة المُعلَّمة بنجمة في أسفل الصفحة:

منذ أنْ كُتِبَتْ هذه المقالة، عُيِّنَ السيد هينز عُضواً في اللجنة الاستشاريّة لمشروع سدّ ألبرتا في كندا. ويقول: إنَّ الجسور دائماً تُثير اهتمامه وهو يعتقد أنَّ الانهماك في هذا المشروع على مدى السنوات الثلاث التالية سوف يسعده.

قال: «يُسعدني». كيف توصّلوا إلى استخدام هذه الكلمة؟

كانت الساعة تدقّ التاسعة عندما اجتازت سيارة الأجرة التي يستقلّها غاي طريق هيوستن العامّة وكان غاي قد عثر على اسم أوين ماركمانْ في دليل الهاتف في المطار، ثم أحضر حقائبه واستقلَّ سيارة أجرة. قال في نفسه: لنْ تكون المهمّة سهلة. لا يمكنكَ أنْ تصل عند الساعة التاسعة مساءً وتجده في المنزل، وحده، وراغباً في الجلوس على كرسي وفي الإصغاء إلى رجلٍ غريب. لنْ تجده في المنزل، أو لعلّه لم يعُد يسكن هناك، أو ربما لم يعُد يُقيم في هيوستن أصلاً قد يستغرق الأمر أياماً عديدة.

قال غاي: «توقّف عند هذا الفندق».

ترجّلَ غاي وحجز غرفة. هذا العمل التافه، المُقتصِد، جعله يشعر بتحسّن.

لم يكن أوين ماركمان يُقيم في عنوان شارع كليبرن. كان العنوان عبارة عن مبنى من الشقق السكنيّة الصغيرة. نظر إليه سكّان الطابق السفليّ، وبينهم مدير المبنى، بارتياب ولم يمدّوه إلّا بأقل ما يمكن من المعلومات. لا أحد كان يعرف مكان أوين ماركمان.

أخيراً سأله المدير: «هل أنتَ من رجال الشرطة؟».

ابتسم رُغماً عنه. قال: «كلا».

بينما كان يشقّ طريقه إلى الخارج استوقفه رجلٌ على الدَّرَج، وبهيئة

التردُّد الحذر نفسها، أخبره بأنه ربما يستطيع أنْ يعثر على ماركمان في مقهى معيَّن في قلب المدينة.

وأخيراً، عثر غاي عليه في إحدى الصيدليات العامة، كان جالساً على النضد مع امرأتين لم يُقدّمهما إليه. اكتفى أوين ماركمان بترك مقعده والوقوف باعتدال، وعيناه البنّيتان متّسعتان قليلاً. بدا وجهه الطويل مُتعباً أكثر وأقلّ وسامة مما تذكّره غاي. أقحمَ يديه الكبيرتين بحذر داخل جيبيّ سترته الجلديّة القصيرة الطويلين.

قال غاي: «أنتَ تتذكّرني».

«أعتقد ذلك».

«هل تمانع في أنْ أتحدث معك؟ قليلاً فقط». تلفّتَ غاي حوله. رأى أنَّ من الأفضل دعوته إلى غرفته في الفندق. «لديّ غرفة هنا في فندق رايس».

أخذ ماركمان يتفحّص غاي ببطء من جديد، وبعد فترة صمت طويلة قال: «لا بأس».

لدى مروره بصندوق المُحاسبة، رأى غاي رفوفاً من زجاجات المشروب. ربما من قبيل حُسن الضيافة أنْ يُقدِّم مشروباً لماركمان: «أتحب الويسكي؟».

استرخى ماركمان قليلاً عندما اشترى غاي المشروب: «لا بأس بالكوكا كولا، لكنَّ مذاقها يكون أفضل مع إضافة شيء آخر».

اشترى غاي أيضاً بعض زجاجات الكوكا كولا.

ركبا سيارة إلى الفندق في صمت، واستقلا المصعد ودخلا الغرفة في صمت. تساءل غاي: كيف يمكن أنْ يبدأ. هناك بدايات كثيرة. استبعدها غاي كلّها.

جلسَ أوين على الأريكة، وقسَّمَ وقته بين تفحّص غاي بارتياب لا مبالٍ، والاستمتاع بالشرب من كأس الويسكي الطويلة والكوكا كولا.

باشر غاي متلعثماً: «إنَّ ما-».

سأله أوين: «ماذا؟».

«ماذا تفعل إذا عرفتَ الشخص الذي قتل ميريام؟».

ضربتْ قدم ماركمان الأرض بصوت مكتوم، واعتدلَ في جلسته. وشكّل حاجباه المُتجهّمان خطّاً أسود كثيفاً فوق عينيه. «أعرفته؟».

«كلا، لكنني أعرف الرجل الذي يعرفه».
«مَنْ هو؟».
تساءلَ غاي: بمَ كان يشعر وهو جالس هناك متجهِّماً بالكراهية؟ بالاحتقار؟ أم بالغضب؟ «أنا أعرفه، وسوف تعرفه الشرطة قريباً جداً». تردَّد غاي. «إنه رجل من نيويورك اسمه تشارلز برونو مات بالأمس غرقاً».
استرخى أوين في جلسته ورشفَ رشفة من مشروبه: «كيف عرفت؟ هل اعترف؟».
«أنا أعرف. كنتُ أعلم منذ بعض الوقت ولهذا السبب شعرتُ بأنَّ الذنب ذنبي. لأنني لم أفشِ أمره». ورطَّبَ شفتيه. كان شيئاً صعباً في كل مقطع منه. ولماذا كشف عمّا لديه بحذر شديد، شيئاً فشيئاً؟ أين ذهبت أوهامه كلها، والمتعة المُتخيّلة وراحة إفشاء كل شيء من دون تفكير؟ «لهذا السبب ألوم نفسي. أنا -» وأسكته هزّ أوين كتفيه بلا مبالاة. وراقب أوين وهو يرشف ما تبقّى في كأسه، ثم قام غاي بحركة آليّة وأعدَّ مزيجاً آخر له. كرَّر القول: «لهذا السبب ألوم نفسي ويجب أنْ أسرد عليك الظروف. كان شيئاً شديد التعقيد. في الحقيقة، لقد قابلتُ تشارلز برونو على متن القطار، وأنا في طريقي إلى ميتكالف. في القطار في شهر حزيران، قُبيل مقتلها. كنتُ قادماً لكي أحصل على طلاقي منها»، ازدردَ لعابه ها هي ذي، الكلمات التي لم يبُح بها لأحد من قبل، باح بها بملء إرادته، وبدتْ الآن عاديّة جداً، بل وشائنة جداً. كان في حنجرته خشونة لم يتمكّن من التخلّص منها. دقَّقَ غاي النظر في وجه أوين الطويل، والمُبهَم والمُنتبه. كان التجهّم قد خفَّ عندئذٍ ووضع أوين ساقاً فوق ساق من جديد، وتذكّرَ غاي فجأة حذاء العمل المصنوع من جلد الغزال. كان أوين قد انتعله في جلسة التحقيق. كان حذاءً بسيطاً بنيّ اللون مع قطعتين جانبيتين مطّاطتين. «» و -»
حثّه أوين: «نعم».
«وأخبرتُه باسم ميريام قلتُ له إنني أكرهها. وكانت لدى برونو خطّة لارتكاب جريمة قتل، جريمة قتل مزدوجة».
همس أوين: «يا إلهي!».
كلمة «يا إلهي» ذكّرته ببرونو، وفي الحال خطرت على بال غاي فكرة رهيبة، رهيبة جداً، وهي أنّه يمكن أنْ ينصب شَركاً لأوين يُشبه الشَّرَك الذي كان برونو

قد نصبه له، والذي يمكن لأوين بدوره أنْ ينصبه لشخص غريب آخر وهذا الأخير ينصب شركاً آخر لشخص غريب، وهكذا دواليك في تسلسلٍ لا ينتهي من الواقِعين في الشرك والناصِبين له. هزَّ غاي كتفيه استخفافاً وشدَّ قبضتيّ يديه. «خطئي الذي ارتكبتُه هو أنني تكلّمْت معه، خطئي كان أنني أخبرتُ شخصاً غريباً شأناً خاصاً بي».

«وأخبركَ بأنّه سيقتلها؟».

«كلا، طبعاً لا. كانت مجرد فكرة جالتْ في ذهنه. كان مجنوناً، مُضطرباً عقليّاً. قلتُ له أنْ يخرس وأنْ يذهب إلى الجحيم وتخلَّصتُ منه!» كان قد عاد إلى المقصورة، التي كان قد غادرها لكي يذهب إلى الرصيف، لأنه سمع قرعاً قويّاً على باب القطار. قال في نفسه: تخلّص منه!.

«أنت لم تطلب منه أنْ يقتلها».

«كلا. وهو لم يقُل إنه سيقتلها».

«لِمَ لا تشرب جرعة طويلة؟ لِمَ لا تجلس؟» أعاد صوت أوين البطيء، الأجش، الهدوء إلى جوّ الغرفة من جديد. كان صوته أشبه بصخرة قبيحة الشكل، راسخة على أرضٍ جرداء.

لم يرغب في الجلوس، ولم يرغب في الشرب. كان قد شربَ ويسكي كهذا في مقصورة برونو. كانت تلك هي النهاية ولم يُرِد لها أنْ تكون كالبداية. لمسَ كأس الويسكي مع الماء الذي كان قد أعدَّه لنفسه فقط من باب التهذيب. وعندما استدار، رأى أنَّ أوين يصبّ المزيد من المشروب في كأسه، واستمر في الصبّ، وكأنّه يُبيِّن لغاي أنّه لم يكن يُحاول أنْ يفعل ذلك من وراء ظهره.

قال أوين بلسان رخو: «حسن، إنْ كان الرجل مجنوناً كما تقول – وهذا كان رأي المحكمة في الختام، أيضاً، أليس كذلك، أي إنّه لا بدّ مجنون؟».

«نعم».

«أعني، أنا أتفهَّم حتماً شعورك بعد ذلك، ولكن إنْ كان ما جرى هو مجرد حديث كما تقول، لا أفهم لِمَ تضع اللوم على نفسك إلى هذه الدرجة».

كان غاي يُحدِّق إليه غير مُصدِّق. أليس لدى أوين من الاهتمام أكثر من هذا يُبديه؟ ربما لم يفهم تماماً. «ولكن في الواقع–».

«ومتى اكتشفتَ الأمر؟» بدا الارتخاء على عينيّ أوين البنيّتين.

«بعد حدوثه بحوالي ثلاثة أشهر، ولكن في الواقع، لولاي، لكانت ميريام لا تزال حيّة الآن». راقبَ غاي أوين وهو يُخفِض شفتيه إلى الكأس من جديد. كاد يتذوّق المزيج غير المتناسِق والمُثير للتقزّز لكوكا كولا والويسكي داخل فم أوين الواسع. ماذا ينوي أوين أنْ يفعل؟ هل سيقفز فجأة ويُطيح بالكأس، ويخنقه كما خنقَ برونو ميريام؟ لم يستطع أنْ يتخيّل أنَّ أوين سوف يستمر في الجلوس هناك، لكنَّ اللحظات مرَّتْ ولم يُبدِ أوين أيّة حركة. ألحَّ غاي «في الواقع، كان ينبغي أنْ أخبرك. لقد اعتبرتُ أنكَ الشخص الوحيد الذي يمكن أنْ أجرحه، والوحيد الذي يتألَّم. والطفل الذي حَمَلتْه كان منك. وكنتَ تنوي أنْ تتزوَّجها وأحببْتَها. وأنتَ الذي–».

«اللعنة، أنا لم أحبّها»، ونظر أوين إلى غاي من دون أنْ يطرأ أي تغيير على قسمات وجهه.

وبادله غاي التحديق. قال غاي في نفسه: لم يُحبّها، لم يُحبّها. تراجع ذهنه مترنّحاً، مُحاولاً أنْ يُعيد ترتيب كل معادلات الماضي التي لم تعد متوازنة. قال: «ألم تُحبّها؟».

«كلا. حسن، ليس كما تعتقد. أنا حتماً لم أرِدْ موتها – وأفهم، لقد كنتُ مستعداً أنْ أفعل أي شيء لمنع حدوثه، لكنني كنتُ سعيداً لعدم اضطراري إلى الزواج منها. لقد كان الزواج فكرتها هي ولهذا حملتْ الطفل. لن أقول إنَّ هذا ليس خطأ الرجل. هل تقول أنت؟» كان أوين ينظر إليه بجديّة مُضطربة، وينتظر، ولا يزال فمه الواسع يرسم خطّاً صارماً غير منتظم كما كان في جلسة الشهادة، ينتظر أنْ يقول غاي شيئاً، أنْ يُصدر حكماً على سلوكه مع ميريام.

أشاح غاي بوجهه بإيماء نزق مُبهم، لم يستطع أنْ يُحقّق توازن المعادلات. لم يستطع أنْ يجعلها مفهومة، ما عدا كونها مفارقة مُثيرة للسخرية. ليس هناك أي سبب لوجوده هنا الآن، ما عدا لسبب مُثير للسخرية. وليس هناك من سبب لتصبّبه بالعرق، ولتعذيب نفسه المؤلِم في غرفةٍ في فندقٍ لفائدة شخصٍ غريبٍ لا يأبه، إلّا لسببٍ مُثير للسخرية.

تابع أوين قائلاً: «أتظنّ ذلك؟»، ومدَّ يده ليتناول الزجاجة عن الطاولة المُجاورة له.

لم يستطع غاي أنْ يدفع نفسه إلى قول أيّ كلمة. كان غضبٌ عارم، أخرس،

يمور داخله. أرخى ربطة عنقه وفتح ياقة قميصه، وألقى نظرة إلى النوافذ المفتوحة بحثاً عن جهاز تكييف للهواء.

هزَّ أوين كتفيه استخفافاً بدا مُرتاحاً جداً بقميصه مفتوح الياقة وسترته الجلديّة مفتوحة السحّاب. وكان لدى غاي رغبة غير عاقلة على الإطلاق في أنْ يُقحِم شيئاً في حنجرة أوين، في ضربه وسحقه، وفوق ذلك كلّه في انتزاعه عن كرسيه الذي يجلس عليه بارتياحٍ راضٍ.

باشر غاي بالقول بهدوء: «اسمع – أنا».

لكنَّ أوين كان قد بدأ يتكلَّم في اللحظة نفسها، وتابعَ، برتابة، من دون أنْ ينظر إلى غاي الذي وقفَ في وسط الغرفة وفمه ما زال فاغراً. «... في المرة التالية، تزوجتُ مدة شهرين بعد طلاقي، ووقعتْ المشاكل في الحال. ولا أعلم إنْ كانت ميريام ستكون مختلفة، ولكن في رأيي أنها كانت ستكون أسوأ. وتركتني لويزا وغادرت قبل شهرين بعد أنْ أضرمتْ النار في المنزل المؤلَّف من شقّة كبيرة»، تابع برتابة، وصبَّ المزيد من الويسكي في كأسه من الزجاجة التي عند مِرفقه، وشعر غاي باحتقار، وبتحدٍّ واضحٍ موجّه ضدَّه، للطريقة التي صبَّ بها أوين المشروب لنفسه. وتذكَّرَ غاي سلوكه الخاصّ في أثناء التحقيق، سلوك غير لائق، بأقلّ تقدير، مع زوج الضحيّة. ما الذي يدعو أوين إلى احترامه؟ «إنَ الشيء الفظيع هو أنَّ الرجل ينال الأسوأ، لأنَّ المرأة تتكلَّم أكثر. لديك لويزا، على سبيل المِثال، في استطاعتها أنْ تعود إلى تلك الشقّة السكنيّة وسوف يُرحّبون بها، ولكن دعني من ناحيتي–».

قال غاي، الذي لم يعد يتحمّل أكثر من ذلك: «اسمع! أنا – أنا قتلتُ شخصاً، أيضاً! أنا قاتل، أيضاً!».

هبطت قدما أوين إلى الأرض من جديد، ونهضَ واقفاً من جديد، بل إنّه نقل بصره من غاي إلى النافذة ومن ثم إليه من جديد، وكأنّه فكّرَ في الهرب أو في اضطراره إلى الدفاع عن نفسه، لكنَّ ارتسام تعبير الدهشة والرعب المرتبك كان ضعيفاً جداً، وفاتراً، إلى درجة أنّه بدا مُحاكاةً ساخرة بحدّ ذاتها، وكأنّه يُحاكي بسخرية جدّية غاي. وأوشكَ أوين أنْ يوضع كأسه على الطاولة ومن ثم امتنع عن ذلك. سألَ: «كيف ذلك؟».

هتفَ غاي من جديد: «اسمع! اسمع، أنا محكوم بالموت. إنني بحكم

الميّتْ منذ الآن، لأنني سوف أُسلِّم نفسي في الحال! لأنني قتلتُ رجلاً، أتفهم؟ لا تنظر إليّ هكذا بلا أي اهتمام، ولا تجلس باسترخاء هكذا على ذلك الكرسي من جديد!».

«ولِمَ لا أجلس على ذلك الكرسي باسترخاء؟». كان أوين قد قبضَ على كأسه بكلتيّ يديه، وكان قد ملأها تواً بالكوكا كولا والويسكي.

«ألا يعني لكَ أيّ شيء أنْ أكون قاتلاً وأنّني أنهيتُ حياة رجل، وهو شيء لا يحقّ لأي كائن بشريّ أنْ يفعله؟».

ربما أومأ أوين برأسه، أو لم يومئ. على أيّة حال، عاد إلى الشرب من جديد، وببطء.

حدَّقَ غاي إليه. بدا أنَّ الكلمات، الشبكة المُعقّدة من آلاف وآلاف الكلمات التي لم تُنطَق، تحتشد حتى في دمه، وتَبعثُ أمواجاً من الحرارة لكي ترفع ذراعيه عن يديه المتشابكتين معاً. كانت الكلمات هي لعنات على أوين، كانت جُملاً وفقرات من الفوضى كتبها في صباح ذلك اليوم، وهي الآن تختلط لأنَّ الأحمق الثمل الجالس على الأريكة لا يريد أنْ يسمعها. كان الأحمق الثمل مُصمّماً على أنْ يبدو لا مبالٍ. لم يعتقد أنّه بدا قاتلاً، بقميصه الأبيض الناصِع قصير الكمّين وربطة عنقه الحرير وبنطلونه الأزرق القاتم، وربما حتى وجهه متوتّر القَسَمات لم يبدُ أنّه وجه قاتل لأي شخص آخر. قال غاي بصوتٍ مرتفع: «هذا هو الخطأ، أي أنَّ لا أحد يعرف كيف يبدو القاتل. إنَّ القاتل يبدو كأي شخصٍ آخر!» ووضع ظاهر قبضة يده على جبينه ومن ثم أنزلها من جديد، لأنه علِمَ أنَّ الكلمات الأخيرة قادمة، ولم يستطع أنْ يوقِفها. كان شيئاً جديراً بالضبط ببرونو.

ذهبَ غاي بسرعة ليُعدّ لنفسه مشروباً، مشروباً قوياً وكبيراً، وجَرَعَه دفعةً واحدة.

غمغمَ أوين: «يسعدني أنْ يكون معي رفيق في الشرب». جلس غاي على السرير المُرتَّب، ذي الغطاء الأخضر قِبالة أوين وفجأة شعر بالتعب. باشر بالقول من جديد: «ألا يعني أيّ شيء، ألا يعني لك أيّ شيء؟».

«أنتَ لستَ أول رجل أقابله قتل رجلاً آخر، أو امرأة» وقهقه. «يبدو لي أنَّ هناك الكثير من النساء ينجون من ذلك».

«أنا لن أنجو وأنا لستُ حرّاً لقد نفّذتها بدمٍ بارد ولم يكن لديّ دافع. ألا ترى

أنَّ هذا قد يزيد الطين بِلّة؟ لقد نفّذتها لأنَّ -» أراد أنْ يقول إنّه نفّذها لأنَّ في داخله ذلك المقدار من الانحراف الكافي لتنفيذها، وأنّه نفّذها بسبب الدودة التي تنخر الخشب، وأنّه كان يعلم أنَّ ذلك لن يعني شيئاً لأوين، لأنَّ أوين رجلٌ عمليّ. كان أوين عملياً جداً، ولن يُزعج نفسه بضربه، أو بالهرب منه، أو بالاتصال بالشرطة، لأنَّ من الأسهل بكثير أنْ يجلس على كرسي.

هزَّ أوين رأسه وكأنّه أخذ بعين الاعتبار وِجهة نظر غاي. وانخفضَ جفناه إلى منتصف عينيه، ثم دار حول نفسه ومدَّ يده نحو شيءٍ ما يضعه في جيب فخذه، علبة تبغ. وأخرجَ ورقة لفّ سجائر من جيب صدر قميصه.

راقبَ غاي العمليات التي يقوم بها طوال ما بدا ساعات طويلة من الزمن. قال غاي وهو يُقدِّم له مما في حوزته من سجائر: «خُذْ».

نظر أوين إليها بارتياب: «من أي نوعٍ هذه؟».

«كنديّة. إنها جيدة جداً. جرِّب واحدة».

«شكراً لك أنا-» أغلقَ أوين العلبة بأسنانه-: «أفضّل النوع الذي أستخدمه» وأمضى ما يُقارب الثلاث دقائق في لفّ السيجارة.

«إنَّ هذا أشبه بإشهار مُسدّس في وجه شخص في المتنزَّه العام وإطلاق النار عليه». وتابع غاي، مُصمماً على المُتابعة، على الرغم من أنّه بدا كأنّه يتكلّم مع شيء غير حيّ، كأنّه جهاز ديكتافون جالسٍ على كرسيّ، مع فارقٍ هو أنَّ كلمات غاي لا يبدو أنّها تنفذ بأي شكل. ألا يخطر على بال أوين أنَّ في استطاعته أنْ يشهر مسدساً في وجهه الآن وهما في غرفة الفندق هذه؟ قال غاي: «لقد دُفِعتُ إلى ذلك دفعاً. هذا ما سأخبر الشرطة به، لكنّه لن يُغيِّر أيّ شيء، لأنّ المهم هو أنني نفّذتُ الجريمة. ويجب أنْ أخبرك بخطّة برونو». على الأقل كان أوين ينظر إليه الآن، لكنَّ وجهه بدا في الواقع، بغضّ النظر عن كونه مُستغرقاً في التفكير، كأنّه يحمل تعبيرَ انتباهٍ ثمل، ومُهذّب وجميل. رفضَ غاي أنْ يسمح لهذا أنْ يُسكته. «كانت فكرة برونو هي أنْ يقتل كلٌّ منا لصالح الآخر، أنْ يقتل هو ميريام وأنا أقتل والده. ثم جاء إلى تكساس وقتل ميريام، من خلف ظهري. من دون عِلمي أو أخذ موافقتي، أتفهم؟» كان اختياره للكلمات شنيعاً، لكنَّ أوين كان على الأقلّ يُصغي. على الأقلّ كانت الكلمات تخرج منه. «لم أكنْ أعلم هذا، بل لم أشكّ فيه - ليس جديّاً. حتى بعد مرور أشهر طويلة، ثم بدأ يتعقّبني بدأ يُخبرني بأنّه

سوف يضع لوم موت ميريام عليّ، إلّا إذا نفّذتُ باقي الخطّة اللعينة، أتفهم؟ أي أنْ أقتل والده. كانت الفكرة كلها قائمة على أساس أنّه لا يوجد سبب لارتكاب جريمتيّ القتل. لا دوافع شخصيّة. ولذلك لا يمكن اقتفاء أثرنا، كلّ على حِدة. شريطة ألّا نتقابل. لكنَّ هذه مسألة أخرى. والمهم هو، أنني قتلته. انهرتُ. لقد عمل برونو على انهياري بالرسائل وبالابتزاز وبحرماني من النوم. ودفعني إلى حافة الجنون أيضاً، ثم اسْمع، أعتقد أنَّه يمكن لأي رجل أنْ ينهار. وكنتُ قابلاً للانهيار. وبتوفّر ظروفٍ مُشابهة، كان في وسعي أنْ أدفعك إلى الانهيار وأجعلك تغتال شخصاً ما. كان الأمرُ سيتطلّب أساليب مختلفة عن تلك التي طبّقها عليّ، ولكن يمكن تنفيذ الأمر. أي شيء آخر في اعتقادك يحافِظ على استمرار الدول الدكتاتوريّة؟ أم أنكَ توقفتَ عن التساؤل حول مثل هذه الأشياء، يا أوين؟ على أيّة حال، هذا ما سأخبر به رجال الشرطة، لكنّه ليس بالأمر الهامّ، لأنهم سيقولون إنه ما كان ينبغيّ أنْ أنهار.

لن يكون هامّاً، لأنهم سيقولون إنني ضعيف. لكنني لا آبه الآن، أتدرك هذا؟ في استطاعتي أنْ أواجه أي شخص الآن، أتدرك هذا؟ «ومال لكي يُحدِّق إلى وجه أوين، لكنَّ أوين بدا كأنّه لا يراه البتّة. كان رأس أوين يميل بارتخاء جانباً، مُستقراً على يده. وقفَ غاي مُنتصِب القامة لم يستطع أنْ يجعل أوين يفهم، وشعر بأنَّ أوين لا يفهم على الإطلاق النقطة الأساسيّة، ولكنْ هذا أيضاً لم يكن أمراً هامّاً.» سوف أتقبّل أي شيء يفعلونه بي، سوف أقول الشيء نفسه للشرطة غداً».

سأله أوين: «ألديك إثبات؟».

«إثبات ماذا؟ ماذا هناك يتطلّب الإثبات في قتلي رجلاً؟».

انزلقَتْ الزجاجة من بين أصابع أوين وسقطتْ على الأرض، لكنّها لم تكن تحتوي الآن مقداراً يستحق الذكر بحيث إنّه لم يُرَق منها شيئاً. سأله أوين: «ألستَ مهندساً معماريّاً؟ تذكّرتُ الآن». وعدَّلَ من شأنْ الزجاجة بحركة خرقاء، وتركها على الأرض.

«ما أهميّة هذا؟».

«كنتُ أتساءل».

سأله غاي بنزق: «تتساءل حول ماذا؟».

«لأنكَ تبدو متأثّراً قليلاً – إذا أردتَ رأيي الصادق. أنا لا أقول إنكَ كذلك».

كان خلف التعبير المُبهَم الصادر عن أوين الآن حذرٌ بسيط من أنْ يقترب غاي منه ويضربه بسبب تعليقه. وعندما رأى أنَّ غاي لم يأتِ بأيّة حركة، استرخى على كرسيه من جديد أكثر من ذي قبل.

حاول غاي أنْ يعثر على فكرة صلبة يُقدِّمها لأوين. لم يرغب في أنْ يغادر جمهوره غير مُبالٍ. «اسمع، ما شعورك تجاه رجال تعرف أنهم قتلوا شخصاً ما؟ كيف تُعاملهم؟ كيف تتصرف معهم؟ هل تقضي النهار معهم كما تفعل مع أي شخصٍ آخر»؟.

بدا أوين، تحت نظرة غاي المتفحِّصة، أنّه يُحاول أنْ يفكِّر. وأخيراً قال مع ابتسامة، وهو يطرف بعينيه بارتياح: «عِش ودع غيرك يعيش».

من جديد استحوذ الغضب عليه. وللحظة من الزمن، بدا أشبه بملْزَمة حارّة، قابضة بإحكام على جسده وعقله. لم يجد الكلمات المناسِبة لتعبِّر عن مشاعره أو كان هناك كمّ هائلٌ من الكلمات ليبدأ بها. ثم تشكّلتْ كلمة من تلقاء ذاتها وخرجت من بين أسنانه: «أحمق!».

تململَ أوين قليلاً على كرسيه، لكنَّ سكونه بقيَ هو المُسيطر. وبدا متردِّداً بين الابتسام والتجهّم. سألَ بحزم: «ما شأني أنا بهذا؟».

«شأنك؟ لأنكَ – لأنك جزءٌ من المجتمع!».

أجابَ أوين وهو يلوِّح بحركة كسلى بيده: «حسنٌ، إذن هو شأن المجتمع». كان ينظر إلى زجاجة الويسكي، التي لم يتبقَّ فيها إلّا مقدار بوصة ونصف.

قال غاي في نفسه: أي شأن. أهذا هو موقفه الحقيقيّ، أم أنّه ثمل؟ لا بدّ أنّه موقف أوين. ليس لديه الآن سبب واحد ليكذب. ثم تذكَّرَ أنّه موقفه الخاصّ عندما اشتبه في برونو، قبل أنْ يبدأ برونو بمطاردته. أكان ذلك هو موقف معظم الناس؟ إذا لم يكن كذلك، فمَنْ هو المجتمع؟.

أدار غاي ظهره لأوين، كان يعلم جيداً مَنْ هو المجتمع. لكنَّه أدرك أنَّ المجتمع الذي فكَّر فيه فيما يتعلَق به هو القانون، هو القواعد الصارمة. القانون هو أناسٌ من أمثال أوين، ومن أمثاله، أناسٌ من أمثال – بريلارت، على سبيل المثال، في بالم بيتش. هل كان بريلارت سيشي به؟ كلا. لا يمكنه تصور بريلارت يشي به. كل شخص يُحيل الأمر إلى شخصٍ آخر، وهذا بدوره يُحيله

إلى شخصٍ آخر، ولا أحد ينفّذ الأمر. هل كان يأبه للقوانين؟ أليس أحد تلك القوانين هو الذي ربطه بميريام؟ أليس الذي اغتيل هو شخص، وبالتالي هو الناس الذين لهم أهمّية؟ إنْ كان الناس بدءاً بأوين وانتهاءً بريلارت لا يأبهون بالقدر الكافي ليشوا به، فهل عليه أنْ يأبه أكثر منهم؟ لِمَ اعتقد في صباح ذلك اليوم أنّه أراد أنْ يُسلِّم نفسه للشرطة؟ أيّة نزعة مازوشيّة هذه؟ لا يمكن أنْ يُسلِّم نفسه. ماذا لديه، ماديّاً، ضد ضميره الآن؟ أي كائن بشري يمكن أنْ يشي به؟.

قال غاي: «يمكن لمُخبِرٍ أنْ يشي إلّا بمُخبر آخر».

وافقه أوين «هذا صحيح. مُخبِر سافل وقذر»، وأطلقَ ضحكةَ ارتياحٍ عالية.

كان غاي يُحدِّق إلى الفضاء، متجهِّماً، يُحاول أنْ يعثر على أساسٍ متين قادرٍ على حمله إلى شيء كان قد شاهده كومضٍ من الضوء، على مسافة بعيدة أمامه. كان يقول أولاً، إنَّ القانون ليس هو المجتمع، إنَّ المجتمع هو أناس من أمثاله وأمثال أوين وبريلارت، ليس لهم الحق في انتزاع حياة عضو آخر في المجتمع. ومع ذلك هذا ما فعله القانون. «ومع ذلك من المُفترَض بالقانون أنْ يمثّل إرادة المجتمع على الأقلّ. وهو ليس هذا فقط»، ثم أضاف، «أو ربما هو كذلك في مجمله»، مُدرِكاً أنّه كعادته دائماً يتراجع قليلاً قبل أنْ يدخل في صلب الموضوع جاعلاً الأمور شديدة التعقيد بمُحاولته جعلها مؤكَّدة.

غمغمَ أوين: «هممم – م؟». كان رأسه مُستنداً على ظهر الكرسي، وشعره الأسود أشعث فوق جبينه، وعيناه شبه مُغمضتين.

«كلا، إنَّ الناس كجماعة قد يُصدرون حكم الإعدام بلا مُحاكمة على قاتل، ولكن هذا بالضبط ما يُفترَض بالقانون أنْ يأخذ حذره منه».

قال أوين: «لا ينبغي إقرار الإعدام من دون مُحاكمة. إنّه ليس أمراً صائباً! إنّه يجلب سوء السمعة على الجنوب كلّه – ليس بالضرورة».

«ما أرمي إليه هو أنّه إنْ لم يكن للمجتمع حق في انتزاع حياة شخص آخر، إذن ليس للقانون أيضاً الحقّ في ذلك. أعني، مع الأخذ بعين الاعتبار أنَّ القانون هو كتلة من الأنظمة مُدوَّنة ولا يستطيع أحد أنْ يتدخّل فيها، ولا يمكن لمخلوقٍ بشريّ أنْ يلمسها، لكنَّ القانون يتعامل مع الكائنات البشريّة، أولاً وقبل كل شيء. وأنا أتحدث عن أناسٍ مثلي ومثلك. خُذ حالتي بوجه خاصّ. في الوقت الراهن، أنا أتحدث فقط عن حالتي. ولكن هذا مجرد منطق. أتعلم، يا أوين؟ إنَّ

المنطق لا ينفع، ما دام الأمر يتعلَّق بالناس. الأمر يسير على ما يُرام وأنت تقوم بإنشاء الأبنية لأنَّ المادّة حينئذٍ هي التي تتصرَّف، ولكن -» تصاعدَ نقاشه كما الدخان. كان هناك جدارٌ منعه من إضافة أي كلمة أخرى، لأنه ببساطة لم يتمكن من التفكير أكثر من ذلك. لقد تكلَّم بصوت مرتفع وواضح، لكنّه كان يعلم أنَّ أوين لم يكن حتى يسمع، حتى وإنْ كان يُحاول أنْ يُصغي ومع ذلك كان أوين، قبل خمس دقائق، غير مبالٍ بمسألة إحساسه بالذنب. قال غاي: «أتساءل، ماذا كان قرار هيئة التحكيم».

«أي هيئة تحكيم؟».

«سواء أكانت هيئة التحكيم مؤلَّفة من اثني عشر كائن بشريّ أم مجموعة من القوانين فهي نقطة مُثيرة للاهتمام وأعتقد أنها دائماً نقطة مُثيرة للاهتمام»، وصبَّ لنفسه ما تبقّى في الزجاجة في كأسه وشربه. «ولكن لا أعتقد أنكَ تجدها هامّة، أليس كذلك يا أوين؟ ما هو الشيء المُثير لاهتمامك؟».

رانَ الصمت على أوين وبقيَ ساكناً.

«إذن لا شيء يُثير اهتمامك؟» نظر غاي إلى حذاء أوين الكبير البنيّ البالي الممتد بارتخاء على السجادة، وأصابع القدمين منكمشة إلى الداخل على بعضها البعض، لأنها تستقرّ على الكاحلين. وفجأة، بدا أنَّ حماقتهما تمثّل جوهر الحماقة الإنسانيّة برمّتها. وتحوّلتْ في الحال إلى عدائه القديم للحماقة السلبيّة للواقفين في طريق تقدّم عمله، وقبل أنْ يعرف ماذا يفعل ولماذا، رفسَ، بشراسة، جانب حذاء أوين. ومع ذلك، لم يُحرِك أوين ساكناً. قال غاي في نفسه: عمله، نعم، يجب أنْ يعود لمزاولة عمله. فكِّرْ لاحقاً، فكِّرْ في كل شيء لاحقاً، ولكن أمامه عملاً يجب إنجازه.

نظر إلى ساعة يده إنها العاشرة واثنتا عشرة دقيقة لم يرغب في النوم هنا. وتساءلَ إنْ كانت هناك رحلة بالطائرة هذه الليلة. يجب أنْ تكون هناك وسيلة نقل أو قطار.

هزَّ أوين. «أوين، استيقظ. أوين!».

غمغمَ أوين بسؤال ما.

«أعتقد أنكَ ستنام بشكلٍ أفضل في بيتك».

اعتدل أوين في جلسته وقال بوضوح: «أشكّ في هذا».

رفع غاي معطفه الخفيف عن السرير، وتلفّتَ حوله، لكنّه لم يكن قد ترك أيّ شيء لأنه لم يجلب معه أي شيء. قال في نفسه: ربما من الأفضل أنْ أتّصل هاتفياً بالمطار الآن.

نهضَ أوين واقفاً: «أين المرحاض؟ لا أشعر أني بخير».

لم يعثر غاي على الهاتف، ولكن كان هناك سلك بجوار طاولة السرير. اقتفى أثر السلك تحت السرير. كانت سماعة الهاتف مرفوعة والجهاز على الأرض، وعلِمَ في الحال أنّه لم يسقط، لأنّ الجزأين كانا ممدودين إلى آخر السرير، والسمّاعة مُثبّتة على الأريكة حيث كان أوين جالساً. فجرَّ غاي الهاتف ببطء نحوه.

«هيه، أليس هناك مرحاض في أي مكان؟» كان أوين يفتح باب الخزانة.

«لا بدّ أنّه في آخر الرواق». كان صوته مرتعشاً. كان يحمل جهاز الهاتف في وضعيّة جاهزة للاتصال، وحينئذٍ قرَّبه من أُذنه. سمعَ الصمت الذكيّ للسلك الحيّ. قال «ألو؟».

«ألو، سيد هينز». كان الصوت رخيماً، مُهذّباً، وأبعد ما يكون عن الفظاظة.

حاولت يد غاي بلا طائل أنْ تسحق الهاتف، ومن ثم استسلم من دون أنْ ينطق بأيّة كلمة. كأنّ قلعة انهارتْ، كمبنى عظيم يتهاوى في ذهنه، لكنّه تفتّتَ كمسحوق وسقط بصمت.

«لم يكن هناك وقت لتسجيل المكالمة، لكنني سمعتُ مُعظمها وأنا خارج بابك. هل تسمح لي بالدخول؟».

قال غاي في نفسه: لا بدّ أنَّ لجيرارد مُخبرين خاصّين به في المطار في نيويورك، ولحقوا به على متن طائرة مُستأجرة هذا مُحتَمَل وها هي. وكان هو من فرط الغباء بحيث وقَّع باسمه في السجل. قال غاي: «ادخل». وضع سمّاعة الهاتف في مكانها ثم نهضَ واقفاً، بجمود، يُراقبُ الباب. كان قلبه ينبض بقوة كما لم ينبض من قبل، بسرعة كبيرة وبقوة، وفكّرَ أنَّ ذلك حتماً مُقدِّمة لسقوطه ميتاً. قال في نفسه: اركضْ. ثِبْ، واهجم حالما يدخل. هذه فرصتك الأخيرة. لكنّه لم يُحرّك ساكناً. كان يعي بصورة مُبهمة أنَّ أوين يتقيّأ في الحوض في الزاوية خلفه. ثم سُمِعَ قرعٌ على الباب، فذهب إليه مفكّراً، أليس هذا هو المُفترَض أن يحدث، فجأة، بوجود شخص، شخص غريب لا يفهم أيّ شيء، يتقيّأ في الحوض في

ركن الغرفة، بلا استدعاء أفكاره، والأسوأ من ذلك، بعد أنْ جهر بنصفها بشكلٍ مُشوَّش. وفتح غاي الباب.

قال جيرارد: «مرحباً»، ودخل ولا يزال يعتمر قبّعته وذراعاه متدليتان، كما بدا دائماً.

سأل أوين: «مَنْ هذا؟».

قال جيرارد بسهولة: «صديق السيد هينز»، وألقى نظرة إلى غاي بوجهه المستدير الجديّ كعهده دائماً، وغمزه. «أعتقد أنكَ ذاهب إلى نيويورك هذه الليلة، أليس كذلك؟».

كان غاي يُحدّقُ إلى وجه جيرارد المألوف، إلى الشامة الكبيرة التي على وجنته، وإلى العين الحيّة، البرّاقة التي غمزته، التي غمزته من دون أدنى شك. وجيرارد، أيضاً، يمثّل القانون. كان جيرارد يقف في صفّه، كأي شخص، لأنَّ جيرارد كان يعرف برونو. أصبحَ غاي يعلم ذلك الآن، وكأنه كان يعلمُ به طوال الوقت، ولكن لم يخطر في باله من قبل. كان يعلم، أيضاً، أنَّ عليه أنْ يواجه جيرارد. كان هذا جزءاً من كل شيء، ولطالما كان كذلك. كان شيئاً محتوماً ومُقدَّراً، كدوران الأرض، وما من سبيل ليتحرَّر منه.

قال جيرارد: «هه؟».

حاولَ غاي أنْ يتكلَّم، وقال شيئاً يختلف تماماً عمّا كان في نيّته. «اقبِضْ عليّ».